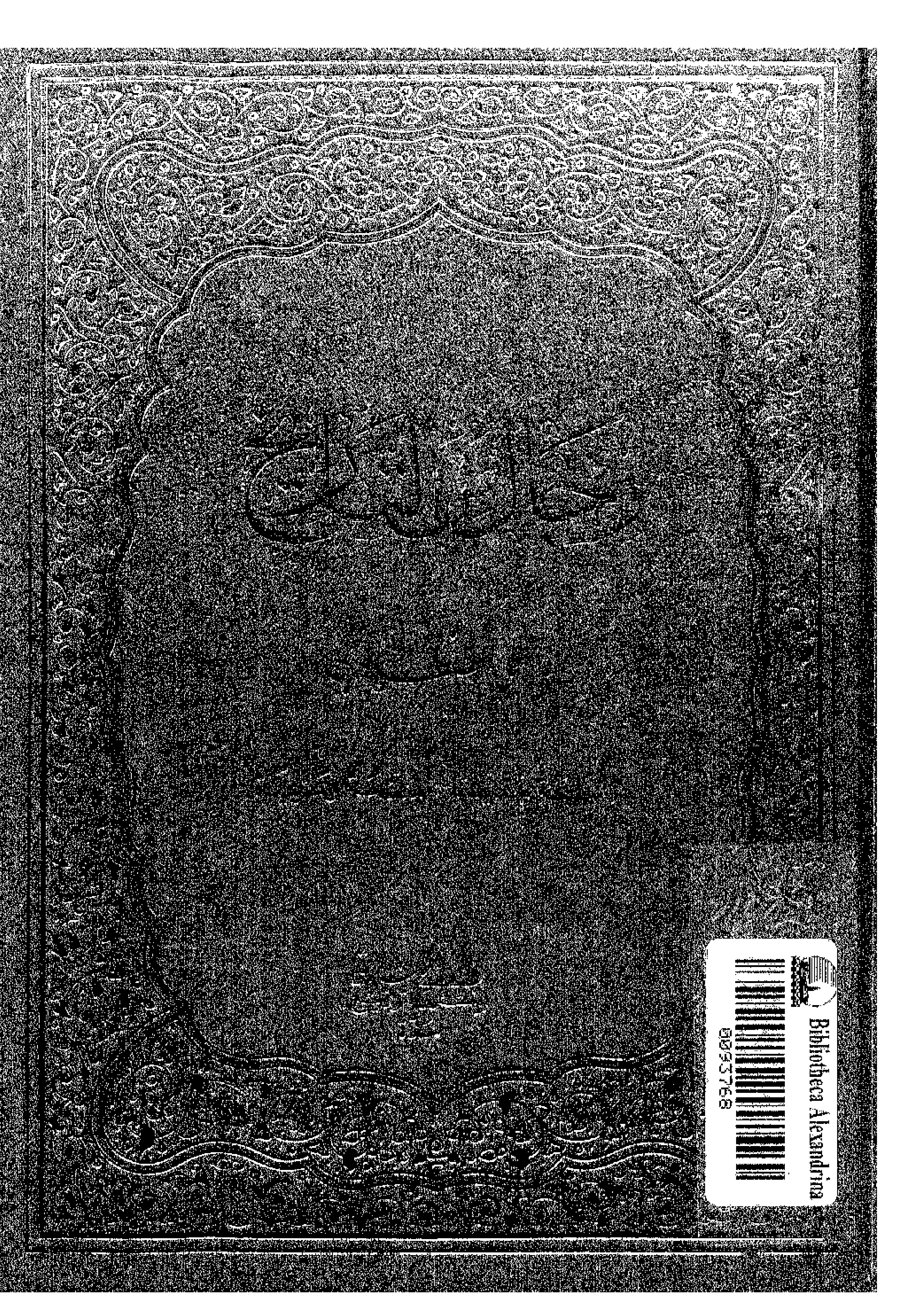
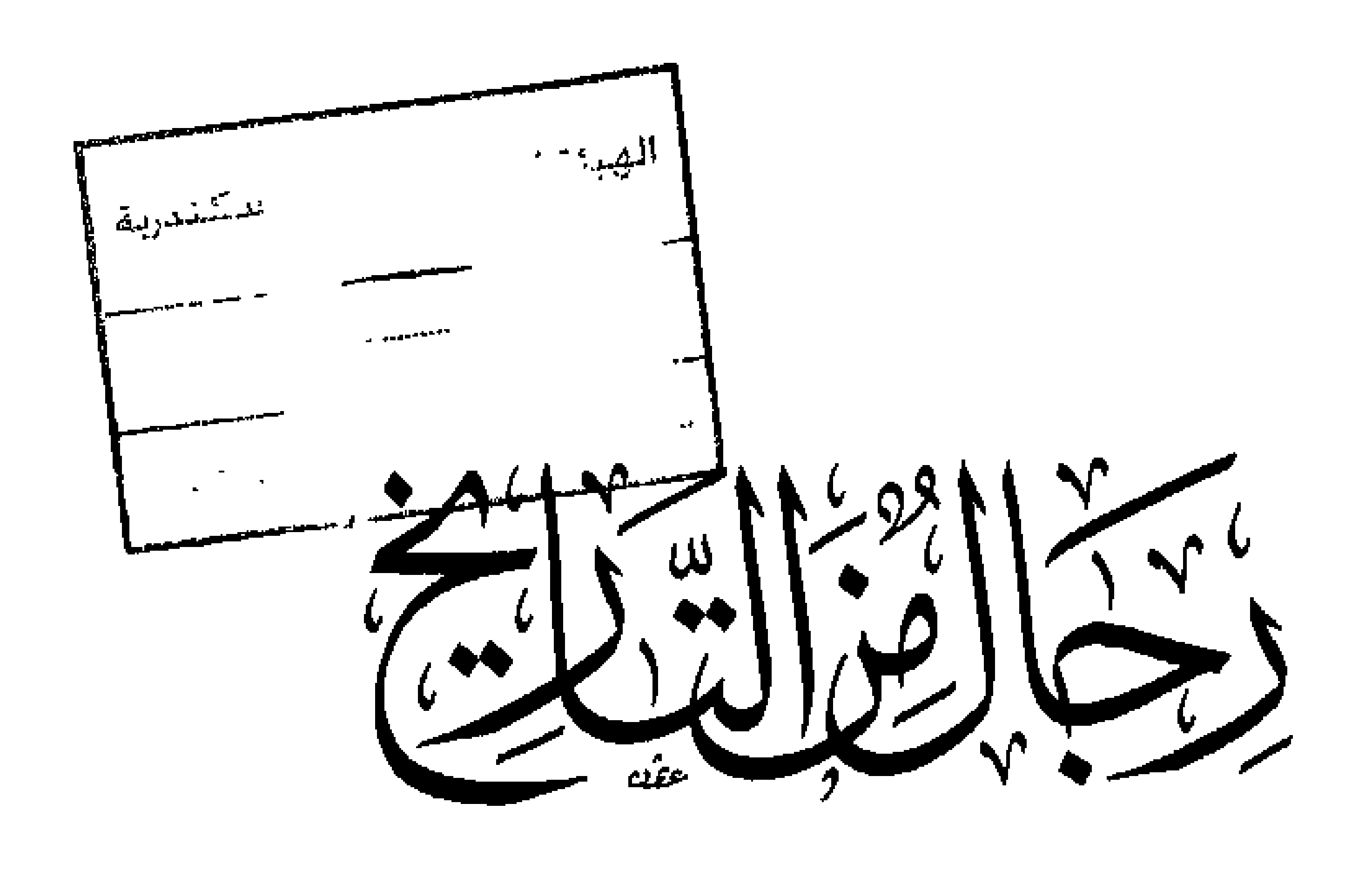

Bibliotheca Alexandrina
0093768


رجال من التاريخ



علي الطنطاوي

طبعة جديدة ، منقّحة ومزيدة

دار المنارة
جدّة

الطبعة الثامنة

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

دار المنارة
للنشر والتوزيع جدة: ٢١٤٣١، ص. ب.: ١٢٥٠.
هاتف: ٦٦٧٥٨٦٤ - ٦٦٠٣٦٥٢ - فاكس: ٦٦٠٣٢٣٨

بين يدي الطبعة الثامنة

بسم الله والحمد لله أقدم هذه الكلمة بين يدي
الطبعة الثامنة من كتاب (رجال من التاريخ) أشكر الله
عليها وأسأله أن ينفع بها وألّا يحرمني ثوابها،
ثم الشكر لدار المنارة التي تولّتها
مكة: صفر ١٤١٠

علي الطنطاوي

بسم الله والحمد لله أقدم هذه الكلمة بين يدي الطبعة الثامنة من كتاب (رجال من التاريخ) أشكر الله عليها وأسأله أن ينفع بها وألّا يحرمني ثوابها، ثم الشكر لدار المنارة التي تولّتها.
مكة: صفر ١٤١٠

علي الطنطاوي

بين يدي الطبعة السابعة

كلُّ ما في هذا الكتاب بقية من أحاديث كانت تذاع لي من دمشق قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة. استمرَّت إذاعتها أعواماً، تعبت في إعدادها كثيراً، واستمتع بها واستفاد منها (من السامعين) كثير، بلغت ثلاثمئة حديث أو تزيد، ضاعت فيها ضاع مما كتبت، وأرجو ألَّا يضيع عند الله ثوابها، إن كتب الله لي بكرمه الثواب عليها.

كنت إذا أردت الحديث عن رجل، قرأت كل ما تصل إليه يدي مما كتب عنه، وقيَّدت في ورقة ما أختار من أخباره، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات، ثمَّ أعمد إلى خبر منها، فأجعله مدخلاً إليها، وأحاول ما استطعت أن اتبع فيها أسلوباً ينأى بي عن جفاف السرد التاريخي، ويخلص من تخيُّل الكاتب في القصة الأدبية، لعلي أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب، فأوفق حيناً، ويجانبني حيناً التوفيق.

وكنت كلَّما أعددت (حديثاً) عن رجل من الرجال، فتح لي الباب للكلام على أقرانه وأمثاله، فحديث عن صلاح الدين يجر إلى آخر عن نور الدين، وحديث عن أبي حنيفة يدفعني إلى آخر عن مالك، ولو أني استمررت أحدث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة، في كل أسبوع حديثاً، وجاء مئة مثلي يصنعون مثل صنعي، لما نفدت أحاديث هؤلاء العظماء الأبطال، وأنا لست من المولعين بجمع الكتب، ورصِّها في الخزائن لأزهى بها، وأفخر بكثرتها، ولا أقتني إلَّا الكتاب الذي أحتاج إليه، أرجو النفع به، أو المتعة بقراءته، وقد اجتمع لي (على هذا) في مكتبتي الصغيرة، هنا وفي دمشق، أكثر من تسعين مجلدة في تراجم الرجال والنساء، فلو أنَّ في كل واحدة منها سيرة مئة منهم، لكان من ذلك تسعة آلاف من سِيَر العظماء.

ومن نظر في مقدمة الطبعة الثانية من كتابي (قصص من التاريخ) لقرأ فيها هذه الفقرة التي أعيد نشرها هنا بعد كتابتها بنحو نصف قرن، قلت فيها:

(إن في كتب التاريخ والأدب، والمحاضرات والرحلات، آلافاً من سِيَر العظماء ليست في كتب التراجم على كثرتها.

من ذلك أنني كنت أتسلّى مرة بالنظر في (رحلة ابن بطوطة) فاستخلصت منها تراجم كثيرين، منهم السلطان المسلم العادل طرمشيرين من حَفَدة جنكيز خان المسلمين، وكان يحكم مملكة واسعة المدى، مترامية الأطراف، كثيرة الجيوش، واسعة الخيرات. فهل سمعتم باسم طرمشيرين؟ وهل سمعتم بمن حكم روسية من ملوك المسلمين، وكان لهم فيها حكومة عظيمة القدر، عاشت حيناً من الدهر، كانت تسمى دولة البلغار، وكانت عاصمتها بقرب «ستالينغراد»؟.

ولن أسرد عليكم كل ما قلت فيها، فارجعوا إن شئتم إليه، تَطَلَّعوا عليه.

ولمّا كتب لي أن أزور القارة الهندية، وأندونيسيا، رأيت للمسلمين فيها تاريخاً ما كنت أعرفه، ولا كان ممّا يدرس في المدارس، ولا ممّا يوجد في الكتب التي اطّلعنا عليها. تاريخاً ينتظر الباحث المخلص الذي يحيط به، والقلم البليغ الذي يكتبه، وفي هذا الكتاب مثال صغير عليه في سيرة: أورنك زيب (ص ٢٢٧)، والملك الصالح (٢٣٩)، وسلطانة الهند (٢٥٥)، ومن نظر في كتابي عن أندونيسيا، وقرأ قصة دخول الإسلام إليها، لرأى فيها شاهداً آخر على ما أقول.

* * *

والعجب ممن يزعم أنَّ الإسلام إنما انتشر بالسيف، هل كان مع الرسول ﷺ في مكة سيف؟ والمجتمع الإسلامي الأول، الذي كان فيه مع محمد أبو بكر وعلي وخديجة وسلمان وصهيب وبلال، وآخرون ممن شرَّفهم الله بالسبق إلى الإسلام، هل كان معهم سيف؟!

هل تنبّهتم إلى أسمائهم؟ هل أدركتم الرمز الذي تشير إليه؟ لقد مُثّل فيه الرجال بأبي بكر، والنساء بخديجة، والأولاد بعلي، وهل المجتمعات إلاّ رجال

ونساء وأولاد؟ ومُثِّل فيه العرب بهؤلاء، والفرس بسلمان، والحبشة ببلال،والروم بصهيب، وهؤلاء هم قطّان هذه البقعة من الأرض.

الإسلام انتشر بالسيف! إنَّها دعوى بلا دليل، والدليل القائم، عليها لا معها، انشروا مصوّر العالم الإسلامي وانظروا، هل البلاد التي دخل إليها الإسلام عن طريق الفتح أكبر وأوسع وأكثر سكاناً، أم البلاد التي دخلها بعد انقضاء عهد الفتوح، وانطواء راياته، ولا يزال يدخل إلى اليوم بلاداً جديدة؟

هل وصلت الفتوح إلى أندونيسيا وماليزيا وأواسط إفريقية؟ وهل بلغت كوريا واليابان، أم انتشر فيها الإسلام وحده؟

وهل أكره الفاتحون الأوَّلون أحداً على الإسلام؟ لقد عرف التاريخ قواداً فاتحين، كالإسكندر، وجنكيز، وبونابرت، وهتلر، وأمثالٍ لهم كثير، فأين الآن ما فتحوه؟

لقد كان زيتاً صببته على ماء، وهززته هزاً حتى حسبته قد مازجه وخالطه وصار معه سائلاً واحداً، فلمَّا بطل الهز عاد الزيت زيتاً والماء ماء. بقي في البلاد غالبون ومغلوبون، مفتوحة بلادهم وفاتحون.

أمَّا الفتح الإسلامي فقد كان كاختلاط الماء بالخل، صُبَّ ماءً على الخل، ثمَّ انظر هل تقدر أن تفصل الخلَّ عن الماء؟ هذه الشام ومصر والعراق والبلاد التي بلغها الفتح هل تميِّز فيها الآن أبناء الجند الفاتحين، من أبناء البلاد الأولين؟

لقد جعلهم الإسلام أمة واحدة، ليست أمة العرب، ولا أمة الفرس، ولا أمة الترك، ولكن أمة محمد ﷺ ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

الإسلام انتشر بالسيف! إنَّها مقالة جاهل بالطبع البشري، على قائلها أن يخجل منها وأن يتوارى بها.

إنَّ الإسلام عقيدة، والعقيدة مزيج من عقل وعاطفة، فمن سمع أنَّ العاطفة تَجيء بالقوة والبطش؟ إذا فَرَكَتْك امرأتك (أي كرهتك) فهل تحمل العصا فتقول لها إما أن تحبيني وإما أن أكسر أضلاعك؟ وهل تحسبها تحبك بالإكراه؟ ﴿لا إكراه في الدين﴾. لقد عرف التاريخ حكاماً طغاة جبارين، يُكرهون الناس حتى يكونوا لهم تابعين طائعين، يخضعون أجسادهم وجوارحهم حتى يعملوا لهم ما يريدون،

ولكن هل يستطيعون إخضاع قلوبهم، حتى تمتلىء بحبهم؟ وعقولهم حتى ترى الحق معهم؟

أقمت في أندونيسيا شهراً، نهاري فيه مع العلماء والأدباء، وسهري في المحاضرات والندوات، زرت الجامعات والمكتبات، ووقفت في آخر جزيرة «جاوه» على قبر الرجل الذي حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه إبراهيم، وهم يعظِّمونه فيقولون: (سلطان إبراهيم).

فمن إبراهيم هذا؟ ما وجدت ممَّن لقيت من الناس، ولا فيما قرأت من الكتب من عرف من هو ولا من أين جاء. فكيف إذن دخلت هذه البلاد في الإسلام، حتى صار فيها اليوم دولة سكانها اليوم مئة وخمسون مليوناً، كلهم مسلم بالقيد الرسمي، مسلم بالإحصاء الجغرافي، نسأل الله أن يخلِّصها من مكر الملحدين، والبانجاسيلا (المبادىء الخمسة) التي جاؤوا بها بدلاً من الأركان الخمسة للدين، ومن كيد المكفِّرين المنفِّرين المنصِّرين الذين يدعون افتراء بالمبشِّرين.

إنَّ في تاريخ الإسلام في أندونيسيا رجالاً أبطالاً، ما تعرفونهم ولا سمعتم بهم.

إن عنوان (رجال من التاريخ) يمكن أن يجتمع تحته كتاب من خمسمئة مجلد. نعم وأكثر من ذلك، لا أبالغ، ولا ألقي القول جزافاً، صدِّقوني.

إن تاريخنا أعظم تاريخ، ولكننا أمَّة تجهل تاريخها. هذا التاريخ الذي ليس لأمة مثله، هذا التاريخ الذي يفيض بالحب والنبل والتضحية والبطولة والإيمان.

ولست أعني التاريخ السياسي وحده، بل التاريخ العلمي أولاً. تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم مجاهدين في ميدان الطروس، بأسنَّة الأقلام، وهجروا لذلك لذائذهم، ونسوا حاجات بطونهم وغرائزهم، واطَّرحوا رغبات الغنى والجاه، وكل ما يتزاحم عليه الناس، واستهانوا في سبيله بكل صعب، حتى إنَّهم كانوا يرحلون الإبلَ أربعين ليلة من مشرق الأرض من خراسان، أو من مغربها في الأندلس، إلى مكة أو المدينة أو الشام أو مصر أو بغداد، في طلب مسألة مفردة، أو حديث واحد. أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل للقرون الآتيات، فسارت البشرية على ضوئها. كانوا في عصرِ الحُكْمُ فيه حكم مطلق، وكانت حياة الناس معلَّقة بكلمة ينطق بها الحاكم، فاستطاعوا أن يجعلوا لأنفسهم بإيمانهم وعدالتهم وأخلاقهم حصانة دونها

الحصانة التي يعتز بها القضاة ويكفلها لهم القانون الآن[1]، تاريخ المجاهدين الذين خرجوا من بيوتهم، وفارقوا أهليهم وخلّفوا دنياهم وراء ظهرانيهم، أداء لحقّ الله وإعلاء لكلمة الله، ما كانوا عادين ولا باغين، ما كانت حربهم حرباً هجومية ولا حرباً دفاعية كما نفهم اليوم من كلمة الدفاع، فما كانت دفاعا عن أرض ولا احتل الفرس أو الروم المدينة أو مكة، فنهدنا[2] ندافع عنها، إنّما هي حرب دفاع عن العقيدة.

أرأيتم الجائعين في إفريقية، الذين تسمعون أنباءهم في الإذاعات، وتقرؤونها في الجرائد.. إذا جاء من يحمل إليهم الماء والغذاء والدواء، وما يدفع عنهم البلاء، فوقف ظالم في طريقه يمنعه أن يوصل ذلك إليهم، يريد أن يميتهم في دورهم حتى تصير هي قبورهم.

ألا تقاتله؟

هذا ما صنع المسلمون المجاهدون. نزل عليهم المصباح الهادي في (حِرَاء) والدنيا تتخبط في الظلماء، فحملناه لينير لهم طريقهم، فاعترضنا من يمنعنا.

قلنا: تعَالَ فاحمل النور معنا، تكن منّا لك ما لنا وعليك ما علينا. قال: لا.

قلنا: فَدعْنا نمرُّ ونحن نحميك من عدوِّك، ونرد عنك من يعتدي عليك، ونبذل نحن أرواحنا دونك، لا نريد منك إلاَّ أجرة يسيرة من مالك، مقابل ما نبذل من دمائنا، قال: لا.

فما الذي نصنعه معه إلاَّ أن نقاتله؟ هذا هو الجهاد.

إنَّ تاريخنا السياسي أنظف من كل ما يماثله من تواريخ الأمم، ولا يخلو (على ذلك) من أمور لا يحسن أن ننشىء عليها أولادنا، أمور تقضيها طبيعة البشر الذين يخطئون ويصيبون، ويحسنون ويسيئون، ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

حتى المجتمع الذي كان أسمى مجتمع بشري، الذي كان (ظاهرة) لم تُسْبق

---

(١) فقرة من مقدمة (قصص من التاريخ).

(٢) نهد أي نهض.

ولم تتكرر، مجتمع الصحابة لم يَخْلُ من منازعات ومصادمات لم يتعمدها الصحابة، ولكن من دسّ الدسائس بينهم، وفرَّق بالكذب جمعهم. فلماذا ندرسها لأولادنا؟ لماذا، وقد كره علماؤنا الخوض فيها؟ وكيف نسمح لمدرس غرّ قد يكون قليل الدين، أن يقيم من نفسه حكماً بين عائشة أم المؤمنين وعلي أمير المؤمنين؟

تقولون: ما الحل؟ لقد بَصُرت بالحل أيام الوحدة لَمّا كنت قاضي دمشق، ورئيس عمدة المدارس الشرعية التي تديرها الأوقاف[1]، وكتبت بذلك إلى الوزير[2]، فكلفني وضع مناهج جديدة لهذه المدارس، فوضعتها وأحدثت فيها أموراً، كان منها: أني رفعت من المنهج التاريخ السياسي ووضعت مكانه مادة سميتها (أعلام الإسلام). ندرس فيها مناقب العظماء، ونكشف عن مواطن العظمة فيهم، وأمضى الوزير ما اقترحت، وأحسب أنه لا يزال باقياً إلى الآن.

أنا مدمن القراءة، يومي كله إلاَّ ساعات العمل، أمضيه في المطالعة ومحادثة الكتب، من يوم أتقنت القراءة، قبل سبعين سنة، وأنا أقرأ. وأكثر ما أولعت به التاريخ. وذلك بعد إقامة لساني بتعلم العربية، وضمان آخرتي (وما تُضْمن إلاَّ برحمة منه) بمعرفة الشرع. فأنا أقرأ كل ما أصل إليه من تواريخ العرب وغيرهم، ومن المذكّرات والرحلات والمشاهدات، ولقد كتبت كتاب (قصص من التاريخ) وما ضمّ كل ما كتبت، و (رجال من التاريخ) و (حكايات من التاريخ) التي حسب قوم أني كتبتها للأطفال فعدُّوها من أدب الأطفال، مع أني لم أكتبها لهم، وأسلوبها يعلو (كثيراً) عن أفهامهم.

بدأت بهذه الأنواع كلِّها من سنة ١٩٣٠ من حين كنت (محرراً) في جريدة (فتى العرب)، بل لقد بدأت، في الفتح والزهراء سنة ١٣٤٧ هـ، وهذا الكتاب ثمرة باقية، مما فقد.

وهذه هي الطبعة السابعة (الشرعية) لهذا الكتاب. أمَّا الطبعات المسروقة فلا أحصيها. ومن اقترفها فسيجد عند الله حسابها.

وقد وقفت أنا على طبعها، وعدّلت فيها، وزدت عليها شيئاً لم ينشر من قبل

---

(١) أي رئيس مجلسها الأعلى.

(٢) عبد الحميد السراج.

في مجلة ولا صحيفة ولا كتاب، بل لم يذع من الإذاعة، لأنه لم يكمل وقد آثرت أن أنشره ناقصاً قبل أن يضيع.

وليس لأحد في هذا الكتاب ولا في غيره من كتبي حق من حقوق الطبع، ومن ادَّعى ذلك كان كاذباً.

وكل طبعة آذن بها ويمر عليها الوقت الذي تنفد فيه عادة وعرفاً يسقط حق المأذون له فيها. أقول هذا لِمَا فشا من عدوان بعض الناشرين على المؤلفين، لا يردعهم عنه الدين، ولا الخلق المتين، حتى صار همهم دنياهم لا يفكرون إلاَّ فيها. ولا يحرصون إلاَّ عليها، يلبسون للمؤلف عندما يَلْقَوْنه جلد الحمل الوديع، فإذا صار الكتاب في أيديهم، خلعوه فبدا من تحته شعر الذئب الكاسر، وهذه تذكرة لمن شاء أن يذّكر، ما سميت فيها أحداً ولا أشرت إلى أحد.

أما أنا فإن خسرت بهذا العدوان بعض المال فقد أبقى الله لي منه ما يكفيني، وسآخذ حقي يوم أكون محتاجاً إليه، لا من ريالات المعتدي ودولاراته، بل من حسناته التي هي وحدها الطريق يومئذ إلى نجاته.

نسأل الله أن يحيي قلوبنا، حتى نراقب ربنا، ونذكر آخرتنا، وأن يهدينا جميعاً: الناشرين والمؤلفين.

أمَّا (دار المنارة) التي تنشر هذا الكتاب اليوم، فهي منِّي ليست غريبة عني، وصاحبها ديِّن أمين على حين قلَّت في الناس الأمانة، وأنا لا أزكِّيه على الله ولكن أزكِّيه للناس. وأنا أعلم أنَّ هذه التزكية شهادة أنا مسؤول عنها.

أمَّا جَوْدة الطبع ونفاسة الورق وحسن الإخراج فإنك تراه أمامك.

وبعد: فما أردتها مقدمة للكتاب، ولكن تعريفاً بهذه الطبعة استرسل فيه القلم، وانبسط المجال فطال المقال.

مكة المكرمة رجب ١٤٠٥

علي الطنطاوي

- ١ -

سَيِّدُ رِجَالِ التَّارِيخ

من صور الهجرة

نحن الآن في مكة والحرب قائمة بين التوحيد والشرك، بين الإصلاح والجمود، بين محمد وقريش، وبذلت قريش قوَّتها، وبذلت قريش مالها، وقدَّمت دنياها كلها، في شيء واحد: هو أن تمنع هذا الخير عن الدنيا.

قال محمد: «افتحو لي الطريق لأخرج إلى الأرض الفضاء، فأنصر الضعيف، وأنجد المظلوم، وأعيد للبشرية كرامتها، وللعقل سلطانه»، قالوا: لا

قال: «افسحوا لرسالتي لتنطلق في الزمان، فإنَّها ليست لبلد واحد، ولا ليوم واحد»، قالوا: لا! ولكن تعال نملكك إن شئت علينا، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيِّد هذا البلد كله. وسخر التاريخ من قريش... يدعوهم محمد ليعطيهم سيادة الأرض، وزعامة الدنيا، ويضع في أيديهم مفاتيح الكنوز: كنوز المال، وكنوز العلم، ويمنحهم ما يملك كسرى وقيصر، وهم يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية، النائمة بين جبلين، وراء رمال الصحراء.

وانطلقوا يؤذونه، ويتوعدونه، لعلَّ الترهيب يفعل فيه ما لم يفعل الترغيب.

رموا في طريقه الشوك وهو ماش، وألقوا عليه أحشاء الناقة وهو ساجد، ورموه في الطائف بالحجارة وأسالوا دمه، وهزئوا به، وسلَّطوا عليه سفهاءهم.

فلم يثر هذا كله غضبه ولكن أثار إشفاقه، إشفاق الكبير على الأطفال

المؤذين، والعاقل على المجانين، وكان جوابه: «اللهمَّ اهد قومي فإنَّهم لا يعلمون».

ولم يصرفه عن وجهته شيء، إلاّ إن صرف القمر عن مسيرة في قبَّة الفلك زرٌّ وردة تلقيه عليه، أو حجر ترميه به.

وآذوا المسلمين الأولين ليفتنوهم عن دينهم، وعذبوهم، وكانوا يبطحون المسلم عارياً على الرمال الملتهبة التي يشوى عليها اللحم، ويضعون عليه الصخرة الهائلة، ويلوِّحون له بالماء، ويقولون: اكفر برب محمد حتى نسقيك وننجيك. فيقول: أحد! أحد!.

وتشغله لذَّة المناجاة، عن لذعة العذاب، ونشوة الأمل بالجنَّة، عن شقوة الألم في الدنيا.

احتملوا في سبيل الله كل شيء، الضرب، والجرح، والحرق، والجوع، والسهر، واستحْلَوا في سبيل الله المرائر، واستحبوا أبغض المكاره إلى النفوس إن كان فيها رضا الله.

ودعاهم الرسول إلى ما هو أشد من هذا كله، إلى فراق الوطن، وترك الأهل، وأن يمشوا فراراً بدينهم إلى بلاد ليسوا منها، وليست منهم، ولا لسانها لسانهم، ولا دينها دينهم، إلى الحبشة يجاورون فيها النصارى، ونصارى الحبشة أولى بهم من مشركي العرب، ولتجدن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى[1]، فخرجوا من منازلهم وهجروا أهليهم، ومشوا إلى الحبشة فلحقهم أذى قريش إلى الحبشة.

وأوغلت قريش في كفرها وصدِّها وعنادها، ولكن هل تقدر قريش أن تطفىء نور الله؟

إنَّ البخار الذي من طبعه الانطلاق إلى العلاء لا يحصر في زجاجة،

---

(١) اقرأ الآية كاملة واعرف سبب نزولها تعرف من هم النصارى المقصودون.

وإن حصرته وجد منفذاً أو مزق الإناء، وكذلك صنع الإسلام.

وهاجر المسلمون مرَّة ثانية ولكنها هجرة إلى ديار عربية، إلى قرية قدِّر لها أن تبقى الدهر كله خاملة ضائعة وراء الرمال، حتى تتشرف بمحمد، فإذا هي أُم المدائن، وعاصمة العواصم، منها تنبع عيون الخير والهدى لتسيح في الأرض، فتسقيها وتعمها بالخيرات، وإليها تنصب أنهار الملك والغنى والسلطان من كل مكان.

هاجر المسلمون جميعاً ولم يبق في مكَّة إلاَّ النبي ورجلان اثنان، مرافقه في السفر، ووكيله في مكة. رجلان كانا أول من أسلم. وآخر من هاجر: سيد الكهول أبو بكر وسيد الشباب عليٌّ.

تأخر محمد كما يتأخر الربان الشريف على ظهر الباخرة الميئوس منها فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعاً.

وكما يتأخر الراعي الأمين، عند المفازة فلا يجوز حتى يجوز القطيع كله.

تأخر يحمي أتباعه، ويستقبل بصدره الخطر.

وجاء الخطر على أشد صوره وأشكاله.

اتَّفق زعماء قريش على ارتكاب أكبر جريمة في تاريخ الجنس البشري.

جريمة لو تمت، لما كانت في التاريخ دمشق ولا بغداد ولا القاهرة ولا قرطبة، ولا كانت للراشدين دولة، ولا للأمويين، ولا للعباسيين، ولا فتح بنو عثمان القسطنطينية، ولا بني الأموي، ولا النظامية ولا الحمراء، ولما قامت الحضارة التي قبست منها أوربا حضارتها: من الشام في الحروب الصليبية، ومن الأندلس بعد ذلك، ولبدل التاريخ طريقه، ولكنَّا اليوم على حال لا يعلمها إلاَّ الله.

وهنا تتجلى رجولة محمد وشجاعته، وثبات أعصابه، وهنا يظهر نصر الله لأوليائه ـ حين فتح محمد الباب، وخرج يشق صفوفهم، يقتحم الجموع، التي جاءت تطلب دمه، أرادوا قتله وأراد الله حياته، فتم ما أراد الله، وروعتهم المفاجأة وأعمت أبصارهم، وما عادوا إلى أنفسهم حتى كان محمد قد مضى، وصحوا كأنَّ حلماً مرَّ بهم، وشقوا الباب ونظروا ليتوثقوا، فرأوا فراش محمد وفيه رجل نائم، ففركوا عيونهم وتنفسوا الصعداء.

* * *

وأدركت قريش الحقيقة بعد ما مضى محمد، وعمَّ الصريخ مكة وضواحيها، وخرج القرشيون فرساناً ومشاة يركضون خيولهم، ويعدون إلى كل ناحية يتلفتون مذعورين.

ما لهم؟ ما لهم وهم حماة الديار، وفرسان المعارك، قد أطار الفزع ألبابهم وصدع الذعر قلوبهم؟ ما لكم يا ناس؟ قالوا: خرج محمد!

وماذا تطلبون منه؟ أخذ أموالكم؟

قالوا: معاذ الله إنَّه الأمين المأمون أداها عن آخرها؟

أجرم جريمة فأنتم تطلبونه بها؟

قالوا: حاشا لله، إنَّه أحسن الناس خلقاً، وأطهرهم يداً.

ماذا تريدون منه؟ قالوا: إنَّه سيجند الدنيا كلها، لمحاربة أربابنا وأصنامنا وجهلنا وكبريائنا، سيضطرنا إلى هدم الحجارة الجامدة، وعبادة الله الواحد. واتباع سبيل الهدى، والخير والسداد.

أهذا الذي تنقمون من محمد؟

وسخر التاريخ من قريش مرة ثانية!

وعادت قريش بخزيها، وهاجت الجزيرةَ ضدَّ محمد، ووضعت الجوائز، (مئة ناقة) لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً.

وبعد أن فارق محمد وصاحبه الغار لحقهم فارس[1] وخاف أبو بكر وقال: والله ما على نفسي خفت، ولكن عليك، فأجاب محمد بالكلمة التي تجمع وحدها معجزات الإيمان، مهما تعددت صورها، من الشجاعة والتضحية والثبات، والإيثار، قال: لا تحزن، إنَّ الله معنا.

إنَّ الله مع من يكون مع الله، إنَّ الله ينصر من ينصره، فلا يحزن من كان الله معه.

إنَّ جبهة معها الله، لا تنكسر ولو كان ضدَّها الوجود كله!

* * *

ومشى الموكب إلى الدنيا الواسعة. موكب صغير، ولكنه أجلُّ من أعظم موكب أحست بوطئته هذه الكرة التي نمشي على ظهرها، ولم تعرف موكباً أنبل منه قصداً، وأبعد غاية، وأخلص نيَّة، وأعمق في الأرض أثراً.

موكب صغير يمشي في الصحراء الساكنة، لا رايات ولا أعلام، ولا أبواق ولا طبول، ولا تقوم له الجند على الصفين، ولا يصفق له الناس من النوافذ، ولكن تصفق الرمال فرحاً بالذي سيضفي عليها ثوب الخصب والنماء، وتُزهى الجبال طرباً، بالذي سيقيم عليها أعلام النصر والعز، وتبرز من بطن الغيب جحافل القواد والعلماء والأدباء الذين أنبتهم مسير محمد في هذه الصحارى.

حتى أشرف على المدينة.

وأقبلت جموع كالجموع التي خلفوها في مكة.

ولكن تلك كانت للشر، وهذه للخير. وتلك تنادي بالموت لمحمد، وهذه تنادي بالحياة لرسول الله.

وكانت هذه نقطة التحول في التاريخ الإسلامي.

---

(١) هو سراقة وقد تعاورت هذه الحادثة أقلام، وأخرجت فيها (أفلام) وكتب أول من تنبه إليها، وكتبت فيها قصة نشرت في العدد الممتازة من (الرسالة) الصادر يوم ١٢ المحرم سنة ١٣٥٤ هـ.

كل ما قبلها هزائم، وما بعدها إنَّما هو نصر إثر نصر. ولذلك جعلناها ابتداء تاريخنا.

* * *

ها نحن أولاء الآن على أبواب المدينة، وقد خرجت كلها تستقبل محمداً، ولو استطاعت من الحب لفرشت له الطريق بقطع أكبادها، حتى يمشي على قلوبها، وكانت تنشد نشيد الاستقبال:

طلع البـدر علينـا   مـن ثنيـات الوداع
وجب الشكر علينا   مـا دعـا لله داع

وها هم الناس يسألون: أيهم هو؟ أيهم محمد؟

لا يعرفونه، لأنَّه لم يكن ملكاً، ولا يلبس الحرير، ولا تلوح عليه شارات الملك، ولا يتألق على جبينه التاج، بل كان عبداً لله متواضعاً، يلبس ما يلبس الناس، ويأكل ما يأكلون، ويجوع إن جاعوا، ويشبع إن شبعوا، ولقد كان في أصحابه الأغنياء الموسرون، ولكن محمداً أحب أن يعيش فقيراً وأن يموت فقيراً.

وحسبوا أبا بكر هو النبي، فكانوا يسلمـون عليه، وهـو يشير إلى الرسول يقول لهم بيده: هـا هوذا محمـد. وأقبلوا يدعـونه لينـزل فيهم يتسابقون على هذا الشرف الخالد.

فماذا صنع؟ انظروا إلى لطفه ولباقته، أنَّه لا يريد أن يؤذي أحداً بالرفض، فقال: اتركوا الناقة فإنَّها مأمورة، ومشت الناقة حتى بركت عند دار أبي أيوب الأنصاري.

أبو أيوب، الذي كتب الله له أن يحضر بعدُ حربَ القسطنطينية وأن يوغل في الهجوم يريد أن يموت في أبعد مكان، فمات ودفن على ضفاف البوسفور، وبقي قبره يدعو المسلمين إلى فتحها قروناً طوالاً، حتى كتب الله هذا الثواب للسلطان محمد الفاتح.

نحن الآن مع محمد ﷺ في المدينة. أنَّه يؤسس الدولة الجديدة، فيم ترونه يبدأ؟ بمهرجان فخم يبايعونه فيه بالملك؟ أنَّه لا يريد الملك! يبني ثكنة باحتفال عظيم ويجيِّش جيشاً؟ إنَّه لا يبتغي العلو في الأرض! يفرض الضرائب؟ لا، ولكن يبدأ بعمارة المسجد.

إنَّها ظاهرة عظيمة يحسن أن يقف القارىء عندها. يبدأ بالمسجد، كما بدىء الوحي بآية (القراءة) و(التعليم) بالقلم.

بدأ بالمسجد، والمسجد في الإسلام، هو المعبد (رمز) الإيمان، وهو البرلمان (رمز) العدل، وهو المدرسة (رمز) العلم.

ولم يغصبه بل شراه بالمال وذلك (رمز) الإنصاف.

ولم يأمر ببنائه ويقعد، بل شارك أصحابه العمل، وحمل الحجارة بيده، وهذا (رمز) الديموقراطية. وبناه من اللبن والطين، بلا زخارف ولا نقوش وهذا (رمز) البساطة[1].

فكان من هذه (الرموز) الإيمان والعدل والعلم والإنصاف والديموقراطية والبساطة مجموعة شعائر الإسلام.

---

(١) البسيط في اللغة الواسع المبسوط ولكني أردت معناها الشائع.

ـ ٢ ـ

سيد رجال التاريخ

يوم الهجرة:

اليوم تغلق الدواوين[1] أبوابها، وتسرح المدارس طلّابها، وترفع الأعلام في النهار، وتوقد السرج في الليل، احتفاء بذكرى الهجرة، ثمَّ يمر اليوم، كما مرَّ الأمس، ويمر الغد، لا يسأل ولد أباه، ما معنى الهجرة؟ وإلام يشير هذا اليوم؟ ولا يحدِّث أب ولده وأهله حديث الهجرة، لأنَّ أكثر الآباء لا يعرفون من سيرة نبيهم وهاديهم، إلاَّ القليل الغامض، الذي لا يفيد علماً، ولا ينفي جهلاً، ولا يأتي منه شيء.

مع أنَّ على كل رب أسرة، أن يكون في بيته كتاب جامع من كتب السيرة، وأن يقرأ فيه دائماً، وأن يتلو منه على أهله وأولاده وأن يجعل لذلك ساعة كل يوم، لينشَؤوا على معرفة سيرة الرسول الأعظم ﷺ، فإنَّ سيرته الينبوع الصافي لطالب الفقه، والدليل الهادي لباغي[2] الصلاح، والمثل الأعلى للأسلوب البليغ، والدستور الشامل لكل شُعَب الخير.

وأنا من ثلاثين سنة أكتب وأخطب في الهجرة[3] ما انقطعت عن ذلك سنة، ولا أزال مع ذلك، كلما فكرت فيها بدت لي في أخبارها، ملاحظات

---

(١) في بعض البلدان.

(٢) أي قاصد.

(٣) خطبت أوَّل خطبة فيها سنة ١٣٤٥ هـ في الاحتفال السنوي للمدرسة الأمينية فصارت الآن ستين بدلاً من الثلاثين، نسأل الله حسن الخاتمة.

وعبر، لم تكن قد بدت لي من قبل، ونظرت إليها من جوانب جديدة، فرأيت قديمها جديداً، فهي كالنبع الذي لا يزداد على الاستسقاء إلاَّ غزارة وعذوبة وصفاء.

* * *

ومن المعروف المشاهد، أنَّ الألفة تذهب العجب، ونحن لا نعجب لطيران بيت ضخم من الحديد والفولاذ، ولا لنطق صندوق صغير من المعادن والأسلاك، لأننا ألفناه وعرفناه، مع أنَّ ذلك عجيب في ذاته، وفوق العجيب.

وكذلك نحن حين نقرأ سيرة الرسول ﷺ، نمر بخبر الحادث المدهش، فلا نكاد، من ألفتنا إياه وتكرار سماعه، نفكر فيه، أو ندهش منه، ولو سمعنا الآن أنَّ رجلاً أمياً، لم يدخل مدرسة، ولم يحضر حلقة علم، ولم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وقام (على ذلك كله) في قرية معتزلة في صحراء منقطعة، ليصلح وحده الدنيا كلها، ويمنع الحروب منها، وينزع سلاح الدول القوية العاتية، ويكلفها بأن تترك دنياها وعتوها، وأن تتبعه... لبلغت بنا الدهشة أبعد الغايات! فكيف إن سمعنا بعدُ، بأنَّ هذا الرجل تبعه نفر قليل من الضعفاء المساكين، وأنَّه حمل هو وهؤلاء النفر، أشد أنواع الأذى الجسمي والنفسي، فثبت وثبتوا على ذلك كله ثباتاً ليس له نظير في تاريخ البشر.

وكيف لو سمعنا بأنَّ هذا الرجل قد نجح، وأنَّه لم تمض على دعوته ثلاثون سنة، حتى خضعت لها أكبر دولتين في الدنيا اليوم: روسيا وأميركا مثلاً، واتبعتا ما جاء به، وقبل به، وتحمس له شعباهما، حتى سبقا في ذلك اتباعه الأولين.

وأنَّ هذا الرجل الأميَّ الذي لم يتعلم، قد جاء بكتاب، هو دستور، وهو قانون مدني، وهو قانون للأحوال الشخصية، وهو قانون جزائي، وهو قانون دولي، وهو مذهب أخلاقي، وفيه تاريخ، وفيه لفتات علمية عجيبة،

وفيه رفع للنفس البشرية إلى أعلى أجواء الطهر والعبقرية والعظم، وهو بعد ذلك مكتوب بأسلوب، لا يمكن أن يجاريه إنسان، أو أن يجيء بمثله، لأنَّه جاوز أرفع طبقات البلاغة البشرية...

وأن هذه الدعوة لم يكن نجاحها، فورة سريعة، ولا كانت وثبة كنار القش، تشبُّ في لحظة، وتخمد في لحظة، بل كانت شيئاً أخلد من الخلود، وأبقى من الدهر، وأنَّها، بعد ما مرَّ عليها أربعة عشر قرناً من الزمان، وبعدما مرَّت بأربعين ألف كيل على الأرض، وبعدما بلغت آفاق الدنيا، لا تزال في نفوس أتباعها على القوَّة التي كانت عليها في ابتدائها، ولا تزال على صفائها وطهرها، كلما علقت بها أو ضار الزمان، انتفضت انتفاضة فعادت كما كانت.

كم يكون عجبكم من هذا الرجل، لو ظهر مثله من جديد؟

هذا الذي صنعه محمد، يا أيها السادة ـ هذا هو بالضبط!

نزل عليه جبريل، وهو منفرد في جبل قفر، في قرية صغيرة متوارية في واد ضيق، وراء الرمال المحرقة، والصحراء المهلكة، في قرية لم تسمع بها رومة، ولم تحس بها القسطنطينية، ولم تبالها (مدائن) كسرى، فقال له: انهض، انهض يا أيها الرجل، قف وحدك في وجه قريش فاكسر أصنامها، وحطِّم آلهتها، ثمَّ أبدل العرب بانقسامهم وحدة، وجهلهم علماً، واجعلهم أساتذة العالم، وحملة لراء الحضارة، وادع كسرى وقيصر والدنيا كلها إلى الحق والخير والعدل، فإن لم تسمع لك، واعتدت وبغت، فحاربها لا لتستعمر بلادها، وتملك أعناقها فما كان النبي داعية ظلم، ولا كان الإسلام دين (استعمار)[1] ولا كان الجهاد، حرب عدوان، إنَّما الجهاد، دفاع

(١) بالمعنى الذي يراد اليوم، وإن كان ما يسمونه استعماراً إنَّما هو في (الحقيقة) (استخراب) وهم المخربون المدمرون، لا المستعمرون كما يسمون التنصير والتكفير بالتبشير.

عن دعوة الحق أمام من بغى لها الأذى، وسدَّ على أهلها الطريق إلى الشعوب، ومنعهم أن يحملوا إليها العلم والحضارة والخير.

حارب أهل الأرض إن حاربوك، وجاهدهم ولو بقيت وحدك: (لا تكلف إلاَّ نفسك)!

وكانت يا سادة[1] محن شداد، وكانت أهوال، ولكن محمَّداً احتمل ما لا تحتمله الجبال. إنَّ الواحد منا يخشى إن قال كلمة حق، أو دعا إلى خير، أن يناله إعراض من أمير، أو يسمع كلمة سوء من الناس، أو ينقص مرتَّبه، أو يمزق ثوبه، أو يشتم أو يضرب، وسيد البشر محمد ﷺ، شتمه قومه، وآذوه، وسخروا منه، وقالوا عنه مجنون، وقالوا ساحر، وقالوا كذاب، وكانت أم جميل بنت حرب بن أمية، تحمل الشوك فتلقيه في طريقه، حتى إذا خرج تعثر به، وهي (حمَّالة الحطب). وكان أمية بن خلف يهمزه ويلمزه، وهو (الهمزة اللمزة). وبلغ بهم الأمر أن جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور (أحشاء جمل) فألقاه فوقه وهو ساجد، وسخروا منه: فقالوا له، سل ربك، أن ينزل ملكاً يدافع عنك فإنَّك تقوم في الأسواق مثلنا، وتلتمس المعاش. وقال آخر: اسقط علينا السماء كسفاً، كما زعمت. وقال الثالث: أنا أعرف من أين تجيء بهذا القرآن، يعلمك إياه رجل في اليمامة، يقال له الرحمن.. وهم خلال ذلك يضحكون ويقهقهون، وكلما فتح فمه ليتكلم لقوه بمثل هذه الأقوال. وقال آخر: يا محمد، لن نؤمن لك حتى تتخذ سلماً تصعد به إلى السماء، فتأتي بالله والملائكة معك لينصروك علينا... فأنزل الله عزَّ وجل حكاية لأقوالهم هذه ﴿وقالوا لن نُؤْمِنَ لك حتى تَفجُر لنا من الأرض يَنبوعاً، أو تكونَ لك جَنَّة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماءَ كما زعمت علينا كِسَفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيتٌ من زخرف أو تَرقى في السماء ولن نُؤمن لرقيِّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلاَّ بشراً رسولاً﴾.

(١) كانت هذه المقالة حديثاً أذيع من إذاعة دمشق أول العهد بإنشاء الإذاعة.

وقالوا له، لماذا لا ينزل علينا ملك؟ فرد الله عليهم إن لو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل ملكاً، ولكن في الأرض بشراً، فكان رسولهم بشراً مثلهم.

وكان النضر بن الحارث، كلما قام الرسول من محله، قعد مكانه وحدَّثهم من حديث ملوك فارس، وقال: حديثي والله أحسن من حديث محمد. وكانوا كلما جاء يتلو عليهم القرآن، شغبوا عليه وصاحوا، وقالوا: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلَّكم تغلبون) ولمَّا نزلت عليه آية (عليها تسعة عشر) قال أبو جهل ضاحكاً ساخراً: يا معشر قريش زبانية جهنم التي يخوفكم بها محمد تسعة عشر[1] فهل يعجز كل مئة منكم عن رجل منهم؟! فنزل قوله تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلَّا ملائكة وما جعلنا عدَّتهم إلَّا فتنة للذين كفروا﴾ وقال أبو جهل: يا معشر قريش، هل تعرفون ما هي شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ هي عجوة يثرب بالزُّبْد، فنزل قوله تعالى: ﴿إنَّ شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾.

ولم يكفهم ذلك كله حتى قاطعوا محمداً وأصحابه، وحبسوهم في الشِّعْب أمداً طويلاً لا يبيعونهم ولا يكلمونهم.

فهل ترونها أثَّرت هذه الأهوال كلها في عزيمة محمد؟ أو نقصت من إيمانه بدعوته وحماسته لها؟ لقد عرضوا عليه معها أقوى المغريات: أن يملكوه عليهم، وأن يعطوه الأموال، وأن يقدموا إليه أجمل النساء ليتزوج منهنَّ بمن شاء، فكان موقفه بعد هذه المغريات كلها، وهذه المصائب كلها، أن قال لعمه أبي طالب: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري لأترك هذا الأمر ما تركته».

فهل تعرفون في تاريخ الجنس البشري، موقفاً آخر كهذا الموقف؟

---

(١) اتخذ البهائية الكفرة رقم (١٩) رمزاً مقدساً، وجاء المدعو رشاد خليفة يروّج لضلالهم متستراً بآيات الله يضعها في غير موضعها، وبحساب (الجمل) الذي افتراه اليهود. وأخذه منه أصحاب (وحدة الوجود) حتى زعم أنه عرف به متى تقوم الساعة. ضلالة بيِّنة فاحذروها وافتراء واضح فلا تخدعـوا به.

واستمر هذا كله، وامتدَّ، لا يوماً ولا يومين، ولا أسبوعاً ولا شهراً، امتدَّ سنوات طوالاً، ولو أنَّ رجلاً غير محمد، لقال: (حسبي. لقد عملت ما عليَّ، وبذلت الجهد، فإذا النجاح مستحيل، وقد آن لي أن أنسحب وأقعد في بيتي).

ولكنَّ الانسحاب لا مكان له في منهج محمد، وكلمة المستحيل لا وجود لها في معجمه، وإذا لم ينجح في مكَّة فلينتقل إلى غيرها. فإنَّ الدعوة للدنيا كلها، وللعصور كلها ـ وانتقل إلى الطائف، والنقلة إلى الطائف عسرة، والطريق إليها طويل، ولكنَّ محمداً ﷺ لا يصرفه عن الغاية عسر المسلك، ولا طول الطريق.

وبلغ الطائف وقصد سادة ثقيف الثلاثة لعلَّه يلقى عندهم، ما لم يلق عند زعماء مكة، وبدأ يعرض عليهم دعوته، فإذا أوَّلهم يقول له: (أنا أمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك... وقال الثاني: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك... وقال الثالث: أنا لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، فما ينبغي لي أن أكلمك!)[2].

قال: «أمَّا إن رفضتم ما جئت به فاكتموه عني». لجأ إلى نبلهم بعد أن يئس من عقلهم، فما كانوا نبلاء، وأغروا به السفهاء والعبيد، يلحقونه ويدفعونه، ويسبونه ويصيحون به، حتى أخرجوه إلى طرف البلدة، وهنا وقد بلغ الهول هذا المبلغ، دعا رسول الله ﷺ دعاء، ما تلوته مرة إلاَّ فاضت عيناي، وما أحسب أحداً يسمعه ويفهمه، يملك قلبه أن يسيل من الرقة دمعاً من عينيه.

---

(١) انتف وامزق.

(٢) هذا الكلام الفارغ من المعنى ـ البعيد عن التهذيب ـ هو الذي يقول أمثاله اليوم ـ بعض من ندعوهم إلى التمسك بالدين تشابهت تفاهة الأولين والآخرين.

قال: «اللهمَّ إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي.

إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟.

إن لم يكن بك غضب عليٍّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك».

وهنا موقف عجب من العجب، الرسول في هذه الحال من الشدَّة، وفي هذا الموقف الذي يُقنط أجلد الأبطال، رأى بادرة قبول للدعوة عند عبد ضعيف يقال له عدَّاس، فلم يمنعه كل ما لقي من أن يبلغه دعوة الله، وينصرف إليه، وينسى ألمه وتعبه، حتى أسلم.

هذا موقف صغير بالنسبة للرسول، ولكنه عظيم عظيم بالنسبة إلى دعاة البشر في كل تواريخهم.

ولا يستطيع باحث أن يلقى في الإخلاص للدعوة ونسيان الذات في سبيلها، موقفاً مثله لرجل آخر غير محمد صلى الله وسلم على محمد.

* * *

ها هوذا قد جرَّب الدعوة في مكة، وفي الطائف، فلم ينجح، وصبر ثلاث عشرة سنة، أربعة آلاف وستمئة وثمانين يوماً، كل يوم من طوله وشدَّته سنة، فهل بعد هذا مجال للصبر؟

ألاَّ يعذر لو ألقى السلاح، بعد هذا كله وانسحب؟.

ولكن لا!.

إن قريشاً بجهلها وحماقتها تريد أن تصد النور عن الأرض كلها، تريد أن تمنع الخير عن العصور القادمة التي ستتلقى هذا النور، تريد أن تمنع قيام بغداد والقاهرة، وجامع قرطبة، والمدرسة النظامية، تريد أن تطمس الحضارة

التي جاء يقيمها محمد، فتمتد من أقصى الغرب إلى آخر جاوه، فماذا يصنع محمد؟.

يهاجر ليفتح للدعوة باباً آخر تطل منه على الدنيا.

وكان هذا الباب هو يثرب التي صارت به (المدينة المنورة).

وسيَّر أصحابه إليها، وتأخَّر هو، لم يترك مكة دار الفزع، إلى يثرب دار الأمان، حتى لم يبق فيها أحد من المسلمين.

لم يترك إلاَّ علياً، وهو منه، وهو كولده، نام في فراشه، ليؤدي الودائع التي كانت عنده لقريش، ولقد قلت من قبل إني قرأت هذا الخبر مئة مرة فما انتبهت إلى ما فيه إلاَّ تلك المرة، حين فكَّرت في قريش، كيف تودع محمداً أموالها وذخائرها رغم كل ما كان بينه وبينها، وهل يودع حزب أوراقه ووثائقه عند فرد من حزب آخر معاد له، لولا أنَّ محمداً كان في أمانته، وفي قوَّة خلقه، أُمة وحده، وأنَّه كان من طراز ليس له في البشر ثان.

* * *

وهاجر مختفياً مع صفيِّه وخليله شيخ المسلمين أبي بكر، لم يختف من ضعف ولا جبن، ولكنه كان كالقائد المسافر ليدير المعركة الكبرى، فهل يظهر نفسه ويقف على الطريق، ليحارب فصيلة لحقت به، فيظفر عليها، ويعطل المعركة الكبرى؟.

إنَّها تنتظر محمداً معارك أكبر، تنتظره بدر، والفتح، وهوازن، والقادسية، واليرموك، وجبل طارق، ومعارك الفتح الإسلامي، التي امتدَّت من بعد. سلسلة مظفرة خيرة، نثرت شهداء الحق في كل أرض، ونصبت راية العدل على كل جبل، وأضاءت بالإسلام القلوب والبلاد في كل مكان، وتنتظره المعركة مع الجهل والفقر والظلم والفسوق، وسائر الأوضار الخلقية التي جاء ليطهر المجتمع البشري من آثارها.

ودخل المدينة لا يرفرف على رأسه علم، ولا يمشي وراءه موكب، ولا

يقرع له طبل، ولكن ترفرف على رأسه راية القرآن، وتمشي وراءه العصور القوادم، ويخفق له قلب التاريخ ما بقي في الدنيا تاريخ.

وختمت في تاريخ الدعوة صفحة، وفتحت صفحة أخرى، ومضى عهد الضعـف والأذى وبدأ عهد القوة والظفر، وكانت الهجرة هي الحد الفاصل بين العهدين.

* * *

فيا أيها المسلمون.

اذكروا كلما احتفلتم بالهجرة، أنَّها كانت هي الفصل الأول في كتاب المكارم والمفاخر والأمجاد، وإنَّ على المسلم كلما ضاقت به سبل النجاح في حي أو بلد أو قطر، أن يهاجر إلى حيث الظفر والعزَّة والحرية، وحيث يكون ذلك كله، وحيث تسود العدالة ويعم النور، وحيث ينادي المنادي:

(لا إلَه إلاَّ الله محمد رسول الله) ـ فذلك وطن المسلم!.

مُعَلِّمَةُ الرِّجَالِ

هذا الحديث عن السيدة التي أثبتت للدنيا منذ أربعة عشر قرناً، أنَّ المرأة يمكن أن تكون أعلم من الرجال، حتى يتعلَّموا منها، وأن تكون أرجل من الرجال، حتى يقتدوا بها، وأن تكون سياسية، وأن تكون محاربة، وأن تخلِّف في التاريخ دوياً تتناقل أصداءه العصور.

لم تتخرج في الجامعة، لم تكن في أيامها الجامعات، ولكنها كانت، (ولا تزال كما كانت) تدرَّس آثارها في كلية الآداب، كما تدرس أبلغ النصوص الأدبية، وتقرأ فتاواها في كليات الدين، كما تقرأ الأحاديث النبوية، ويبحث أعمالها كل مدرس لتاريخ العرب والإسلام.

امرأة ملأت الدنيا، وشغلت الناس، على مرِّ الدهور.

ذلك لأنَّه أتيح لها ما لم يتح لأحد، فلقد تولاها في طفولتها، شيخ المسلمين وأفضلهم، أبوها الصديق، ورعاها في شبابها خاتم الرسل، وأكرم البشر زوجها رسول الله، فجمعت من العلم والفضل والبيان ما لم تجمع مثله امرأة أخرى.

كانت امرأة، كاملة الأنوثة، تؤنس الزوج، وترضي العشير. وكانت عالمة، واسعة العلم، تعلم العلماء، وتفتي المفتين. وكانت بليغة، بارعة البيان، تبذُّ الخطباء، وتُزْري باللُّسن المقاويل. وكانت لقوة شخصيتها، زعيمة في كل شيء: في العلم، وفي المجتمع، وفي السياسة، وفي

الحرب. أمَّا منزلتها في الإسلام، فهي أعلى منازل التقديس، ولكن ليس في الإسلام تقديس لأحد يعلو به عن منزلة البشر، أو يمنحه صفات الألوهية، أو يعطيه العصمة المطلقة، أو يرفعه عن أن تقال في نقده كلمة الحق.

فهي أفضل امرأة في الإسلام بعد خديجة وفاطمة، أمَّا خديجة فلأنَّ لها مزايا قلَّما اجتمعت لامرأة، لها عقل لا توازيه عقول المفكرين من الرجال، ولها رأي ومنزلة، وهي أوَّل من رعى هذا الدين، لما كان نبتة ضعيفة، وماتت قبل أن تشهد كيف صارت هذه النبتة دوحة باسقة، امتدَّت في المكان، حتى أظَّلت الدنيا. وامتدَّت في الزمان حتى لامست فروع أغصانها حدود الخلود. أحبَّت محمداً وأخلصت له، وكانت له زوجاً خير زوج، وكانت له مثل الأم، وكانت له درعاً من سهام الحياة. أمَّا فاطمة فلأنها على نادر سجاياها، وعظيم مزاياها بضعة من رسول الله، وحسبها ذلك فضلاً على النساء.

* * *

ولقد عدَّ الزركشي (في الإجابة)[1] أربعين منقبة لعائشة، لم تكن لغيرها، تزوج الرسول نساءه كبيرات ثيبات (زواج مصلحة سياسية أو إدارية أو تعليمية، لا كما يقول الجاهلون)، وتزوجها بكراً، وكانت أحبَّهن إليه، وكانت آثرهن عليه. اختار الإقامة عندها لما مرض، وتوفي بين سَحْرها ونَحْرها، ودفن في بيتها، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها، وكان براً بها، قام لها لما جاء الحبشة يلعبون بحرابهم في المسجد، فوضعت خدها على كتفه لتنظر إليهم حتى اكتفت، وسابقها مرتين، فسبقته أولاً، ثمَّ لما سمنت وركبها اللحم سبقها، وقال لها: هذه بتلك ولما دخل عليها أبو بكر، وهي تقول للنبي ﷺ شيئاً مما يقوله الزوجات عند الغضب، همَّ بضربها فحماها الرسول منه، فلما خرج قال لها مباسطاً: أرأيت كيف حميتك من الرجل؟!

كذلك كانت معاملته ﷺ لأهله: معاملة إيناس وبرٍّ وانبساط، لا كما

---

(١) نشر هذا الكتاب أخي سعيد الأفغاني.

يظن بعض الرجال، يحسبون من الرجولة أن يبقى الرجل في بيته عابساً باسراً مقطباً وأن يأمر زوجته أمراً عسكرياً، وأن يبطش بها بطش الطغاة، كلا، ما هكذا كان رسول الله، ولا بهذا أمر الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».

ومن برِّه بها أنَّ فارسياً دعاه إلى وليمة (قبل أن يضرب الحجاب على زوجات الرسول، فقال الرسول: وهذه معي؟ (يقصد عائشة) قال: لا ـ وعاد فدعاه فقال: وهذه معي؟ قال لا. فدعاه الثالثة. فقال: وهذه معي، قال: نعم، فانظروا إلى هذه السماحة من الرسول. وهذه الصراحة من الرجل، وقيسوهما بما تعرفون من أحوال الناس اليوم، ولما نزلت آية تخيير زوجات الرسول، بين الحرية والانطلاق فيطلقهنَّ رسول الله، وبين البقاء عنده، بلغ من حرص الرسول عليها أن قال: لا تبادريني بالجواب، حتى تستأمري أبويك، خشية أن تسرع فتختار الدنيا، فقالت: أفيك أستأمر؟ واختارت رسول الله، وتبعتها بقية أمهات المؤمنين.

أمَّا علمها فقد بلغت فيه الغاية. حتى قال أبو موسى الأشعري: كنا أصحابَ رسول الله، إذا أشكل علينا أمر سألنا عائشة.

وكانت بلاغتها تعادل علمها. قال الأحنف: سمعت خطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم، ولا أحسن فيه، من فم عائشة.

وكانت كريمة النفس، كريمة اليد، صبرت مع الرسول على الفقر والجوع حتى كانت تمر عليها الأيام الطويلة، وما يوقد في بيت رسول الله نار لخبز أو طبخ، وإنَّما كانا يعيشان على التمر والماء، ولما أقبلت الدنيا على المسلمين أتيت مرة بمئة ألف، وكانت صائمة، ففرقتها كلها، وليس في بيتها شيء، فقالت لها مولاتها: أما استطعت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه؟ قالت: لو كنت ذكرتني لفعلت.

لم يزعجها الفقر، ولم يبطرها الغنى، لأنَّها لمَّا عظمت نفسها، صغرت عليها الدنيا، فما عادت تبالي إقبالها ولا إدبارها.

وأطرف ما في عائشة، أنها كانت النموذج الأتم للمرأة، للمرأة في طبيعتها وفي طموحها، وفي مزاياها، وفي عيوبها.

كانت خير زوجة، والزواج هو عمل المرأة الأول، وإن أكبر غايات المرأة أن تكون زوجة وأن تكون أمًّا، لا يغنيها عن ذلك شيء ولو حازت مالاً يملأ الأرض، ولو نالت مجداً ينطح السماء، ولو بلغت من العلم والرئاسة ما تتقطع دونه الأعناق، ما أغناها ذلك كله عن الزواج، ولا محا من نفسها الميل إليه، ولا الرغبة فيه.

وكانت شابة جميلة، تشعر بشبابها وجمالها، ومحبة الرسول لها، وتتيه بذلك على ضرَّاتها، وتتخذ من حفصة حليفاً لها عليهنَّ، تصارعهنَّ بلسانها ويدها. ولو خلا بيت من سخط المرأة حيناً، وخلافها حيناً، لخلا بيت رسول الله، فليجد الأزواج في ذلك سلوةً لهم وأسوة، فإنَّها طبيعة المرأة. ولكنها كانت موقِّرة لرسول الله، في رضاها وسخطها، جاء في الحديث أنَّه ﷺ قال لها: إني لأعرف رضاك من سخطك. قالت: وبِمَ؟ قال: إن رضيت قلت لا ورب محمد وإن غضبت، قلت لا ورب إبراهيم.

وكانت مدللة، والدلال طبيعة المرأة الجميلة المحبوبة، وهو الثمرة الأولى للجمال، وللشعور بالحب، قالت مرة لرسول الله: كيف حبّك لي؟ قال: كعقدة الحبل (أي هو متين مثلها) فكانت تسأله مرة بعد مرة، كيف العقدة؟ فيقول ﷺ: على حالها.

وكانت تغار، والغيرة الثمرة الثانية لذلك، ولكنها غيرة مقبولة، تنبِّه الحب ولا تقتله، وتذكيه ولا تطفئه، ورب منبِّه لفرسه بضربة شدَّدها فقتلها ومُزْكٍ لناره بنفخة قوَّاها فأطفأها.

وكانت عالمة لأنَّ العلم لا ينافي طبيعة المرأة، لم يمنعها كونها أنثى، من أن تكون فيه للذكور إماماً.

ولكنَّها لما جاوزت حدَّها وخالفت طبعها، ودخلت غمار السياسة، التي يطالب بعض النساء اليوم بخوض غمارها، لا أقول لكم ماذا صنعت، ولكن سلوا رحاب البصرة، كم حوى بطنها من جثث؟ سلوا الجمل المشؤوم، كم سال على جنباته من دم؟ سلوا تلك الأرواح فيم أزهقت؟ سلوا تلك الضحايا فيم ذهبت؟

أنا لا أتَّهم السيدة بأنَّها هي المسؤولة قضائياً، عن هذه الأرواح، ومن أنا حتى أتَّهم أم المؤمنين؟ بل أقول إنها باشتغالها بما لم يخلقها الله له، ولا يدعوها الإسلام إليه، جرَّت هذا كله. ونحن حين نكره للمرأة السياسة، لا نريد أن نستأثر دونها بمتعها، ولا أن ننفرد بخيراتها، بل نريد أن ننزهها عن أوضارها، ونبعدها عن نارها.

وموقف آخر في حياة السيدة هو التهمة الشنيعة التي اتهمت بها، وهي أبعد عنها، من الأرض عن السماء، السماء التي نزل منها الحكم ببراءتها بآيات نقرؤها في صلواتنا إلى يوم القيامة، ولم تكن إلَّا درساً ألقاه الله علينا في شخص أكمل امرأة وأفضلها، ليبتعد النساء عن مواطن الشبهات، ولو كن تقيات نقيات، وليعرفن أنَّه إذا اتهمت عائشة أم المؤمنين، فليس في الدنيا امرأة هي فوق التهم.

وبعد، فلقد مرَّ على عائشة أربعة عشر قرناً، ولم تعرف الدنيا امرأة مثلها، وما أظن أنَّ كثيرات مثلها ستعرفهنَّ هذه الدنيا.

رضي الله عنها، وأعلى في الجنان منازلها.

سَيِّدَةٌ جَليلة

من سيدات المجتمع الإسلامي الأول

يا أيُّها السيدات اسمعن قصة هذه السيدة.

سيدة أبوها عظيم، وزوجها عظيم، وابنها عظيم، وهي عظيمة في مواهبها ومواقفها، عظيمة في نفسها وفي أعمالها.

سيدة ذات (مبدأ) وفت له، وثبتت عليه. سيدة شاركت في أجلِّ الأحداث، في السلم وفي الحرب. سيدة كانت ربة بيت صبرت على مُرِّه ولم تبطر بحلوه. سيدة كان لها من نبل القلب، وكبر العقل، وثبات الأعصاب، ما لم يكن مثله إلاَّ للقليل من عظماء الرجال.

وفي قصَّتها بعدُ عبرة للنساء، وأمل لمن ابتليت بالفقر من الزوجات، وإثبات لمن يحتقر النساء، إنَّ المرأة قد تكون أعقل وأنبل من الرجال، وبيان لمن لا يريد بالمرأة إلاَّ أن تكون متعة، لا هم لها إلاَّ زينتها وتبرُّجها، إنها قد تترفع عن زخارف (الأزياء)، وألاعيب النساء، حتى تكون ركناً في بناء الأمة، وعوناً على تحقيق مثلها العليا.

هذه السيدة يا أيها السادة:

أبوها المسلم الأول بعد رسول الله، شيخ الإسلام أبو بكر، وزوجها حوَّاري رسول الله، وأوَّل من سل سيفاً في سبيل الله، رائد الجهاد، البطل السمح الكريم، الزبير. وابنها الفارس البطل الشهيد، أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير.

وهي أسماء ذات النطاقين، أسماء العظيمة، العجوز التي وقفت يوم مقتل ابنها موقفاً لا تقوى عنيه صناديد الرجال.

وهي أخت عائشة الكبرى.

أسلمت بعد سبعة عشر إنساناً، فكانت في طليعة جيش الحق والهدى، جيش الإسلام، الذي ملأ الأرض نوراً، وبايعت الرسول على الوفاء لشرعة السماء، والثبات عليها، وبلغ من عمق الإيمان في نفسها، أنَّها لما رأت الإيمان قد تعارض مع أقوى عواطف النفس البشرية، مع حب الأم غلَّبت إيمانها على عاطفتها.

جاءت أمها تزورها، وكانت مشركة لم تدخل بعد في الإسلام، فهشت للقائها بعد طول الفراق، وتفتح لها قلبها، وقفز ليكون بريقاً في عينيها، وابتساماً في شفتيها، وتحية حلوة على لسانها، وضَمَّة دافئة في ذراعيها، ثمَّ ذكرت أنَّ أمها مشركة، وأنَّ رابطة الدين أقوى من رابطة النسب، وأنَّ الله يقول: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادَّ الله ورسوله﴾ فتراخت الذراعان، واغضت العينان، وجمدت التحية على اللسان، وأرسلت إلى عائشة أن اسألي رسول الله: أأصل أمي وهي مشركة وأستقبلها؟

فقال الرسول ﷺ: نعم صلي أمك واستقبليها.

وعلَّمها أنَّ الإسلام لا يحول أبداً، دون عواطف الخير والشر، ولا يقتل أبداً دوافع النبل في النفوس

* * *

وكان إيمانها كعقلها، وكانت متحكمة أبداً في أعصابها.

لما كانت الهجرة حمل أبو بكر ماله كله معه، لا ليحرم منه أسرته، بل ليعين به محمداً على دعوته، التي كان يراها أولى من نفسه وأسرته.

وبلغ ذلك أبا قحافة والد أبي بكر وكان مكفوف البصر فجاء متأسفاً غضبان وقال:

ـ ما أراه إلاَّ قد فجعكم بماله، كما فجعكم بنفسه.

ـ قالت: لا يا جدي.

وأخذت حجارة فوضعتها في كيس كان يضع ماله فيه، وألقته في صندوقه، قالت:

ـ تعال انظر.

ووضعت يده على الكيس.

فقال: إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن.

* * *

وكانت الهجرة، وهي حادث هين في ذاته، رجلان خرجا من مكة إلى يثرب، يخرج مثلهما كثير كل يوم، من كل بلد، من يوم خلق الله الدنيا حتى يأذن في خرابها، ولكنه عظيم في نتائجه، لأنَّه لم يكن سفراً من بلد إلى بلد، بل انتقال الدعوة من طور إلى طور، من طور الإسرار والضعف، إلى طور الإعلان والقوَّة، طور الظفر والعلاء.

وما كان لمحمد موكب تخفق فيه على رأسه الرايات، وتقرع أمامه الطبول، وتمشي وراءه الجند، وما كان في موكبه إلاَّ هو وصاحبه والدليل، ولكن كانت تمشي فيه الملائكة، وتحف به الرحمة، ويهرب من أمامه الماضي الأسود، ويتبعه المستقبل المنير.

موكب ما مشى من مكة إلى يثرب فقط، بل إلى دمشق والبصرة والكوفة، ثمَّ إلى بغداد والقاهرة، ثمَّ إلى قرطبة وسمرقند ودهلي[1]، إلى الدنيا العريضة التي حمل إليها أتباع محمد الخير والهدى، حين حملوا إليها الإسلام، ثمَّ مشى في الزمان إلى العصور الآتيات إلى ساحات الخلود...

موكب كان فيه رجلان وامرأة، امرأة نابت عن النساء حين مثلتهنَّ في

---

(١) والإنكليز يسمونها دلهي، وقد ثبت قروناً وهي عاصمة الإسلام في الهند، وفيها أروع آثار الملوك المسلمين.

هذا الموقف العظيم، امرأة لم تقطع معهما الطريق كله، ولكن أمدَّتهما بالطعام والزاد، وكذلك تصنع المرأة، إذا لم تصل مع الرجل إلى كل ميدان وصل إليه، فإنَّ لها الفضل في إمداده وعونه، فلولا المرأة (المرأة أماً، والمرأة زوجاً وسكناً) ما استطاع الرجال خوض هذه الغمرات.

كانت أسماء تعدُّ الطعام وتحمله إلى الرسول وصاحبه، وهما في الغار، وتمزقت مرة سفرتها (السفرة زاد المسافر أو وعاء الزاد) فشقت نطاقها (زنار[1]) اثنين، فربطتها بواحد وانتطقت (أي تمنطقت) بالآخر فسميت ذات النطاقين.

وكانت تعد لهما الطعام مرَّة، فجاءها أبو جهل وأصحابه، في زهوه الباطل، وكبره السخيف، فسألها عن أبيها.

وكانت الهجرة سراً لا يعرفه في مكة إلاَّ رجل وامرأة، عليٌّ وأسماء، فأبت أن تذيع السر، فهدَّدها، فلم تخف، فرفع يده فضربها وهي حامل.

وكذلك يفعل الجبان.

عجز عن أن يضرب الرجال فضرب امرأة حاملاً.

وكذلك يفعل الجبناء في كل عصر.

عجز اليهود عن مواجهة الأبطال في الحومة فواجهوا العجائز والأطفال في دير ياسين، ولكن ضربة أبي جهل دمَّرت الشرك، وذكرى دير ياسين ستدمر صهيون.

* * *

ولحقت أباها، ودخلت في الموكب القدسي الأنور، موكب الهجرة، حتى إذا قطعت الصحراء المقفرة، وأشرفت على أوائل النخيل في قباء، وضعت عبدالله، فكان أوَّل مولود في الإسلام، وكان عيد ميلاده هو عيد ميلاد الحضارة واليمن والخير.

* * *

يا سادتي، لما تزوج الزبير أسماء، لم يكن له في الدنيا شيء لا مال ولا عقار، ليس له إلاَّ فرسه، فلم يكن عليها أن تصبر على الفقر فقط، ولا أن تروض نفسها على الحرمان، وتخدم زوجها وحده، بل كان عليها أن تخدم هذا الفرس تمشي تجمع له نوى التمر، ثمَّ تدق النوى وتعلف الفرس.

وصبرت على هذا كله، وكانت مطيعة لزوجها. حريصة على مرضاته.

رآها رسول الله مرة وهو على ناقته، وهي تحمل النوى، وهي أخت زوجته، وزوجة ابن عمته، فقال لناقته: اخ اخ. ينيخها ليركبها معه.

قالت، فذكرت غيرة الزبير فأبيت.

أبت أن تركب مع الرسول، الطاهر المطهر المعصوم، خوف سخط زوجها، وما كان زوجها ليسخط، ولكنها المبالغة في مرضاته.

ولمَّا أعطاها أبوها خادماً ترعى الفرس، رأت نفسها قد غدت ملكة.

يا أيتها القارئة، يا من لها زوج فقير، فهي تتألم للحرمان، وتكاد تذم القدر. اسمعي بقية الخبر.

إنَّها صبرت على هذا كله، فكانت العاقبة أنَّها اغتنت، وانصبَّت عليها وعلى زوجها النعم، حتى إنَّه لما مات كانت تركته...

من يحزر كم كانت تركة الزبير؟ كم خلف زوج أسماء بعد جمعها النوى ودقه وصبرها على الفقر؟

خمسة ملايين درهم ومئتي ألف فقط لا غير.

لم يجمعها من الحرام، ولا من أخذ أموال الناس، ولا لأنَّه قعد في المجلس فدرَّس ووعظ، وقال. أنا حواري رسول الله، وابن عمته، فأعطوني، بل تاجر مثلما تاجر عبد الرحمن بن عوف والصحابة، وصار كما صار الكثيرون منهم من أصحاب (الملايين).

وكذلك كان المسلمون، كانوا رجال دنيا ودين، ومال وتقى، كانوا جناً في النهار، ورهباناً في الليل.

وكان الزبير مع ذلك سمحاً كريماً، كان له هذا المال، وكان له ألف مملوك يشتغلون لحسابه، ولم تجب عليه زكاة، لأنَّه لم يكن يدخر شيئاً.

أمَّا هذه السيدة الفاضلة فلم تخجل أولاً من فقر زوجها، ولم تبطر بغناه، وبقيت كما كانت امرأة خير وبر وإحسان.

* * *

وكانت في شجاعتها أخت الرجال، مثل حماتها صفية بنت عبد المطلب. شاركت يوم اليرموك في القتال، وفعلت فعل الأبطال.

ولما كانت الفتنة أيام سعيد بن العاص، واضطرب حبل الأمن، أخذت خنجراً فجعلته على جنبها، لتدافع به عن نفسها وبيتها، ولو أنَّ كل فتاة تعرف كيف تدافع عن نفسها، لا بالخنجر، فما نحتاج الآن إلى الخناجر، بل بأن تمشي مرفوعة الرأس، ثابتة النظر، شاعرة بالكرامة، وبأن ترد كل متعرض لها، طامع فيها، كما ترد الكلب العقور، لذهب من الأرض ثلاثة أرباع الفساد.

وكانت فصيحة بينة، أديبة شاعرة، ولها في رثاء زوجها مقطوعات.

* * *

وهاكم موقفها العظيم حقاً، الموقف الذي لم تقفه امرأة أخرى، وهل سمعتم أنَّ أماً تحكم على ولدها بالموت؟

كان عبدالله قد ملك الحجاز والعراق وفارس وخراسان، وانقادت له مصر، وكان له في الشام حزب، والتقت في كفه أطراف دنيا الإسلام، ولم يبق لبني أمية إلاَّ قليل من الشام، ثمَّ تقلَّص هذا الملك وانتقص من أطرافه، وضاقت دنياه باتساع دنيا بني أمية، فلم يبق من جيشه الذي خفقت راياته على المشرق والمغرب، إلاَّ نفر يحيطون به في الحرم، هذا كل ما بقي له. والمنجنيق

ينزل عليه والعدو يحيط به، وعرض عليه الفرار فأباه، ولم يرض أن يختم هذه الحياة الطويلة، الحافلة بالبطولات والأمجاد، بأبشع خاتمة بل آثر أن يموت ميتة أبيه، أن يسقط في المعركة الحمراء، وسط المعمعة، في الحرب الشريفة، وأن يغسل بالدم، ويوسد تراب الحرم.

وذهب يودع أمه ويستشيرها، وكانت عجوزاً مكفوفة، قد قاربت المئة، وقال لها:

ـ يا أم، قد خذلني الناس، حتى أهلي وولدي، ولم يبق لي أمل، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟

وترددت الأم، وذكرت في لمحة مولده في قباء، وذكرت نشأته وقلبت حياته صفحة صفحة، فكادت تغلبها نفسها وعاطفتها، ثمّ ذكرت أنّ هذه الحياة التي تختارها لولدها، حياة تسلبه مجده وكرامته، والموت خير من حياة بلا كرامة ولا مجد.

فتشددت وتثبتت وقالت:

ـ لا يتلاعبن بك صبيان بني أمية، عشت كريماً فمت كريماً.

أعطت الأم قرارها، وحكمت على ولدها بالموت، وهي تنتزع مع كل حرف من هذه الجملة قطعة من روحها، فكأنّها لم تحكم عليه وحده، بل حكمت على نفسها أيضاً بالموت.

وضمته إليها تتحسسه وتشمه، تأخذ من هذه اللحظات، الذخر الوحيد الذي ستعيش به بقية أيامها.

ولما انصرف أحسّت في قلبها بفراغ لا يسده شيء، شعرت أنّه لم يبق لها قلب.

* * *

أما إن هذا الموقف لو كان لامرأة فرنسية أو إنكليزية لنظمت فيه مئة

قصيدة، وأُلفت فيه مئة قصة، ولكن أسماء كانت عربية مسلمة، والعرب قد أضاعوا بيانهم وأدبهم، مع ما أضاعوا من تراث الجدود.

هذه (أسماء) السيدة الجليلة التي يتشرف بها تاريخ الأمة الذي تكون سيرتها فيه!

أَعْظَمُ قُوَّادِ التَّارِيخِ القَدِيم

ليست سيرة أبي بكر، ولا سيرة عمر، وليست سيرة سعد وخالد، وأولئك الأبطال العظماء، إلَّا فصولاً متشابهة، أو نسخاً مكررة، من سيرة المعجزة الكبرى في تاريخ البشر، سيرة الانبعاث الأعظم لقوى الخير في الإنسان، سيرة الفتح الذي حير نوابغ القوَّاد، وأعلام المؤرخين.

سيرة الصحارى المتسعرات المقفرات، التي لبثت دهوراً لا تسقى بغير الدم، ولا تنبت غير الأحقاد والثارات، فلما مرَّت يد محمد على هـذه الصحارى، أنبتت رمالها الدوحة الباسقة التي ظلَّلت الشام ذات الأعناب، والعراق ذات النخيل، ومصر ذات النيل، والقسطنطينية ذات الأبراج والقباب، وما شرَّق من الأرض وما غرَّب، دوحة العدل والحضارة والخير.

سيرة (الجندي) الذي كان منزوياً وراء الرمال، نائماً في وهج الشمس، لا يعرف المجد إلَّا في الحب والحرب، في كأس خمر أو قصيدة شعر، أو غزوة سلب ونهب، فلما هذبته مدرسة محمد، صيرته الجندي الأكمل في تاريخ الحروب، لم يعرف التاريخ جندياً أخلص منه لفكرته، ولا أقدم منه إلى غايته، ولا يعرف نفساً أطهر من نفسه، ولا سيفاً أمضى من سيفه، الجندي الذي مشى في كل واد، وصعد كل جبل، خاض البحار، وعبر الأنهار، وجاب الأرض كلها، حتى نصب للإسلام على كل رابية راية، وأبقى للإسلام في كل أرض وطناً لا تقوى على استلابه من أهله مردة الشياطين.

المدرسة التي أخرجت هؤلاء القوّاد الذين دانوا التاريخ، وكانوا أعاجيب في الذكاء والمضاء والعبقرية، وما تعلموا في كلية عسكرية، ولكنهم تعلموا في هذه المدرسة فخرجوا منها بـ(شهادة) الدنيا التي فتحوها، والحضارات التي أقاموها، والمآثر التي تركوها، أعظم القواد وأجلّ الأبطال: سعد هادم عرش الطغيان الفارسي في القادسية، وعمرو باني صرح الحضارة الإسلامية في مصر، وابن نافع بطل المغرب، وقتيبة وابن القاسم بطلا المشرق، والعشرات الذين ساروا في موكب النبوغ العسكري العربي إلى سوح الخلود، وكان أعظمهم بلا جدال، بل كان أعظم قائد في التاريخ كله بشهادة نابليون، وششترازه، وشهادة سيرته وأخباره وشهادة من سماه (سيف الإسلام) وحسبكم بها وحدها شهادة: خالد بن الوليد.

* * *

خالد الذي بدا نبوغه العسكري من صغره، فكان قائد فرسان قريش، ولولا الإسلام، لبقي نبوغه حبيس مكة، واسمه لقريش وحدها. ولكان منتهى أمره أن يكون فارس قبيلته، ولولا الإسلام لما خرج نبوغ خالد من بوادي الحجاز، ولما قضى سيف خالد على كتائب فارس والروم. ولما نقش اسم خالد مع أسماء القواد الخالدين. خاض خالد المعارك حياته كلها فما أخطأه النصر، ولا أفلت منه بعدما ظنَّ أنَّه أمسكه بيده إلَّا مرَّة واحدة كان خصيمه فيها رجلاً لا يقاس به الرجال، وكان خصمه رجلاً لا يعاب أحد بالهزيمة أمامه، لأنَّه لا يستطيع أحد أن يحارب الله ورسوله.

أقام رسول الله الرماة في أحد، على الجبل، وأمرهم ألَّا يزايلوه، فلما انهزمت قريش وولت، وأقبل المسلمون على الغنائم، وخالف الرماة وظنوا أنَّه النصر الأكيد، رأى ذلك خالد، وكان قائد فرسان قريش، فوثبت عبقريته وتيقظت، لتحوِّل هزيمة قريش نصراً، وهجم فزلزل بعض المسلمين وفوجئوا، وهربوا. ولكن رسول الله وقف أمامه بقليل من الرجال المثخنين بالجراح، المحطمين من التعب. فلم يستطع خالد بعبقريته وفرسانه اختراق

هذا السد من الأجساد المحطمة، لأنَّ في هذه الأجساد إيماناً...

وإذا كان البارود يرتد أمام الإسمنت المسلح بالحديد، فإنَّ قوى الشر كلها، والقنبلة الذرية معها، ترتد كلها أمام اللحم والدم، إذا كان مسلحاً بالإيمان، تسحقه أو تحرقه ولكن النصر الأخير لا يكون إلا للمؤمنين.

وكان خالد يعلم مدى نبوغه وقدرته، فلمّا رآها لم تصنع شيئاً، ورأى النصر قد انتزع منه بعدما صار في كفه، تيقن أنّه ليس أمام بشر مثله، ولكنه حيال شيء فوق البشرية. وما طالت به الأيام حتى علم أنّها النبوة فـ (أسلم) لها نفسه.

ضعفت عبقرية الأرض أمام وحي السماء، فأسلم خالد إسلام اقتناع ويقين، ونقله الإسلام من أفق إلى أفق، ورفعه من جوّ إلى جوّ، حتى أشرف به على الدنيا كلها، فأراها هذه العبقرية التي كانت حبيسة في بطن مكة لا تراها الدنيا.

كان يرى الظفر، أن تنكل قبيلة من العرب، بقبيلة من العرب، وأن يذبح العربي ابن عمه العربي، ابتغاء الغزو، أو إظهار الشجاعة، أو طمعاً بغنيمة وكسب، فصار بعد الإسلام، يرى الظفر في أن يدفع عن الحق، أعداء الحق، ولو كانوا أشد قوّة، وأعز نفراً، وكان أوّل امتحان له في الدرس الجديد الذي تلقاه في مدرسة محمد، يوم مؤته.

حين التقى ثلاثة آلاف عربي، ممن تخرج في هذه المدرسة، بمئتي ألف، وحين قضى القائد الإسلامي شهيداً في المعركة، فأخذ الراية خلفه جعفر فقضى، فأخذ الراية ابن رواحة فقضى، فلم يجدوا من يولونه القيادة إلّا خالداً.

وحمل الراية، وما معه إلّا بقية الثلاثة الآلاف، وحوله من العدو مئتا ألف، وليس في الدنيا قائد يستطيع أن ينقذ هذه القبضة من الرجال، من وسط هذا اللج، إلّا أن يأتي بأعجوبة، وقد أتى بها خالد.

واستطاع أن يخرج من لجة البحر من غير أن يبتل، وأن (ينسحب) من

وسط اللهب من غير أن يحترق، وأن يسجل للذكاء العربي، الذي هذبه الإسلام، هذه المنقبة في تاريخ الحروب

* * *

ولم تكن بعد ذلك معركة في تاريخ الجهاد الإسلامي، إلّا كان فيها خالد البطل المُعْلَم، والقائد العبقري. ويوم نفخ الشيطان في آناف بعض الأعراب فارتدوا بعد محمد، وأرادوا أن يزلزلوا بناء الإسلام، كان من نعم الله على خالدٌ، أن جعل على يديه تثبيت البناء، وأن يرد عنه عادية المخربين.

فلما استقرَّ الأمر في الجزيرة، وثبت العرب على الإسلام، وكتب الله لهم شرف حمل النور الهادي، الذي جاء به محمد، إلى آفاق الأرض، ليضيئوا القلوب بالإيمان، والعقول بالعلم، والأرض بالعدالة والأمان. كان خالد في مقدمة الأبطال الذين قادوا هذا الزحف المبارك، فمشى أولاً إلى العراق، ليواجه الدولة الطاغية المتجبرة، دولة كسرى، فخاض فيه سلسلة من الوقائع المظفرة، كانت المعاول الأولى، التي صدعت هذا الصرح العاتي.

ولما جاءه أمر الخليفة بأن يذهب إلى الشام، أتى بما لم يأت بمثله إلّا نفر من عباقرة القواد في تاريخ الحروب في الدنيا، حين اقتحم البادية، بادية الشام.

ومن المعروف، أنَّ الجيش العربي، أجرأ جيش وأخفه وأسرعه انتقالاً، شهد بذلك الأصدقاء والأعداء على السواء، ولكن الجيش العربي لم يعرف حركة أجرأ ولا أسرع ولا أعجب من، انتقال خالد بعشرة آلاف، من العراق (من الحيرة) إلى الشام، مخترقاً الصحراء التي ليس فيها نقطة ماء إلّا ما حمله على ظهور الإبل، وما ابتكره من حمل الماء في بطونها، وكان جنده يطيعونه ويتبعونه راضين، واثقين، ولو كلفهم خرط القتاد[1]. رحلة عجيبة لا يتسع الوقت لوصفها، فارجعوا إلى من شئتم من المؤرخين فسلوه ما خبرها

---

(١) القتاد شجر كثير الشوك ومنه اسم قتادة، كما نسمي نحن اليوم شوكة (شوكت).

تسمعوا قصة من أروع قصص المغامرة، ومثلاً من أعلى أمثلة الرجولة والعزم[1].

* * *

وماذا تظنونه صنع بعدما وصل ديار الشام؟

إنَّ الواحد منا يقطع هذا الطريق اليوم، في سيارة (نرن)، مضطجعاً يأكل ويتحدث وينام، وعنده المدفأة في الشتاء، والمروحة في الصيف، فلا يشكو برداً ولا حراً، ثمَّ إذا وصل استلقى من تعبه على الفراش. وخالد، قطعه على ظهور الإبل، تحت شمس الهاجرة، ووسط برد الليل، مع الجوع والعطش والخوف، فلما وصل، رأى أمامه جيشاً كثيفاً من الروم، وجيشاً أكثف منه، يتجمع قريباً منه، والمسلمين فصائل ليس لها قيادة موحدة، فما شكا تعباً ولا ابتغى راحة، ولا انتظر الأوامر من المدينة، بل حمل التبعة كاملة، وبادر إلى العمل، فجمع الفصائل الإسلامية وقادها، وعمد إلى الجيش الرومي الأدنى، فضربه في (أجنادين) ضربة، أذهبت روعه، وأطارت صوابه، ومزقته شر ممزق، ثمَّ وثب إلى الجيش الآخر، في اليرموك.

واليرموك، هو اليوم الأغرّ في سيرة خالد، وهو من أيام الإسلام المعدودات.

ولقد كنت أتمنى أن أفصّل لكم حديث هذا اليوم، ولكن الوقت لا يتسع لتفصيل ولا إيجاز، ما هي إلاّ إشارة وتذكرة. وكان العرب لا يزيدون على خمسة وأربعين ألفاً، سلاحهم ضعيف، ومنزلهم بعيد، والميرة والمدد منقطعان عنهم إلاَّ أن ينتظروا أياماً لا تنتظرها المعركة، والروم نحو مئتي ألف قد احتلوا من اليرموك موقعاً حصيناً، ومعهم الذخائر والميرة، وهم في بلاد كانوا يحكمونها، ويملكون مواردها وخيراتها، وإن تكن بلاداً عربية من الأزل، وكانوا على تعبئة فنية، والعرب بشجاعتهم، وقوّة قلوبهم، لا يعرفون

---

(١) وللقائد أحمد اللحام محاضرة قيمة في هذا الموضوع.

التعبئة، إنَّما يعرفون الهجوم هجوم النمر الكاسر... ولم يكن خالد رأى تعبئة حربية من قبل، فلما رآها لم يُسْتَطر لبه، ولم ينخلع قلبه، بل أحاط بها بنظرة، وتعلمها في لحظة، وعبأ الجيش العربي تعبئة كانت هي الأولى في تاريخ العرب.

فانظروا إلى عبقرية خالد حين تعلم من نظرة، ما تفنى الأيام، وتنقطع السنون دون تعلُّمه، وإلى مرونة الجيش العربي، وذكائه وسرعة اقتباسه، حين تلقى هذا الدرس من مرة واحدة، وأدَّى فيه (الامتحان) العاجل، وكان من (الناجحين).

وطهرت هاتان المعركتان أرض الشام، من الروم، وعادت عربية مسلمة، وكانت إحدى حسنات خالد.

* * *

واسمعوا الآن خبر أعظم نصر ناله خالد.

لقد انتصر على خصوم قريش في الجاهلية، وانتصر على مشركي قريش في الإسلام، وانتصر على المرتدين حتى ردَّهم عن ردَّتهم، وأيقظهم من سكرتهم، فعادوا إلى طريق الحق والهدى، وصاروا جندهما وأعوانهما، وخضع لعبقريته أكبر جيشين عرفهما التاريخ القديم: جيش كسرى وجيش قيصر، ولكن أعظم انتصار ناله خالد، هو انتصاره على نفسه.

تلك الانتصارات حاز مثلها قواد كثيرون، من قواد المبادىء كخالد وسعد وابن العاص، وقواد المطامع كانيبال (هاني بعل) والإسكندر ونابليون، وقواد التخريب والتدمير كجنكيز وهولاكو وتيمور، ولكن هذا الانتصار لم يحزه قائد قبل خالد، ولا سمعنا أنَّه حازه قائد بعده هو انتصاره على نفسه على ميوله وغرائزه، على طبيعته الأرضية.

وذلك أنَّه لم يكد يفرغ من اليرموك، ويقف ليقطف ثمرة النصر:

التهاني والدعوات، حتى لقيه كتاب العزل، وكان قد وصل من قبل المعركة ولكن أبا عبيدة كتمه حرصاً على المصلحة، ووفاء لخالد.

وعمر لم يعزله بغضاً به، ولكن ضحى به في سبيل المبدأ، في سبيل التوحيد: رأى الجند متعلقين به، معتمدين على عبقريته فعزله ليفهمهم أن النصر من الله، وأنَّ الله ينصرهم بخالد وبغير خالد، ليتكلوا على الله لا على بشر مهما سما[1].

ثمَّ إنَّه لم يعزله، إنَّما يعزل من يولى، وخالد لم يولّ القيادة العامة، بل كانت (شاغرة) فعين لها أبا عبيدة.

ولسنا في الكلام عن عمر، ولكنا في الكلام عن خالد، افتدرون ماذا كان أثر العزل في نفسه؟

قال: والله لو ولّى عليَّ عمر امرأة لسمعت وأطعت!

الله أكبر. هذا والله النصر الحق.

رحم الله خالداً، ورضي عنه وجزاه خيراً.

* * *

---

(١) وعمر لم يكن معصوماً من الخطأ، وإن كان العبقري النادر المثال، وكان الذي دعاه (عبقرياً) هو الرسول ﷺ سيد البشر.

قاهر كسرى

نحن الآن في قرية صغيرة، في واد ضيِّق، ليس فيه زرع ولا ضرع ولا بساتين ولا عيون، تفصلها عن العالم صحارى بعد صحارى، يضل فيها الهدى ويخاف فيها الخوف، وتشكو حرَّها عند الظهيرة الشمس، وتسأم سكونها في الليالي النجوم، فيها قبائل تنتقل كما تنتقل أكوام الرمل، وتقتتل كما تقتتل وحوش البراري، لا تجمعها جامعة، ولا تقودها حكومة، ولا يهديها دين، إلاَّ ديناً يدفعها إلى عبادة أصنام من حجر، ولا يمنعها من شر ولا ضرر. وليس لها من علم، إلاَّ علماً هو ألفاظ منمقة بليغة (هي الشعر)، وخرافات مهوشة مضحكة (هي الكهانـة). تلك هي مكة، وأولئـك هم العرب.

وكان يسير في مكة شاب عمره تسع عشرة سنة، قصير القامة عظيم الهامة، شديد التركيب، ضخم الجسد، كثير الشعر كأنَّه أسد صغير، أو كأنَّه ركيزة متينة من الإسمنت المسلَّح، وكان يمشي إلى الكعبة ليصلي لهبل وهاتيك الأصنام صلاة الصباح. وكان الشاب سعد بن أبي وقاص.

وكان في مكة كهل يجلُّه هذا الشاب ويوقره ويتخذه إماماً، فلقيه في ممشاه فأخذه ناحية وأسرَّ إليه كلاماً، توجها بعده إلى دار متوارية وراء صخرة عند جبل الصفا، وهنالك تشرَّف هذا الشاب بالانضمام إلى أتباع الدين الجديد فصاروا به سبعة.

سبعة نفر فقط، ستة رجال وصبي لم يكفر بالله قط وهو عليّ ابن عم رسول الله ﷺ.

سبعة كان عليهم أن يحملوا أمانة الإسلام حتى يوصلوها إلى كل مكان في الأرض، ولم ييأسوا من إيصالها.

وتزايد عددهم حتى بلغوا الأربعين، وانضم إليهم الرجل القويّ العبقري العظيم عمر، فخرجوا يعلنون دينهم بمظاهرة، مظاهرة مشى فيها أربعون رجلاً فقط، أربعين متراً فقط، ولكنها كانت أعظم مظاهرة في التاريخ لأنّها لم تقف عند آخر هذا الطريق القصير من الصفا إلى الكعبة، بل مشت، مشت في البلدان، ومشت في الزمان ولا تزال تمشي، حتى طافت الأرض، وجزعت[1] القرون.

وكانت معركة الكفر والإسلام. وكان في المسلمين مسالمون ومناضلون، وكان (سعد) ممن صاول وناضل.

وبشر محمد أتباع دينه بأنَّ الظفر لهم وأنّهم سيغلبون كسرى وقيصر فسخرت منهم قريش، لأنّها كانت ترى النصر على كسرى وقيصر أحد المستحيلات. ولكن محمداً كان واثقاً.

ولما استخفى محمد وصاحبه في الغار ولحقه سراقة ليقتله قال له محمد: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟.

ولم يصدق سراقة وظنَّ محمداً مجنوناً كما كانت تقول قريش.

* * *

وانتقلت المعركة من صراع فردي، إلى حرب منظمة وقدر لهذا الشاب، سعد بن أبي وقاص، أن يكون له شرف إطلاق أول سهم في الإسلام، شرف ابتداء الحرب المقدَّسة على الكفر والبغي والشر والفساد.

---

(١) أي قطعت واجتازت.

وقدِّر له أن يدافع عن الرسول ﷺ في أحد ويحميه بنفسه، وكان الرسول يناوله السهام ويقول له: «أرم فداك أبي وأمي، وما فدى رسول الله بأبويه غيره».

وقدِّر له أن يكون بطل معركة من أعظم معارك التاريخ. المعركة التي انهدَّ فيها عرش كسرى، أقدم عروش الطغيان على ظهر الأرض، وسقط فيها تاجه، وأن يكون له فيها شرف (فتح) أبواب العراق وفارس لنور الإسلام.

أتقدم بكم الآن قليلاً في السنين، لقد تبدلت الدنيا وشملت المعجزة الجزيرة العربية كلها، فذهب الخلاف بين القبائل، وجاءت (لأول مرة في التاريخ) وحدة عربية تحت راية الإسلام، ووصلت جداول النبع الذي انبثق من حراء إلى أطراف الجزيرة، بعدما سقتها جميعاً، وغمرتها بالخصب واليمن والبركات، وبلغت رسل محمد حدود العراق تحمل النور والعدل والسعادة إلى الدنيا، ولكن العدو وقف أمامها يمنعها من أن تحمل إلى الدنيا السعادة والعدل والنور. من؟ العدو القديم، فارس.

ولم تكن عداوة دولة لدولة، ولم تكن تنافساً في سلطان، ولا تزاحماً على أرض، بل شيئاً أعمق من هذا كله، خلافاً بين نظامين، بين الشرك وتأليه كل شيء، وبين الوحدانية التي تعتقد أنَّه لا يحيي ولا يميت، ولا يضرُّ ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع إلاَّ الله. بين العقل الذي استعبدته الخرافات والأوهام، والعقائد الباطلة، والعقل الحر الذي لا يعبد إلاَّ من خلق العقل، ومكَّن له هذا التمكين، وأعطاه هذا السلطان. بين الملكية الاستبدادية وبين الرياسة الشورية.

تنازعاً بين الرجعية الماضية التي تتبع ما وجدت عليه الآباء ولو كان الكفر والجهل والضلال، وبين الأمامية[1] التي تتبع سبل الخير أنى توجهت إلى الخير السبل.

---

(١) أو التقدميَّة كما يقولون، وصوابها اليَقْدَمية أو التَقْدَمية.

أنتقل بكم إلى (القادسية) إلى المعركة التي نشبت لتحدد مصير العالم، إلى الأمامية البصيرة أم إلى الرجعية العمياء. .

إلى الجبهة. . .

ها هنا جيش عربي فيه ثلاثون ألف مقاتل، فيهم آلاف مؤلفة من النساء الممرضات المدافعات الدَّينات الصينات، العفيفات الشريفات، لا المتبرجات ولا المتكشفات، جئن مع أزواجهنَّ أو جئن مع آبائهنَّ، فكان مع فرقة النَخَع وحدها سبعمئة امرأة منهم، ومع بجيلة ألف امرأة، وكان الجندي العربي لا يجيء إلَّا متطوعاً، وكان هو الذي يعدُّ لنفسه الراحلة ويعدُّ لنفسه السلاح، ويعد لنفسه الزاد، فإن لم يجد ما يتزود به، عاش على التمرة أو التمرات اليوم كله. فهل سمعتم أنَّ في تاريخ البشر جميعاً مثل هـذا الجندي.

إنَّه المثل الأعلى في الجندية في كل مكان وكل زمان، كان يقاتل وهو جائع، ويقاتل وهو تعبان، ويقاتل وهو مثخن، ويقاتل وهو مريض، قاتل في الصحارى المتوقدة في المناطق الحارة، قاتل على السفوح المغطاة بالثلج في المناطق الباردة، وقاتل في آسيا وفي أوربا وفي إفريقية، وقاتل في البر، وقاتل في البحر، وكان الشاب يقاتل، والشيخ يقاتل، والمرأة تقاتل. . .

وزرع شهداءه في كل أرض، وسقى بدمه كل ميدان، حتى نشر راية القرآن على ثلث المعمور من العالم في ثلث قرن.

وما قاتل قط إلَّا فئة أكثر عَدداً، وأكمل عُدداً، وما قاتل إلَّا انتصر وما قاتل إلَّا دفاعاً عن الحق والخير والمثل الأعلى. . .

* * *

وكان أمامه جيش فيه مئة وعشرون ألفاً، جيش منظم مرتب، يقدم للجندي فيه الطعام واللباس والسلاح والمطايا، جيش معه الذخائر ومعه المال ومعه الدنيا.

ولكن لم يكن مع الله فلم يكن الله معه.

ولست أقدر أن أصور لكم معركة القادسية في ربع ساعة[1] ولا ذلك بالمستطاع ولكن أعرض عليكم لوحات منها:

طلبت القيادة الفارسية من سعد أن يبعث إليهم بجماعة يفاوضونهم، يبينون لهم ماذا يريد العرب، فأرسل إليهم واحداً هو المغيرة بن شعبة[2].

وهنا يتجلّى لكم وجه فارس ووجه الإسلام.

حشد الفرس ما استطاعوا من الأبهة والفخفخة، وفساطيط الحرير، وستائر الديباج والوسائد المرصعة، والجند بأبهى الثياب، وأفخم الأزياء، وجاء المغيرة، بثيابه التي لا يملك غيرها، بثيابه المرقعة، وعباءته البالية، وسيفه الملفوف بالخرق، وأرادوا نزع سلاحه فأبى وثار في وجوههم، على انفراده وكثرتهم، ثورة الأسد بأمة الطواويس، فأجفلوا وارتاعوا وتركوه يدخل كما هو، فأقبل يطأ على هذه البسط وهذه الوسائد مزدرياً لها، مشمئزاً منها، ومن كان همه الحقيقة لا يبالي بالمظاهر، وقد علمهم محمد أن التقى تقى القلب، وأنَّ العظمة عظمة النفوس، وأنَّ متاع الدنيا ظل زائل، حتى بلغ سرير رستم فجلس عليه... فطارت عقولهم وصاحوا به، فقال:

ـ يا معشر العجم، قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ونحسب أنَّ لكم عقولاً، فالآن عرفت أنَّكم لا عقول لكم، وأنَّكم ترضون أن تكونوا عبيداً لأمرائكم، ونحن لا فرق فينا بين أمير ومأمور، بل الأمير فينا هو أكثر الناس عملاً، وأثقلهم حملاً، لأنَّ الإمارة فينا واجب وتكليف، لا لذّة وتشريف... فتركوه.

ـ واسمعوا هذا الحوار الذي يدلكم على ما صنع محمد بالعرب.

---

(١) هذا الكتاب كله كان في الأصل مجموعة أحاديث حدثت بها من إذاعة دمشق.

(٢) جعلت من هذه الحادثة قصة نشرت في أواخر العشرينيات فكانت أول ما عرف من القصص التاريخي.

يحسب رستم أنَّ هؤلاء الذين أقبلوا بجيوشهم على أرض فارس، هم العرب الذين يعرفهم من قبل، والذين كانوا يهابون عاملاً من عمَّال كسرى، وهو النعمان، ويسمونه ملك العرب، وأنَّهم لا يأتون إلاَّ طالبي رزق، أو سائلي حاجة، ولم يدر أي روح وضعها فيهم محمد، وأي خلق جديد خلقوه مذ شرَّفهم الله برسالته.

قال له رستم: إنَّنا نعلم سوء حالكم، وفقركم وإقفار بلادكم، وإنَّكم كنتم تأتوننا سائلين راغبين، وإنني سأعطي كل واحد منكم حمل بعيره قمحاً وتمراً، وأعفو عن جرأتكم علينا.

قال المغيرة: لقد كنا على شر مما ذكرت، وكنا نأكل من الجوع الحشرات والهوام، وكان أحدنا يقتل ابن عمه ليسلبه ماله، وكنا أهل جهالة وضلالة، ولكن الله بعث فينا نبياً، أرشدنا إلى طريق الهدى، ودلَّنا على أبواب الخير، فألَّف الله به بين قلوبنا، وأنار به عقولنا، وأثار به هممنا.

ومضى يشرح له مزايا الإسلام.

وأراد رستم أن يداعبه وأن يصغر منه فأشار إلى سيفه محتقراً، وجاء بسيف مرصع باللآليء والجواهر، وقال: خذ هذا بدله.

فسلَّ المغيرة سيفه، فبدا كأنَّه شعلة نار، وضرب به سيف الفرس، فقطع سيف محمد الملفوف بالخرق سيف رستم المرصع بالجواهر واللآليء، وقال: والآن إمَّا الإسلام أو الجزية أو الحرب، فنخر رستم لما ذكر له الجزية وشخر، وعتا وتكبر، وقال: لولا أنَّك رسول لقتلتك، ولكن غداً، غداً سأمحوكم من الأرض محواً.

* * *

وهذه لوحة أخرى، قدم الفرس الفيلة، وكانت الفيلة يومئذٍ كالدبابات في هذه الأيام، ولم يكن للعرب بها عهد، فاضطرب منها الجيش، ولم يدر كيف يردها فانبرى لها طائفة من الأبطال: عمرو بن معد يكرب، وأصحابه،

فواجهوها بالسيوف يقطعون به خراطيمها، فولَّت تدوس من سيروها ليحتموا بها، وهكذا يقلب الله كيد الكافرين عليهم، وينصر أولياءه، ما داموا مخلصين في نصرته.

إن تنصروا الله ينصركم.

وكان سعد مريضاً لا يستطيع حراكاً، وكان مع ذلك في دار تقوم وسط المعركة، لا يتزعزع ولا يضطرب، حتى شهدوا له أنَّ هذا المقام كان أبلغ في الشجاعة من مجال الفرسان بين الصفين، وكان يسيِّر المعركة ويأمر فيها بأمره، وينظر، فرأى فرسه يركبها فارس يجول فيها يصرع العدو، ويفرق الجموع، ويفعل الأفاعيل، فعجب وإذا هو أبو محجن، وكان يشرب الخمر، فحبسه في الدار وقيده، وكان أبو محجن قد رأى المعركة وهو سجين ففار دمه فقال لزوجة سعد: اطلقيني، ولك عليَّ عهد الله أن أعود حتى أضع رجلي في القيد، وصدقته، وما كان في المسلمين الأولين من يعطي عهد الله ويكذب، فأطلقته وأعطته فرس سعد، وكان فارساً شجاعاً لا يشق له غبار، ففعل في ذلك اليوم الأفاعيل.

فلما رأى ذلك منه سعد، قال: لن أحبسك في الخمر بعد اليوم، يريد سعد أن يشير إلى تركها مروءته ويحرك نخوته، فقال أبو محجن: وأنا لن أشربها بعد اليوم. فنفع فيه هذا المقال ما لم تنفع قيود الحديد.

وكان الفتح، وملك العرب يا سادة كنوز العجم، وأرسلوا حصة بيت المال إلى المدينة، فكانت شيئاً لا يتصور إلاَّ في الروايات الخيالية، وكان من ذلك بساط طوله ستون ذراعاً، وعرضه ستون ذراعاً فيه صورة بستان ونهر وأزهار، مصنوع من الديباج فيه قضبان من الذهب، وأنواع الجواهر يشربون عليه في الشتاء فكأنَّهم منه في ربيع، وجاء مع الغنائم تاج كسرى، وسواراه، فقال عمر: أين سراقة؟ سراقة الذي لحق رسول الله يوم الغار... فجاء فألبسه تاج كسرى، وسواريه، وقال:

قل الحمد الله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما أعرابياً من بني مدلج.

وتحقق وعد محمد وخاب وعيد رستم، فلم يمح جيش العرب ولكن محيت دولة كسرى من خريطة الدنيا.

وها هوذا إيوان كسرى اليوم، الإيوان الذي لم تكن تجرؤ الطير أن تطير فوقه، أو النسيم أن يدخله إلّا بإذن، صار مقفراً خالياً، يقوم وحيداً في الصحراء، يسكنه البوم وتصفّر فيه الرياح، وإلى جانبه قبر سلمان عليه بلد كامل.

القبر صار لسلمان المؤمن مدينة، والقصر قصر كسرى، صار يا كسرى خراباً، تلعب فيه صبيان العرب[1]

* * *

هذه هي القادسية، إحدى المعارك الكبرى في تاريخ الحروب العالمية حلقة ذهبية في سلسلة الوقائع التي فتحت أبواب العالم لنور الإسلام: بدر واليرموك والقادسية وجبل طارق وعين جالوت وحطين، ومعركة أخرى يا سادة ستأتي، معركة تل أبيب، التي سيقرأ خبرها أولادنا في المدارس، حين يدرسون، قصة طرد اليهود من فلسطين.

نعم وإنّا لها، ما فقدنا سلائقنا، ولا أضعنا إرثنا من خالد وسعد وصلاح الدين. نعم، وإنَّ في قلوبنا لذلك الإيمان، وعلى ألسنتنا لذلك الهتاف، وفي سواعدنا لهاتيك العزائم، وإنَّ الشعب الذي أطاح تيجان كسرى وقيصر وخاقان، لن يعجزه أن يطيح رأس صهيون.

---

(١) في كتابي (بغداد) فصل عنوانه (على إيوان كسرى) كان قد نشر في الرسالة (عدد ١٢/١١/١٣٥٥هـ) أي من خمسين سنة!.

مأساة عالم

أعود بكم اليوم ثلاثة عشر قرناً، رحلة بعيدة في الزمان، ولكني لن أبعد بكم في المكان، سأقف بكم على باب الأموي، الباب الجنوبي، ثمَّ أسير بكم وراء جدار القبلة إلى هذا الزقاق الحقير الذي اتَّخذناه سوقاً لبيع القباقيب، وهذه الحارة الضيقة التي لا تراها عين الشمس، ولا يدخلها الهواء. لقد كانت هذه البقعة يوماً من الأيام، عاصمة الأرض كلها، ومدار رحاها، وكانت محط كل رغبة، ومصدر كل رهبة، وكان فيها الغنى والسلطان، وكان فيها الجمال والجلال، وكانت الكلمة تخرج منها فلا يردها شيء حتى تصل إلى أقصى المشرق، وأبعد المغرب، يوم كانت ها هنا الدار الخضراء، قصر الخلافة الأموية التي كانت تحكم ما بين كراتشي ومدريد...

فتضاءل ذلك المجد، وتقلَّص الظل، وذهب الغنى والجاه والعظم والسلطان، حتى لم يبق من اسم الخضراء، إلاَّ عَلَم على مصبغة تحت الأرض، في هذا الزقاق الضيِّق.

وكذلك الدنيا، تمنح يوماً وتمنع يوماً، ويتعاقب فيها البؤس والنعيم، فلا يدوم سرور على بشر، ولا تدوم عظمة لمكان...

وما أدرى متى يبحث الشاميون عن التاريخ في أرض هذا البلد؟ متى يعلمون أنَّ تحت تراب دمشق القديمة، علماً إن استخرج غير وجه التاريخ القديم، وأحاديث عن الماضين لم تسمعها بعدُ أذن بشر، وكنوزاً وتحفاً،

تغني أهل دمشق[١]، وتحقق لهم (إن باعوها) كل مشروع خيالي، يحلمون به، وإن تركوها وجعلوا من هذه المنطقة (بعد التنقيب فيها) منطقة أثرية، كان منها أعظم المناطق الأثرية في العالم، لأنّ دمشق هي أقدم المدن العامرة في الدنيا. وصارت مقصد السياح من آفاق الأرض، وكان منها مورد دائم، نستطيع أن نبني به خلال عشر سنين فقط، مدينة جديدة، لهؤلاء الذين يسكنون في حارات دمشق القديمة، كالذي صنعناه في تدمر. ولكن متى تنال الأماني؟

* * *

نحن الآن يا سادة في الدار الخضراء، قصر الخلافة الأموية، في يوم من أيام سنة ست وثمانين للهجرة، في أزهى عهد من عهود أمية في الشرق، في عهد الوليد، الذي حقق هذا الحلم الذي لا يزال يتعلل بذكره، قادة المعسكر الشرقي والغربي، حلم العدالة الاجتماعية، فجعل الأمة كلها أسرة واحدة ليس فيها عاجز ولا محتاج، وفعل في القرن السابع الميلادي، ما لم تفعل مثله دولة في قرن العشرين[٢]، قضى على الفقر والمرض والجهل، أحصى المرضى الزَّمِنين، ورتب لكل زِمْن خادماً يخدمه وهو في داره، وأجرة هذا الخادم على خزانة الدولة، وجعل لكل أعمى مرافقاً يقوده وأجرة هذا المرافق على خزانة الدولة، وجمع الأيتام، فجعل لهم مدارس مجانية وتولت الخزينة الإنفاق عليهم، وحارب الجهل بأن جعل للفقهاء والعلماء مرتبات من خزانة الدولة، ومنع (الشحادة) والسؤال، ورتب للفقراء العاجزين ملاجىء، وقرر لهم رواتب، يعيشون منها ليستغنوا عن سؤال الناس.

ولو كان الحديث عن الوليد لسمعتم من سيرته العجب العجاب.

نحن الآن في قصر الخلافة، ولكن القصر لا يضحك بالبشر، ولا يرقص من الفرح، إنّه واجم كئيب لأنّ ضيف الخليفة مريض، وقد حشد له

---

(١) بيان هذا الاقتراح في كتابي (الجامع الأموي) الذي تبيعه وزارة الأوقاف في الشام للسياح وتأخذ هي الثمن!!.

(٢) هذا أصح من قولنا (القرن العشرين).

الأطباء، فجاؤوا من كل مكان، وحملوا معهم كل ما وصل إليه الذهن البشري من معلومات وتجارب، فهم مجتمعون يفحصون ويبحثون.

تقولون: ومن هو هذا الضيف؟ أي أمير هو من أمراء البيت الأموي؟ أي ملك من ملوك الأطراف؟ أي قائد من أعاظم القواد؟.

إنّه أعز من كل أمير، وأكبر من كل ملك وقائد، إنّه عالم من أجلّ علماء المسلمين، وأعجب من ذلك أنّه من الأسرة التي طالما عادت أمية، وناصبتها الحرب، ونازعتها الملك بالسيف، وكادت تهدُّ عليها عرشها، وتغلبها على بُرْدة الخلافة، وتسكن من دونها الدار الخضراء، إنّه من آل الزبير.

هو عروة بن الزبير شقيق الخليفة الشهيد عبدالله، وابن أبيه وأمه. ولكنه كان رجل علم وورع فلم يشترك في المغامرة معه ولا عليه.

* * *

اجتمع يوماً في الحرم، على عهد معاوية، عبدالله بن الزبير وأخواه عروة ومصعب، وعبد الملك بن مروان، فتمنوا، فقال مصعب: أنا أتمنى أن أحكم العراقين، وأتزوج عقيلتي قريش، وأجمل جميلات العصر: سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، وقال عبدالله: أنا أتمنى أن أنال الخلافة وأملك الحرمين. وقال عبد الملك: أنا أتمنى أن أقعد مقعد معاوية، وأحكم الأرض. أمّا عروة فقال: أنا لست في شيء من ذلك، أنا أتمنى أن أكون عالماً، وأن أدخل الجنة.

فلم تكن إلّا سنون، حتى نال كل من الثلاثة ما تمناه، حكم مصعب العراقين، وتزوج العقيلتين، وبويع عبدالله بالخلافة، وكان له الحجاز والعراق ومصر وأطراف الشام، وكاد يدخل دمشق ويتم له الأمر، لولا أنّه كان في ميدان الحرب أبرع منه في مجال السياسة، ولولا أنه كان لله قَدَر فيه وفي بني أمية، فقضى شهيداً كريماً، وعاد الأمر إلى عبد الملك فحكم الأرض، وكان يذكر هذا ويقول: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة.

هذا هو عروة، العالم الأجل، الكريم الأب والأم والنفس واليد، وكان أحد الفقهاء السبعة في المدينة، يقرأ ربع القرآن[1] كل ليلة، يقوم به الليل، فما تركه إلاَّ الليلة التي أحدثكم عنها ثمَّ عاود القيام من الليلة التالية.

وكان إذا جاءت أيام الرُّطب، ثلم حائطه (ثقبه) فيدخل الناس فيأكلون ويحتملون، وكان إذا دخله قرأ قوله تعالى: ﴿ولولا إذ دخلتَ جَنَّتك قلت ما شاء اللَّهُ لا قوةَ إلاَّ باللهِ﴾.

هذا هو ضيف الخليفة، الذي حشد له الأطباء من كل مكان، ليداووه من هذا الداء الذي نجم في رجله، وخرج الأطباء وقد قرروا أنه لا بدَّ من قطع الرجل.

وجزع الخليفة، ولم يدع باباً من أبواب الترغيب والترهيب إلاَّ فتحه لهم، وعرض عليهم كنوز الخزائن، ولكنهم عجزوا.

وترك لنا التاريخ وصفاً لهذه (العملية الجراحية) التي تمَّت قبل ألف وثلاثمئة سنة، في الوقت الذي كان أهل أوربة يسرحون فيه مع الأنعام. . .

عرضوا عليه الخمر ليسكروه، فلا يحس بألم القطع، فأبى وقال: لا أستعين على قَدَر الله بمعصية الله. فأرادوه أن يشرب المرقد (البنج) فقال: لا، فإني ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي، وأنا لا أجد ألم ذلك لأحتسبه عند الله.

يفضل أن يتألم ويلقى الثواب، عن أن يفقد الألم ويحرم الثواب.

وورد على الأطباء ما لم يكونوا يتوقعون، وسمعوا عجباً، كيف يحتمل

---

(١) كان من السلف من يستكثر من التلاوة، وأكثرهم كان يؤثر القليل مع التدبر، على الكثير مع الإسراع، وكلهم فاهم للقرآن، عامل به، يعلم أنَّه أمر ونهي أنزل لفهمه والعمل به، لا لتصحيح مخارجه، وتجويد أدائه، والتغني فيه فقط، ولا لحفظه وتلاوته بلا فهم ولا علم.

هذا الشيخ قطع رجله، وهو صاح واعٍ. ولم يدروا أنَّ عنده ما هو أشد أثراً من المسكر ومن المرقد، لديه شيء يستطيع أن يغيب به عن الدنيا كلها، وينساها ولا يعود إلى التفكير فيها.

وعرضه عليهم فدهشوا.

قال: إني سأدخل في ذكر الله، فإذا رأيتموني استغرقت فيه فشأنكم بها.

وذكر الله لا كما نذكره نحن، حين نذكر بألسنتنا، وقلوبنا في غفلة عن الذكر، ولكنْ ذكرَ اللسان والقلب والجوارح، ذكر من يحس إذ يدخل فيه كما يحسه من يكون في (المركبة الفضائية)، حين تعلو به عن الأرض فتصغر، ثمَّ يمضي صعداً حتى تصير كلها، بملذاتها وآلامها، ومسراتها وأحزانها، وكل ما فيها نقطة ضائعة في الحضيض، وذكرُ الله يعلو بصاحبه إلى حيث لا تبلغ مراكب الفضاء، ولا يصل إليه خيال من أبدعها.

فلما رأوه استغرق، بدأت العملية. قطعوا اللحم بالسكين المحمى بالنار[1] حتى إذا بلغوا العظم نشروه بالمنشار، وهو يهلل ويكبر، وقد جلَّله العرق، ثمَّ عمدوا إلى طريقة التعقيم، التي كانوا لا يعرفون غيرها، فحموا الزيت في مغارف الحديد حتى إذا غلى كووه بـه فأغمى عليه.

* * *

وكان الخليفة نفسه قاعداً ناحية، أبى إلَّا أن يحضر العملية إكراماً للشيخ، ولكنه لم يستطع أن يرى، فلما شم رائحة الزيت علم أنَّها قد انتهت، ولما أفاق الشيخ من غشيته، رأى القدم في أيديهم، فأخذها يقلبها. قدمه التي كانت بضعة منه، فصارت قطعة من لحم وعظم، وأدركه الضعف البشري، فقال: أما والذي حملني عليك، إنَّه ليعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط.

---

(١) للتعقيم.

وكان قلب الخليفة يتقطع أسفاً وحزناً، ولكن ماذا يصنع له، ما دامت أموال الأرض ومغرياتها لا ترد عليه رجله التي قطعت، وماذا يصنع له؟ وهو رجل قد فرغ من حب الجاه، وحب الغنى، فكان أغنى الناس لا لأنّه نال كل شيء، فلا يمكن أن ينال أحد كل شيء ولكن لأنّه زهد في كل شيء.

وإنّه لفي هذه الغمرة، وإذا بصرخة تخرق حجب الصمت، أن لقد مات ابن الشيخ.

ابنه محمد، الشاب العالم الصالح، الذي كان أمل أبيه، وكان قرّة عينه، يدخل الاصطبل ليخرج فرساً له، فيرمحه فيموت لساعته.

وهكذا تجتمع المصائب.

وفي هذه المحن، يظهر الإيمان ويكون الصبر.

وترنح الشيخ، وكاد يميل ويتزعزع، ثمَّ تماسك واحتمل، وعاوده إيمانه ولا ينفع شيء في هذه المواقف إلاّ الإيمان، وما زاد على أن قال:

لقد لقينا في سفرنا هذا نصباً.

* * *

وقدم على الوليد من الغد وفد بني عبس، وفيهم رجل ضرير، فسأله ما حاله فقال: يا أمير المؤمنين بت ليلة في بطن واد ولا أعلم عبسياً يزيد ماله على مالي، فطرقنا سيل فذهب بما كان لي من أهل وولد ومال غير بعير وصبي مولود، وكان البعير صعباً فندَّ فوضعت الصبي واتبعت البعير، فلم أجاوز إلاّ قليلاً حتى سمعت صيحة ابني ورأيت رأسه في فم الذئب وهو يأكله، فلحقت البعير لأحبسه فرماني فذهب ببصري. فقال: أرسلوه إلى عروة ليعلم أنَّ في الدنيا من هو أشد منه مصاباً.

واتعظ عروة، وقال: اللهمَّ إن كنت أخذت طرفاً، لقد أبقيت أطرافاً

وإن كنت أخذت ولداً لقد تركت أولاداً، ولك الحمد على ما أعطيت وما أخذت.

وكل مصاب يا أيها السامعون، في الدنيا من هو أشد منه مصاباً، ومن نظر إلى من هو دونه رضي واستراح، وليس إلَّا الصبر، والثقة بالله، فيا أيها المصابون ممن يسمع حديثي... يا أيها الشاب الذي كتب إليَّ من مصر الجديدة: إنَّها ما أغرقت أخاك في مياه النيل عمته، ولكن أغرقه الأجل، ونفذ فيه حكم القدر، وسيدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة، فقل لأمك، إنَّ الله هو الذي أعطى وهو الذي أخذ، وما دفن ابنها في التراب، ولكن ذهب إلى ضيافة أكرم الأكرمين، فهل تأسى لو كان استضافه، قريب كريم، أو صديق مخلص؟ فكيف وقد صار إلى كرم الله؟.

ويا أيها المصابون جميعاً، إنَّ هذا الحديث عزاء لكم وتصبير.

* * *

وعاد عروة إلى المدينة، وتلقاه الناس يعزونه، فكان أبلغ ما سمع، قول إبراهيم بن محمد بن طلحة إذ قال له:

والله ما بك حاجة إلى السعي، ولا أرب في السباق، وقد أبقى لنا الله منك ما نحن أحوج إليه، علمك ورأيك وفضلك، وإنَّ الله وليُّ ثوابك، والضمين بحسابك.

* * *

يا أيها السادة:

إذا كتب الله لكم الحج، وزرتم المدينة، فأمُّوا (وادي العقيق) الذي قيل فيه من روائع الشعر ما لم يقل مثله في واد في الدنيا، وأسألوا عن (بئر عروة) التي نظم فيها الشعراء دواوين من الشعر، والتي كانوا يتزودون من مائها في أسفارهم، والتي كان يحمل ماؤها من طيبه إلى عبد الملك في دمشق

وإلى الرشيد في الرقة، يُغلى ثمّ يجعل في قوارير ويسير.

فقفوا عليها واشربوا من مائها[1]، واسألوا الله الرحمة لعروة بن الزبير، الإمام العالم الصابر المحتسب.

(١) زرناها سنة ١٩٣٥ مع الشيخ الباقعة الأمير عبد العزيز بن إبراهيم رحمه الله أمير المدينة يومئذٍ، وكنا ضيوفاً عليه وولده أمير الباحة الآن. (أي عند صدور هذه الطبعة) رحمه الله.

العالم العامل

نحن اليوم مع علم من الأعلام الشوامخ، وإمام من الأئمة الكبار، ونادرة من نوادر الزمان، مع رجل ملأ في زمانه القلوب والعيون والأسماع، ولا يزال وقد مرَّ عليه ثلاثة عشر قرناً يملأ الأسماع والعيون والقلوب. مع رجل كان في الورع والتقوى آية ظاهرة، وكان في العلم بحراً زاخراً، وكان في الفصاحة والبيان علماً مفرداً، وكان أعظم وعاظ الإسلام في تاريخه كله، هو سيد التابعين، الحسن البصري.

وكان الوعاظ يُدْعون القصاص، وكان أكثرهم ممن يتخذ الدين حرفة، والتقوى صناعة، يأكلون بها الدنيا، ويجمعون بها المال، يمخرقون على العامة باللفظ الجميل، والمظهر الخداع، والخشوع الكاذب، يتكلمون من ألسنتهم لا من قلوبهم، لذلك منع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب القصاص من دخول المسجد في البصرة ولم يستثن إلاَّ الحسن البصري، لأنَّه كان يقول الحق، ويروي الحديث الصحيح، لا يسرد الإسرائيليات ولا ينقل الموضوعات. ولأنَّه كان يتكلَّم من قلبه، يزهد الناس في الدنيا وهو أول الزاهدين فيها، لا يزهدهم فيها، ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها، ولا يأخذ منهم أجراً، ولا يقبل منهم هدية، ولا يتخذ جاهه وسيلة إلى الحظوة عند الملوك، والقرب من السلاطين.

وكان الحسن نفسه حرباً على هؤلاء القصاص من علماء السوء، الذين

يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا، ولقد قال فيهم كلمة الحق التي أثرت وحفظت:

دخل المسجد مرة ومعه فرقد، فقعد إلى جنب حلقة، فأنصت يستمع حديث أهلها وهم يتكلمون في الدين والزهد، ثمَّ أقبل على فرقد فقال: يا فرقد، والله ما هؤلاء إلاَّ قوم ملُّوا العبادة، وصعب عليهم العمل، وقلَّ ورعهم، فوجدوا الكلام أهون عليهم فتكلموا!

* * *

هو الحسن بن يسار البصري، وكان أبوه في الأصل عبداً مملوكاً من سبي ميسان، وكانت أمه كذلك، ولكن الله أراد لهما ولذريتهما الخير، وإذا أراد الله الخير لأحد، هيأ له أسبابه، فصار أبوه مولى زيد بن ثابت أحد أئمة الصحابة وعلماء الصدر الأول، وصارت أُمه خيرة مولاة لأم المؤمنين وزوجة الرسول ﷺ أم سلمة، وكان من تمام حظه أنَّ أمه كانت تغيب فيبكي فتعطيه أم سلمة ثديها، فربما درَّ عليه اللبن من حنانها، فهل في التكرمة أكثر من أن يلتقم ثدي أم المؤمنين زوجة الرسول ﷺ؟!

وعاش بين الصحابة، فأقبل على العلم، ونشأ على التقوى، وكان من الفصاحة والبيان في منزلة قلَّ من بلغها من الأدباء. وقلَّما قرأت كلاماً أكمل ولا أجمل ولا أنبل من كلامه، ولقد شبهوه من قديم بكلام الأنبياء، وشهد له شيخ العربية وإمام أئمتها أبو عمرو بن العلاء، بأنَّه كان هو والحجاج أفصح الناس، قيل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

والعجب إن مناهج الأدب في المدارس لم تعن بدراسة هذا النمط من الكلام العالي المطبوع، وإنَّما اشتغلت بالمتكلف المصنوع الذي خلَّفه أمثال ابن العميد والصاحب (ابن عباد) من صفافي الكلام الخالي من الروح، الفارغ من المعنى، وتركت مثل ابن السماك الذي لا أكاد أعرف كلاماً أحلى وأبلغ من كلامه، والعتّابي وابن الجوزي في بعض كلامه في صيد الخاطر[1] وتوقيعات بلغاء الخلفاء، وكتابات أدباء العلماء..

---

(١) حققه أخي ناجي وكتبت له مقدمة طويلة وعلقت عليه.

وهاكم طائفة من كلام الحسن البصري، لتروا لوناً من ألوان البلاغة المطبوعة في كلام مليء بالدين والعلم، والنظر السديد، والرأي الصائب، لا كمثل رسائل الصاحب في سخفها ورقاعتها وتكلفها ومجانبتها سبيل البلاغة الواضحة. . .

هذه كلمة له فيها من المعاني ما يشرح في كتاب ويصلح منهجاً للحياة الخلقية الكاملة، ونتيجة لدراسة نفسية شاملة، في أقصر لفظ، وأوضحه وأجمعه للمعاني، حتى لكأنَّها من جوامع الكلم.

سئل عن الرجل الكامل الرجولة، والبطل الظاهر البطولة، فقال: هو من يملك نفسه عند الرغبة والرهبة، وعند الشهوة، وعند الغضب.

وانظروا إلى تعريفه الإنسان في قصر عمره، وأنه يضيعه بغفلته وجهله. قال: ابن آدم، إنَّما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك. وانظروا إلى هاتين الصورتين البيانيتين، يرسمهما هذا العبقري البين، بألفاظ معدودة، كما يرسم المصور اللوحة المعبِّرة، بالخطوط القليلة. صورة في وصف أهل الخير والكمال من صحابة رسول الله ﷺ ،وصورة لعلماء السوء الذين يتخذون مظهر الدين، وزي التقى، سلماً لنيل الأموال والحظوة عند الأمراء.

أمَّا الأولى فقد قال له بعض القوم، أخبرنا عن صفة أصحاب رسول الله ﷺ، فبكى، وقال: ظهرت منهم علامات الخير في السيماء والسمت، والهدى والصدق، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد، وممشاهم بالتواضع، ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا، وإعطائهم الحق من أنفسهم، ظمئت هواجرهم، ونحلت أجسامهم، واستخفوا بسخط المخلوقين لرضا الخالق. لم يُفرطوا في غضب، ولم يحيفوا في جور، ولم يجاوزوا حكم الله في القرآن؛ شغلوا الألسن بالذكر، بذلوا لله دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم، ولم يمنعهم خوفهم من

المخلوقين، من إنفاذ حكم الخالق. حسنت أخلاقهم، وهانت مؤنتهم، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم.

وأمَّا الثانية، فإنَّه مرَّ بباب الأمير ابن هبيرة فإذا هو بالقراء على الباب، فقال: ما يجلسكم ها هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الأبرار، تفرَّقوا فرَّق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد شمرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم، فضحتم القراء فضحكم الله؛ أما والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، لكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم.

ووصف الصالحين فقال: إنَّ لله عزَّ وجل عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة خالدين، وكمن رأى أهل النار في النار خالدين، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة، أمَّا الليل فصافَّة أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم: ربَّنا ربَّنا، وأمَّا النهار فحلماء علماء، بررة أتقياء. كأنَّهم القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويظنهم خولطوا ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم.

* * *

وكان الحسن صداعاً للحق، لا يسكت عن إنكار منكر، ولا تمنعه منه هيبة أمير، ولا بطش ملك، وكان حيناً يعرِّض تعريضاً، وحيناً يصرح تصريحاً فمن تعريضه بالأمراء وترفهم وسرفهم، وصفة رسول الله ﷺ قوله:

لما بعث الله محمداً ﷺ يعرفون وجهه، ويعرفون نسبه، قال: هذا نبيِّي هذا خياري، خذوا من سنته وسبيله، أما والله ما كان يغدى عليه بالجفان (الموائد) ولا يراح، ولا يغلق دونه الأبواب، ولا تقوم دونه الحجاب، وكان يجلس على الأرض، ويوضع طعامه على الأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار. ثمَّ قال: ما أكثر الراغبين عن سنة نبي الله، وما أكثر التاركين لها.

ثمَّ راح يعرض بعلماء السوء الذين يفتون كل حاكم بما يرضيه فقال: ثمَّ إنَّ علوجاً فسقة، قد أضلَّهم ربي ومقتهم، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا، وشادوا وزخرفوا. يقولون: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ويذهبون بها إلى غير ما ذهب الله بها إليه.

في كلام طويل جليل تلقونه في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني[1] يقول ذلك في مجلس وعظه الذي كان يحضره عشرة آلاف من الناس.

* * *

ومن صراحته أنَّ عمر بن هبيرة لما ولي العراق، أرسل إلى الحسن والشعبي وابن سيرين، والثلاثة من أعلام التابعين، وأئمة المسلمين. فقال لهم: إنَّ أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليَّ في أشياء، إن أطعته فيها أغضبت الله، وإن عصيته لم آمن بطشه وغضبه، فهل ترون لي في متابعتي إياه فرجاً؟ فتكلم الشعبي وابن سيرين كلاماً فيه تقية ومداراة والحسن ساكت؛ قال له: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟

قال: أقول يا عمر بن هبيرة، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ، فيخرجك من سعة قصرك، إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، وإن تطع يزيد لا يعصمك من الله، يا عمر بن هبيرة لا تأمن أن ينظر إليك الله على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد ابن عبد الملك، نظر مقت، فيغلق باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة: لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمَّة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة، أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر بن هبيرة إن تكن مع الله في طاعته يردَّ عنك كيد يزيد بن عبد الملك، وإن تكن مع يزيد بن عبد الملك في معاصيه وكلك الله إليه.

---

(١) والحديث الذي انفرد بروايته يكون ضعيفاً.

فبكى عمر حتى أخضل لحيته، وزاد في إكرامه على الشعبي وابن سيرين.

* * *

وكان له مع الحجاج مواقف عظام لم يسكت عنه يوماً، ولم يكن في العراق والمشرق لسان يستطيع أن يقول الحق عالياً في الحجاج إلاَّ لسان الحسن، وسلمه الله منه بإخلاصه وابتغائه وجه الله وحده، وكان يطلبه أبداً، واختفى منه مرة في دار علي بن جدعان سنتين، ومرة في بيت أبي محمد البزاز. وأدركه الشرط مرة فساقوه إلى الحجاج، وأيقن الناس أنَّه قاتله، فلما رآه قال له: أنت الحسن؟ قال: نعم. قال: أنت القائل ما بلغني عنك. قال: وما بلغك عني؟ قال: قولك، اتخذوا عباد الله خولاً وكتاب الله دخلاً، ومال الله دولاً، يأخذون من غضب الله، وينفقون في سخط الله، والحساب عند البيدر، قال: نعم. قال: وتكني بذلك عنَّا. قال: نعم. قال: ولم قلته ويلك؟ قال: لما أخذ الله ميثاق الفقهاء في الأزمنة كلها ليبيِّننَّه للناس ولا يكتمونه.

ثمَّ قال له: كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب؟ قال: كثير. قال: أين هم؟ فأطرق الحجاج ساعة مفكراً. ثمَّ قال: يا جارية الغالية. (أي الطيب) فخرجت بها. فقال: ضمخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب. ثمَّ قال: انصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت.

وانصرف وعاد إلى ما كان عليه، حتى بلغه موته وهو مختف منه في المسجد، فسجد شكراً لله.

وبعد فإنَّ سيرة الحسن البصري أجلُّ من أن يتسع لها حديث أو أحاديث، وكيف وهو علم الأعلام، وواعظ الإسلام، الذي بلغ من خلود اسمه أنَّه إذا قيل الحسن فقط انصرف ذلك إليه وحده.

وأختم هذا الحديث بوصف خالد بن صفوان[1] إياه لما سأله عنه مَسْلَمة ابن عبدالملك[2]. قال: أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم الناس به، وهو أشبه الناس سريرة بعلانية، وقولاً بفعل، إن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس كلهم محتاجين إليه.

رحمة الله عليه، ورضي الله عنه، وأسأل الله أن يمنَّ على أمة محمد ﷺ فيجعل فيها علماء من أمثال الحسن.

---

(١) كان خالد من الفصحاء المعدودين وكذلك كان الحسن وكان الحجاج.

(٢) هو أنجب أولاد عبد الملك وأعقلهم.

الخَليفَـــةُ الكَــامِلُ

يا أيها السادة: أريد منكم أن تأخذوا الأقلام بأيـديكم، وتجمعوا أذهانكم وتكتبوا كل صفة تتمنون أن يتصف بها الحاكم، في نفسه وفي أهله، وفي أمانته وسياسته، وفي لينه وشدته.. حتى إذا اكتملت الصورة الخيالية التي صورتها أمانيكم وآمالكم، جئتكم بحقيقة واقعة لملك من ملوكنا تعدلها وقد تزيد عليها.

حاكم كانت حياته المثال الكامل لما يمكن أن يبلغه خيال أديب قصاص، أو أمل عالم مصلح.

خليفة كان نموذجاً من النماذج التي لا ترى إلاَّ مرة واحدة في القرون الطوال، وليس من أمثاله في تواريخ الأمم كلها إلاَّ آحاد.

كان عالماً: العلماء الكبار تلامذة أمامه، وكان كاتباً: الكتاب البلغاء مبتدئون لديه؟ وكان دَيِّناً دين فعل لا دين قول، دين إخلاص وخلوة، لا دين رياء وإعلان، وكان يتواضع لله حتى ليكبر عنده الصغير المسكين، ويشتد لله حتى ليذل عنده الطاغية الجبار. وكان يعيش عيش الفقر وبيده خـزائن الأرض. ويحيا حياة العفاف والحرمان، وتحت سلطانه كل جميلة في الدنيا.

مَلِك لولا أنَّه كان بشراً لقلت إنَّه مَلَك.

* * *

يا سادة: لنرجع إلى الوراء ثلاثة عشر قرناً.

نحن الآن في مرج دابق في أوائل سنة ٩٧ للهجرة.

ودابق قرية في جهات حلب، من أعمال عَزَاز[1]، كان فيها المعسكر الأمامي للجبهة الرومانية، وفي دابق الخليفة الشاب سليمان بن عبد الملك، ومعه الجيش ورجال الدولة، وهو مرابط فيها منذ شتاءين. يمد الجيش المحاصر للقسطنطينية، الذي يقوده أخوه مَسْلَمة، والمعركة لا أمل في ربحها، وقد فشا الضرُّ في جيش مسلمة، وضعفت روح الجنود المعنوية، ووجب فك الحصار، وسليمان يصرُّ عليه خلافاً لآراء الخبراء العسكريين وعقلاء القوم.

وفشت الحمى في الجيش، وتتابعت الوفيات، حتى لم يجد الخليفة من الخدم واحداً صحيحاً يوضئه. وعلا المنبر يخطب، وصوته يملأ المسجد، فأصابته الحمى، فما زال يضعف صوته، حتى حمل إلى بيته محموماً. وعهد إلى ولده الصغير، فحوله عن ذلك مستشاره الخاص رجاء بن حَيْوه وما زال به، حتى رضي أن يعهد إلى الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز. فقال سليمان: نعم الرجل هو لولا أنَّ أبناء عبد الملك لا يرضون أن تصرف الخلافة عنهم. قال: فاجعلها بعده ليزيد بن عبد الملك.

وكتب العهد على ذاك.

ودعا إليه الأمراء الأمويين، وأشراف الناس، وأخذ بيعتهم على ما في الكتاب مختوماً.

وجاء عمر إلى رجاء، قال: يا رجاء إني خشيت أن يكون قد عهد إليَّ، وأنا والله لا أطيقها، فخبرني الآن وهو حي، لأصرفها عني، وأنا أشكر لك صنيعك. قال: لا والله، لا أخبرك بشيء. فانصرف مغضباً. وجاءه هشام، فقال: يا رجاء، أخشى أن يكون قد عهد إلى غيري، وأنا أشكر لك وأثيبك،

---

(١) ويسمونها اليوم أعزاز.

فخبرني الآن وهو حي، حتى أحوِّلها إليَّ. قال لا والله لا أخبرك شيئاً، فانصرف مغضباً.

ومات سليمان. وجمع رجاء الناس وفتح الكتاب فإذا هو عمر.

فضج أبناء عبد الملك، فلما سمي يزيد بعده سكتوا، وصعق عمر حتى ما يستطيع القيام، وقال: والله ما سألتها الله في سرٍّ ولا علن، فأخذوا بكتفيه حتى أقاموه إلى المنبر. وسكت الناس. فقال:

يا أيها الناس. إني ما استؤمرت فيها ولا خُيِّرت، وما لي بها من حاجة، وقد خلعت بيعتي من أعناقكم، فبايعوا من شئتم. فضجوا وصاحوا من كل طرف:

ـ لا نريد غيرك.

فقام عند ذلك فألقى خطبة العرش[١]، وأعلن فيها (بيانه) وسياسة حكومته، وأنَّه لا يملك التشريع لأنَّ الشارع هو الله، ولكن له السلطة التنفيذية وحدها، وأنَّه إن خالف الشريعة، وجبت مخالفته. وأنَّ الخليفة ليس سيد الأمة ومالكها، ولكنه أجيرها وخادمها فقال:

أمَّا بعد، فإنَّه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد القرآن كتاب، ألا ما أحل الله فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرَّم الله فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا لست بشارع ولكني منفذ، ألا وإني لست بمبتدع، ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله. ألا وإني لست بخيركم ولكني رجل منكم، غير أنَّ الله جعلني أثقلكم حملاً.

* * *

وارتجت الأرض من دبدبة الموكب الرسمي. وأُعدَّت السرادقات الملكية، فأبى ذلك كله وقال: ما لي ولهذه المراكب! نَحوُّها وقربوا إلي بغلتي، فركبها وسار إلى فسطاطه، وأمر بإبطال الموكب الرسمي، وبيع أثاث

(١) كما تدعى اليوم.

الفساطيط الملكية ورياشها وإدخالها في بيت المال.

لما كانت البيعة يا سادة، حسب الناس أنَّه أمر كالذي عرفوا من الأمور.

خليفة يمضي، وخليفة يأتي، ويبقى كل ما كان على ما كان.

يتبدل الرَّفْرَف الأعلى من البناء، فماذا ينفع المقيم في الأقبية المظلمة، والغرف الباردة أن تتبدل رفارف البناء؟

ولكن لم يكد يصعد الخليفة الجديد المنبر، ويلقي خطبة العرش، ولم يكد يصدر أمره في دواب الموكب وأثاث الخلافة حتى أدرك الناس أنَّه أمر ليس كالذي عرفوا من الأمور، وليس خليفة كالذين رأوا من الخلفاء.

وليس تبديلاً في ذرى البناء، ولكنها بوادر تبديل شامل، إصلاح أساسي، يبدأ من أسس البناء، لا يقتصر على الزخارف والألوان، إصلاح يبدأ من جذور الدوحة، لا من الفروع وحدها والأغصان.

ولم يدم هذا الأمل إلَّا مثل ما تَبرق في الجو بارقة وتختفي، خافوا أن يكون هذا الخليفة الذي يزهد في الملك، ويعلن التنازل عنه، ورد أمره للناس، خافوا أن لا يكون منه إلَّا رجل صالح متعبد، ولكنه مغفل ضعيف يعجز من أول يوم عن إدارة هذه الآلة الضخمة، الممتدة أجزاؤها من فرنسا إلى الصين، نعم من حدود الصين إلى أطراف فرنسا، الآلة الهائلة التي يسمونها الدولة الأموية.

وأمسكوا بقلوبهم خشية أن يتبدد هذا الحلم الذي برقت لهم بوارقه من خطبة العرش.

ولكنَّ الحلم يا أيها السامعون. . . إنَّ الحلم تحقق. وصار الخيال في تاريخنا حقيقة واقعة!. .

إنَّ عمر بن عبد العزيز لم يذهب إلى زاوية ليقرأ الأوراد، بل قعد من

فوره يملي الكتب إلى الأطراف ويضع البرنامج للحكومة الجديدة، وكان أوَّل أمر أصدره، الأمر بفك الحصار عن القسطنطينية، ورجوع الجيش، فرجع بعد ما قاسى الجند الإسلامي الويلات من هذا الحصار، ثمَّ أصدر تشكيلات سريعة (كما يقال باصطلاح اليوم) في المناصب الكبرى، فعزل الأمراء الظلمة الطغاة، وكان منهم والي إفريقية يزيد بن أبي مسلم العاتي الظالم، المتهم بحبس الناس وتعذيبهم وضربهم بلا وجه شرعي، وأسامة بن زيد التنوخي، رئيس المالية في مصر، وكان يقطع الأيدي ويشق البطون، ويرتكب الجرائم الكبار، وحكم عليه بالحبس سنة في كل مركز من مراكز الدولة، أي بالسجن المؤبد، وعزل عمال الحجاج جميعاً، وولى ناساً صالحين أهل مقدرة وأمانة وحزم.

وكان حرس الخليفة، مؤلفاً من ستمئة: ثلاثمئة حرسي، وثلاثمئة شرطي، فنهاهم أولاً عن القيام له.. ثمَّ قال (حسبك بالأجل حارساً)، وأمر بحلِّ فرقة الحرس كلها، وأعطى الفقراء العاجزين عن العمل منهم رواتب تسريح دائمة، وعوض الباقين مالاً، وكان قد مرَّ عليه ليلتان بلا منام، فأغفى يستريح قليلاً فدخل عليه ابنه عبد الملك وقال له: تنام ولا ترد المظالم؟ قال يا بني: إنَّما هي ساعة فإذا قمت الظهر رددتها قال: ومن لك بأن تعيش إلى الظهر؟..

فنهض لرد المظالم...

أتدرون ما هذه المظالم؟.. هي الأموال الهائلة... والثروات العظيمة، التي تملكها أسرته، أخوته وحاشيته، لقد عزم على ردها إلى أصحابها إن عرف أصحابها، أو إلى الخزانة العامة، وأن ينفذ على الجميع قانون (من أين لك هذا)؟.

وبدأ في ذلك بنفسه! فقد كان له عقارات، أيام أسلافه من الخلفاء، فرأى أنَّه لم يكن لهم سلطة شرعية عليها ليعطوه إياها، وأنَّها من أملاك الدولة.

وهذا أيها السامعون هو المقياس الصحيح للدين، أن تبدأ بنفسك فتعظها، قبل أن تعظ الناس وإلاَّ فما قيمة الوعظ، إن كان الواعظ لا يعظ نفسه أولاً؟.

إنَّ من أسهل شيء على الإنسان، أن يكبر عمامته، ويعرض لحيته، ويوسع جبته، ويحفظ الآيات والأحاديث والرقائق، ثم يقعد في المساجد فيتكلم ولا قيمة لذلك في حساب الملكين، ولا وزن له عند الله إذا لم يكن معه صدق وإخلاص وعمل، إنَّ الكلام وحده لا ينفع شيئاً، فإن اتَّخذه سلماً إلى الدنيا، وطريقاً إلى الكسب، وجعله تجارة، حتى يصير به من أغنياء الدنيا، فهو الخسران الأكبر..

إنَّ أول ما ينبغي للمؤمن حين يقرأ قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ أن يكون مصدقاً بذلك، موقناً به، وألاَّ يخاف إن أقام الحق، أن يبقى هو وأولاده بلا طعام، فإن لم يفعل كان كاذباً، وما كان عمر بن عبد العزيز من الكاذبين.

وأحصى أملاكه فإذا هي كلها من عطايا الخلفاء، ولم يجد إلاَّ عيناً في السويداء، كان استنبطها من عطائه، والعطاء يا سادة ـ رواتب عامة، تعطى من بيت المال للناس جميعاً، نوع من الضمان الاجتماعي لم تصل إلى بعضه اليوم أرقى دول الغرب، وفكر في أولاده، هل تكفيهم غلَّة هذه العين، وهي مئة وخمسون ديناراً في السنة فقط!

ثمَّ ذكر أنَّ الرزاق هو الله، وأنَّ ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك. فنزل عنها كلها ومزق سجلاتها.

وتوجه إلى أمراء البيت الأموي، فجمعهم وحاول أن يعظهم، ويخوفهم الله، وبين لهم أن ليس لهم من الحق في أموال الخزانة العامة أكثر مما للأعرابي في صحرائه، والراعي في جبله، والزارع في مزرعته، وأنَّ ما

بأيديهم من أموال جمعوها من حرام ليس لهم، وإنَّما هي لله، وأرادهم على ردِّها فأبوا.

ودعاهم مرة أُخرى إلى وليمة أعدَّها لهم، فتركهم حتى يبلغ منهم الجوع ثمَّ قدم لهم عدساً وتمراً وبصلاً، وطعاماً من طعام الفقراء فأكلوا منه حتى إذا شبعوا، جاءهم بالطعام الطيب، فلم يستطيعوا أن ينالوا منه.

قال: أرأيتم؟ فلم التقحُّم في النار من أجل أكلةٍ وشربة؟!

فلم يستجيبوا، فلما عجزت معهم أساليب اللين، عمد إلى الشدَّة، وأعلن أنَّه كل من كانت له مظلمة، أو عدا عليه أحد من هؤلاء فليتقدم بدعواه، وألف لذلك محكمة خاصة وبدأ يجرِّدهم من هذه الثروات، التي أخذوها بغير وجهها، ويردها على أصحابها، أو على الخزانة العامة.

ووسطوا له عمة له، كان يوقرها بنو أمية لسنِّها وشرفها. فكلمته، فقال لها: يا عمة، قُبض رسول الله ﷺ، فترك الناس على نهر جار، فولي بعده رجل (يريد أبا بكر) فلم ينتقص منه شيئاً.. ثمَّ ولي بعده رجل (يعني عمر) فلم ينتقص منه شيئاً.. ثمَّ ولي رجل فشق منه ساقية صغيرة، ثمَّ لم يزل الناس يشقون السواقي حتى لم يبق منه شيء، وايم الله لأسدَّن السواقي حتى أعيده كما كان.

ودعا بجمر ودينار، فألقى الدينار، في الجمر حتى إذا احمرَّ، أخذه بشيء وقرَّبه من جلده. وقال: يا عمة أما تشفقين على ابن أخيك أن يكوى بهذا يوم القيامة؟.. قالت: إذن لا تدع الناس يسبوهم. قال: ومن يسبهم؟.. إنَّما يطالبونهم بحقوقهم.

فخرجت فقالت: هذا ذنبكم، لماذا زوجتم أباه بنت عمر بن الخطاب؟ اصبروا فإنَّه لا يحيد. وتجرأ عليه ابن للوليد بن عبد الملك، فكتب إليه كتاباً شديد اللهجة، أشبه بإعلان الثورة والمبارزة بالعصيان، فما كان من عمر، وهو اللين المتواضع إلاَّ أن غضب لله، فانقلب أسداً كاسراً وقبض على ابن

الوليد، وحاكمه محاكمة سريعة عادلة، كادت تودي به إلى سيف الجلّاد، لولا أن تاب وأناب.

وخضعوا جميعاً، وردوا ما كان في أيديهم من الأموال... واكتفوا بمرتباتهم الكثيرة التي كانوا يأخذونها من الخزانة.. ولكن عمر لم يكتف، وأمر بقطع هذه الرواتب، وإعطائهم عطاء أمثالهم، وأمرهم بالعمل كما يعمل الناس.

وعمَّ الأمن، وهمدت الثورات، وشملت السعادة الناس. واختفت مظاهر البذخ الفاحش ومظاهر الفقر المُدقع، وصارت هذه البلاد التي تمتد من فرنسا إلى الصين، كأنّها مدرسة داخلية أو جمعية روحية، تعيش بالحب والود والإخلاص، وكانت كتبه ومنشوراته مناهج تهذيبية إصلاحية، فيها علم وهدى وإدارة وتنظيم.

وبعد فمن هو عمر بن عبد العزيز، وكيف نشأ مثله في بني أمية.. وما كان بيت أمية بيت تقى ونسك؟ وما سيرته في نفسه وفي أهله؟

سأحدثكم عن هذا كله في مثل هذه الساعة من الجمعة المقبلة إن شاء الله[1].

كأني بكم تقولون وقد سمعتم حديث ابن عبد العزيز الجمعة الماضية: ومن أين لابن عبد العزيز هذه المزايا، وهذه الخلال، وما كان بيت أمية قط بيت زهد وورع، ولا عرف عن أمويّ قط[2] أنّه الناسك المتبتل؟.

وإني لأرجع بكم لأجيبكم خمسين سنة أخرى. أرجع بكم إلى عهد عمر العظيم، عمر بن الخطاب.

---

(١) كانت تذاع هذه الأحاديث بعد صلاة الجمعة في موعد (نور وهداية) الآن، هنا.

(٢) إلّا عثمان وإلّا معاوية الصغير، أي ابن يزيد بن معاوية.

كان عمر يعسُّ ليلاً، (يفتش) على عادته، فمر بخباء قوم من الأعراب فسمع امرأة تقول لابنتها: امذقي لبنك[1] قالت البنت: أما سمعت منادي عمر ينهى الناس عن ذلك؟ قالت الأم: امذقيه، فإنَّه لا يدري بك عمر، ولا منادي عمر. قالت: ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء. وإن كان عمر غائباً، فإنَّ رب عمر حاضر يسمع ويرى.

هكذا كانوا يا سادة، كان الحاكم يرجو رضا الله ومصلحة الناس حين يأمر وحين ينهى، وكان الناس يتقربون إلى الله بطاعة الحاكم لأنَّهم كانوا يرون طاعته من الدين.

قال عمر لغلامه. عَلِّم الخباء. وذهبا.

فلما كان غد، سأل عنها فإذا هي فتاة يتيمة، فجمع ولده، فقال: ها هنا امرأة صالحة، فمن يريد الزواج منكم؟ قال ابنه عبدالله: لي زوجة وقال الآخرون: لنا زوجات. وقال ابنه عاصم: لا زوجة لي. فزوجه بها. فكانت خير امرأة وأفضلها، فولدت له بنتاً، دعاها أم عاصم، ونشأت مثل أمها نشأة خير وصلاح.

وأراد عبد العزيز بن مروان الزواج، فقال: دلوني على امرأة صالحة، فدلوه عليها. فتزوجها فولدت له عمر.

فعمر بن عبد العزيز، كان ابن أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فمن هنا جاءته هذه الأخلاق العمرية. ثمَّ إنَّ أباه أراد له خير ما يريد أب لولده، فسلَّمه إلى الإمام الحبر شيخ المسلمين عبدالله بن عمر، فربي بإشرافه. فما ظنكم بمن يربيه عبدالله بن عمر، ويتولاه الأئمة الفحول عبيد الله بن عبدالله بن عتبة وأنس السائب وعبادة؟

ولما سافر أبوه إلى مصر والياً عليها، تركه عندهم في المدينة، ووكَّل

---

(١) اخلطيه بالماء.

به صالح ابن كيسان، فتأخر يوماً عن الصلاة، فزجره، فاعتذر بأن مُرَجِّلته كانت ترجل لمته (أي تزيِّت شعره) فكتب بذلك إلى أبيه، فأمر بحلق شعره فحلقوه.

* * *

نشأ في النعيم، وتقلَّب في فرش السعة. ورأى من الدلال ما لم ير ولد ناشىء، ولم لا؟ وأبوه والي مصر (ملك مصر) وجده مروان خليفة، وعمه عبد الملك خليفة، ولكن إذا جاء الدين، أو جاء الواجب فلا تدليل ولا ترفيه، وإنَّما كان يؤخذ بأشد الشدَّة، وأحزم الحزم، كما رأيتم في قصة الشعر.

وما بلغ الشباب، حتى كان من صدور العلم، ومن علماء العصر، ومن الصلحاء العباد. إلاَّ أنَّه كان رجل ترف ورفاهية؛ يلبس من الثياب ما لا تلبسه الملوك، ويلقي الثوب بعد لبسة واحدة، ويمشي مشية خيلاء، عرفت به وعرف بها حتى لقد صارت (موضة) يقلدها الشباب والصبايا وتسمى العمرية، وكان يتخذ أغلى العطور، فإذا طلع من أول الشارع هبت من طلوعه نسمة عاطرة كأنَّها نسمات الروض الزاهر.

ثمَّ زوجه عبد الملك بنته فاطمة. السيدة الأولى في ذلك العصر، بل لعلَّها لم تبلغ سيدة من النبالة و(الارستقراطية) ما بلغت هذه السيدة، كان أبوها عبد الملك خليفة، خليفة لا أمير قرية، ولا حاكم مدينة. كان الحاكم على ثلث المسكون من الأرض، وكان جدها مروان خليفة، ثمَّ صار أخوها الوليد خليفة، وصار أخوها سليمان خليفة، وصار زوجها عمر خليفة، وصار أخوها يزيد خليفة، وصار أخوها هشام خليفة، وصار ابنا أخيها من بعدُ خلفاء فأي سيدة في التاريخ كان من أهل بيتها الأقربين تسعة خلفاء؟.

وكانت جميلة، وكانت وفية. وكان عمر زينة الشباب شكلاً وقولاً وعملاً، وكان ثوب النعمة سابغاً عليهما، وكان الحب مالئاً قلبيهما، فعاشا فترة سعادة ما عاشها زوجان.

* * *

وولي عمر المدينة فجمع طائفة من علمائها وصلحائها، من أساتذته، فجعلهم مستشاريه، وفوَّض إليهم رفع كل مظلمة إليه. فلا يجدون مظلوماً ولا شاكياً ولا محتاجاً إلَّا أبلغوه. وكان يذهب بنفسه إلى دار أستاذه عبيدالله، فيُدخله أحياناً، وحيناً يرده من الباب. وهكذا كان الأمراء في تاريخنا مع العلماء، وكان العلماء أهل زهد وعفاف، فلم يكونوا يطلبون من الأمراء دنيا ولا مالاً ولا منفعة شخصية.

فلما ولي الخلافة.. وكان الناس يهتفون بشكر الله، ويضحكون لهذه النعمة، التي أنعم الله بها عليهم حين ولي أمرهم الرجل الصالح، كانت المناحة في بيت عمر.

وعجبوا وذهبوا يسألون ما الخبر؟

ما الخبر؟ الخبر أنَّ عمر جمع نساءه وجواريه. فقال: إنَّه قد نزل بي ما شغلني عنكن، فمن شاءت سرَّحتها أو أعتقتها ومن شاءت أقامت ولكن لم يكن مني لها شيء.

وأقامت معه فاطمة.

ولقد حدَّثتكم عن عمر في إدارته وفي سياسته، وحديثي اليوم عن عمر في نفسه وفي أسرته، وعن هذه الزوجة الفاضلة الخيِّرة. لقد عاش معها عمر بعد الخلافة وكأنَّهما أخوان ليس بينهما إلَّا ما يكون بين الأخوين، ما ذهب الحب، ولكن ذهب فراغ الوقت، وفراغ القلب. وملأت قلبه هموم الخلافة، فكانت خلافته نعمة على الناس، ونقمة على عمر وآل عمر.

قالت فاطمة لمن سألها عنه بعد موته: والله ما علمته اغتسل من جنابة أو احتلام، منذ استخلف حتى قبضه الله.

وأهملت هي كذلك التجمل والزينة، حتى لامها النساء، وواجهتها باللوم مرة إحدى نساء الأمراء فقالت لها: وهل تصنع الزوجة لزوجها إلَّا ما يحب؟ قالت: نعم. قالت فاطمة: فإنَّه يحب هذا مني.

ولم تفقد بالخلافة الحب ومتع الزواج فقط، بل فقدت النعمة والسعة، ولقد سمعتم أنَّ عمر كان قد تبرع بكل أملاكه للخزانة العامة. . رَدَّها حين ردَّ المظالم. لأنَّه رأى أنَّه كان أخذها من الخلفاء قبله بلا حق. ولم يبق له كما سمعتم وعرفتم إلَّا مئة وخمسون ديناراً في السنة. هذا مورده كله. وأسرته كبيرة، فألزم نفسه الحياة به وحده. فكانت حياته كأنَّها حياة موظف أمين من المرتبة العاشرة اليوم[1].

لم يسكن قصور الخلافة، وإنَّما أقام في داره (في موضع السميساطية) اليوم بجوار الأموي عند باب العمارة. وما زال يبيع ما فيها من الأثاث والرياش حتى عادت قفراً، وكان يصلح فيها بيده إن وجد في وقته فراغاً.

ولقد جاءت امرأة مرَّة من أقاصي إيران لتقابل الخليفة، فسألت عن قصره فدلوها، فوجدت داراً عادية ليس فيها إلَّا خادم صغير، فدخلت فإذا رجل يطيِّن جداراً وامرأة تناوله الطين، قالت لها: ألا تحتجبين من هذا الطيان؟

قالت: إنَّه أمير المؤمنين!!

وكانت هذه المرأة التي رضيت أن تشتغل أجيرة طيان. فاطمة زوجة الخليفة، وقريبة الخلفاء التسعة! وكان أكثر طعامه العدس، صبت فاطمة مرة للخادم الصغير عشاءه، فتذمر وغضب. وقال: كل يوم عدس؟ قالت: إنَّه طعام مولاك أمير المؤمنين!!

وكانت تصبر راضية، غير متألمة ولا متذمرة، ولا تشكو بل لا تعلن ما هي فيه إلَّا مضطرة، مرض عمر، فعاده أخوها مَسْلَمة، فلما خرج قال لأخته: يا فاطمة اغسلي قميص أمير المؤمنين فإنَّه وسخ، وهو خليفة والناس يعودونه، فلما رجع بعد أيام وجده لم يغسل، فأعاد القول عليها، ورآه الثالثة، فأغلظ لها الكلام، فأحنت رأسها وفي عينيها دمعة، وقالت: والله ما له قميص غيره!!

(١) والاصطلاح في المملكة أن المراتب ويبدأ عدّها من تحت، فالمرتبة الأولى هي أدنى المراتب.

ورأى مرة بنتاً له اسمها أمينة تمر في الدار فناداها: يا أمين. . يا أمين. . فلم تجب فأمر بإحضارها فإذا ثوبها مقطع. قال: لِمَ لم تردي؟. . فبكت وأشارت إلى ثوبها. فدعا بمولاه مزاحم، وقال: انظر إلى تلك الفرش التي فتقناها فاقطع لها ثوباً منها.

ثوب من ملحفة عتيقة لبنت أمير المؤمنين. فهل تقبل به بنت أحد السامعين؟

ومرَّت به بناته يوماً، فسددن أفواههنَّ وأسرعن، قال: ما لهن؟ قالت فاطمة: لم يجدن ما يتعشين به إلاَّ خبزاً وبصلاً، فسددن أفواههنَّ حتى لا تشم ريحهنَّ.

هذا عشاء بنات أمير المؤمنين فهل تقبل به بنت أحد من السامعين؟

وجاءه مرة تفاح من بستان من أملاك الدولة، فقعد يقسمه بين المستحقين، فجاء طفل له يحبو، فأخذ تفاحة، فأمر بانتزاعها منه فتمسك بها وهو يبكي، فنزعها من يده، فذهب إلى أمه باكياً، فأخذت درهماً فاشترت به تفاحاً. . فلما جاء عمر وجد التفاح فسرَّ به وقال: أنا والله أشتهيه وأكل منه، وسألته عن الغلام فقال: لقد انتزعت التفاحة من يده، وكأني أنتزعها والله من قلبي، ولكن كرهت أن أبيع نفسي من الله بتفاحة من فيء المسلمين.

وكان يتورع عن أقل من هذا، طلب مرة أخرى تفاحاً، وكانت دواب البريد قادمة في طريقها. فحملوا التفاح عليها، فباعه ودفع الثمن للخزانة، مقابل أجرة الدواب. وكانت دواب البريد كالسيارات الرسمية اليوم، فمن من الموظفين يمتنع عن أكل كيل (كيلو) تفاح، إذا جاؤوه به في سيارة الدولة، وهي فارغة وقادمة على كل حال؟.

وسخنوا له مرة أبريق ماء في مطبخ العامة (لأنَّ الخلفاء كانوا يطبخون ويطعمون الناس كل يوم) فاشترى للمطبخ حطباً في مقابل ذلك. وجاءه مرة موظف بأوراق رسمية، فاقتطع ورقة بمقدار إصبعين كتب فيها شيئاً له. فلما

كان الغد طلب الإضبارة، ثمَّ ردها، فنظر الموظف فإذا هو قد وضع فيها ورقة مكان التي أخذها.

* * *

أما (ديموقراطيته)، فكانت نموذجاً كاملاً، وكانت سجية منه لا تكلفاً. وكان يعمل صامتاً بلا دعاية ولا إعلان. وكان خارجاً إلى الصلاة فاعترضه إنسان بيده شكاة مكتوبة في طومار (كرتونة) فرما عمر بها فشجت وجهه وسال الدم، فجزع الرجل وخاف، فقضى حاجته، وأعطاه ترضية لأنَّه خوفه.

وكان معه رجاء (مستشار الدولة) يدرسان أوراقاً رسمية، فاحتاج السراج إلى إصلاح. ونادى الخادم فوجده نائماً، فقام رجاء فمنعه. وقال: ليس من الكرم أن يستعمل الرجل ضيفه، وأصلحه بنفسه. قال: أتقوم وأنت أمير المؤمنين؟ فقال: قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

وكانت له جارية تروِّحه في يوم حار فنامت وسال عرقها، فقام إليها يروِّحها.

ودخل المسجد مرَّة ليلاً، فداس إنساناً نائماً. فقال له: أأنت حمار؟ قال: لا، أنا عمر. فهمَّ به الحرسي قال: دعه سألني أأنت حمار؟ فأجبته: لا أنا عمر.

* * *

أعود يا سادة إلى حديث فاطمة، لقد تخرَّجت من مدرسته، وسارت على سنته. ورضيت لنفسها بما ارتضاه لنفسه. صبرت معه على الفقر، وتحت أيديهما كنوز الأرض، وصبرت على (الحرمان) وهي تعيش مع الزوج. وكان يصلي من خوف الله، فتصلي بصلاته، ويبكي من خشية الله، فتبكي لبكائه.

قال لها يوماً: أين نحن من ذلك النعيم الذي كنَّا فيه؟ قالت: أنت اليوم أقدر عليه لو أردته. قال لها: يا فاطمة إنَّ لي نفساً تواقة، ما أعطيت شيئاً إلاَّ

تاقت إلى ما هو أفضل منه، تمنيت الإمارة، فلما أعطيتها تمنيت الخلافة فلما أعطيتها تمنيت. . .

. . . وماذا تظنونه تمنى، وهل شيء أكبر من الخلافة. لقد أعطي الدنيا كلها، فهل شيء أعظم من الدنيا كلها؟ نعم. لقد تمنى ما هو أكبر منها: الجنة.

لذلك قال: فلما أعطيت الخلافة تمنيت الجنة.

وتمنتها معه فاطمة وسمت مثل سموه إليها. فهانت عليها الدنيا. وكانت كراكب الطيارة إذا هي علت وضربت في طباق الجو، رأت البلد العظيم نقطة، والنهر الكبير خطاً، والبحر كله بقعة حبر أزرق على صفحة ورق.

ولكن لا أنا (صدقوني) ولا أنتم نستطيع أن نتصور هذا، إنني ألقي الحديث، وأنتم تسمعون، وكل منا قد ملأت ذهنه مشاغل الأرض، ولذات العيش الصغار. إننا نعمى بها عن رؤية الحقيقة الكبرى. كمن يضع كفه أمام عينيه، فتسد هذه الكف الصغيرة الفضاء الأرحب. إننا اشتغلنا بمناظر الطريق عن غاية السفر، وبصغائر الحياة عن غاية الحياة. فصرنا إذا قرأنا أخبار هؤلاء لم ندركها. . ولكنها عندهم حقائق كبار.

إن لله عـبـاداً فـطـنـا   طلقوا الدنيا وعافوا الفتنا
قـد رأوها لجـة فاتخـذوا   صالح الأعمال فيها سفنا

وكان لفاطمة مجموعة حلي، ليس لامرأة مثلها، فقال لها يوماً: يا فاطمة إنَّ هذه لا تحل لك، وقد أخذت من أموال الله فإما أنا وإما هي، قالت: بل أختارك والله على أمثالها. فأخذها فوضعها في بيت المال. فلما مات عمر وولي أخوها يزيد ردها إليها. فتصورت عمر أمامها، وفاض قلبها دمعاً من عينيها، وغلبها حبُّها لمرضاته على الحلي ولذتها وقيمتها. فقالت: لا والله ما كنت لأعصيه بعد موته، ما لي فيها من حاجة. فقسمها بين نسائه وهي تبصر!

* * *

ولا يمكن استقصاء أخبار عمر ومناقبه في حديث، فدعوني أختم حديثي بهذه المنقبة العمرية. بهذا الموقف الذي لا يقوى على مثله إلاّ رجل من طراز عمر. ولقد يصبر الرجل على عضة الجوع، وشدَّة الحرب، ومعاناة الأهوال، أمَّا الصبر على الحب العارم، الذي يسحر القلب، ويسكر الجسد، ويختصر لذات الدنيا كلها حتى تكون وصال الحبيب، وآلام الدنيا كلها حتى تكون هجره. الحب الجارف الذي يزلزل كيان الرجل زلزالاً. فذلك شيء آخر.

ويظهر أنَّ عمر بلي هذا الحب مرة واحدة، أحب جارية كانت لزوجته فاطمة. وجرَّب الأساليب كلها لتهبها له فأبت، لأنَّ المرأة ترضى أن تضحي بكل شيء في مرضاة زوجها إلاَّ أن تقدم له أخرى تشاركها حبه، وتقاسمها قلبه، وكان يمنعه دينه أن يواصلها في حرام. ولبث كذلك يقاسي من حبها مثل كيّ المكاوي، حتى إذا ولي الخلافة، وبلغت فاطمة من الإخلاص له والتفاني فيه، أن ذابت رغباتها في رغباته، وأهواؤها في أهوائه، وقهرت نفسها ووقفت موقفاً لا تقفه امرأة، فوهبتها له، وتزينت الجارية ودخلت عليه، وفرك عينيه فلم يعرف أهو في يقظة أم في منام. ثمَّ تنبه في نفسه الشعور بالواجب! فسألها لمن كانت؟.. وممن أخذت؟

فلما تبين له أنَّها قد غصبت من أصحابها، وأنه يجب ردها، اصطرعت في نفسه قوتان: قوة هذا الحب القوي العارم، وهذه الرغبة التي صرم السنين الطوال في انتظار تحقيقها، وقوَّة الواجب الذي أخذ نفسه بإنجازه، والمبدأ الذي أعلنه مبدأ رد المظالم.

وتردَّد قليلاً ثمَّ أمر بردها إلى أصحابها.

فعاد بها أصحابها يهبونها لأمير المؤمنين. قال: لا حاجة لي فيها، قالوا: فاشترها. قال: لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى.

قالت. فأين حبك لي يا أمير المؤمنين؟.. قال: على حاله وقد ازداد.

ولم تزل في نفسه حتى ماتت.

هذه أطراف من قصة رجل، لو أن متخيلاً تخيل أنبل السجايا الإنسانية لما كانت إلاَّ سجاياه. رحمه الله ورضي عنه وأرضاه. قصة حاكم لو توهم متوهم، أكمل صفات الحكام لما كانت إلاَّ صفاته.

فاتح المشرق

إنَّكم لا تفهمون هذا الحديث إلَّا إذا وضعتم تحت أعينكم مصور العالم الإسلامي. أترون إلى هذه البلاد التي تمتد من ساحل المحيط الأطلنطي، حتى لتكاد تتصل بساحل المحيط الهادي، من فارس إلى الصين. إننا لم نفتح هذه البلاد لهواً ولا لعباً، ولكن أرقنا فيها أنهاراً، (أنهاراً حقاً) من دمائنا. وضحَّينا فيها بجبال، (جبال حقاً) من أجسادنا. وسخَّرنا لها عبقرياتنا، ووقفنا عليها بطولاتنا، التي لم يعرف التاريخ إلَّا الأقل منها، وبقي سائرها سراً في ضمير الغيب، واحتساباً عند الله.

ولكل منطقة قصة رائعة، تقرؤها فتقول هذه أروع قصص الفتوح، فإذا قرأت الثانية، رأيتها أجلَّ وأكبر. ولكل معركة قواد عباقرة تسمع أخبارهم، فتقول هؤلاء أعظم قواد الزمان، فإذا سمعت أخبار قادة المعركة الأخرى قلت، هؤلاء أعظم وأقدر. وإذا أنت أمام سلسلة ذهبية لا تدري أي حلقة فيها أثمن من الأخرى، وأي مرحلة من مراحل الفتوح كانت أطول وأروع؛ فتوح الشام؟ أم العراق؟ أم المغرب؟ أم المشرق؟ أم الروم والأناضول؟ أم الأندلس وجزائر البحر؟

لقد تعاقب على هذه الراية الإسلامية حتى بلغ بها الأفقين. وركزها في المشرق والمغرب مئات من القواد، منهم من وقف يدافع عنها ألَّا تتراجع، ومنهم من رفعها بعدما كادت تميل، وأعلاها وأعاد لها مجدها. ومنهم من

مشى بها خطوات في الطريق الوعر، ومنهم من جزع[1] بها أقطار الأرض، وفتح بها الفتوح.

وهذا الحديث عن قائد من هؤلاء القواد الكبار، واحد من سادة المعارك، وعباقرة الحروب في التاريخ العالمي، نابغة عبقري من طبقة انيبال والإسكندر، وخالد وسعد، وعقبة والمهلب وطارق، ومحمد بن القاسم وصلاح الدين ونابليون.

عن الرجل الذي ضمّ بسيفه إلى الوطن الإسلامي، بلاداً أوسع من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنكلترا معاً، بلاداً يسكنها أقوى شعوب العالم القديم على الحرب. وأشدها تمرساً به، وبراعة فيه، وقدرة عليه.

رجل ما رفعه نسبه فقد كان من أخسّ قبائل العرب، وأحطها منزلة، من قبيلة كان يستحيي أبناؤها من الانتساب إليها. ويضرب المثل عند ذكر الضَعَة بها، ويترفع العرب عن ذكرها، من باهلة.

هو الشاب الذي اختاره الحجاج، دون الكهول المجربين؛ والقوّاد المشهورين، ليتولى القيادة العامة لجيش المشرق، ليكون خلفاً للقائد العظيم الذي لا أجد أحداً من قوادنا أشبه بخالد في براعته وعبقريته منه، الملهب[2]، والذي عجب الناس من انتخابه لها، وأنكروه، ولولا خوفهم من الحجاج لعابوه وأبوه، فلم تمض إلاّ مدّة من الزمان حتى أثبت أنّه من أقدر القواد، وأنّ الحجاج كان ثاقب النظر، صادق الفراسة، عظيم الخبرة بالرجال.

الرجل الذي فتح من حدود إيران اليوم إلى أواخر تركستان، والذي دخل الصين، ولولا ما كان من الفواجع التي أودت به شاباً لفتح الهند والصين.

---

(١) أي قطع.

(٢) المهلب من أعاظم قواد الزمان ولكن أكثرنا يجهل أخباره.

ألم تعرفوا بعد من هو؟ إنَّه قتيبة، قتيبة بن مسلم الباهلي.

كان مركز جيش المشرق مرو، وكانت الفتن قد عصفت بذلك الجيش الضخم الذي كان يقوده الملهب وابنه يزيد، فلما عرضه قتيبة لم يجد فيه إلاَّ ثلاثمئة وخمسين درعاً فالتجأ إلى آخر حمى يلتجىء إليه كل جيش في الدنيا إلى الحمى الذي لا ينال من احتمى به، إلى الحصن الذي لا يؤخذ من تحصن به وهو الإيمان، فقام يخطب في هذه البقية من جيش يزيد بن الملهب، ويذكرهم الله، ويرغبهم ثوابه، ويحضهم على الجهاد، الجهاد لإعلاء كلمة الله لا الجهاد للمال ولا للبطولة ولا للمجد، الجهاد الذي لا يثمر إلاَّ إحدى الحسنيين: الظفر أو الجنة.

هزَّ نفوسهم، فطرح عنها أثقال الأحقاد والشهوات والأهواء، فلما تخففت منها سمت بجناحين من الإيمان والإقدام، إلى آفاق لم تكن تظن أنَّها تبلغها. فكانت هذه الكلمات حين مست جوانب الإيمان في النفوس، قد زادت الجيش عدداً إلى عدده، وعُدداً إلى عُدده، فإذا هو جيش جديد، قوي، لو رمى به المرامي لاستجاب له، ولو قَحَمَ به البحر لاقتحمه، ولو رام به الجبال لدكَّها... وكذلك تُجدَّد الجيوش، وتُعد للظفر.

وتوجه الجيش المؤمن على اسم الله، لينشر الإيمان في أرض لم ينتشر فيها. ويفيض النور على أُمم لم تر بعدُ النور، سار يصل الحلقات القديمة من سلسلة الفتوح الذهبية بحلقات جديدة، سار ليتمم الرسالة، ويحقق المعجزة، ويحمل راية الإسلام مرحلة أُخرى في طريقها المرسوم، حتى تتمَّ رحمة الله للعالمين، فتظلل الأرض كلها.

وما هي إلاَّ جولات حتى عجم الأعداء عوده، وعرفوا أي سهم ماضٍ رماهم به الحجاج، فأقبلوا يتسابقون إلى الطاعة، وجعلت تتساقط على قدميه التيجان، وجاء ملك الطالقان، وملك الصغانيان، من ملوك الترك، فقدَّما إليه مفاتيح من الذهب على وسائد من الحرير، رمزاً للاستسلام بلا قيد ولا شرط، وتبعهما الملك الكبير الداهية نيزك طرخان، ملك باذغيس (في طرف

الأفغان اليوم) فخضع له، وتقدَّمت جيوشه، فلم تلق معارضة تذكر، حتى وقفت للمعركة الكبرى في بيكند على أبواب بخارى، وقد تحالفت أمم الترك كلها على قتيبة، وحصرته فانقطعت أخبار الجيش عن الحجاج، شهرين كاملين، حتى يئس ولم يبق لديه إلَّا اللجوء إلى الله، وكذلك يا أيها السامعون يرفع الناس وجوههم إلى السماء، كلما ضاقت عليهم سبل الأرض، فيرون باب السماء مفتوحاً أبداً، وإن غلقت عليهم أبواب الأرض كلها، فأمر الخطباء بالدعاء لهم على المنابر.

وكان لقتيبة جواسيس في جيش العدو. فأغروا كبيرهم بأن يكون معهم على قتيبة، وشروه على أن يغشه فجاءه وقال، أخلني. فاختلى به، وما معهما إلَّا واحد من القواد. فقال الجاسوس: إنَّ العدو كثير، وإنَّ الحجاج قد عزلك وبعث آخر في مكانك، وأنا أرى أن تنسحب بالجيش. قال: أما كثرة العدو، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. وأمَّا عزلي فأنا أقاتل لله لا للحجاج، وأمَّا أنت فقد خنت. وقرره فأقر فضرب عنقه، وقال للقائد: لم يسمع هذا إلَّا أنا وأنت، وإن فهت به لألحقنك بالخائن.

وكانت المعركة، واشتدت، وصدقوا الحملة، حتى زلزلت المدينة، واضطرب جيش الأعداء، فطلبوا الصلح، وكانت المعاهدة.

ولكنه لم يكد يرجع عنهم حتى نقضوا المعاهدة، فعاد إليهم وصدمهم صدمة صدعت قلوبهم، وكانت الهزيمة وفتحت بيكند، وأصابوا فيها من الأسلحة والعدد والأموال والكنوز، ما لا يعلم عدده إلَّا الله، وتولى قسمتها ابن وألان العدوي وكان يسميه الأمين ابن الأمين.

واسمعوا هذا الخبر عن أخلاق أولئكم الجند، لتعلموا أنَّهم إنما غلبوا الأمم وفتحوا الأرض بهذه الأخلاق.

طلب أحد القواد من ابن وألان أن يحفظ له نصيبه من الغنائم. قال: ابعث به إلى مكان كذا فترى رجلاً فادفعه إليه، وأنا أضمنه، وانتظره ابن

وألان، فتأخر، فظن أنَّه عدل عن إيداعه فانصرف، وجاء جندي من تغلب، فلما وصل الرسول رآه فوضع المال وانصرف، فلما لم ير الجندي أحداً، أخذ المال إلى منزله، واحتاج القائد إلى شيء من المال فطلبه من ابن وألان، فقال: لم آخذ منك شيئاً، قال: بل أخذته، واختصما وشاع الخبر حتى بلغ الجندي فجاء يسأل القائد: وما مالك؟ وما علامته ؟ قال: علامته كذا، قال: هو عندي. وجاء به فدفعه إليه لم تحل عقدة حزمه، وأبى أن يأخذ منه شيئاً.

وكان الجندي فقيراً والمال خمسمئة ألف درهم أي نصف مليون...

* * *

وتوجه الجيش إلى بخارى، إلى البلد الذي استعصى من قبل على الفاتحين، فلم يُقدر عليه. فكتب إلى الحجاج، فكتب إليه الحجاج: صور لي صورة البلد، فأرسل له مصورها. فقال: ائتها من جهة كذا، ورسم له الخطة وهو في العراق!

واجتمعت الترك من أقطارها، وهجموا على جيش المسلمين حتى أزالوا الجناحين وصدموا القلب، وبلغوا مصاف النساء وقتيبة ثابت، يسأل: أين محمد بن واسع؟ وكان رجلاً صالحاً يصحبه في غزواته. قالوا هو هناك يدعو الله ويشير بإصبعه إلى السماء، قال: لهذه الإصبع أحب إليَّ من مئة ألف سيف شهير، جاء النصر. من يبايع على الموت؟ من يبيع نفسه من الله؟ فتقدم كثيرون، فاختار منهم ثمانمئة فدائي مؤمن، كل واحد منهم بجيش، لأنَّ من أراد الموت لا يموت، ومن استعان الله لا يغلبه بشر، ومن نادى من قلبه (الله أكبر) لا يقوى عليه قوي، ولا يكبر كبير، وحملوا فكان الفتح.

* * *

وغدر نيزك ومن كان أطاع من الملوك وثاروا، وجمعوا الجيوش، ولكن قتيبة ضربهم ضربة قاصمة، أطاحت برؤوسهم وأعادت البلاد إلى ظل راية

محمد. ومشى، مشى إلى الأمام حتى بلغ ما لم يبلغه قائد من قبل، ولم يصل إليه فاتح، مشى حتى فتح في عام واحد قطرين عظيمين: خجندة (خوارزم) وسمرقند، بعد معارك يشيب لها الولدان، ثمَّ مشى حتى دخل كأشغر أول بلاد الصين.

* * *

ولا أريد أن أصف الخاتمة المروعة التي ختم بها جهاد هذا المجاهد، والميتة الفاجعة التي ماتها هذا البطل، والتي كانت إحدى الثمرات المريرة، لهـذه الغرسـة الملعونـة التي غرسهـا في تاريخنـا معـاويـة رحمـه الله. فمن شاء فليقرأ الخبر في تاريخ الطبري، والبلاذري وفي كل تاريـخ. وإني لأختمه بأغرب قصة في تاريخ الحروب في العالم. قصة لم يقع لأمة مثلها ولا أظن أنها ستقع لأمة.

لقد كان من قتيبة في فتح سمرقند المدينة العظيمة شيء من الغدر. كما قال الناس، فلما كانت خلافة الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز، رفع إليه أهل سمرقند، دعوى على الجيش الإسلامي، يدَّعون فيها أنَّ بلدهم فتح غدراً. فأمر عمر بتأليف محكمة خاصة من قاض واحد لرؤية هذه الدعوى.

وجلس القاضي إلى سارية المسجد[1]، وأحضر المدَّعين والمدَّعى عليه، القائد العام للجيش الإسلامي، وسمع أقوالهما ثمَّ أصدر حكماً يستطيع القضاء الإسلامي أن يفخر به على كل قضاء في الدنيا، حكم ببطلان الفتح لأنَّه كان غدراً، ولأنَّه خالف قواعد الإسلام في الحروب، وبخروج الجيش الإسلامي منها. وإعطائها مهلة للاستعداد. ثمَّ إعلان الحرب من جديد، ونفذ هذا الحكم الغريب وشرع الجيش بالانسحاب، ولكن أهل البلد، المدعين، الذين شدهتهم هذه العدالة الإسلامية، والذين ذاقوا نعمة الحكم

---

(١) هي في كتابي قصص من التاريخ مكتوبة بقلم الأديب، لا مرويّة بلسان المؤرخ.

الإسلامي في هذه السنين الطويلة، عادوا يطلبون طوعاً واختياراً أن يبقوا تحت راية الإسلام.

بهذا الإيمان وهذه الأخلاق، لا بسيوفنا ورماحنا فتحنا العالم، وأفضنا عليه نور الإسلام. وبمثل هذا الإيمان وهذه الأخلاق نستعيد فلسطين، ونحرر من الاستعمار كل بلد إسلامي، ونكتب صفحة أمجادنا في التاريخ مرة أخرى إن شاء الله.

مِنْ وَرَثَةِ الأَنبِيَاءِ

هذه قصة عالم. عالم أخلص للعلم حتى جعل طلبه أكبر غاياته.. وغاية حياته، وكان (كما قال عن نفسه) يمشي الأيام في طلب الحديث الواحد. وبلغ فيه منزلة شهد مكحول الدمشقي العلامة بأنَّه طاف الأرض كلها في طلب العلم، فلم يجد أعلم منه. وكان أحد بناة هذا الصرح العلمي الذي شاده العلماء المسلمون من تلاميذ محمد ﷺ.

وكان في هيبته وجرأته وصراحته مع الملوك أمة وحده.

وله مواقف مع عبد الملك والوليد والحجاج تقرؤها فتحسبها من أحاديث الخيال.

رفض عطاء السلطان. فتراكمت رواتبه حتى بلغت ثلاثين ألفاً فلم يأخذ منها درهماً وكان له (٤٠٠) درهم يتجر بها بالزيت ويعيش منها.

وكان فقيهاً، وكان محدثاً، وكان أديباً، وكان شاعراً.

وبقي أربعين سنة لا يسمع الأذان إلاَّ وهو في المسجد، ولم يبدل مكانه من الصف الأول.

طلبه عبد الملك مرة فأرسل مدير شرطته فوقف عليه في الحلقة وأشار بإصبعه، أن تعال، فأدار ظهره يحسبه قد مشى خلفه، فلما لم يره، ظنَّ أنَّه لم يبصر الإشارة، فرجع فأشار إليه. فلما لم يردَّ، قال: هيه.. أنت.. قم

أجب أمير المؤمنين. قال: ما لي إليه من حاجة. قال: لو كان الأمر إليَّ لضربت عنقك.. يدعوك أمير المؤمنين ولا تجيب؟.. قال: إن كان يدعوني ليعطيني شيئاً فهو لك، وإن كان لشرّ، فإني والله لا أحل حبوتي حتى يقضي الله ما يشاء.

ورأى الحجاج مرة يسيء الصلاة فنبهه فلم يسمع، فرماه بكف من حصى المسجد.

* * *

وأنا محدثكم عن منقبتين فقط من مناقبه الكثيرة.

أمّا الأولى، فلتروا ما كان يلقى العلماء في سبيل عقيدتهم. كانوا يضربون ويحبسون، ويؤذون في أجسادهم وأموالهم، ولا يبدلون رأياً ولا مذهباً، ولا يبالون في الحق أميراً ولا ملكاً.

وأمّا الثانية، فلتعلموا أنَّهم كانوا إذا دعوا إلى خير بلؤوا فيه بأنفسهم. لم يكن العلم عندهم بضاعة للتصدير فقط، كما هي الحال عند قوم يعظون ولا يتعظون، ويعلمون ولا يعملون.

كان سعيد يفتي بأنَّ الرسول ﷺ نهى عن بيعتين، فلما أراد عبد الملك ابن مروان، أن يبايع لولديه الوليد وسليمان من بعده، وتبعه الناس وبايعوا لم ينس سعيد فتواه، ولم يَتَناسَها، ولم يجد لنفسه مخلصاً بفتوى جديدة، ولم يقل إني واحد من الناس، وقد بايعوا فلأبايعن مثلهم. ولم يخدع نفسه بهذه الخدعة الشيطانية فيقول: إنَّ القوم إذا لم أبايع نالوا من كرامتي وحقروني، وأنا رمز العلم والدين فيكون التحقير للدين. ولكنه وقف موقف الحق فأبى البيعة.

وبذل له أمير المدينة أنواع الترغيب والترهيب فأبى، فهدَّده بالجلد علناً، وضجَّ العلماء، وتوسطوا الخلاف، ففوضهم الأمير أن يفعلوا ما يريدون فذهب وفد من كبار العلماء، سليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وسالم بن

عبدالله بن عمر. فعرضوا عليه أن يسكت فلا يقول لا ولا نعم. قال: أنا أسكت عن الحق؟ لا. وكانوا يعلمون أنَّه إذا قال «لا» فليس في الأرض قوَّة تجعله يقول «نعم».

قالوا: فاعتزل في بيتك أياماً حتى تمر العاصفة. قال: أبقى في بيتي فلا أخرج إلى الصلاة، وأنا أسمع، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، وما سمعتها من أربعين سنة إلاَّ وأنا في المسجد؟ لا.

قالوا: فبدِّل مكانك من المسجد، حتى إذا جاء رسول الأمير لم يجدك فيه فقال له لم أجده، قال: أخوفاً من مخلوق؟ لا. لا أتقدم عن مكاني شبراً ولا أتأخر شبراً. ودعاه الأمير فهدده بالقتل، فقال: نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين.. يقرر الحكم كأنَّه في حلقة الدرس، وكأنَّ السيف ليس على عنقه. لا يسكت خوفاً من السيف، ولا يكتم العلم، ولا يبدل الحكم.

فأمر بأن يساق إلى ساحة العقوبات، وجرِّد من ثيابه، إلاَّ تباناً قصيراً[1] وضرب خمسين وأخذ إلى الحبس.

وهنا حادثان طريفان جداً:

الأول: إنَّ قتادة (العالم المشهور) أقبل عليه وهو يضرب، فقال: إني أخاف أن يموت، ويذهب علمه، وإني أحب أن أسأله عن مسائل. فتركوه يسأله وراح سعيد يجيبه ويناقشه والدم يسيل من ظهره.

فما دريت لما قرأت الخبر. أأعجب من حرص قتادة على العلم، وأنَّه لم يبال في سبيله بهذه المجاملات؟ أم من وقار سعيد للعلم، وأنَّه لم يحفل بالأذى في سبيله؟ أم من هؤلاء الجلادين الذين يتركون ما هم فيه، ويصغون إلى هذه المناقشة العلمية الغريبة؟.

(١) التبان: ثوب المصارع ونحوه، أو هو شيء كالمايوه!.

تصوروا لو أنَّ أعلم العلماء، وأوسعهم صدراً، كان في هذا المقام، وجاء من يسأله . . .

* * *

والثاني: أن بنته صنعت له لما سجن طعاماً كثيراً، وجاءت به. فقال لها: هذا ما يريده هشام (الأمير) أن أفتقر ويذهب مالي، فأحتاج إلى أموالهم فيستعبدوني بها، ولا أدري إلى متى يمتد سجني، فانظري ما كنت آكله كل يوم في بيتي فأتيني به، فإنَّ العلماء لا يذلون إلاَّ إذا احتاجوا إلى أموال الملوك[1].

ولما بلغ عبد الملك ضربه، كرهه ولام الأمير ثمَّ أمر بعد بعقابه. فأوقف للناس وولَّى مكانه الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز، فقال سعيد لأولاده وأهله إياكم والتعرض له بعد عزله أو الشماتة به لما ناله. إني أدعه حتى يحكم الله بيننا.

* * *

أمَّا المنقبة الثانية للعلماء والناس، وهي درس اجتماعي لو حفظه الآباء لما بقي في البيوت بنت كاسدة، ولما بقي في البلد شاب فاسق.

---

(١) هذه كلمة الحق، وما ذل العلماء إلاَّ يوم اتكلوا على الرواتب، وعلى أموال الأوقاف، وهدايا الناس، ولقد عهدنا في دمشق طبقة من العلماء التجار، أحيوا في ذلك سنة أبي حنيفة والليث وابن المبارك، وآخرهم فقيه الشافعية في دمشق الشيخ صالح العقاد مد الله في عمره، ووجدت رجالاً من هذه الطبقة في الموصل، ومن أعجب ما وجدت إني كنت ألقي محاضرة في دار الأخوان في سنة ١٩٥٤ ولقيت رئيس الجماعة وهو شيخ فاضل، ومررت في اليوم الثاني بالسوق، فقال لي أخي الأستاذ الصواف، أتأكل لحماً مشوياً عند هذا اللحام؟ وأشار إليه وقال: أتعرفه؟ فنظرت فلم أعرفه، فأمعنت النظر فإذا هو رئيس الجماعة، يشتغل ويعيش من كدِّه وعمله، فأكبرته وجعلته مثلاً أضربه للناس.

ولو أنَّ العلماء استغنوا بمالهم عن أموال الناس، وعن رواتب الدولة، لرأيتم ما عزة العلم، وما هيبة العلماء.

واسمعوا القصة:

نحن في المدينة، وفي المدينة شيء لا ندري ما هو؟ إنَّ الناس قد خرجوا إلى الطريق، والنساء قد أطللن من شقوق النوافذ، إنَّهم يرقبون شيئاً، تعالوا نسأل ماذا هنا؟

إنَّ الناس يرتقبون موكب رسول الخليفة، المندوب الخاص لعبد الملك، قادماً بمهمة لا يعرف الناس ما هي، فهم يتخرصون ويحزرون.

لقد وصل الموكب، وأسرع إلى المسجد، والمسجد هو مجمع كل أمر جلل، فيه تكون البيعة، وفيه يستقبل الأمير، وفيه تلتقي الوفود، وفيه يكون القاضي وتجري المحاكمات، وفيه تلقى الدروس ويؤخذ العلم، فهو البرلمان وهو القصر وهو المحكمة وهو الجامعة.

وأقبل الرسول حتى وقف على حلقة سعيد، فأبلغه سلام أمير المؤمنين، وأنَّه قادم يخطب إليه ابنته، للوليد ولي عهد المسلمين، وغبط الناس سعيداً على هذه النعمة، التي نزلت عليه وعلى هذا التشريف الذي ناله، وعلى الدنيا التي سيقت إليه، بنته زوجة الوليد ولي عهد المسلمين اليوم، وأمير المؤمنين غداً، وسيد البلاد الإسلامية كلها.

وارتقبوا أن يهش سعيد ويبش، ويطير فرحاً بهذه النعمة، ولكن موازين الناس غير ميزان سعيد، ميزانه ميزان الشرع، الناس يفتشون عن المال والجاه، ولكن سعيداً يفتش لابنته عن السعادة الزوجية، عن الخلق والدين، عن الطهر والفضيلة، وماذا تفيده دنيا الوليد، إن مهرت ابنته بهذه الدنيا دينها؟.

إنَّ الرجل الديِّن الحسن الخُلق الفقير، خير للمرأة من ابن أمير المؤمنين، لأنَّ هذا يكون لها وحدها وذاك تشركها فيه الزوجات والجواري ومن تدري ومن لا تدري...

وإذا كان لك عبد مخلص، يحبك ويشكر فضلك، ويطيع أمرك، وأرسلته بأمانة ليدفعها إلى زيد فأعطاها عمراً، هل تكون عنه راضياً؟

كذلك أنت أيها الأب.

إنك عبدالله، والبنت أمانة عندك، وقد أمرك أن تعطيها لمن يماثلك في مسلكه ومشربه، ويرضيك دينه وخلقه، فإن رفضته وبحثت عن الغنى. أو جعلت بنتك سلعة تباع، فقد أسخطت ربك وآذيت بنتك.

وهل البنت فرس أو نعجة حتى تباع لمن يدفع فيها الثمن الأكبر؟ وماذا يفيدك كثرة المهر. والزواج إذا كان موفقاً كان لها ماله وله مالها. وإن لم يكن موفقاً لم ينفع البنت ما أخذت من مال.

فكر سعيد في هذا كله في لحظات. والرسول واقف ينتظر جوابه، ولا يشك في أنّه جواب الموافقة ولا يشك الناس.

وإذا بسعيد يقول: لا.

لا! إنه رفض أن يعطي ابنته لأمير المؤمنين.

ومرّت أيام، وكان له تلميذ اسمه أبو وداعة متين الدين، رضي الخلق، انقطع عن الدرس، ثمّ جاء فسأله فقال: مرضت زوجتي فمرّضتها وعنيت بها، ثمّ توفيت فدفنتها.

فقال: هل تزوجت غيرها.

قال: ومن يزوجني ولا أملك إلاّ أربعة دراهم؟ فمن يزوجني بأربعة دراهم قال سعيد: أنا.

هل سمعتم يا أيها السادة، سعيد الذي رفض ابن أمير المؤمنين، الذي يملك ما بين البحر الأطلنطي وجبال الصين، بزوج أبا وداعة الذي لا يملك إلاّ أربعة دراهم.

وشُده الرجل وكذَّب أذنه وعقدت المفاجأة لسانه. . . وحسب نفسه في منام ولكن سعيداً دعا بالشهود وعقد العقد. وذهب الرجل إلى داره وهو لا يزال في حمَّى الدهشة، وقدم عشاءه. وكان خبزاً وزيتاً وإذا بالباب يقرع.

قال: من؟. . قال: سعيد.

قال أبو وداعة: ومرَّ على بالي كل سعيد في الدنيا إلَّا سعيد بن المسيب. لأنَّه لم يطرق باب أحد من أربعين سنة، ولا رُئي إلَّا بين بيته والمسجد.

ففتح له: فقال: كرهت أن يسألني الله عن وحدتك. ولك زوجة فجئت بها ودفع العروس.

هكذا! بلا حفلات ولا عرس ولا جهاز!

قال: رحمك الله، ألا انتظرت حتى أحصل مالاً وأعد للعرس عدَّة.

قال: أما قلت أنَّ معك أربعة دراهم!

أربعة دراهم! فعلام الحفلات؟ وهل الزواج رباط بين روحين، وصلة بين قلبين وبيت يضم اثنين أو هو معرض أثاث وثياب، ومنافرة كرم، واكتساب شهرة؟ إنَّ هذه الحفلات يا ناس، لا تخرب بيت الزوج والأب فقط، بل تخرب عشرين بيتاً، تتزوج بنت عم خال امرأتك فتكلفك ثوباً يعجز عنه موردك، فإن شريته اضطربت موازنتك، وإن أبيت تنغص عيشك.

قال أبو وداعة:

ورأيتها أجمل امرأة وأكملها، ولما أصبحت غدوت لأذهب، قالت: إلى أين؟ قلت: إلى مجلس سعيد، فقالت: أقعد أعلمك علم سعيد.

وإذا هي عالمة محدِّثة، ولقد كنا بعدُ إذا أعيت العلماء مسألة، رجعنا إليها.

يا سادة! إني لا أستطيع أن أحدثكم بمناقبه كلها. فلنقف عند هاتين المنقبتين، ولنأخذ منهما دروساً.. درساً للعلماء ودرساً للآباء. ورحم الله من يسمع فيعي.. ويعلم فيعمل.

الإمَــامُ الأَعْظَــمُ

نحن المسلمين، قانوننا هو القـرآن، وشرحـه الرسـمي الحـديث، ومذكرته الإيضاحية أسباب النزول والتفسير، فمن النـاس من لم يشتغل بالعلم، فهو لا يستطيع أن يفهم الحكم من القرآن والحديث، فيرجع إلى المختصين، كما يرجـع عند إقامة الدعوى إلى المحامي، والمختصون (وهم العلماء المجتهدون) يختلفون في الفهم والتفسير، وهذا شيء طبيعي، كما أنَّ التقليد طبيعي، إذ أنَّ من الناس من ينقطع إلى علم من العلوم فيجتهد فيه، ويقلد في غيره، فنحن نقلد الأطباء والمهندسين ونأخذ بأقوالهم، بلا وقوف على دليلها، حتى أنَّ الصحابة أنفسهم، كان أكثرهم مقلدين[1]، ولم يكن يفتي فيهم إلَّا عدد قليل، ولكنها لم تجمع فتاواهم، ولا فتاوى التابعين لهم، وأوَّل من انقطع للفتوى والاستنباط، وجمعت أقواله وتعدد أصحابه حتى صارت له مدرسة أو مذهب هو أبو حنيفة.

فمن هو أبو حنيفة؟

يا سادة: كان في العراق شاب جميل غني، اسمه ثابت بن النعمان، فارسي الأصل، تقي ورع، كان يتوضأ يوماً من النهر، فرأى تفاحة فأكلها، ثمَّ

---

(١) لي بحث في الاجتهاد والتقليد والمذاهب موجود في كتابي (فتاوى) الذي طبعته (دار المنارة) فيه تفصيل لما أجملته هنا.

خاف أن يكون أكلها حراماً[١]، فبحث عن شجرتها حتى وصل إلى صاحبها، فقال له: سامحني، فعرفه الرجل، وقال: لا أسامحك إلَّا بشرط، هو أنَّ عندي بنتاً صماء (طرشاء) خرساء عمياء ولا أسامحك حتى تتزوجها، ففكر، فرأى أنَّ الدنيا موقوتة وأنَّ عذابها بهذا الزواج أيسر من عذاب الآخرة فقال: إنا لله وإنَّا إليه راجعون. لقد قبلت.

فزوَّجه بها، فلمَّا دخل عليها، وجد فتاة كأنَّها القمر، ذات فهم ودين، فقال لأبيها: لم قلت أنَّها عمياء صماء خرساء، قال: لأنَّها لم تر الرجال ولم تسمعهم ولم تكلمهم.

ومن هذين الزوجين الصالحين الجميلين الغنيين، ولد صبي قدِّر له أن يكون له جمالهما وتقاهما، وأن يكون آية الآيات، وأعجوبة الدنيا في الذكاء والعلم، هو النعمان بن ثابت. هذا اسمه، أمَّا أبو حنيفة فكنيته، ولم يكن له بنت اسمها حنيفة، ولكن الحنيفة الدواة بلغة العراق (العامية)، كنّوه بذلك لحمله الدواة من صغره، ودورانه على العلماء، كذا قالوا والله أعلم.

ونشأ مرفهاً مدللاً، أنيق الثوب، عطر الأردان، وكان تاجراً كبيراً، يبيع الخز، وكان ورعاً متعبداً بقي عشرين سنة (كما رووا) يصلي الصبح بوضوء العشاء، ويبكي من خشية الله، وكان كريماً: سامح مرة بعشرة آلاف، وسألوه مرة عوناً لعالم مدين بأربعة آلاف، فأداها كلها. وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وكان يجري رواتب على كثير من العلماء. فهو رجل قد أوتي الدنيا والآخرة، والعلم والعمل، والغنى والكرم، مثله في ذلك مثل الليث بن سعد، كان كثير الاجتماع بالعلماء، والأخذ عنهم، أدرك أربعة من الصحابة، وآلافاً من التابعين، واشتغل أوَّل أمره بعلم الكلام حتى صار المقدم فيه، لا يقوم له أحد في المناظرة، حتى وقعت له واقعة صرفته إلى الفقه وهو أشرف العلوم، وهو لب الدين، وما التوحيد والحديث والتفسير إلَّا مقدمات له،

---

(١) ولو كان فقيهاً لعلم أنَّها ليست حراماً.

كشروح القانون، أمَّا الدين فهو التوحيد والفقه. وهذه الواقعة أنَّ امرأة سألته عن مسألة في الطلاق فلم يعرفها، فدلَّها على حمَّاد بن أبي سليمان فقيه عصره، وقال لها: سليه وأخبريني. فلما أخبرته، لزمه ولم يعد يفارقه.

لزمه عشر سنين، ثمَّ نازعته نفسه الرياسة، وأن تكون له مدرسة (حلقة) مستقلة، ولكنه أبى إجلالاً لحماد، وغاب حماد غيبة، فقعد مكانه فأفتى في شهرين في ستين مسألة فلما رجع أقرَّه على أربعين وخالفه في عشرين، فلزمه حتى مات، ولما مات فتشوا عمَّن يلي مكانه فقدموا ابنه ولكنَّ الأدب كان أغلب عليه، فلم يقم به، فقدموا شيخاً من أصحابه يقال له موسى بن أبي كثير فلم يقم به، وخافوا أن تنحل حلقة حماد، فقالوا: لو قدمتم هذا الفتى الخزاز (تاجر الخز). فقدموا أبا حنيفة فنهض بها حتى جعل هذه الحلقة مدرسة باقية ومذهباً خالداً أبد الدهر.

* * *

اجتمع حوله طائفة من التلاميذ صاروا بعد أعلام الدنيا، وكان كل واحد منهم (مُخْصياً)[1] بناحية فإذا وردت مسألة بحثوا فيها وتناقشوا. وقد يبحثون المسألة شهراً حتى يتجه لهم الحكم فيها. فكان مجلسه (برلماناً) ولكن أعضاءه من نوابغ الدهر.

سئل وكيع بن الجراح وهو شيخ الشافعي: هل أخطأ أبو حنيفة؟ قال: كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطىء وعنده مثل أبي يوسف وزفر ومحمد في قياسهم واجتهادهم، ومثل يحيى بن زكريا وحفص بن غياث وحبان ومندل في حفظهم للحديث ومعرفتهم به، والقاسم بن معن (ابن عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود) في معرفته باللغة والعربية، وداود الطائي والفضيل بن عياض في زهدهما وورعهما، هؤلاء وأمثالهم هم أعضاء (البرلمان) الحنفي، وهذا ما يمتاز به مذهب الحنفية عن المذاهب الأخرى. وهو أول من رتب

---

(١) أي مختصاً أو اخصائياً.

الفقه في أبواب، ومالك إنَّما سار على غراره في الموطأ.

* * *

وكان لأبي حنيفة (ذهنية) فقهية عجيبة، وطريق دقيق في استنباط الأحكام، وبيان عللها، بينما الذي يغلب على مالك أنَّه كان حافظاً للحديث يرتبه، ويأخذ منه الحكم، وأحمد كان محدثاً. ولم يعده المتقدمون مع أصحاب المذاهب، والشافعي وسط بين طريقة مالك وطريقة أبي حنيفة لأنه أخذ عن مالك، وعن الإمام محمد، فهو تلميذ تلميذ أبي حنيفة.

وكان أبو حنيفة إذا أشكلت عليه مسألة، قال لأصحابه: ما هذا إلاَّ لذنب أحدثته. فيستغفر الله ويصلي حتى تتفتح له. فكان يصدر في تفكيره عن خشية الله.

ومن الأمثلة على ذكائه وأسلوب تفكيره التشريعي، أنَّ الضحاك لم يكن يرى التحكيم، وكان أبو حنيفة يراه، فدعاه إلى المناظرة فقال أبو حنيفة: إن اختلفنا فمن يحكم بيننا؟ قال: اختر، قال: اخترت فلاناً من أصحابك، قال: فناظرني، قال: لقد ناظرتك وغلبتك، أنت جوزت التحكيم (أي بقبوله الحكم).

وشهد الأئمة الكبار: مالك والليث والأوزاعي والشافعي ـ الشافعي لم ير أبا حنيفة ـ وسفيان وابن المبارك بأنَّهم لم يروا مثله أبداً.

عاش حياته كلها من كسبه يوزع المال والعلم، ويعلم الناس الفقه والتقى والكرم، أرادوه على الولاية مرتين: مرة أيام بني أُمية ومرة أيام بني العباس، وضرب في المرتين فرفض، فكانت الأخيرة سبب وفاته.

* * *

والمذهب الحنفي اليوم، أوسع المذاهب انتشاراً، وأوسعها فروعاً وأقوالاً، وهو أنفع المذاهب في استنباط القوانين الجديدة، والاجتهادات القضائية، يليه في كثرة الفروع المذهب المالكي، وقد عرفت ذلك في السنين التي اشتغلت فيها بوضع مشروع قانون الأحوال الشخصية، وسبب

ذلك أنَّ المذهب الحنفي صار مذهب دولة طول مدَّة العباسيين والعثمانيين، وهي ثلاثة أرباع التاريخ الإسلامي، والمالكي مذهب المغرب طول هذه المدة، فكثرت فيهما الفروع والمناقشات، أمَّا المذهب الشافعي فلم يكن مذهباً رسمياً إلَّا حقبة قصيرة أيام الأيوبيين، بينما اقتصر المذهب الحنبلي على نجد والحجاز اليوم.

رحم الله الأئمة ومن كان قبلهم وبعدهم ممن لم يدون مذهبه، ولم يكن أقل منهم: الليث والأوزاعي وسفيان وحماد، ورحم أبا حنيفة، من كان أقدمهم، وكان أقدرهم، ومن دعي بحق (الإمام الأعظم).

أكبر ملوك الأرض

أنتقل بكم في هذا الحديث إلى أزهر عهد من عهود الحضارة الإسلامية، إلى أعلى ذروة في سلسلة أمجاد العرب، إلى الدور الذهبي، إلى الأيام التي كانت كلها أعراساً[1].

إلى المدينة التي شهدت من الترف والبذخ، والعظمة والجلال، ما لم تشهد مثله مدينة، لا روما في الماضي ولا باريس الآن، إلّا المدينة التي كان فيها مليونان من البشر منذ ألف ومئتي سنة. حين كانت باريز قرية أصغر من دوما، وكانت أميركا صحراء ما فيها إلّا الوحوش... وكانت فيها القصور التي تفتن بصحونها وأبهائها، وزخارفها ونقوشها، وشرفاتها وقبابها، وفيها البساتين التي جلبت إليها غرائب الأشجار، ونوادر الأزهار، من كل مكان. وفيها ستة آلاف حمّام، وفيها عشرون ألف مسجد، وفي نهرها ثلاثون ألف زورق، تميس على صفحة الماء كل عشية فيكون منها مدارس علم، ويكون منها مجالس طرب، ويكون منها مخادع غرام، ويكون منها خلوات تأمل، وكان فيها (في تلك الأيام) معامل تصنع الزجاج والورق، وتضرب النقود، وتنسج أنواع النسيج وتطرز وتنقش. وفيها الاختراعات التي أدهشت أهل أوربا لما

---

(١) كذلك قالوا، وما جاء ذلك إلّا من أكاذيب قصة ألف ليلة، والحق أنّ أزهر عهود التاريخ، عهد أبي بكر وعمر، وكل خليفة قوي عادل، عامل بكتاب الله، قائم بحقوق الرعية، لا طاغ ولا ظالم، ولا عاص ولا آثم.

حملها وفود الرشيد إلى شارلمان، حتى حسبوا أنَّ في الساعة جنياً يقرع أجراسها.

مدينة كانت دنيا كاملة، فيها الخير والشر. العلم فيها، وفيها الفسوق. والدين فيها، وفيها اللهو والمجون، وفيها المحدثون وفيها الصالحون، وفيها الشعراء وفيها المغنون، وفيها العفيفات المحصنات، وفيها الجواري المسافحات، وفيها أفحش الغنى، وفيها أفظع الفقر، وفيها التجار وفيها الشطار، وفيها اللصوص، وفيها الشحاذون، ولكلٍّ عالم لا تدري به عوالمها الأخرى.

مدينة كانت القوافل لا تنقطع عنها لحظة من ليل أو نهار، تحمل إليها كل ذي علم وفن ونبوغ، وكل ذات جمال وسحر وفتون، ويستقر فيها أحسن وأجمل ما تخرج الأرض، من ثمرات الطبيعة، ونتاج العقول. اختصرت فيها الدنيا فكان فيها أمم من كل جنس ولسان في الدنيا.

تلك هي بغداد. بغداد هارون الرشيد، بغداد ألف ليلة وليلة، بغداد التي صارت حلماً من الأحلام، ووحياً لكل أديب وشاعر، وواضع قصة أو فلم، من تلك الأيام إلى الآن، ومن أقصى المشرق إلى هوليود.

لقد كانت بغداد سرة الدنيا وكانت قصبة الأرض، وكانت أمل كل طامح في المجد، راغب في العلم، آمل بالغنى، هائم بالجمال.

* * *

لقد أشرفنا على بغداد، فماذا فيها؟ ماذا في بغداد؟ ما هذه الحشود؟ ما هذه الجنود؟ ما هذه الأعلام والبنود؟ لماذا يفرش السجاد على الأرض؟ لماذا يقوم الجند على الجوانب؟

تعالوا نسأل:

ـ ما هذا يا عم؟

ـ ألا تدري؟ إنّه وفد ملك الروم.. لقد صفَّ أمير المؤمنين على طريقه مئة وثمانين ألفاً بثياب واحدة وهيئة واحدة، سيوفهم مشهرة، وهم متسربلون بالحديد، وفرش لهم ثمانية وعشرين ألف سجادة، وأقام لهم أربعين ألف ستارة من الديباج والحرير، وترى إذا حلَّ الليل سلسلة من المصابيح العجيبة ـ طولها أربعة فراسخ. وصف لهم في مدخل القصر، الوحوش المدربة من السباع والفهود لتحييهم. أمَّا داخل القصر، قصر الخلد، ففيه ما لا يستطيع أن يصفه لسان.

يا سادة:

هذا هو هارون الرشيد.

الرشيد الذي كان يحكم وحده، حكماً استبدادياً مطلقاً عشرين حكومة من حكومات اليوم.

الرشيد، الذي قال للسحابة أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك.

الرشيد، الذي كان دخل خزانته الخاصة ٤١١ مليون دينار من الذهب كل سنة.

الرشيد، الذي كان صورة من عصره، صورة من بغداد، التي فيها كل شيء.

هذا هو الرشيد، الذي جعله الحظ أشهر ملوك الإسلام. انظروا إلى عمل الحظوظ! الحظ هو الذي جعله أكبر ملوك الإسلام اسماً، وأوسعهم ذكراً، وأعظمهم ملكاً، وما كان له دهاء معاوية، ولا مضاء عبد الملك، ولا صلاح عمر بن عبد العزيز، ولا إصلاح الوليد، ولا أعصاب المنصور. لا، ولم يكن في مواهبه، وعظم شخصه، من الوزن الراجح. ولقد كان مروان الثاني، وكان الخلفاء الذين جاؤوا قبيل انهيار الدولة العباسية، أرجح منه وزناً، وأقوى شخصية كما يقولون، ولكنهم جاؤوا والزمان مدبر، وجاء هو في إقبال الزمان.

إنَّ أعظم حكام الإسلام حقيقة هم الذين جمعوا صلاح النفس؛ وإصلاح الدولة، وكانوا أهل تقى وأهل بصر، وجمعوا التوفيق في الدنيا والدين، أمثال الستـة الكبار أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين وأورانك زيب ملك الهند.

وليس الحديث عن حياة الرشيد عامة، ولا أستطيع أن أوفي الحديث عنه في ربع ساعة ولو كنت من السحرة أو من أرباب الكرامات. ولكن حديثي عن ناحية منه واحدة هي (الرشيد والعلماء).

* * *

وأنا مولع بتحليل النفوس، نفوس الأحياء من الأصدقاء، والأموات من رجال التاريخ، وكشف خفاياها، ورد مظاهرها المعقدة إلى عناصرها الأولى، والذي استخلصته من تحليل نفسية الرشيد، أنَّ هذا التناقض الظاهر في شخصيته، من لهوه المفرط، وعبادته المفرطة، وقتله الأبرياء، وبطشه البطشة الكبرى بالبرامكة، إلى بكائه وسماعه المواعظ، وحجه ماشياً من بغداد إلى عرفات. وحرصه على الوحدة الإسلامية، وتحالفه مع شارلمان الأجنبي، ضدَّ ابن عمه الأموي صاحب الأندلس، وعزمه على الأمر العظيم كما عزم على فتح قناة السويس قبل دليسبس بأكثر من ألف سنة، ثمَّ رجوعه عنه لأيسر اعتراض.

الذي استخلصته أنَّ مرجع ذلك كله، إلى عقدة نفسية فيه، هي أنَّه كان مؤمناً محباً في قرارة نفسه للتقى والصلاح، ولكنه لم يستطع أن يوفق بين أعماله، وبين هذه الرغبة في الصلاح. وكانت تغريه مغريات الملك، فيوغل في اللذة وفي البطش، ثمَّ يتنبه إيمانه فيمضي أكثر أيامه تحت ثقل تأنيب الضمير، وهذا تعليلُ منعه الناس أن يذكروا البرامكة أبداً بعد بطشه بهم، فيحسب من يقرأ الخبر أنَّه نسيهم، مع أنَّه لم ينسَ الحادث لحظة، وهو يمنع الناس من الخوض فيه ليفر من نفسه. وهذا تعليل قيامه من مجلس الغناء والشراب، إلى الصلاة والتهجد، حتى ليصلي مئة ركعة كل ليلة،

فتخدع صلاته المؤرخ الثقة حتى يكذب أخبار لهوه، كما فعل ابن خلدون.

* * *

ومن هنا جاءت محبته لمجالسة العلماء والصالحين، وسماعه المواعظ وبكاؤه لها، كان يبكي بإخلاص وكان عند سماعها مستغرقاً في الجو الديني، كما أنّه كان عند سماع الغناء، يستغرق في الجو الدنيوي، ولم يكن منافقاً، ولكنه نوع مما يسميه علماء النفس ازدواج الشخصية، موجود عند كثير من الناس، ولكن يختلف مقداره وتختلف درجة إحساسهم به.

وكان أحياناً يشعر بحاجة إلى هذه المواعظ، ويطلب المشايخ كما يطلب المريض الطبيب، وأنتم تعرفون قصته، لما اعترته إحدى هذه الحالات، فقال لحاجبه: دلني على عالم أسمع منه، فأخذه إلى عالمين عظيمين فتلقياه، كما يتلقى الرجل العادي خليفة العصر، وتواضعا له وعظّماه، فأعطاهما الجائزة، ولكنه لم يجد عندهما الدواء، حتى مشى إلى الفضيل بن عياض فتلقاه كما يتلقى رجل الآخرة أحد أبناء الدنيا، ونظر إليه بعين الشرع، فما رأى فيه أكثر من فرد غلبته نفسه، وعصى ربه، فوعظه وعظاً صريحاً شديداً وأبكاه، ورفض هديته، وأخرجه من داره، شبه مطرود، ومع ذلك فقد سرَّ الرشيد ووجد عنده السكينة والشفاء.

* * *

وكان العلماء معه ثلاثة أصناف، صنف يسايره ليرضيه ويأخذ من دنياه، وهؤلاء هم الأقل ولم ينالوا منه خيراً كثيراً، لأنَّ المنافقين من العلماء وإن نجحوا حيناً، لا تكون عاقبتهم إلَّا الخيبة وخسران الدين والدنيا.

وصنف يغلظ له القول، ويشدد عليه الموعظة، ويقوم بحق الله بلا مجاملة ولا رعاية لمقامه الدنيوي، ولا يتعمدون ذلك بل يرونه الشيء الطبيعي[1] لأنَّهم مع الله دائماً، قد حقروا الدنيا وكل ما فيها من جاه ومال

(١) الطبيعي لا الطبعي كما يقول المتحذلقون، وإن كان القياس ما يقولون.

فلم يعد يروعهم مُلكُ ملَكٍ ولا عظمة أمير. وهؤلاء أيضاً قلَّة، ردوا عطاياه وجوائزه، ولكن حازوا احترامه وإكباره.

والكثرة من العلماء كانوا يقولون الحق، ولكنهم يصوغونه الصياغة المقبولة، ويعطونه الدواء ولكن (ببرشامة)، ويسايرونه ولكن فيما لا يضرهم في دينهم، ومن هؤلاء أعلام الملة أبو يوسف والليث وهذه هي الطريقة المثلى لمعاشرة الملوك.

اختصم الرشيد وزبيدة، ولعلَّها كانت تلومه على لهوه ومقارفته لذاته، وتخوفه النار فقال لها: إنها طالق ثلاثاً إن لم يكن من أهل الجنة. ووقع في مشكلة، واستحضر العلماء، فلم يجرؤ واحد على فتياه حتى جاءه الإمام الهمام الليث بن سعد المصري، فوقف منه موقفاً غريباً كاد يؤدي إلى غضبه، والرشيد إذا غضب لا يبصر من أمامه. سأله: هل يخاف مقام ربه؟ قال: نعم. فأتى بالمصحف وحلفه بأوثق الأَيمان، بالطلاق والعتاق والخروج من الخلافة، إنَّه لم يقل إلَّا الحق. فلما حلف قال: أبشر يا أمير المؤمنين إنَّ الطلاق لم يقع وإنَّ لك جنتين لا جنة واحدة، قال تعالى: ولمن خاف مقام ربه جنتان.

ولأبي يوسف موقف مثل هذا.

ولم يعرف عنه أنَّه بطش بعالم، وإن كاد مرة يبطش بعمر بن حبيب القاضي لما ذكر الرشيد أبا هريرة واتَّهمه بالكذب، فرد عليه عمر بشدة، فدعاه والسيف أمامه، ليضرب عنقه، فقال عمر: يا رب إني دافعت عن صاحب نبيك فدافع عني. وقال للرشيد: إذا كان الصحابة كذابين كان الدين كذباً، لأنَّه مروى عنهم فعاد الرشيد إلى نفسه، وعفا عنه، وأجازه.

وله حوادث هائلة مع القاضي حفص بن غياث لما حبس وكيل السيدة زبيدة، ومع عبدالله بن إدريس وابن المبارك وغيرهم لا يتسع المجال مع الأسف ولا للإشارة إليها.

* * *

وبلغ من حبه العلم أنَّ رحل هو وولداه الأمين والمأمون لطلب العلم وقراءة الموطأ على مالك من بغداد إلى المدينة، كما يرحل الطلاب الموفدون اليوم، وهذا لم يُسمع عن ملك في الشرق والغرب إلاَّ عن صلاح الدين الأيوبي لما رحل إلى الإسكندرية لسماع الحديث. قال: السيوطي ولا أعرف لهما ثالثاً.

وجعل لطلاَّب العلم رواتب يبلغ أعلاها أربعة آلاف دينار في السنة، فما عرف زمان كثر فيه العلماء كثرتهم في زمان الرشيد، حتى كان الولد يحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، ويحفظ الحديث ودواوين الشعر في الحادية عشرة، ويناظر العلماء وهو ابن خمس عشرة سنة.

وكان للعلماء أسمى المنازل في مجلسه وكان يدعوهم إلى مائدته الخاصة، وصب الماء مرَّة بنفسه للمحدث أبي معاوية الضرير وهو يغسل يديه بعد الأكل وقال له: أتدري من يصب عليك الماء؟.

قال: لا!

قال: أنا.

الرشيد، أعظم ملوك التاريخ، وسيد ربع العالم، وحاكم عشرين دولة من دول اليوم. أتدرون ماذا قال العالم؟

لم يتحرك ولم يهتز ولم ير في ذلك إلاَّ شيئاً عادياً فقال هادئاً:
إنّما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين، واستمر في غسل يديه.
رحم الله أولئك الرجال.

* * *

يا سادة لم ينته الكلام في الموضوع. ولكن انتهى الوقت فدعوني أختم حديثي بتلاوة فقرات من مقدمة كتاب الخراج الذي ألَّفه الإمام أبو يوسف للرشيد، لتروا كيف كان يخاطب العلماء أعظم ملوك الأرض هارون الرشيد.

قال:

يا أمير المؤمنين، لقد قلّدك الله أمراً عظيماً، ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب، قلّدك أمر هذه الأمة (إلى أن قال) فلا تضيِّعنَّ ما قلّدك الله من أمر هذه الأمة، ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد، فإنّك إن فعلت ذلك أضعت، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإنَّ الآخرة تبقى والدنيا تفنى، وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك سواء، القريب والبعيد، واحذر فإنَّ الحذر بالقلب، وليس باللسان (إلى أن قال) واعمل للموقف الأعظم الذي تنخلع فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج، لعزَّة ملك قهرهم جبروته، والخلق داخرون بين يديه، ينتظرون قضاءه، ويخافون عقوبته، وكأنَّ ذلك قد كان، فأعدَّ للمسألة جوابها، فإن ما عملت قد أثبت فهو غداً عليك يقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد.

(إلى أن قال) إنك راع وإنَّ الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك، ويضيعك بما أضعت أمانتك، وإنَّ صلاح الناس بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم.

* * *

يا سادة: هل يستطيع أكبر عالم أن يقول مثله اليوم لأصغر أمير.

وهل يقبله الأمراء، إن استطاعه العلماء؟.

رحمة الله على أولئك العلماء، وجزاهم خيراً، وأرانا أمثالهم.

جمع الدين والدنيا

علم شامخ من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة الفقه الكبار، أصحاب المذاهب المتبعة، وأحد أفراد الدنيا علماً وذكاء، ونبلاً ورفعة، وسخاء وكرماً، أجمعوا على أنّه نظير الإمام مالك في الفقه، وعديله في الاجتهاد، وأنّه كان لمصر مثل مالك للمدينة، لا يفتى ومالك في المدينة، ولا يفتى وهو في مصر، وهو أعظم جاهاً من مالك، وأكثر مالاً وأوسع دنيا، بيد أنّ الله قيّض لمالك من دوّن علمه، وكتب مسائله، وحرّر مذهبه، فصار أحد المذاهب الأربعة الباقية. وذهب مذهبه هو فيما ذهب من المذاهب التي كانت يوماً معروفة متبعة مقلّدة، وكاد يُنسى اسمه فلا يعرفه إلاّ العلماء، على حين يعرف أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد كل مسلم.

فهل عرفتم الآن من هو؟

هو الذي جمع الله له الدنيا والدين، والجاه والتقى، وكان سيّد مصر، أمْرُه قبل أمر الولاة، وحكمه فوق حكم القضاة، وكان دخله من أملاكه ما بين عشرين وثمانين ألف دينار في العام، (ثمانين ألف ليرة ذهبية)، ولم تجب عليه زكاة قط، لأنّه لم يكن يحول عليه الحول، وعنده منها شيء.

هو الإمام العالم الليث بن سعد.

ولد في قرية مصرية سنة ٩٤ للهجرة، أي قبل أكثر من ألف وثلاثمئة سنة[1]، ولم يشغله غنى أهله عن طلب العلم، والرحلة به، لا كما يرحل أكثر

(١) من يوم أذيع هذا الحديث من إذاعة دمشق.

الطلاب الآن إلى أوربا وأميركا، بل كما يرحل السلف، يرحلون ليتلقوا العلم، ويتلقوا قبله الدين والتقى والسلوك الإسلامي، ويجتمعوا بالعلماء العاملين، الصالحين المصلحين، وقد أخذ عن علماء مصر، ثمَّ حجَّ ولقي أئمة الحجاز عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة بن الزبير، وقتادة وأمثالهم، ثمَّ رحل إلى العراق فأخذ عن علمائه.

وهاكم قصة طريفة من قصص دراسته.

حج هو وابن لَهيعة، قاضي مصر ومحدِّثها، ولقيا العلماء معاً، وكان من علماء الحجاز نافع مولى ابن عمر، رآه الليث فعرفه، ولم يكن يعرفه ابن لهيعة فتبعه حتى دخل دكان علاف، فسلم عليه، فقال له: من أنت؟ قال: من قيس؟ قال: ابن كم؟ قال: ابن عشرين. قال: أمَّا لحيتك فلحية ابن أربعين، ثمَّ قعد معه فحدَّثه أحاديث وأذن له أن يروي هذه الأحاديث عنه.

فرآه ابن لهيعة، قال: من هذا؟ قال: مولى لنا. وتعرفون أنَّ المولى في اللغة من أسماء الأضداد، فالسيد مولى، والتابع مولى، فأوهم ابن لهيعة لئلا يشاركه الرواية عنه.

فلما رجعا إلى مصر، صار الليث يقول: حدَّثنا نافع عن ابن عمر، فأنكر عليه ذلك ابن لهيعة، وقال: أين لقيته؟ فضحك وقال: أما رأيت العبد الأسود الذي كان في دكان العلاف؟ هو ذاك!

* * *

وبلغ منزلة في الحديث والفقه شهد له فيها أكابر العلماء.

قال الشافعي: الليث أفقه من مالك ولكن أصحابه لم يقوموا به. أي لم يدونوا علمه فضاع مذهبه واندثر.

وقال أحمد بن حنبل: ما في المصريين أثبت من الليث، وكان يقول: الليث بن سعد، ما أصح حديثه!

وروى عنه مالك ولم يصرح، وكل ما كان في الموطأ من قوله (وأخبرني من أرضى من أهل العلم) فإنّما يعني به الليث بن سعد.

وكان الشافعي يقرأ في درسه مسائل الليث، فمرّت مسألة فقال أحد الحاضرين: أحسن والله كأنّه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهيب: بل كأنَّ مالكاً يسمع الليث يجيب فيجيب هو. والله الذي لا إله إلاَّ هو ما رأينا أفقه من الليث.

وعرض عليه المنصور ولاية مصر فأبى وأصرَّ على الإباء، فقال: دلني على رجل صالح، فقال: عثمان بن الحكم الجذامي.

أفتدرون بم كافأه عثمان؟ لما جاءته الولاية كرهها وتألم منها، وسأل من دلَّ أمير المؤمنين عليَّ، قالوا: الليث.. فحلف ألاَّ يكلمه أبداً، لأنَّه سبب له هذا الأذى، يعني ولاية مصر يا أيها السامعون.

هكذا كانت أخلاق علمائنا وصلحائنا.

* * *

وقال يعقوب وزير المهدي: قال لي أمير المؤمنين لمَّا قدم الليث بغداد: الزم هذا الشيخ فقد ثبت عند أمير المؤمنين أنَّه لم يبقَ أحد أعلم بما حمل منه.

ومعنى ذلك بعرف العصر، أنَّ الخليفة أمر وزيره الأكبر بمرافقته بنفسه، أيام زيارته (العاصمة).

وكان له مع الخلفاء حوادث طريفة، منها أنَّه جرى بين هارون الرشيد وبين بنت عمه (زوجته) زبيدة كلام، فقال لها: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة.

ثمَّ ندم، فكتب إلى البلدان، فجمع علماءها إليه، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم، فاختلفوا. وبقي الليث لم يتكلم، فسأله، فقال إذا أخلى أمير

المؤمنين مجلسه. فصرفهم، فقال. أتكلم على الأمان؟ قال: نعم، فأمر بإحضار مصحف فأحضر، قال اقرأ يا أمير المؤمنين سورة الرحمن فقرأها حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾.

قال: أمسك يا أمير المؤمنين، قل: والله..

فصعب على الرشيد أن يحلِّفه، فقال الشرطَ يا أمير المؤمنين. فحلَّفه بأشد الإيمان، أنَّه يخاف مقام ربه. فلما حلف، قال: هما جنتان يا أمير المؤمنين لا جنة واحدة.

فسمع التصفيق وصياح الفرح من وراء الستر.

وسأله ماذا تطلب، قال: يا أمير المؤمنين، أمَّا لنفسي فقد أغناني الله بفضله، ولكن أطلب صلاح بلدنا، وصلاحه بإجراء النيل وصلاح أميره.

فأمر أن يكون والي مصر وقاضيها تحت أمره، وكان إذا رابه من أحد شيء كتب فيه فيعزل.

من ذلك أنَّ قاضي مصر إسماعيل بن اليسع لا يرى، لزوم الوقف[1]، فكتب فيه: «إنا لم ننكر عليه شيئاً ولكن له رأياً في الوقف لا نرضاه» فورد كتاب الخليفة بعزله.

فلما جاءه العزل، قال له: يا أبا الحارث، لقد أتعبت نفسك، والله لو أمرتني بالخروج لخرجت!

* * *

وكان له كل يوم أربعة مجالس: مجلس يأتيه فيه الوالي ونوابه يسألونه ويسترشدون برأيه، ومجلس لأصحاب الحديث، ومجلس للفقه، ومجلس لأصحاب الحاجات.

---

(١) أي أنَّه يرى جواز رجوع الواقف إن شاء وذلك مذهب أبي حنيفة لأنه عقد تبرع لا عقد معاوضة ولذلك كانوا يقيمون دعوى صورية على ناظر الوقف ومتوليه ليثبتوه بحكم القاضي.

وكان يعيش معيشة الملوك، وقد قوِّمت ثيابه مرة ودابته بثمانية عشر ألف درهم أي بألف دينار ذهبي، وكان لباساً[1].

وكان إذا رحل، رحل بثلاث سفائن: سفينة له ولأضيافه وتلاميذه، وسفينة لعياله، وسفينة لمطبخه وخدمه.

وقال كاتبه (سكرتيره) عبدالله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة، فكان لا يتغدَّى ولا يتعشى إلَّا مع الناس، ولا يأكل إلَّا الألوان الكثيرة باللحم الوافر، وكان كل من جاءه من التلاميذ، يأكل وينام وينفق على حسابه، لا يكلفه من ماله شيئاً، وإذا أراد السفر، أعطاه نفقته وزاده[2]!.

وكان يتخذ الفالوذج والحلوى لأصحابه، ويضع فيها الدنانير، ليرغبهم بذلك في الأكل ويغنيهم!

وكانت له موائد عامة للناس، يطعمهم فيها الهرايس بعسل النحل وسمن البقر في الشتاء، وباللوز والسكر في الصيف.

وكان يعطي العلماء رواتب دائمة، منها مئة دينار للإمام مالك، وكتب إليه مرة أنَّ عليه ديناً فبعث إليه بخمسمئة دينار، وكتب إليه مرة أخرى: «إني أريد أن أزوج بنتي فابعث لي بشيء من عِصْفِر». وكان يومئذٍ غالياً، وكانوا يصبغون به الثياب ويسمونها المُعَصْفَرات... فبعث إليه بثلاثين جملاً محملة عصفراً فصبغ منه لابنته وباع منه بخمسمئة دينار، وبقيت عنده فضلة...

ولما حجَّ أهدى إليه مالك طبقاً فيه رطب، فأخذه ورد الطبق وفيه ألف دينار!

---

(١) وكذلك كان أبو حنيفة، وكثير من العلماء الموسرين من الحلال، والله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده.

(٢) وقد عرفت في جدة رجلاً كان على هذه الصفة وكان له اطلاع على العلم، وكانت له خزانة كتب كبيرة، وكان بابه مفتوحاً ومائدته منصوبة، صحبته أكثر من خمسين مرة فما وجدته حاد عن هذا هو الشيخ محمد نصيف.

ولما احترقت دار ابن لَهيعة أعطاه ألف دينار، ووصل منصور بن عمار القاضي بألف دينار.

وأتاه مرة سائل فأمر له بدينار، فأبطأ الغلام فجاء سائل آخر، فقال له الأول: اسكت. فسمعه الليث، فقال: مالك وله؟ دعه يرزقه الله. وأمر له بدينار آخر.

قال منصور بن عمار (القاضي): كنت يوماً عند الليث فأتته امرأة ومعها قدح فقالت: يا أبا الحارث زوجي مريض وقد وصف له العسل، قال: اذهبي إلى الوكيل فقولي له يعطيك. فجاء الوكيل يسارّه، فقال: اذهب فاعطها مطراً (أي مئة وعشرين رطلاً) إنَّها سألت بقدرها، فأعطيناها بقدرنا.

واشترى منه قوم ثمرة بستان له ثمَّ ندموا واستقالوه (طلبوا الرجوع عن البيع) فأقالهم، ثمَّ استدعاهم فأعطاهم خمسين ديناراً، وقال: إنَّهم كانوا أمّلوا ربحاً، فأحببت أن أعوضهم.

* * *

لقد كان الليث بن سعد، يا أيها السامعون والسامعات، نموذجاً لطراز من العلماء، نتمنى أن نعود فنرى أمثاله في هذا العصر.

أن نرى علماء يكون لهم مثل هذا العلم، وهذه الأمانة في نقله، وهذا العقل الكبير، وهذه الكياسة في معاشرة الملوك، وهذه المنزلة وهذا الجاه، وأن يكون لهم (خاصة) مثل هذا المال الذي يستغنون به[1]، المال الذي يحصلونه بجدِّهم وكدِّهم، لا الذي يجمعونه بمد أيديهم إلى الناس، وأن يكون لهم مثل هذا الكرم.

* * *

---

(١) والإسلام لا يحارب الغنى إن كان من حلال، ولا يحرم جمع المال، والغني إن أدّى زكاة ماله لم يكن ممن يكنز الذهب والفضة، ولم يكن عليه عقاب.

وتوفي الليث يوم الجمعة ١٤ شعبان سنة ١٧٥ وعمره إحدى وثمانون سنة على التمام.

قال خالد بن عبد السلام الصدفي: شهدت جنازة الليث مع أبي، فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها، ولا أظن أنَّه سيكون أعظمُ منها أو أكثر من أهلها، ورأيت الناس كلهم في جنازته، سواء في الحزن، يعزي بعضهم بعضاً ويبكون.

قلت: يا أبت، كأن كل واحد من هؤلاء هو صاحب الجنازة!

فقال: يا بني، كان عالماً كريماً، كبير العقل، كثير الأفضال.

يا بني، لن ترى مثله أبداً.

نَاصِرُ السُّنَّةِ

هذه قصة رائعة من قصص الثبات على المبدأ، وحمل الأذى في سبيله، والتضحية بالنفس والمال من أجله، قصة رائعة حقاً، لا أكاد أعرف بعد قصص شهداء الإسلام الأولين أروع منها.

ولست أستطيع أن أجلوها لكم حتى أُمهد لها تمهيداً سريعاً.

إنَّ تاريخنا المكتوب يا سادتي، هو تاريخ الملوك فقط، أمَّا تاريخ الشعب بعاداته وأوضاعه، وطعامه وشرابه، وأفراحه ومآتمه... أمَّا تاريخ الفكر باتجاهاته ومقوماته، فلم يكتب. ولو كان تاريخ الفكر مكتوباً، لقرأنا فيه أنه كان للفكر في هذه الفترة التي أُورخها في هذا الحديث، في العصر العباسي الذهبي، وجهتان مختلفتان، وجهة التمسك بالأثر، والوقوف عند ظواهر الأحاديث، وترك القياس، إلاَّ عند الاضطرار، ووجهة إطلاق العقل في البحث والقياس والنظر. وكان يمثل الوجهة الأولى المحدثون، ومن ورائهم جمهرة الناس، وكان يمثل الوجهة الثانية المعتزلة يؤيدهم أرباب العلوم الجديدة، وكان النزاع بين المعسكرين نزاعاً فكرياً، ميدانه المساجد، وحلقات الدرس، وسلاحه الحجج والبراهين، حتى جاء المأمون فقرب إليه زعيم الوجهة الثانية، وتبع مذهبه وسخر قوى الدولة لإكراه الناس عليه، وبذلك بدأت هذه المأساة التي عرفت في تاريخنا، باسم (المحنة) وهي في اللغة بمعنى الامتحان.

* * *

وأنا كلما قرأت خبر المحنة أقف عند أمور ثلاثة وأعجب منها أشد العجب.

أولها: أنَّ المعتزلة هم أصحاب المذهب العقلي في الإسلام (راسيوناليست) وفيهم اللَّسَن والبلاغة وبعد النظر وسعة المعرفة، وإمامهم ابن أبي دؤاد من أجلّ رجال الإسلام فضلاً ونبلاً، وبياناً وعقلاً، فكيف سوَّغ لهم هذا العقل أن يكرهوا الناس بالقوة على قبول آرائهم على ما فيها.

وثانيها: أنَّ المأمون، وهو أعظم ملوك بني العباس في عقله وخلقه وحلمه، وفي سعة مداركه وعمق تفكيره، وإحاطته بعلوم عصره المنقولة والمترجمة، كيف رضي لنفسه أن يوصم بالعدوان على حرية الفكر، وكيف تصور أنَّ الأفكار تنشر بالقوة؟ إنَّ السلطان يستطيع أن يكره الناس على أن يخرجوا من دروهم، ويبدلوا ثيابهم، ولكنه لا يستطيع أن يكرههم على الخروج عن مبادئهم، وتبديل أفكارهم.

وثالثها: المسألةُ التي صارت مدار الخلاف وهي مسألة لا تستحق هذه العناية وليست من أركان الدين ولا أمرنا الله بها، ولا يسألنا يوم القيامة عنها، وهي هل القرآن مخلوق أم لا؟.

* * *

بدأت المحنة بورود كتاب المأمون، وكان بخراسان، على عامله في بغداد، أن يجمع العلماء الرسميين، من قضاة وخطباء، ويسألهم عن القرآن، فمن لم يقل أنَّه مخلوق عزله، وكانوا جميعاً لا يقولون بذلك ولكن الضعف البشري، والخوف على المنصب، دفعهم إلى التظاهر بالموافقة فتركهم. وعمد إلى جماعة ممَّن كان الناس يعدونهم أكابر المحدثين، فامتحنهم فأبوا الموافقة، فلم يستعمل المأمون القوة، ولكنه هاجمهم من نقطة الضعف فيهم وفي أكثر العلماء في عصرنا، وهي التعارض بين أفعالهم وأقوالهم، وذكر ما أخذوا من أموال لا يستحقونها، وما كانوا يعملون في سيرهم

الخاصة، وهدد بنشر هذه الفضائح، فخافوا فوافقوا إلّا أربعة منهم، لم يجد عليهم مطعناً في سيرهم وأخلاقهم، فلجأ إلى الشدة، وأمر بوضعهم في الحبس وإثقالهم بقيود الحديد، فوافق اثنان، وبقي أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، فأمر بحملهم إليه وكان في خراسان (عند بلاد الأفغان).

* * *

وتوفي المأمون قبل أن يصلوا كما توفي ابن نوح على الطريق فبقي أحمد وحده.

وكان جمهور العلماء وسواد الناس في جبهة المحدثين، ولكن لم يكد المأمون (أي الحكومة) يعلن انحيازه إلى المعسكر الآخر ومعه الأموال والمناصب والدنيا، حتى تبعه العلماء، رغبةً أو رهبة، ولم يثبت إلّا الإمام أحمد. اختصرت فيه وحده هذه الجبهة الضخمة، وقام وحده على المسرح، وانصبت الأضواء كلها عليه، وتعلّقت الأنظار به، ووقف ضدّه الخليفة، وقوّاده، وخزائنه، وسلطانه، وتعلّق نصر الجبهة بثباته، فإن هو انهزم انهارت جبهة المحدثين وتمّت الغلبة للمعتزلة.

أمّا العامة فكانوا كما يكونون في كل عصر: قلوبهم مع علماء الحق ولكن سيوفهم مع أمراء الباطل.

* * *

وولي المعتصم وكان رجلاً قوي الجسم يستطيع أن يصارع أسداً، ولكنه كان ضعيف العلم لا يستطيع أن يناظر أحداً، وكان يجلّ أخاه المأمون ويراه مثله الأعلى فسار على طريقته ولكنه غلا حتى جاوز الحدود.

ولبث أحمد في السجن، وبلغ كل مبلغ من الضعف، ومع ذلك فقد كان دائم العبادة، حاضراً مع الله، يصلي بأهل السجن وهو مقيد بقيود الحديد. وبعث المعتصم علماءه وقواده يناظرونه فكان يرفض الدخول في المناظرة ويأبى الموافقة إلّا بدليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله. وحمل

إلى حضرة المعتصم وجرت المناقشة أمامه، فكان يصرُّ على هذا الرد، وجربوا أنواع الترغيب بالعطايا والمناصب، وأنواع الترهيب بالتعذيب الشديد، فلم يؤثر ذلك فيه أثراً.

وبعثوا إليه بعلماء السوء يأتونه من باب التقية، فكان يقول: إنَّ من قبلنا كانوا ينشرون بالمنشار فلا يرجعون. وأظهر مرة أنَّه لا يخاف السجن فإنَّ داره ليست أحسن منه. ولا الموت فإنَّه يتمنى الشهادة. ولكن يخاف الضرب، يخشى ألاَّ يحتمل فتهزم فكرته. ما على نفسه خشي، ولكن على المبدأ. فقال له أحد اللصوص وكان معه في السجن: أنا ضربت عشرين مرة، يبلغ مجموعها آلاف الأسواط فاحتملتها في سبيل الدنيا، وأنت تخاف أسواطاً في سبيل الله، إنَّما هما سوطان أو ثلاثة ثمَّ لا تحس شيئاً فهوَّن ذلك عليه.

* * *

ولما عجز المعتصم نصب آلة التعذيب ومدوه عليها وضربوه، فانخلعت كتفه من الضربة الأولى، وانبثق من ظهره الدم فقام إليه المعتصم يقول: يا أحمد قل هذه الكلمة، وأنا أفك عنك بيدي وأعطيك وأعطيك، وهو يقول هاتوا آية أو حديثاً.

فقال المعتصم للجلاد: شد قطع الله يدك. فضربه أخرى. فتناثر لحمه.

وقال له المعتصم: لماذا تقتل نفسك مَن مِن أصحابك فعل هذا؟

وقال له عالم من جماعة الخليفة اسمه المروذي: ألم يقل الله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾. قال أحمد: يا مروزي اخرج فانظر أي شيءٍ وراء الباب فخرج إلى صحن القصر. فإذا جمع لا يحصيهم إلاَّ الله معهم الدفاتر والأقلام. قال: أي شيء تعملون؟ قالوا: ننظر ما يجيب به أحمد فنكتبه.

فرجع. قال: يا مروزي أنا أضلّ هؤلاء كلهم؟ أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء كلهم!

إنَّه لم ينسَ أمانة العلم وهو على هذه الحال، واحتمل هذا الأذى كله لأداء أمانة العلم.

وقال بعض المنافقين للمعتصم وهو قائم يكلمه: يا أمير المؤمنين أنت قائم في الشمس وأنت صائم؟ خافوا عليه من الشمس وهو الشديد القوي الذي يصرع أسداً، ولم يخافوا على هذا الشيخ الضعيف وهو صائم ولحمه يتناثر من الضرب.

وجاء القائد التركي عجيف فنخسه بالسيف وقال: ويلك أنت تقدر على هؤلاء كلهم؟

ولما عجز المعتصم قال للجلادين: اضربوا وشدوا. فكان يجيء الواحد فيضربه سوطين، ثمَّ يتنحى ويأتي الآخر، حتى خلعت كتفاه، وانفزر ظهره كله، وغطاه الدم.

وانقطعت تكة لباسه (سراويلاته) فكاد يسقط وينكشف. ورآه الناس يحرك شفتيه. فيقف اللباس مكانه وسألوه بعدُ. فقال: قلت يا رب إن كنت تعلم أني على الحق فلا تهتك لي ستراً[1].

حتى أشرف على الموت، وخاف المعتصم أن يثور الناس إن مات، فرفع عنه الضرب وسلمه لأهله، بعد ما لبث في السجن والقيود ثمانية وعشرين شهراً. وأرادوا أن يسقوه شيئاً فأبى أن يفطر. ولم يخرج حتى أعلن أنَّه سامح المعتصم وكل من حضر ضربه. وبقي أثر الضرب فيه وبقيت كتفه مخلوعة حتى مات.

---

(١) خاف أن تكشف عورته وهو على هذه الحال. واستسهل ما هو فيه على كشفها، فماذا يقول من يكشفها في الملعب للرياضة وعلى الشط للسباحة، والمرأة التي تكشفها للرجل الأجنبي باسم الفحص الطبي بلا ضرورة ظاهرة، ولا حاجة قاهرة.

على أنَّ المحنة لم ترفع تماماً إلّا أيام المتوكل، وكانت محنة حقاً، امتحاناً لأخلاق الرجال ولإيمانهم ولرجولتهم، وكان الناجح فيها، وكان الأول في هذا الامتحان العالمي التاريخي، الإمام أحمد بن حنبل. وليت المعتزلة كانوا قد تركوا الغلو في تحكيم العقل فيما لا يقدر على الحكم عليه، وأصلحوا ما كان منهم من خطأ. فكانوا هم الناجحين، فلم تكن هذه النكسة للفكر الإسلامي التي طالما أكلنا المرَّ من ثمارها.

وثواب أحمد في الآخرة أكبر، ومنزلته أعلى. رحمة الله عليه.

أمير المؤمنين في الحديث

من يستطيع أن يحصي الكتب التي ألّفها علماء المسلمين؟ هذه الكتب التي أمدّت المطابع في الشرق والغرب من مئتي سنة إلى الآن، لا تزال تطبع منها، وما بقي مخطوطاً أكثر مما طبع، وما ضاع من المخطوطات أكثر مما بقي، وحسبكم أن تعلموا أنَّ هولاكو لما دخل بغداد ألقى الكتب في دجلة، حتى لوّن حبرها ماء دجلة، وإنَّ الإسبان لما استرجعوا الأندلس أحرقوا الكتب حتى صارت الليالي من اللهب بيضاء، عدا ما أضاعه التحريق والتخريق والتمزيق، فكم هي إذن الكتب التي ألّفها علماء المسلمين[1]؟.

* * *

وبعد، فليس في هذه الكتب كلها، ما هو أشهر وأفضل وأجلّ، عند خاصة المسلمين وعامتهم، من الكتاب الذي جئت اليوم أحدثكم عن صاحبه.

الكتاب الذي لا يفضل عليه المسلمون إلّا كتاباً واحداً هو القرآن.

الكتاب الذي نعدُّه، بعد كتاب الله، عماد ديننا، ونجعله حجة بيننا وبين ربنا، ونقيم عليه أمر دنيانا وآخرتنا. أما عرفتموه؟ أي كتاب يوضع بعد القرآن مباشرة إلّا صحيح البخاري. وإن كان القرآن مقطوعاً إن كل ما بين دفّتيه كلام الله. وكان يكفر من أنكر منه كلمة واحدة، وهذا على ما بذل من تحقيقه، وما بلغ من الثقة به، لانقطع جزماً بأن كل ما فيه من كلام رسول

(١) لي بحث مفصل في هذا الموضوع. عنوانه (مع الكتب والعلماء).

الله ﷺ ولا نكفِّر من ينكر شيئاً منه كما نكفر من أنكر شيئاً من القرآن، فإنَّ القرآن لا يعدله كتاب وإن كان حديث رسول الله في أمور الدين لمن سمعه منه أو وصل إليه بالتواتر وحياً من عند الله كالقرآن، ولكن القرآن وحي بلفظه ومعناه، والحديث وحي ولفظه من عند رسول الله ﷺ.

* * *

وكان غنياً، وكان صدراً في كل شيء، وكان مع ذلك من أعبد العباد، وأزهد الزهاد، وأشد المتواضعين، إنَّه أحد أعاجيب الرجال في تاريخ الإسلام العلمي.

وتاريخ المحدثين خاصة حافل بالرحلات وبالصبر على مشاقّها، وبالإحاطة وبالحفظ، وبالتقوى وبالورع، وما منهم إلاَّ من شارك في إقامة هذا البناء العظيم، الذي لا تعرف مثله أمة في الدنيا، ولكن لم يبلغ أحد منهم ما بلغ البخاري، حتى ولا (المحدث الأكبر) أحمد بن حنبل.

نعم ليس لأمة علم كعلم الحديث، وأي أمَّة استطاعت أن تتبع كل كلمة قالها نبيها أو زعيمها، وتبين مسراها خلال العصور، ومن سمعها منه، ومن نقلها عنه، وما هو الطريق الذي مشت فيه، من شخص إلى شخص، لا في يوم أو يومين بل في القرون الطوال، مع ما اضطرهم إليه من بحث أحوال الرجال، أمانة وذاكرة، وحسن معاملة، وصلاح نفس، وسيرهم وتواريخهم.

وإذا كنا نصدق أن نابليون خطب في (استرلتز) كذا، وأنَّ بسمارك قال كذا، ولم نعرف من سمع ذلك منه، ومن رواه عنه، ولعلَّه أخذ من جريدة كاذبة، أو مؤلف مبتدع، فكيف نطعن بحديث نقل هذا النقل المضبوط، بهذا السند المتصل، على قرب الزمان بين الرسول وهؤلاء المحدثين الأولين.

إنَّ علم الحديث من حيث السند (وهو طريق الرواية)، قد بلغ في الكمال ما لا زيادة عليه لمستزيد. وأعود الآن إلى البخاري.

لقد سمعتم في حديث مضى قصة فتح بخارى على يد القائد الكبير

قتيبة، ولم يدخل المسلمون بخارى فقط، ولكن بخارى دخلت في الإسلام، ولم تمض عليها مدّة قصيرة، حتى صارت معقلاً من أعظم معاقله. وحصناً من أكبر حصونه، وبذلك يمتاز الفتح الإسلامي، إنّه ليس فتحاً للبلاد، ولا استعماراً لها ولا حماية ولا وصاية ولا انتداباً، كل هذه أشكال زائلة، ولكنه فتح للقلوب وللبصائر حتى يصير أهل البلاد المفتوحة، أحرص على الدين وأخلص له من الفاتحين، وهذه أسرار الأخوة الإسلامية، وأنَّ المؤمن أخو المؤمن، إنها (بوتقة) ذات حرارة عالية تذيب كل عنصر، وكل جنس، مهما كان معدنه شديداً قوياً، فتجعل من ذلك كله سبيكة واحدة، هي أثمن وأغلى وأشد تماسكاً وارتباطاً، من كل عنصر تألفت منه، ودخل فيها، وقد حاولت فرنسا أن تقلد فما أحسنت التقليد، أرادت أن تجعل الجزائريين فرنسيين، بإعطائهم الجنسية الفرنسية، ونسيت حقيقة ظاهرة، وهي أنَّ العربي لا يصير أبداً فرنسياً، ولكنَّ الفارسي والصيني يصير مسلماً، لأنَّ الفرنسية (جنسية) و (قومية) والإسلام عقيدة ودين.

لقد ولد الإمام البخاري بعد فتح بخارى بمئة سنة، وكان أبوه هو الذي دخل في الإسلام، ونشأ هو وأبوه من قبله، وجده من قبلهما، في ظلال الإسلام، وكان أبوه غنياً، ترك له مالاً جزيلاً، وأورثه تجارة واسعة فكان يضارب بها، لا المضاربة في (البُرْصات) باصطلاح اليوم، بل شركة المضاربة بالعرف الإسلامي. وهي أن يدفع الغني ماله لمن يتاجر به ويكونان شريكين، هذا بماله وذاك بعمله.

وأنا محدثكم عن أسلوبه في التجارة لتروا كيف كان يطبق علمه على تجارته، ومبادئه على معاملته، لا كمن يدَّعي الدين والعلم بلسانه، ويكون من فعله.. ما نسأل الله من مثله العافية.

جاءته تجارة، فأقبل التجار فدفع له جماعة منهم خمسة آلاف دينار ربحاً. فقال لهم: انصرفوا حتى أفكر وأعطيكم الجواب، وجاءه بعدهم من دفع عشرة آلاف، قال: إني نويت أن أبيع أولئك ولا أحب أن أنقض نيتي،

وباع بربح خمسة آلاف وترك العشرة[1].

وكان يكرم العلماء ويحبو السائلين ولا يرد أحداً، ثمَّ إنَّه كان يبني من ماله الرباطات والحصون والمدارس ويدعو الناس إلى العمل فيها، وينصب لهم الموائد، فربما تغدى على مائدته ثلاثمائة رجل.

ويلغ من الجاه والعظمة منزلة لم تبلغها الملوك، كلما نزل بلدة (وهو في رحلة دائمة) يخرج أهل البلد عامتهم وخاصتهم وأمراؤهم ورعيتهم إلى استقباله من مسافة أميال، ويرتج البلد فرحاً به، ويزدحم الكبار على بابه، ويتسابقون إلى سماع كلامه والأخذ عنه.

وكان (مع هذا كله) زاهداً، متقشفاً، مرض مرة فعرضوا ماءه (أي بوله) على الطبيب لفحصه، وكانت هذه طريقة الفحص الطبي عندهم، نعم! من أكثر ألف ومئتي سنة! فقال هذا ماء رجل لا يأتدم فسألوه فقال: صحيح إني ما ائتدمت (أي ما أكلت مع الخبز إداماً) منذ عشرين سنة[2]، فأصرَّ الطبيب عليه فصار يأكل مع الرغيف سُكَّرة.

أمَّا تواضعه فكان أعجوبة، وكان سباقاً إلى كل خير، ألقى رجل وسخاً في المسجد فانتظر البخاري حتى إذا رأى أنَّ الناس لا يبصرونه، قام فحمل الوسخ، وألقاه خارج المسجد. وأغضبته جارية مرة، ولم تقبل أن تترضاه. فقال: إن لم ترضني فأنا أرضي نفسي فأعتقها. وقال: الآن أرضيت نفسي.

ولدغه زنبور مرة وهو يصلي مرات كثيرة، فلم يترك الصلاة، حتى إذا انتهت، قال: انظروا أي شيء آذاني في صلاتي!

وكان مع هذا جندياً محارباً، بطلاً في الرمي، يخرج للتدريب مع تلاميذه، فلا يخيب له هدف.

---

(١) هذا ورع منه، ولو أنه باع الآخر ما كان حراماً.

(٢) وهو الذي يغدي على مائدته الثلاثمئة.

تسألون الآن عن علمه.

لقد بدأ يحفظ الحديث وهو في الكتاب ابن عشر سنين، وكان أوَّل أستاذ له (الداخلي) فسمعه البخاري مرة يروي عن سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقال له: ما هكذا إنَّ أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم. قال الداخلي: وما يدريك أنت يا غلام، قال: ارجع إلى الكتاب، فرجع فإذا هو كما قال البخاري، قال له ليمتحنه: وكيف هو؟ قال الزبير عن إبراهيم. وكان عمره إحدى عشرة سنة.

وقرأ كتب أهل الرأي مع سماعه الحديث.

ثمَّ رحل في طلب العلم، وإذا كان الشاب اليوم يرحل بالطيارة أو بالباخرة إلى أوربا، فإنَّ رحلات البخاري لو جمعت لزادت عن محيط كرة الأرض مرتين. قضى حياته في رحلات دائمة، فلم يدع محدثاً ولا عالماً، إلَّا أخذ منه ما عنده، حتى بلغ من أخذ عنه أربعة آلاف شيخ! وكان يرحل لطلب الحديث الواحد. حتى جمع في هذه الذاكرة العجيبة، ما عند المحدثين جميعاً، وكان يعيش للعلم يفكر فيه نهاره كله، ويفكر فيه ليله، يقوم في الليل يشعل السراج ويكتب شيئاً أو يعلّم على حديث، ثم ينام قليلاً، ثمَّ يخطر له خاطر جديد، فيقوم. حتى أنَّه ليشعل السراج في الليلة الواحدة أكثر من عشرين مرة، وقد أجمع علماء عصره على أنَّه الأستاذ الأكبر لعلم الحديث، وكان أساتذته يرجعون إليه، ويعرضون عليه مؤلفاتهم وقد يفخرون بأنَّه نظر فيها، و صحح لهم أخطاءها، لم يكونوا يبالون بأن يأخذوا عمن كان تلميذهم، لأنَّ غايتهم العلم، لا حظّ النفس، ولا نيل الدنيا.

وقد تعجبون إذا سمعتم أنه حفظ مليون حديث، وتقولون، وكيف تبلغ أحاديث الرسول هذا العدد؟

يا سادة، لقد وقع في هذا الخطأ مؤلف من أكبر مؤلفي العصر هو أحمد أمين في فجر الإسلام، وسبب هذا الخطأ الجهل باصطلاح المحدثين. إنَّ الحديث له متن هو الكلام المروي عن الرسول ﷺ، وسند وهو

طريق انتقاله إلينا، عن فلان عن فلان، وقد يكون للمتن الواحد عشرون سنداً، فيعد بذلك عشرين حديثاً. فمن هنا جاء هذا العدد الضخم.

وهاكم حادثاً واحداً يدلكم (إن صحَّ) على ذاكرة البخاري العجيبة، هو أنَّه لمَّا قدم بغداد في شبابه، أحب بعض المحدثين، أن يختبروا حفظه، فعمدوا إلى مئة حديث، فخلطوا متونها بأسانيدها، فوضعوا سند هذا لذاك، وسند ذاك لهذا، وجاؤوا بعشرة تلاميذ، فحفَّظوا كل واحـد، عشراً من الأحاديث المهوّشة (المشوشة) ليسألوه عنها، فلما قعد في الحلقة قام الأول، فقال أتعرف حديث كذا، وسرد الحديث الأول، قال لا أعرفه، قال فحديث كذا... حتى استوفى العشرة. ثمَّ قام الثاني. وهكذا، حتى سردوا الأحاديث المئة، وهو يقول لا أعرفه، فلما انتهوا. قال: أمَّا الحديث الأول فرويته كذا وصوابه كذا... حتى أعاد المئة بخطئها وصوابها.

وهذه حادثة ثابتة وهي من أعجب حوادث الحفظ، وليس العجيب حفظ المئة الصحيحة، ولكن العجيب كما يقول الإمام ابن حجر حفظ المئة المغلوطة من مرة واحدة.

* * *

عرض هذه الأحاديث كلها ثمَّ اختار منها أصحها وأثبتها، فوضعه في كتابه الذي بدأه في المسـجـد وبقي في تأليفه ست عشرة سنة والذي جمع فيه ٢٧٦١ حديثاً فقط.

* * *

هذا هو (صحيح البخاري) الذي اتَّفق المسلمون على أنَّ كل ما فيه صحيح السند، وأنَّه خير كتب الحديث، وإنْ فضل بعض المغاربة صحيح مسلم في حسن تبويبه، وترتيبه، والذي اعتُني به أجل عناية فشرح ثلاثة شروح كبار: أجلها شرح ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري)، ثمَّ شرح العيني، ثمَّ شرح القسطلاني، والذي اختصر في مختصرات عديدة وما زال العلماء يشتغلون به. يقبلون على الاستفادة منه والعمل به. مع العلم بأنَّه إذا

جاء فيه أو في غيره ما يخالف القرآن، مخالفة يتعذّر التوفيق بينها وبين القرآن أو ما يناقض الواقع المشاهد، نحكم بأن رسول الله ﷺ لم يقله، ولكن الراوي (وإن كان عدلاً) قد توهم أو أخطأ روايته.

ولم ينج البخاري من (المحنة)[1]، محنة خلق القرآن، ولقد ناله منها أذى وضرّ، وفارق من أجلها بلده. ومات في سمرقند التي فتحها قتيبة ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦.

مات، ولكن لم يمت اسمه، ولم يمت كتابه، وسيظل أبداً باقياً ما بقي على الأرض مسلمون.

جزاه الله عن حديث نبيه أفضل ما يجزى العلماء العاملين.

---

(١) المحنة والابتلاء والفتنة معناها كلها أو من معانيها الامتحان.

العَالِمُ النَّبِيلُ

أحب قبل أن أشرع في الحديث اليوم، أن أقول كلمة لا أجد من مقالتها بداً، هي أن أسألكم: هل يمكن أن يدخل معلم على صف اختلط فيه تلاميذ الابتدائية وطلاب الجامعة، ثمَّ يقول ما يفهمه الجميع، ويرضى عنه الجميع؟ تقولون: لا. فكيف إذن يا سادتي... كيف أستطيع أن أرضيكم جميعاً، ومنكم العالم، ومنكم الأديب، ومنكم الطالب، ومنكم البيَّاع الشراء، ومنكم المرأة في بيتها، والعامل في معمله؟ وكيف أسوق الحديث[1] لكم جميعاً؟ وأنا إن سهَّلت الحديث، وقصرته على قصص واضحة، وحكايات مفهومة، قال العلماء وطلَّاب الجامعة: إنه حديث تافه، وإن سموت به وجعلته تحليلاً نفسياً، وبحثاً علمياً، قال العامة وقالت النساء: إنه حديث غامض، لذلك عزمت أن أجعل بعض هذه الأحاديث للخاصة، وبعضها للعامة، أحرص مرة على إمتاع هؤلاء، ومرة على إرضاء هؤلاء، فمن وجد حديثاً من هذه الأحاديث على غير ما يريد، فليرتقب غيره فلعله يجد فيه مراده.

* * *

وحديث اليوم عن عالم يختلف عن كل من كنت حدثتكم عنه من العلماء، فليس في التقى والصلاح كأحمد بن حنبل، ولا في الاجتهاد والفقه كأبي حنيفة، ولا في الزهد والورع كسعيد بن المسيب، ولا في الجرأة والصراحة كالحسن البصري، ولا في الرواية والحفظ كالبخاري، ولكنه يمتاز

(١) أعني حديث الإذاعة.

بشيء غير هذا كله، بالنبل والسيادة، والشخصية الاجتماعية القوية، وأنّه رجل بلاط، ورجل دين، في وقت معاً، سيطر على أقوى الخلفاء العباسيين، عقلاً: المأمون، وأقواهم جسماً: المعتصم، وكان له عليه سلطان عجيب، وكانت كلمته لديه هي القانون، ولطالما سخر هذه المنزلة لرد المظالم، ورفع الأذى، وإقامة الحق، ولطالما استنقذ بها أناساً من تحت سيف الجلاد، ولكن على هذا كله كان يعمل على نصر مذهب المعتزلة وإيذاء أئمة السنة.

هو أحمد بن أبي دؤاد.

وهاكم بعضاً من مواقفه أسردها على سبيل التمثيل، لا على قصد الاستقصاء. كانت الدولة قسمين، تركية وعربية، والجيش جيشين: أتراكاً وعرباً، وكان زعيم الأتراك على عهد المعتصم، (وهو الذي فتح هذا الباب، وزرع هذا السمَّ، وجاء بالأتراك) كان زعيم الأتراك الأفشين، فاعتدَّ على أبي دلف (وكان من أكبر زعماء العرب) ذنوباً، حكم عليه فيها بالقتل، وبلغ الخبر ابن أبي دؤاد فذهب إليه، وما كان من عادته أن يزوره، فأرادوا إدخاله البهو الكبير حتى يفرغ الأفشين فيستقبله فأبى ودخل مجلسه، وأبو دلف مقيد في وسطه، والسياف على رأسه، والأفشين يقرِّعه ويشتمه، وأبو دلف (إن كنتم لا تعرفونه) هو بطل العرب، الفارس الجواد الممدح الذي قال فيه العَكَوّكَ الشاعر:

إنَّما الدنيا أبو دلف بين باديةٍ ومحتضَرِه
فإذا ولَّى أبو دلفٍ ولَّت الدنيا على أثره

فراح ابن أبي دؤاد يستعطف الأفشين، ويليِّنُ قلبه، ليعفو عن أبي دلف، وهو لا يزداد إلَّا عتوًّا، فلما رأى الجدَّ منه، وعلم أنَّه إن خرج قُتل أبو دلف، أقدم على أمر عظيم، لا يقدم عليه غيره فقال له: إلى متى أستعطفك وأسألك وأنت تأبى؟! إني رسول المعتصم إليك، يأمرك أن لا تحدث بأبي دلف حَدَثاً، وإن مسَّه سوء أو قتل، فإنَّه قاتلك به. وقال للحاضرين: اشهدوا على أني بلَّغته رسالة أمير المؤمنين، والقاسم (أي أبو دلف) حيٌّ معافى،

وتركه وقد صار وجهه بلون الزعفران، وذهب من فوره إلى المعتصم، فقال له: لقد بلغت رسالة عنك ما أرسلتني بها، وأخبره الخبر، فقال له المعتصم: نعم ما فعلت، وكفَّ يد الأفشين عن أبي دلف[1].

* * *

وغضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، الفارس العربي البطل، ابن الفارس العربي البطل، الذي قال الشاعر في رثاء أبيه، هذه القصيدة النادرة المثال، المنسوبة لصريع الغواني ومطلعها:

أحق أنَّه أودى يزيد ... تبين أنَّه الناعي المشيد

ومنها:

أحامي الملك والإسلام أودى ... فما للأرض ويحك لا تميد

تأمل هل ترى الإسلام مالت ... دعائمه وهل شاب الوليد؟

وتشفع فيه فلم يشفعه المعتصم، فجلس دون مجلسه المعتاد، فقال له المعتصم: مجلسَك يا أبا محمد! قال: ما ينبغي لي أن أجلس فيه، لأنَّ الناس يظنون إن جلست فيه أنَّ لي من أمير المؤمنين ما أشفع به فأشفَّع، قال: عد إلى موضعك. قال: مشفَّعاً أو غير مشفع؟ قال: بل مشفعاً. قال: إنَّ الناس لا يعلمون أنَّك عفوت عنه حتى تخلع عليه، فأمر فخلع عليه، قال: يا أمير المؤمنين، إن له رواتب ستة أشهر فمر له بها تقم مقام الجائزة. فأمر له بها، فخرج والخلع عليه والمال بين يديه، فناداه رجل: مرحباً بك يا سيد العرب، قال: اسكت ويحك: سيد العرب ابن أبي دؤاد.

وغضب المعتصم مرة على رجل من أهل الجزيرة، وجاء به ليقتل على

---

(1) ومن كتب له أن يزور اليوم آثار (سر من رأى)، وهي من أعظم الآثار الإسلامية لأنَّها مدينة طول الباقي من أنقاضها نحو خمسين كيلاً، وفيها شارع عرضه مئة ذراع وطوله نحو عشرة أكيال، رأى البلد قسمين، القسم التركي وفيه المسجد الجامع ومنارته الملوية العجيبة، والقسم العربي وفيه مسجد أبي دلف، هذا البطل الزعيم الكريم الذي أنقذه من القتل ابن أبي دؤاد واقرؤوا ما كتبته عن سرّ من رأى في كتابي (بغداد) وفي (الذكريات) التي نشرتها (دار المنارة).

ذنب أتاه، فتكلَّم فيه ابن أبي دؤاد، ثمَّ غلبه البول (ولا مؤاخذة) فخاف إن خرج ولم يستوف الكلام أن يقتل الرجل، ولم يعد يطيق الصبر، وكانت ثياب تلك الأيام كثيرة، فجمع ثيابه تحته وبال فيها! وأنقذ الرجل. فلما قام قال المعتصم: ما لثيابك مبتلة، فسكت. فأعاد عليه. فأخبره الخبر. فكاد يغشى عليه من الضحك.

وكان المعتصم يردُّ الشيء اليسير يُسأله، فيدخل عليه ابن أبي دؤاد، فيكلمه في أهل الثغور وأهل الحرمين وأهل المشرق فيجيبه. وسأله مرة صرف ألف ألف درهم (مليون درهم) لحفر نهر في أقصى خراسان وجرّ الماء إلى بلاد هناك عطشى. قال المعتصم: وما عليَّ من هذا النهر؟ قال: يا أمير المؤمنين إنَّ الله يسألك عن أقصى رعيتك. كما يسألك عـن أهلك ومن حولك. ولم يزل يرفق به حتى أمر بصرفها.

وله مع المعتصم لما مرض واشتدَّ عليه المرض خبر عجيب، إذ جاء يعوده، ورأى الموت بين عينيه، فشكا إليه المعتصم ما يلقى من الألم. فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ في السجون آلافاً من الأبرياء، وهم وأهلوهم يدعون عليك، ودعوة المظلوم سهم صائب فلو أطلقتهم، لانقلبت هذه الألسنة بالدعاء لك. فأمر بإطلاقهم. قال يا أمير المؤمنين: إنَّهم يعودون إلى أهليهم صفْر الأيدي، ما معهم شيء، فلو أمرت أن ترد عليهم أموالهم ويعطوا العطايا. فأمر بذلك.

وله أخبار كثيرة لا يتسع لها المجال، ولو أنَّ كل عالم يتصل بالحاكم، يسير معه هذه السيرة، ويتخذ منزلته وسيلة لرفع الظلم، ورد الحق، وإقرار العدل، لصلح الحاكم وصلح أمر الناس.

ولم يبلغ هذه المنزلة بوساطة أو شفاعة أو نسب، ما بلغها إلاَّ بنبوغه وعلمه. كان من أصحاب القاضي يحيى بن أكثم، فأمره المأمون يوماً أن يجيئه هو ومن في مجلسه، فدخل ابن أبي دؤاد على المأمون، ذلك اليوم،

فرأى علمه وبيانه وعقله. فما زال يقرِّبه حتى ولّاه قضاء القضاة (وزارة العدل) بدل يحيى، ووصى به أخاه المعتصم.

وكان عالماً من أكبر علماء المعتزلة ـ والمعتزلة طائفة ربما تكون مظلومة، قد دوَّن التاريخ أخبارها بعد انقراضها بأيدي أعدائها، فكذَّب عليها، ونسب إليها، ما لم يكن منها، ولكن أن تزيّدوا عليها، فليست مبرأة مما نسبوه إليها، ومن ظلم وقع منها، وبدع جاءت بها.

وكان بليغاً من أبلغ بلغاء عصره، وكان راوية، دخل على المأمون، وهو يسأل عمَّن أسلم من الأنصار ليلة العقبة، فعدَّهم جميعاً بأسمائهم وأنسابهم.

وكان شاعراً بليغاً ولكنه مقلّ، وقد عدَّه دعبل في كتابه مع الشعراء وروى له. ومن نبله وعلو منزلته، أنَّ الخلفاء لم يكونوا يُبدؤون بالكلام، وإنَّما يتكلمون فيجيبهم الناس. وهو أوَّل من افتتح الكلام معهم، وكان معهم بين الأدب والعزة، ويكلمهم كلام الكفء، قال له المأمون مرة: إذا جالس الخليفة عالماً فمثلك، قال: وإن جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين. فانظروا إلى هذا الجواب العظيم، وما فيه من الاعتزاز بكرامة العلم، وما فيه من الأدب مع الخلفاء. وكان يحسن التصرف ويجيد مخاطبة الملوك، ومن قوله: ثلاثة ينبغي أن يبجلوا وتعرف أقدارهم: العلماء، وولاة العدل، والإخوان، فمن استخف بالعلماء أضاع دينه، ومن استخف بالأمراء أضاع دنياه، ومن استخف بالأخوان أضاع مروءته.

* * *

وكان يقرب الشعراء والأدباء، ويحميهم. وقد انقطع إليه، اثنان: أحدهما أعظم شعراء العصر العباسي[1] وهو أبو تمام، والثاني أعظم كتّابه، وهو الجاحظ.

---

(١) ولست أستثني المتنبي.

وعادى رجلين كبيرين، عادى الأول للدين، والثاني للدنيا. أمّا الذي عاداه للدين فأحمد بن حنبل[1]، هو الذي سبب له الأذى، وهو الذي كتب هذه الصفحة السوداء في تاريخنا صفحة المحنة بخلق القرآن، التي كانت سبّة للمعتزلة، محت من أذهان الناس مزاياهم وطمست ذكراهم.

وأمّا الذي عاداه للدنيا، فهو الوزير الأديب الشاعر ابن الزيات، وكان بينهما خصام ظاهر، وهجاء طويل، وكان العلوّ أولاً والظفر لابن الزيات، ولما صدر المرسوم بأن يقوم له كل من في المجلس إذا دخل، كان ابن أبي دؤاد إذا رآه داخلاً، وقف للصلاة، ولكنه ما زال به يسلط عليه عقله، حتى نكب ابن الزيات، وزال من الطريق.

* * *

وعاش ابن أبي دؤاد إلى أيام المتوكل فأصابه الفالج، وعزل، ولكنه بقي نبيلاً في مرضه كما كان نبيلاً في صحته. ولم يؤثر العزل، ولم تؤثر النكبة في نفسه ولا في أعصابه. ولما مات رثي بمراثٍ ندر أن يرثى بمثلها أحد، كما مدح بمدائح ندر أن يمدح بمثلها أحد.

فمن مدائحه قول أبي تمام:

لقد أنست مساوىء كل دهر   محاسنُ أحمد بن أبي دؤاد
وما سافرت في الآفاق إلاّ   ومن جدواك راحلتي وزادي

وقول مروان بن أبي الجنوب:

لقد حازت نزار كل مجد   ومكرمة على رغم الأعادي
فقل للفاخرين على نزار   ومنهم خندف وبنو أياد
رسول الله والخلفاء منا   ومنا أحمد بن أبي دؤاد

ولما مات قام على قبره ثلاثة من الشعراء فقال الأول:

اليوم مات نظام الملك واللَّسَن   ومات من كان يُستعدى على الزمن

---

(١) وكان الحق مع أحمد بن حنبل. وهو افضل منه، وأجلّ قدراً، وأقوم سبيلاً.

وأظلمت سبـل الآداب واحتجبت　　شمس المكارم في غيم من الكفن

وقال الثاني:

ترك المنابر والسرير تواضعاً　　ولـه منابـر لو يشـا وسـريـر
ولغيره يجبىٰ الخراج وإنمـا　　تجبى إليـه محـامـد وأجـور

وقال الثالث:

وليس فتيق المسـك ريح حنـوطه　　ولـكنـه هـذا الثنـاء المخلَّف
وليس صرير النعش ما تسمعونـه　　ولـكنـه أصـلاب قـوم تـقَصَّف

* * *

الفَقِيهُ الأَمِيرَال[1]

نحن اليوم في تونس، في تونس الخضراء، قبل ألف ومئتي سنة بالضبط[2].

نحن في يوم من أيام سنة ١٧٢ للهجرة، في يوم مشهود، يوم سفر طالب من طلبة العلم إلى المشرق للدرس والتحصيل.

ونحن نرى الطلاب إذا أرادوا التحصيل، يذهبون في أيامنا إلى الغرب، لأنَّ الغرب أرقى. أمَّا يومئذٍ فكانوا يأتون من الغرب إلى الشرق، لأنَّ الشرق كان أرقى رقياً، وأعظم حضارة.

ولا تعجبوا فإنَّ الدهر دولاب، والأيام دول، والتاريخ شاهد ما نقول: بدأت الحضارة من الشرق، من مصر والعراق والشام، ثمَّ انتقلت إلى الغرب، إلى يونان وروما، ثمَّ عادت إلى الشرق، إلى دمشق وبغداد والقاهرة، ثمَّ رجعت إلى الغرب، إلى باريس ولندن وواشنطن، وها هي ذي بدأت تعود إلى الشرق.

ستعود بلا شك، بفعل تلك المطامع الأشعبية، والقنبلة الذرية، والحرب الساحقة الماحقة التي تسعى إليها تلك الدول... وبفضل الذخيرة

---

(١) الأميرال: أصلها عربي (أمير الماء). وهو لقب قائد الأسطول عند الأندلسيين والمغاربة وقد كتبت اللفظ الإفرنجي لموضع المفارقة بين وضعي الفقيه والأميرال.

(٢) لأنَّ هذا الحديث أذيع سنة ١٣٧٢.

الكبرى من الخير والبطولة التي أودعها محمد ﷺ في دمائنا.

عفوكم عن هذا الاستطراد، وأعود إلى الموضوع.

هذا الشاب الذي اجتمع أهل تونس لوداعه، عمره ثلاثون سنة، غريب عن تونس، أصله من نيسابور، وولد في ديار بكر[1]، وذهب أبوه إلى المغرب في الحملة التي جردها المنصور للقضاء على ثورة البرابرة، فنشأ في تونس وأخذ العلم عن علمائها، حتى إذا استوفى ما عندهم، عزم على الرحلة، وما كانوا يرحلون لنيل المتع، وجلب الشهادات، بل كانوا يرحلون للعلم وحده، وما كان سفرهم سهلاً، ولا مريحاً، بل كان سفراً طويلاً شاقاً يمتد الطريق فيه أشهراً طوالاً.

هكذا رحل هذا الشاب: أسد بن الفرات. فارق تونس سنة ۱۷۲ وتنقل في البلدان، وجاب صحاري، وركب بحاراً، حتى وصل المدينة، وكان للعلم مركزان، جامعتان كبيرتان: جامعة محافظة (إن صح التعبير) تعنى بالنقل وبدراسة النصوص، مقرها المدينة وأستاذها الأكبر مالك، وجامعة مجدِّدة. تميل إلى النظر العقلي، والبحث الحقوقي، ومقرها العراق، وأستاذها الأكبر أبو حنيفة.

فقصد جامعة المدينة، وكانت الجامعات هي الجوامع، ففيها حلقات العلم كله، علوم اللسان وعلوم الدين، ولزم الإمام مالكاً.

وكانت لمالك هيبة في الصدور، فلا يجرؤ أحد عليه، وكانت طريقة تلاميذه معه الاستماع، والإقلال من المناقشات، فلا يفرضون الفروض، ولا يقدِّرون الوقائع التي لم تقع، ويضعون لها الأحكام، كما يصنع علماء العراق، بل يسألون عمَّا وقع من الأحداث، ولا يلحون في السؤال، ولم تعجب هذه الطريقة الشاب التونسي، فجعل يفرِّع من كل مسألة مسألة، ويلح في طرح الأسئلة عليه، ورأى منه تلاميذ مالك هذه الجرأة، فكانوا يحمِّلونه أسئلتهم

(۱) سكنت قبائل بكر بن وائل تلك الديار من قبل الإسلام فسميت بها ونسبت إليها.

أيضاً ليلقيها على الإمام مالك، حتى ضجر مالك وقال: إن كان كذا كان كذا؟، سلسلة بنت سلسلة. إن أردت هذا فعليك بالعراق!

* * *

صحب مالكاً سنتين ثمَّ أزمع الانتقال إلى الجامعة الأخرى، جامعة العراق، فدخل على الإمام مودعاً شاكراً وسأله أن يوصيه.

فقال له: «أوصيك بتقوى الله، والقرآن، والنصيحة للناس».

ثلاث كلمات جمعت الفضائل كلها.

أما تقوى الله فرأس الأمر وملاكه، ومن لم يكن في قلبه تقوى لله، لم ينفعه علم ولا عمل، لأنَّ التقوى روح العلم، فمن كان عالماً بلا تقوى كان علمه جسداً بلا روح: جيفة! وكان وبالاً عليه. ومن كان عاملاً بلا تقوى كان عمله رياء، وكان حَسَنُه بالرياء قبيحاً.

وأمَّا القرآن فعماد الدين، وجماع العلم، وطريق كل خير.

وأمَّا النصيحة فهي الخُلق كله، النصيحة هي صدق القول، وصدق المعاملة، وأن تريد لكل امرىء ما تريد لنفسك..

* * *

ورحل إلى العراق...

وكان الإمام أبو حنيفة قد مضى إلى رحمة الله، وولي أستاذيّة مدرسته تلاميذه، يقدمهم[1] أبو يوسف ومحمد.

أمَّا الإمام أبو يوسف فقد شغل بالقضاء. وأمَّا الإمام محمد فقد تصدَّر للتدريس وللبحث، وانتهت إليه رياسة العلماء، حتى كان من تلاميذه الإمام الشافعي، أستاذ الإمام أحمد[2]، فلزمه هذا الشاب المغربي، فكان يحضر

(١) قدم القوم يقدمهم (على وزن نصر ينصر) أي تقدمهم.

(٢) وليس ذلك قادحاً بالشافعي ولا أحمد فالعلماء يأخذ بعضهم عن بعض. ويطلب اللاحق ما عند السابق.

دروسه العامة، ثمَّ أحب أن يكون له درس خاص، يغرف فيه ما استطاع من علم الإمام محمد ليحمله إلى بلاده، درس خاص..

انتبهوا ـ أرجوكم ـ وتأملوا الموقف.

أستاذ كبير له آلاف التلاميذ، وتجيئه كل يوم عشرات المسائل ليفتي فيها، يقدم عليه شاب غريب مجهول، فيسأل أن يقطع له من وقته الثمين، حصة خاصة به، وماذا ترونه يقول له؟.

ماذا يصنع الأستاذ الكبير في إحدى جامعات الغرب اليوم، إن جاءه تلميذ شرقي، فطلب منه هذا الطلب؟ يطرده، أو يعتذر إليه بلطف، وإذا كان كريماً جداً، أعطاه ساعة في الشهر، أو في الأسبوع.

أمَّا الإمام محمد، فقد أخذ هذا الشاب المغربي إلى بيته، وأعطاه غرفة بجنب غرفته، وكان يسهر معه الليل، يضع أمام التلميذ قدح ماء، فإذا نعس نضح وجهه ليصحو.

وما طلب منه أجراً، ولا سأله مالاً، بل كان هو الذي يطعمه ويسقيه! ذلك لأنَّ العلم كان في رأي أسلافنا الأولين عبادة، وكان قربة إلى الله، فالطالب يطلب العلم لله، لا للشهادة ولا للدنيا، والأستاذ يعلم العلم لله، لا للمرتب، ولا للمنصب.

ومن ذلك أيها السادة ـ ظهر في تاريخنا أولئك الأئمة والأعلام، الذين كانوا منار الهدى، وكانوا أساتذة الأرض، وألَّفوا هذه المؤلفات الكبار التي لا نقدر نحن اليوم على قراءتها. فضلاً عن نسخها، فضلاً عن تأليف مثلها[1].

ولبث أسد بن الفرات أمداً مع الإمام محمد.

وكان أسد أول من نعرفه جمع بين مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة، وبين مدرسة المدينة النقلية، ومدرسة العراق العقلية.

---

(١) كلسان العرب، ونهاية الأرب، وصبح الأعشى، والمبسوط والمجموع، وتاريخ بغداد، وأمثالها، وما أكثر أمثالها.

ثمَّ أزمع الرحلة إلى مصر. . .

وكان يتصدر التدريس في مصر، عالمان من تلاميذ الإمام مالك، أشهب وابن القاسم، ولم يكن قد نشأ الشافعي، وكان كلاهما مجتهداً يخالف إمامه في بعض المسائل، ولكن أشهب فيه حدَّة، وفي لسانه طول، وفي ابن القاسم أناة ولين.

لزم أشهب حتى سمعه يوماً يرد في مسألة على أبي حنيفة ومالك، بلفظة خشنة، فغضب أسد وكان كما عهدناه صريحاً جريئاً. فصرخ به على ملأ من الناس وقال له قولاً فظيعاً.

إن سمحتم رويته لكم.

قال له: ما مثلك ومثلهما[1]، إلاَّ كمثل رجل أتى بحرين زاخرين فبال بينهما فرغى بوله، فقال: هذا بحر ثالث! وفارقه إلى ابن القاسم فلزمه مدَّة.

وجمع ما أخذه من ابن القاسم من مسائل، وأفاض عليها من ذهنه الذي اختمرت فيه علوم تونس والمدينة والعراق، وجعلها في رسالة (مدوَّنة) سماها الأسدية.

وأراد الطلاَّب نسخها فأبى، وقال عملتها لنفسي، فرفعوا عليه دعوى.

دعوى طريفة جداً، حار فيها القاضي، ثمَّ حكم بأنَّ الكتاب يجمع مسائل ابن القاسم، وابن القاسم حيٌّ يستطيع المدعون أن يأخذوا منه مثل ما أخذ أسد. وحكم بردِّ الدعوى.

رد الدعوى قضاء، لأنَّه لم يجد نصاً ملزماً، ولكنه توسط شخصياً. فرجا أسداً أن يعطيهم الكتاب، ففعل وتناقلوه عنه.

وقدَّر الله لهذا الكتاب أن يكون أساس الفقه المالكي كله.

* * *

(١) بل هذا مثل من يتطاول في هذه الأيام، على العلماء الأعلام.

ورجع إلى القيروان عاصمة المغرب. المدينة العربية التي أنشأها البطل الفاتح عقبة بن نافع، وكان في المغرب حكومة مستقلة استقلالاً داخلياً هي حكومة بني الأغلب.

رجع بعد غيبة امتدت نحواً من عشرين سنة صرم نهاراتها، وأحيا لياليها، بالعلم والدرس، ولم يضع فيها لحظة في راحة ولا لعب. ولم يصحب فيها إلّا الأئمة والعلماء. ما صحب ذا لهو، ولا ذات جمال.

وكان عمره قد قارب الخمسين، فجلس للتدريس والإقراء يوفي دينه. يعطي التلاميذ مثل ما أعطاه الأساتذة: لله لا لأجر أو منصب، وصارت مدوَّنته الكتاب الرسمي لكل مدرسة مالكية، وأخذها عنه سَحْنُون، ومضى سحنون في رحلة إلى المشرق فقرأها على ابن القاسم نفسه. وكان رأي ابن القاسم قد تبدل في بعض المسائل، فكتب إلى أسد ليعدل المدوَّنة فأبى، فأخذ الناس (مدونة) سحنون، وصارت مرجع المذهب المالكي، وبنيت عليها الشروح والحواشي كلها، واشتهرت باسم مدونة سحنون، وإن كان أصلها لأسد.

أمضى عشرين سنة في العلم ثمَّ جاءه المنصب، فقلد القضاء مع أبي محرز، وكان للمدعي الخيار في مراجعة أحد القاضيين، وإن كانت نظرية الإمام محمد (صاحب أبي حنيفة) نابغة التشريع الإسلامي، أنَّ المحكمة هي محكمة المدعى عليه، كما هو الرأي الآن.

وكان القاضيان من قضاة الجنة إن شاء الله، ولكن أبا محرز فيه لين، وأسدُ أسدٌ في الحق، ولما قام والي القيروان منصور الطبري بثورته واستولى على القيروان، دعاهما ليقرَّاه على ثورته، ويبيِّن نقائص الأمير الذي ثار عليه. أمَّا أبو محرز فخاف، وأما أسد فأجابه جواباً حاسماً صارماً.

* * *

هذا خبر أسد طالب العلم، وأسد الفقيه، وأسد القاضي، فاسمعوا الآن خبر أسد القائد الأميرال.

حكم المسلمون أطراف البحر المتوسط من نصف الساحل الشرقي إلى نصف الساحل الغربي. وكان الساحل الجنوبي كله لهم، والشمالي تحت حمايتهم، وفي ظلال رايتهم، تربطهم عهود بإيطالية وصقلية، فجاء زعيم من صقلية لاجئاً إلى أمير المغرب الأمير زيادة الله، وخبره أنَّ حكومة صقلية نقضت العهد، وحبست أسرى المسلمين، وأساءت إلى الجالية الإسلامية.

وتردد الحاكم في قبول الخبر، وأحب أن يقف على حكم الشرع فيه، هل يكفي هذا الأخبار لاعتبار المعاهدة منتهية وإعلان الحرب؟

ودعا القاضيين يستفتيهما. أما أبو محرز فلم ير ذلك كافياً، وأما أسد فقال: إنَّ المعاهدة إنما أبرمت على أيدي الرسل، وإخبار الرسل كاف لنقضها.

فلما أفتاه أسد شرع يجهز الأسطول.

وطلب القاضي أسد أن يكون مع المجاهدين، فأبى الأمير خوفاً عليه وضنّاً به، فألح وألح، وقال: وجدتم من يسير لكم المراكب من النوتية، وما أحوجكم إلى من يسيِّرها لكم بالكتاب والسنة.

فلما رأى منه الجد، ولّاه إمارة الحملة.

وكان يريد أن يكون جندياً متطوعاً، لا يريد الإمارة فلما أعطيها، تألم، وقال للأمير: أبعد القضاء والنظر في الحلال والحرام، تعزلني وتوليني الإمارة.

ذلك لأنَّ القضاء كان في عرفهم فوق الإمارة.

فقال: ما عزلتك عن القضاء، ولكن أضفت إليك الإمارة، فأنت قاض وأمير.

وكان أول من جمع له المنصبان.

* * *

جهز الأسطول، وكان مؤلفاً من ثمان وتسعين قطعة حربية، فيه جيش من عشرة آلاف راجل وتسعمئة فارس.

وخرج الناس للوداع في ميناء سوسة، وكان يوم لم ير المغرب مثله، وتكلم الحاكم والخطباء، وقام القاضي الأمير ليتكلم.

احزروا ماذا قال؟

لا، لـم يُزْهَ ولم يتكبر، ولم يملأ الجو تهديداً للعدو، وإبراقاً وإرعاداً، وفخراً عارماً، ولكن جعل من هذا الموقف مدرسة، وعاد مدرساً. فقال:

«والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط. وما رأى أحد من أسلافي مثل هذا قط، وما بلغته إلّا بالعلم، فعليكم بالعلم، أتعبوا فيه أذهانكم، وكدوا به أجسادكم، تبلغوا به الدنيا والآخرة».

* * *

كأنّكم تتساءلون، وماذا يصنع هذا الشيخ بقيادة الأسطول؟ ومن أين له العلم بالحرب والبحر وما درس في مدينة بحرية، ولا مارس أمور الحرب والقتال؟

لقد نجح يا سادة نجاحاً منقطع النظير، وهاكم قصة تدلكم على شدّة مراسه، وقوّة بأسه، وأنه (كاسمه) أسد غاب.

لما طالت أيام المعركة، وقلّت الأقوات، تململ بعض الجند، وتحركت عناصر الشغب والفساد، وأحكموا أمرهم، وعزموا على العصيان، وحفوا بالقاضي الأمير أسد بن الفرات، وأقبل زعيمهم أسد بن قادم، يعلن رغبة الجند في العودة إلى ديارهم.

وهي رغبة ظاهرها الطاعة، وباطنها الثورة، فقابلها أسد بالحكمة أولاً، وراح يبين لهم قرب النصر، وعظم الأجر، فما ازدادوا إلاَّ عتواً. وتقابل الأسدان، وتجرأ الثائر فقال: على أقل من هذا قتل الخليفة عثمان بن عفان!

ومعنى هذا إعلان الثورة! فماذا يصنع هذا الفقيه القاضي؟.

أيستخذي ويخضع؟ ويضيع المعركة، ويخسر النصر المرتقب، من أجل ثورة عاصفة، يقوم بها جند مشاغبون؟ أم يشتد ويحزم؟ وماذا يصنع إذا هو اختار الشدة والحزم؟

لقد صنع أيها السادة ما لا يصنع مثله أبطال الروايات الخيالية: تناول السوط من يد أحد الحرس، وانتصب أمام الثائر وضربه على وجهه أولاً وثانياً. ولبسته قوة سماوية خارقة هي قوة الإيمان. وصرخ بالجند: (إلى الأمام). وتقدمهم، وكان الظفر، وكان الفتح، وكان ابتداء الدولة الإسلامية في صقلية التي امتدت قروناً، ولكن الثمن كان غالياً.

لقد استشهد القائد البطل الفقيه القاضي أسد بن الفرات!

هوى وهو يحمل راية النصر، ولم يعرف له قبر.

هوى طاهر الأثواب لم تبق روضة غداة ثوى إلاَّ اشتهت أنها قبر
عليك سلام الله وقفاً فإنني رأيت الكريم الحرَّ ليس له قبر[1]

---

(١) البيتان لأبي تمام من قصيدته التي لم يقل شاعر قصيدة في الرثاء مثلها.

شاعرٌ يرثي نفسَهُ

لقد وعدتكم أن أضرب في هذه الأحاديث بكل سهم، وأسلك كل واد، وأتحدث عن رجال الفن كما أتحدث عن رجال العلم، وأن أجيئكم مرة مع شاعر أو موسيقي، كما أجيئكم مرات مع الأئمة والقواد.

وها أنذا آتي اليوم ومعي شاعر.

شاعر لم يغنّ مع الحمائم في الروض الأغنّ، ولم يَهِم مع السواقي في الوادي الضائع، ولم يدلج مع النجم في الأسحار الندية بعطر الفجر، ولم يتبع الشمس في العشايا السكرى بخمر الغروب، ولم يرقب طيف الحبيب في الليالي التي تكتم أسرار الهوى.

ولئن سابقت شاعرية الشعراء الزمان فسبقت الشباب، وظهرت بوادرها في مدارج الصبا، وملاعب الفتوة، فإنَّ هذا الشاعر لم تنبثق شاعريته إلاَّ على سرير الموت، وشفا الردى، على عتبة الدنيا خارجاً منها، وعتبة الآخرة داخلاً إليها. وفي الساعة التي يعيا فيها الشاعر، ويؤمن فيها الكافر، ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني، ولم تنبثق إلاَّ بقصيدة واحدة، ولكنها كانت نفحة من عالم الخلود فخلد بها.

* * *

قصيدة وهبها للموت، إذ تغنى له فيها، فوهب له الموتُ بها الحياة.

لم يتفلسف فيها تفلسف المعري، ولاِ تجبر تجبر المتنبي، ولا أغرب

إغراب الدريدي، ولكنه جاء بأقرب الأفكار، في أسهل الألفاظ، فجاءت من هذه السهولة عظمة القصيدة.

والفنون كلها تموت يا سادة إن أكرهتها على الحياة في جو التكلف، التكلف في التفكير أو التعبير. إنَّ الفنون لا تحيا إلاَّ في الانطلاق والحرية.

كل الفنون: الكتابة والشعر والتصوير والموسيقى، حتى الإلقاء، فليفهم ذلك من يظن أنَّ الإلقاء الجيد هو التشدق والتقعر، وإمالة اللسان، وقلب الحناجر، وضخامة الأصوات. . . وما نسمعه كل يوم في الإذاعات.

* * *

شاعر لم يعش شاعراً، ولكنه مات شاعراً.

عاش عمره كله يغني بسنانه للحرب، لا يغني بلسانه للحب، لا يعمل لوصال الأحبة، وسلب القلوب، ولكن يعمل لقطع الطرق، وسلب القوافل. كان لصاً من أشهر لصوص العصر، ثمَّ تاب ومشى إلى الجهاد في جيش ابن عفان، حتى أدركته الوفاة وهو على أبواب خراسان، فرثى نفسه بهذه القصيدة، التي لا أعرف في موضوعها[1] إلاَّ قصائد معدودات في آداب الأمم كلها.

وإنَّها لتختلف الألسنة والألوان، وتتبدل المذاهب والأديان، وتتباعد المنازل والبلدان، ولكن شيئاً واحداً لا يختلف بين نفس ونفس، ولا يتبدل بتبدل الأعصار والأمصار، هو العواطف البشرية، إن أناشيد المجنون لليلى أناشيد كل عاشق أينما كان، وقصة (بول وفرجيني) قصة كل شاب مغرم في كل زمان، وخطب (فيخته) هي خطب كل أمة قد هبَّت تبني المجد، وتعمل للحياة.

ومن هنا جاءت عظمة الأدب، وجاء خلوده، أنَّه ليس كالعلوم. إن قرأ

---

(١) أي رثاء الشاعر نفسه.

طالب الطب في كتاب أُلِّف قبل أربعين سنة سقط في الامتحان، أمَّا طالب الأدب فيقرأ شعراً قيل من ألف وخمسمائة سنة ولا يزال جديداً كأنَّه قيل اليوم، لا، لا تقولوا إنَّ العلوم تترقى وتتقدم وتسعى إلى الكمال، لأنَّ الجواب حاضر، إنَّ الأدب قد بلغ سن الرشد، وحدّ الكمال، من قبل أن يولد العلم، وقد عاش البشر دهوراً بلا علم، ولكنهم لم يعيشوا يوماً بلا أدب. إنَّ آدم قال لحواء كلمة الحب، لم يحدثها في الكيمياء، ولا حلَّ معها مسائل الجبر في رياض الجنة[1]. والحب أوَّل كلمة في سجل الأدب.

الشعر أخلد من الكيمياء، وأبقى من الرياضيات. كم مرة تبدلت نظريات العلم، منذ نظم هوميروس قصيدته، إلى اليوم. وأشعار هوميروس لا يزال لها رونقها ومنزلتها.

لا أعني الشعر الذي هو الرنات والأوزان، ولا الألفاظ المنمقة التي لا تحمل معنى، ولكن أعني بالشعر، حديث النفس، ولغة القلب، وكل ما يهز ويشجي ويبعث الذكريات، وينشيء الآمال، ويقيم النهضات، ويحيي الأمم. الشعر الذي يشعرك أنَّه يحملك إلى عالم غير هذا العالم. سواء بعد ذلك أكان منظوماً أم كان منثوراً. إن عقد اللؤلؤ لا ينزل قيمته أن ينتثر، لأنَّ ثمن الخيط نصف قرش!

وإليكم الآن مقاطع من هذه القصيدة، ولو اتَّسع المجال لشرحتها شرحاً ينسي الناس الأصل، ولكن أين المجال، والوقت ربع ساعة؟

عربي عاش عمره كله في جزيرته، ما استمتع بحياته، ولا ناجى طيف ذكرياته، ولا انتشى برحيق آماله، لأنَّه لم يجد يوم راحة، يخلو فيه إلى نفسه فيحس لذَّة الأحلام، وجمال التذكر، وسحر الأمل، لينبثق في نفسه الشعر المخبوء فيها، كما يختبيء الماء في بطن الجبل، يرقب معولاً يفتح له الطريق.

---

(١) هذا كلام الأدباء.

وها هوذا الآن ملقى على صعيد غريب عنه، في بلاد لا يعرفها ولا تعرفه، ولا يألفها ولا تألفه، فهو يتذكر الآن (الآن فقط) بلده وأرضه، ويدرك قيمة تلك النعم الجسام، ولا يدرك المرء قيمة النعم إلاّ بعد زوالها، وتثور في نفسه الأماني، فلا يتمنى إلاّ أن يبيت ليلة أخرى بجنب الغضى، وأن يسوق كرة أخرى إبله إلى المرعى، ويذكر كيف كان يزدري هذه النعمة التي يراها الآن عظيمة، ويتمنى (وليس ينفع التمني) لو أنَّه لم يسر من تلك الديار، أو لو طال مشيه فيها، قبل أن يخرج منها حتى تطول متعته بها.

واسمعوه الآن يقول هذا بألفاظه ورنّته، وقافيته الباكية. التي تذكركم بقصيدة أخرى من وزنها ورويِّها، لشاعر يماني غريب هو عبد يغوث:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بجنب الغضى[1] أزجي القلاص النواجيا[2]
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا (لو دنا الغضا) مزار ولكن الغضى[3] ليس دانيا

ويلوم نفسه ويعجب منها كيف سوَّغت له أن يقبل بهذا النفي راضياً مختاراً، ويعجب من أبويه كيف لم ينهياه، وما الذي جاء به إلى باب خراسان وقد كان نائباً عنه.

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان[4] غازيا
لعمري لئن غالت خراسان هامتي لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
فلله درّي يوم أترك طائعاً بنيّ بأعلى الرقمتين[5] وماليا

---

(١) الغضى نبت من نبت البادية، شديد اخضراره، حامية ناره، رأينا في رحلتنا في البادية إلى الحجاز سنة ١٩٣٥، تلك التي كشفنا فيها طريقاً للسيارات وتكلمت عنها في كتاب (الذكريات).

(٢) أزجي أسوق سوقاً رفيقاً والقلاص الإبل والنواجي السريعة.

(٣) هذا التكرار، والذكر في موضع الإضمار، من أساليب البلاغة، وأعلى الأمثلة عليه سورة ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ ومنه قول الشاعر: ليلاي منكن أم ليلى من البشر.

(٤) هو سعيد بن عثمان بن عفان، وباع الضلالة بالهدى، أي اهتدى بعد الضلال، لأنَّ ما تدخل عليه الباء يكون هو ثمن المبيع.

(٥) هما موضعان في بادية البصرة.

ودرّ الـظبـاء الـسـانحـات عشيـة   يخبّـرن أني هـالـك مَن ورائيـا
ودرّ كـبيـريّ الـلذين كـلاهـمـا   عليَّ شفيق نـاصـح لـو نهـانيـا

واسمعوه كيف يفتش عمَّن يبكي عليه فلا يجد أحداً، لا يجد من يبكيه إلاَّ سيفه وفرسه، وليس ينفع الميت أن يذكره ذاكر إلاَّ ذاكراً بدعاء أو صدقة، ولا يضره أن ينساه الناس، وليست حفلات التأبين للميت ولكن للأحياء يصعدون على قبر الميت ليقولوا للناس انظروا إلينا، واسمعوا بياننا، وصفقوا لنا، ولقد صدق سبنسر إذ قال:

كلنا يبكي في المأتم وكل يبكي على ميته

ليس ينفعه بكاء ولا نواح ولكنها غريزة التمسك بالحياة والاستكثار منها.

تذكرت من يبكي عليٌّ فلم أجـد   سوى السيف والرمح الردينيِّ[1] باكيا
وأشقـر خنـذيـذ[2] يجـرُّ عنـانـه   إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

وأرجو أن تتجاوزوا عن كلمة (خنذيذ) التي ترونها غريبة ولم تكن غريبة في أيامه. وانظروا إلى جمال الصورة وروعتها. هذا الحصان يتلفت يمنة ويسرة ويدور وينعطف يفتش عن صاحبه فلا يلقاه، فينسى الطعام والشراب، حتي يبرّح به العطش ولا يجد من يسقيه، فيجر عنانه (انتبهوا إلى دقّة الوصف في جر العنان أي الرسن) إلى الماء.

لو أنَّ مصوراً صور معنى هذا البيت لكان لوحة من لوحات العبقرية، وما أكثر ما في هذه القصيدة من الصور.

* * *

وهاكم هذه اللوحة التي بلغت من الروعة أبعد الغايات، والتي تذيب القلوب، فتسيلها دموعاً.

(١) منسوب إلى ردينة، وهي امرأة كانت تثقف الرماح، أي تقومها.
(٢) الفرس الطويل الصلب.

هذه اللوحة التي أعرضها كما هي، لا أحب أن أفسدها بشرح أو تعليق:

ولمـا تـراءت عنـد مـرو منيّتي ... وحـلَّ بها جسمي وحـانـت وفاتيـا
أقـول لأصحابي: ارفعـوني فـإنني ... يقـرُّ لعيني أن سُهيلٌ[1] بـداليـا
فيا صاحبي رحلي دنا الموتُ فانزلا ... بـرابيـة؛ إني مقيـم لـيـاليـا
أقيمـا علي اليـوم أو بعض ليلة ... ولا تعجـلاني؛ وقد تبيَّن مـا بيـا
وقـوما إذا مـا استُلَّ روحي وهيئـا ... لي السِّدر[2] والأكفان ثمَّ ابكيـاليا
وخـطا بـأطـراف الأسنَّة مَضْجَعِي ... ورُدَّا على عيـني فـضْـلَ ردائيـا
ولا تحسداني ـ بارك الله فيكمـا ـ ... من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خـذاني فجـراني بُبـردي إليكمـا ... فقد كنت قبل اليـوم صعباً قيـاديا

ويعلم أنَّه لن يجد من يقوم على قبره، ويشيد بذكره، فيرثي هو نفسه، ويكشف عن فعاله بمقاله:

وقد كنت عطافاً إذا الخيل أدبرت ... سريعاً إلى الهَيْجا إلى من دعانيـا
وقد كنت محموداً لدى الزاد والقرى ... وعن شتمي ابن العم والجار وانيا
وقد كنت صبَّاراً على القِرْن في الوغى ... ثقيـلاً على الأعداء عَضبـاً لسانيـا

ويعود إلى إتمام هذه اللوحة الرائعة، فيتصور مسير أصحابه وبقاءه، وحيداً في هذه الفلاة:

غداة غد يا لَهْف نفسي على غد ... إذا أدلجـوا عني وخُلِّفت ثـاويـا
وأصبـح مالي من طـريف وتـالـد ... لغيري وكان المـال بالأمس مـاليا

* * *

ويسأل رفيقيه حاجة له هي آخر حاجاته من دنياه، أن يحملوا نعيه إلى أهله، إلى بئر الشبيك، حيث يزدحم بنات الحيّ، يمـلأن الجرار، ويستقين،

---

(١) سهيل نجم يطلع من نحو بلده.

(٢) شجر كالأشنان يغسل بمائه الميت.

فيصرخ، فيدعن ما هنَّ فيه، ويتلفتن إليه، وتسمع زوجته، فيلقي إليها بوصاته، وما وصاته إلَّا أن تقف على القبور. علَّها تذكرها بقبره الضائع، حيث لا زائر ولا ذاكر:

وقوما على بئر الشُّبَيك فاسمعا ... بها الوحش والبيض الحسان الروانيا
بأنكما خلَّفتُماني بِقَفْرَةٍ ... تهيل عليَّ الريحُ فيها السوافيا
ولا تنسيا عهدي خليليَّ إنني ... تَقَطَّعُ أوصالي وتبلى عظاميا
فلن يعدم الوالون بيتاً يُجنُّني ... ولن يعدم الميراث مني المواليا

* * *

ويا ليت شعري هل تغيرت الرحى ... رحى المثل[1] أو أضحت بفلج كماهيا
إذا مت فاعتادي القبور فسلمي ... على الرَّيم[2] أسقيتِ الغمام الغواديا

ويختم القصيدة بهذا المقطع:

أقلِّب طرْفي فوق رحلي فلا أرى ... به من عيون المؤنسات مراعيا
وبالرمل منا نسوة شَهِدنني ... بكَين وفَدَّينَ الطبيب المداويا
فمنهنَّ أمي وابنتاها وخالتي ... وباكية أخرى تهيج البواكيا[3]
وما كان عهد الرَّمل مني وأهله ... ذميماً. ولا بالرمل ودَّعتُ قاليا

* * *

يا سادة. لقد مات مع مالك في تلك السفرة آلاف وآلاف، ولا يزال الناس قبله وبعده يموتون، فينساهم ذووهم، ويسلوهم أهلوهم، وهذا الشاعر جعلكم تذكرونه، وتبكونه بعد ألف وثلاثمئة سنة، وأنتم لا تعرفونه.

وهذه هي عظمة الشعر، وهذا هو خلود الشاعر.

---

(١) مواضع في ديار قومه.
(٢) القبر.
(٣) زوجته وكانوا يكنون عن الزوجة.

سَيّدُ شُعَراء الحُبّ العُذْرِيّ

هذا فصل في الحبّ، فلا تقولوا: يا عجباً! شيخ وقاض ويتكلم في الحب؟! وما الأدب كله، وما الشعر، إن لم يكن كلاماً في الحبّ؟ ومن حرَّم على المشايخ القول في الحب، وهم كانوا الأئمة في كل شيء، وكان من كبارهم ثلاثة الفوا فيه كتباً لم يؤلف مثلها، علموا فيها الناس أفانين الهوى، ولقنوا (أصول العشق) كبار العاشقين، وهم ابن القيِّم، وابن حزم، وابن داود ثلاثة من جبال العلم، وأعلام الإسلام.

ومن كبار الفقهاء، من كان من شعراء الغزل الكبار، ولقد جمعت مرة في الرسالة[1] طرائف من غزل الفقهاء، يؤمن من يقرؤها إن التزمت والتوقر لم يكن دائماً سمَة العلماء، وأن في علمائنا، من كانوا هم أربابَ الظُّرف، وكانوا هم أصحابَ القلوب.

ومالي أذهب في الاحتجاج بعيد المذاهب، وهذا الشاعر الذي جئت أحدثكم حديثه، كان من (أئمة) الدين، وكان من (قضاة) المظالم، وكان نقيب الأشراف، وكان إمام الحج، وكان مع ذلك شاعراً، بل كان أعظم شعراء الحب العذري في أدب العرب، بل ـ سأقولها ولا أبالي ـ كان أعظم شاعر في الدنيا، هتف للجمال، وغنّى للحبِّ، وصوَّر نوازع النفس،

(١) العدد ٦٤٤، ٢٥ مارس ١٩٤٦ والذي بعده وهي في كتابي (فِكَر ومباحث).

وصبوات القلب، ولوعات الهوى، ولذات الوصال، ولقد قرأت أكثر أشعار لامارتين وموسه وبيرون وغوته، فما وجدت فيهم من قال في هذه المعاني، أدق ولا أرق ولا أحلى ولا أشرف مما قال شاعرنا.

وما أنكر عليه أهل زمانه ما قد تنكرونه اليوم، ما أنكروا عليه أن جعل من (الموسم) الأكبر[1]، موسماً للقلوب الهائمة، والأبصار الشاردة، وأنَّه قرأ قصائد الجمال مكتوبة في وجنات العذارى، بكل لغات الأرض، وقال فيها أربعين قصيدة، هي (الحجازيات) التي دان بها الأدب العربي، والتي لو تُرجمها إلى الفرنسية أو الإنكليزية، بليغ في ذلك اللسان، لفتنت الفرنسيين والإنكليز، أضعاف ما فتنهم شعر الخيام. وأين الخيَّام من الشريف؟

وأنا أعجب والله كيف استطاع أن يصرِّح بما لو لمح إليه شيخ من مشايخ هذه الأيام، لما تركوه يستطيع المشي في الأسواق؟

لقد عرفت السبب...

ذلك أنَّهم وثقوا أنَّه كان من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، وأنَّ دينه وعفافه، كانا في مكان لا ترتقي إليه الشبهات، وأنَّه لم يكن يعشق امرأة، كما يفهم شباب اليوم من العشق: يراها فيرضاها، ثمَّ يتبعها فيهواها ثمَّ يتخذها زوجاً بلا زواج. كلا. ولقد كان الشريف شريفاً حقاً، وكان زوجاً أخلص زوج، وكان أباً خير أب، وكان سيداً مرموقاً، ولو علم الناس أنَّه واقع بعض ما يقول لأوقعوا به، ولكنهم علموا أنَّه ما كان عاشقاً شاعراً، وإنَّما كان شاعراً عاشقاً، وما اتَّخذ الشعر حرفة يستجدي بها الأكفّ، ولقد كان عند نفسه وعند الناس أكبر من ذلك:

ومـاليَ يـا لميـاء بـالشعـر طـائـل ... سـوى أنَّ أشعـاري عليـك نسيب

ولكنه كان يعشق العشق، ويحب الحب، إن كان هذا التعبير مني

(١) هذا كلام قلته أنا، وأنا أنكره اليوم، ولا أقرّ الشريف ولا ابن أبي ربيعة من قبله، ولا أقرّ أحداً أن يجعل من موسم للعبادة موسماً للأدب، ومعرضاً للجمال وغفر الله لي ولهم.

صحيحاً ومفهوماً. وما هذه المواطن التي يرددها الشريف، وما هذه الأسماء التي يسميها، إلاَّ حجب يخفي وراءها نوازع قلبه الهائم، ومطارح حبِّه التائه، وإن كانت كحجاب النساء في هذه الأيام، يخفي المعايب، ويجمِّل بالوهم غير ذات الجمال.

لم تكن هذه المواطن أكثر من صحاري مقفرات، ولكنَّ لمسةً من يد الشاعر العبقري، تجعل الصحاري جنات وارفات الظل، فاتنات المسارب، هادرات السواقي، وتحيلها عالماً مسحوراً، كأنَّه جنة عبقر التي يتحدَّث عنها العرب. وأنت تسمع اليوم أسماء بلودان، وفالوغا، ونبع الصفا، والقناطر الخيرية، وراوندوز، وكشمير، وما شئت من مرابع الخيال، ومراتع الغيد، ومواقع الأحلام، فلا تحس لهذه الأسماء برجفة في قلبك، ولا بوثبة في خيالك، كالذي تحسُّه وأنت تسمع أسماء تلك الفلوات: ألبان والعلم، ! والخيف ومنى، وسلع والمصلى، حيث يهتف بها الشريف.

وهذه عظمة الشعر، يمر بسحره على القفار فيجعلها تزري بجنان المصايف، وروائع الأودية، ذات العيون والسواقي..

من معيدٌ أيامَ سِلْعٍ على ما كان منها؟ وأين أيام سلع!

أيها الرائح المجدّ تحملْ — حاجة للمتيَّم المشتاق

أقْرِ عني السلامَ أهلَ المصلى — فبلاغ السلام بعض التلاقي

وإذا ما مررت بالخيف فاشهد — أنَّ قلبي إليه بالأشواق

* * *

لا لن أتحدث عن (الرجل)، ماذا أكل وماذا شرب ومتى سافر وأين أقام؟ ما لي وما للرجل، والرجل فانٍ؟ إنَّما أتحدث عن (الشاعر) فالشعراء خالدون[1]. وسأعلو بكم ما استطعت إلى جوِّه، وأدخل بكم إلى عالمه فإنَّ

---

(١) خلود الذكر في الدنيا، والخلود الحق، إنما يكون في نعيم الجنة، أو في عذاب النار.

للشعراء عوالم، لا يحيط بها علم الناس، عالم لا تعرفون عنه إلاّ هذه الومضات التي تلمحونها عندما تسمعون الأغنية الحالمة في الليل السكران. أو تطالعون القصة العبقرية، تطرق باب المجهول. أو تفتحون في سجف الذكريات كوّة على الماضي المنسي، أو تستغرقون في ذكر الله، في هَدءات الأسحار. وتلك وحدها أنس النفس المؤمنة، وراح الروح.

عالم كل ما فيه غريب لا يشبه دنيا الناس. هذا هو عالم الشريف الرضي

* * *

إن كنتم تسمعون بآذانكم، فأهل هذا العالم يسمعون بأفواههم، فإن ناجاها لم يضع فمه على أذنها، بل فاه على فيها:

عندي رسائل شوق لست أذكرها   لولا الرقيب لقد بلغتها فاكِ

وإذا أبصرتم أنتم بالعيون، أبصروا هم بالآذان:

فاتني أن أرى الديار بطرْفي   فلعلّي أرى الديار بسمعي

وإذا كان الناس عندكم هم وحدهم الذين يروون الأحاديث، بالكلمات والحروف، فإنّ كل شيء في عالم الشاعر يحدث بلا حروف ولا كلمات. . .

النَفَس يتحدَّث فهل تفهمون لغة الأنفاس؟

خذي حديثك عن نفْسي من النَفَسَ   وجْدُ المشوق المعنّىَ غير ملتبس

فماذا قال النفَس؟

قال:

الماء في ناظري والنار في كبدي   إن شئت فاغترفي أو شئت فاقتبسي

والعين، والقلب، عندكم أعضاء في الجسم، هكذا يقرر أساتذة كلية الطب لا يعرف المساكين من العين إلاّ أنها (فوتوغراف)، ولا من القلب إلاّ أنّه (مضخة) أمّا نحن، نحن الأدباء، فإنَّ عندنا للعيون علماً مستقلاً ألّفت فيه كتب كبار، أما قرأتم كتابي، (سحر الفتون في سرِّ العيون) الذي أنوي أن

أؤلفه يوماً، وسأدرسه لطلاب التخصص في أمراض العيون في كلية الطب؟

وإذا كانت قلوب الأطباء، ما فيها إلاّ دم أحمر كدم الخروف، فإنَّ قلوب الشعراء العشاق، فيها الماضي والحاضر، وفيها الزمان والمكان، وفيها الذِكر والآمال، وفيها من العجائب والأسرار، ما لا يستطيع الأطباء أن يصلوا إلى علمه. وهي بعد أحياء مستقلة لا أعضاء، العين لها وحدها حياة، والقلب له وحده حياة، وقد تفرح العين والقلب متألم.

وإن شككتم فهاكم الدليل من شعر الشريف:

تَلِذُّ عيني وقلبي منك في ألم   فالقلب في مأتم والعين في عُرُسُ

وللعين (دائرة استعلامات) تتجسس لها على القلب، فتهتك ستره، وتذيع سرَّه، والشاعر حائر بينهما، متعجب منهما:

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى   من علّم العين أنَّ القلب يهواك؟

صحيح والله.. من علم العين؟!

والعين تبصر مِن الحجاز مَنْ في العراق، وترمي بسهام فتونها، من ذي سلم فتصيب من في بغداد، فتسبي وتصبي، لا تمنعها شوامخ الجبال، ولا شواسع البيد.

سهم أصاب وراميه بذي سَلَم   من في العراق، لقد أبعدت مرماك!

والعين تحصي عدد شهدائها، وتسجل أسماء من تصيبهم سهامها، وتقرؤه على الشاعر من وراء صاحبتها، فيشهد جناية العين، ويقرر براءة الحبيبة لأنها لا تدري ما جنت عيناها.

كأن طرفك يوم الجزعِ يخبرنا   بما طوى عنك من أسماء قتلاك

ولا تعجبوا من نطق العين، فإنَّ العين، تحدث الأحاديث الطوال فهي تأمر وتنهى. وتعد وتؤمل، ولكنها لا تفي، ولا تصدق منها المواعيد.

وعد لعينيك عندي ما وفيت به   يا طول ما كذبت عينيَّ عيناك

والقلب يتلفت، نعم يتلفت، فلا تصدقوا أخبار العواذل، من الأطباء الذين يرجفون بأنَّه ليس إلاَّ عضلة ملساء. . .

ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب
فوقفت حتى لجَّ من لَغَب نِضْوى ولجّ بعذليَ الركب
وتلفتتْ عيني فمذ خفيتْ عنّي الطلولُ تلفتَ القلب

يتلفت ليرى المنازل وأهلها، ثمَّ يبعد الركب فلا يرى إلاَّ هياكلها، ثمَّ يبعد الركب أكثر فلا يرى إلاَّ دخانها، ثمَّ ترمي بالركب المرامي فلا يرى شيئاً، عندئذٍ يبصرها القلب بعينه التي لا يحجبها النأي ولا الليل ولا المنام.

تلفتُّ حتى لم يبنْ من بلادكم دخان ولا من نارهنَّ وقود
وإن التفاتَ القلب من بعدِ طرفِه طَوالَ الليالي نحوَكم ليزيد

والهوى يتجسم في عالم الشريف إنساناً، ويزور الشاعر فينصحه ألاَّ يفارق أحبابه، فإذا لم يسمع نصح الهوى، جاء القلب فكلمه وضرب له الأمثال:

ولما تدانى البين قال لي الهوى رويداً، وقال القلب: أين تريد؟
أتطمع أن تسلو على البعد والنوى وأنتَ على قرب المزار عميد؟

والدموع في عالم الشاعر، ليست ماء تسفحه العين على الخدين، بل هي رسائل إلى الحبيبة، ترسلها بالبريد المسجل، والموزع هو الزفير، أما قلت لكم أنَّ كل شيء في هذا العالم عجيب؟

ولقد بعثت من الدموع إليكمُ برسائل ومن الزفير بحادي

وأنتم تعيرون القصعة والماعون، ولكن الشاعر يعير دموعه للعشاق المعاميد، الذي أحرقت نيران الجوى قلوبهم، ولا دمع لديهم، يطفئون بها النار، حتى إذا أعارها كلها، ولم يبق عنده ما يبكي به، راح يسأل العشاق أن يبكوا (بالوكالة) عنه. .

وابكِ عني فطالما كنت من قبل أعير الدموع للعشاق!

وكانت تهبُّ نسائم الصبا، فتخالط أنفاسه فيستروح بها رَوْح الأحبة، فماذا يصنع وقد انقطعت فلم تهبَّ رياح؟

فماذا يصنع؟ إنَّه يرسل أنفاسه إليها مع ريح الصَبا، لتقف لها على طريقها، فتلاقيها:

خذي نَفَسي يا ريحُ من جانب الحمى فلاقي بها ليلاً نسيمَ ربى نجد
فإنَّ بذاك الحيِّ إلفاً عهدته وبالرغم مني أن يطول به عهدي

ولكنَّ الريح، ويح الريح! ليست معه دائماً، إنَّها عليه مع العذَّال، تغار إن رأت به نعمة الوصال، حتى تحاول أن تفرق بينه وبينها، فهي تشد الفضول من أطراف ثيابها، والشوارد من خصلات شعرها.

تقولون: ومن أين علمت الريح بساعات الوصال؟

إنَّ لها يا سادتي، جاسوساً من بني عمها، هو الطيب الذي يفوح من أعطاف الحبيبة، كما أنَّ للنهار جاسوساً عليه من قومه، ينمُّ له، هو البرق الذي يضوِّيء مكانهما، مجتازاً بهما:

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا على الكثيب فضولَ الريط واللمم
يشي بنا الطيب أحياناً وآونة يضيئنا البرق مجتازاً على إضم

ويطلع الصبح، وهما غافلان عن الدنيا وما فيها، وهل يرى المحبون في الوجود شيئاً؟ حتى يتكلَّم العصفور، نعم يتكلم. كل شيء في عالم الشاعر يتكلم:

وأكتم الصبح عنها وهي غافلة حتى تكلم عصفور على عَلَم

وأرجو منكم يا أساتذتنا مدرسي البلاغة، ألَّا تضيِّعوا هذه (الحقائق) بكلامكم عن الحقيقة والمجاز، وتلك الأحاجي والألغاز، دعوها لطلابكم تنفرونهم بها من الفنِّ، ودعونا في غمرة اللذة بسحر البيان.

إنَّكم يا أساتذتنا، إذ تشرحون ببلاغتكم بيتاً، لا تبقون منه إلاَّ كالذي يبقى من الحسناء بعد أن (يشرِّحها) مبضع الجرَّاح.

* * *

وبعد فهذا مجلس مع الشاعر الذي كان إماماً في العلم وفي المنصب، وإماماً في الحب والغرام، شرب الكأس وترك للشعراء الثمالة. وورد الصافي وخلى لهم العكر.

السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ

هذا الحديث عن نور الدين زنكي، نور الدين ابن الشهيد، الرجل الذي مهَّد الطريق لصلاح الدين، ووضع له الأساس، وشرع له المنهج، وكان إمامه وقدوته في كل خير.

أحد الرجال الذين لم يعرف تاريخ البشرية كلها أطهر منهم نفوساً، ولا أقوم سيرة، ولا أعظم أثراً، اللهمَّ إلاَّ الأنبياء. الذين لا تجد عليهم مطعناً في دين ولا خلق ولا سياسة ولا قيادة، والعظماء من غيرهم إن استكملوا ثلاثاً من هذه الأربع نقصتهم الرابعة. الرجال الذين لا تجد أمثالاً لهم في غير التاريخ الإسلامي: أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وأورنك زيب ومن سار سيرتهم، وسلك طريقتهم.

* * *

جاء الشيخان في صدر الإسلام حيث الدين غضٌّ، والزمان مقبل، وجاء هذان[1] والزمان مدبر، والدين ضعيف، والعدو الغاصب يملك أكثر من نصف الشام، والمسلمون دول وحكومات، كل بلدة دولة، وكل قرية حكومة. حتى صرخد[2] فقد كان لها إمارة وملك واستقلال. وكانت خلافة

(١) أعني نور الدين وصلاح الدين.

(٢) ويسمونها اليوم صلخد.

بغداد اسماً بلا جسم، وخلافة القاهرة جسداً بلا روح، والدولة السلجوقية تصدعت كنجم الفجر، ففي كل جهة منه شهاب. وقد استفحل هذا الداء الذي رمانا به معاوية ـ رحمه الله ـ داء توارث الملك، وتمكن وعظم شره، حتى صارت القاعدة في دول الإسلام، لا سيما في بلاد الشام أنَّه كلما مات ملك، تقاسم أولاده ملكه، كما يتقاسمون أمواله ودوابه. ومن هنا صار في الشام نحو من عشر دول صليبية وإسلامية، وكانت الشام كلها قديماً ولاية صغيرة من دولة الإسلام.

ولم يخل الميدان من أمراء أُولي نجدة وبأس، ناوشوا الإفرنج ونازلوهم ولم يدعوهم يستريحون يوماً واحداً، أمراء السلجوقيين، (ألب أرسلان، وقليج أرسلان)، ونتش، وابن عمار، وابن منقذ، وطغتكين، وبوري، وآق سنقر، جد نور الدين. وآق سنقر مملوك لألب أرسلان السلجوقي، بدا نبوغه، وظهر فضله، وسمت به مواهبه إلى محاولة جمع هذه الدويلات في دولة واحدة قوية تنازل العدو الغاصب، الذي أسس في السواحل، وفي فلسطين، دويلات ألقت مراسيها، وطوت أشراعها، وحسبت أنَّها ستبقى فيها إلى الأبد. ثمَّ جاء من بعده ابنه زنكي، عماد الدين زنكي، العاقل الجريء المحارب البطاش، الذي قتل غيلة فسمُّوه (الشهيد) ثمَّ جاء نور الدين.

وكان الإفرنج قد ملكوا أكثر البلاد منذ خمسين سنة، لا خمس سنين[1]. وكانوا أعداد الرمال تمدُّهم أوربة كلها، لا حفنة من يهود. وحسب الناس أنَّها لن تزول هذه الغمَّة، فما هي إلاَّ أن ظهر الرجل الذي نشر راية القرآن، وضرب بسيف محمد، حتى عاد النصر يمشي في ركاب المسلمين، وعاد أمرهم إلى الزيادة، وأمر الصليبيين إلى النقص، وبذلك يكون لنا (كلما شئنا) النصر.

إنَّ راية القرآن لم تهزم قط، ومن هُزم من أمراء المسلمين في هذا التاريخ الطويل، إنَّما هزموا لأنَّهم كانوا يستظلون برايات المطامع والأهواء،

---

(١) لما أذيع هذا الحديث كان عمر دولة إسرائيل (قصف الله عمرها) خمس سنين.

والعصبيات والأحقاد، ما استظلوا براية القرآن، وكانوا يضربون بسيف البغي والإثم والعدوان، ما ضربوا بسيف محمد.

إنّه ما ضرب أحدٌ بسيف محمد ونبا في يده سيف محمد!

* * *

لما مات عماد الدين تنفس الإفرنج الصعداء، وألقوا بأنفسهم على فراش الأمن، يستبشرون يحسبون أنّه قد خلا العرين بموت الأسد، ما دروا أنّه الآن قد دخل الأسد العرين. ما دروا أنّه قد جاء نور الدين.

قتل عماد الدين الشهيد غدراً على أبواب (جعبر). فما بكى ابنه بكاء النساء، ولا ثار بالقاتلين ثورة الصبيان، بل وقف أمام جسد أبيه وقفة الرجل، وأخذ خاتم الملك من إصبعه، وجمع الجنود وتوجه تلقاء حلب، يوطد فيها أمره، ويؤسس فيها ملكه، وأطمع موت عماد الدين الإفرنج، وخرجوا كما تخرج الفيران من جحورها إن شهدت مصرع القط، وجاء أمير أنطاكية بجنوده يغير على أطراف حلب، وكان اليوم السابع من ولاية محمود نور الدين، فترك حفلات التتويج، وأبّهة الملك، وخرج بجيشه فضرب جيش الإفرنج ضربة أطارت من رؤوسهم الفرحة بموت عماد الدين، وفتحت عيونهم رهبة ورعباً، وأعلمهم أنّ اليوم الذي كانوا يبكون فيه من عماد الدين، سيبكون عليه من نور الدين.

وتلفّت حوله، فإذا الإفرنج في كل مكان، في كل ناحية لهم ملك وسلطان. وإذا هو يرى العدوان من أقرب الناس إليه: أمير دمشق ـ وهذه علتنا أبداً يا أيها السامعون. علتنا الانقسام والاختلاف. ولو أننا تركنا الاختلاف بيننا، ما قوي علينا أنس ولا جان!

فركّز نور الدين غرضين[1]، ونذر حياته لإصابتهما، غايتين جعل همه

---

(١) الغرض في الأصل الهدف أي المرمى.

كله بلوغهما: توحيد المسلمين في دولة واحدة قوية، وطرد الإفرنج من بلاد الإسلام.

بدأ المسعى للوحدة، بتقوية الروابط الروحية فتزوج بنت ملك دمشق ومدبر أمرها، وبنت صاحب قونيه (ابن قليج أرسلان):

ولكنه لقي من أمراء هذه الممالك الألاقي.

جاهره صاحب دمشق بالعداء، وهدَّده بالاستعانة بالإفرنج، فتلقاه بالحلم مع الحزم، وصبر عليه، حتى إذا وقعت الحرب بينه وبين صاحب صرخد، وتصوروا كيف كانت قرية صرخد حكومة مستقلة! وأراد صاحبها تسليمها للإفرنج، استنجد مجير الدين ملك دمشق بنور الدين، فأعانه وسيَّر جيشاً ضخماً يساعده على الإفرنج، وذلك في سبيل الغايتين معاً، توحيد المسلمين وطرد الغاصبين. وأوقع بالإفرنج وقعة لم ينسوها.

* * *

في هذه الظروف يا سادة، جاء الجيش الصليبي الضخم، الذي قدَّر المؤرخون عدد جنوده بمليون، أي بعدد يهود الأرض، وهي الحملة الصليبية الثانية، ولم يكن جيشاً واحداً ولكن جيوش أوربة جميعها، جيوش كل أمة فيها، يقوده ملوك وأمراء وبارونات، على رأسهم لويس السابع ملك فرنسا، و(كونراد) ملك ألمانيا. وتوجه من وصل منهم إلى الأرض المقدسة ونجا من سيوف السلجوقيين، إلى كنيسة القيامة، فصلوا صلاة الموت، وقصدوا دمشق. وأصبح أهل دمشق يوماً، وإذا جيوش الإفرنج في المزة، وفسطاط ملك الألمان في الميدان الأخضر (الملعب البلدي) وخيمة ملك فرنسا في ميدان الحصا (الميدان). فهبت دمشق، ولدمشق المؤمنة المجاهدة هبَّات تَشْدَه التاريخ، واستنجد صاحبها بنور الدين في حلب، وأخيه سيف الدين في الموصل، فأقبل الشقيقان بالجيش اللجب، وقابل المسلمون أوربة كلها، وردُّوا جيوشها عن دمشق. وقد أتى شبابها ومتطوعوها من البطولات الأعاجيب.

وقفل الشقيقان إلى بلادهما. وتركا دمشق لصاحبها.

ومات ملك دمشق، ومال القوم بعده إلى الإفرنج حسداً لنور الدين، واستعانوا بهم عليه، فلم يجد بداً من حصار دمشق. فضرب عليها نطاقاً من السهم والنيرب، ومن المزة وحجيرة والقدم[1]. وضرب خيمته في عيون فاسْرّياً في (دوما) وامتدَّت جيوشه إلى الضُّمير ولكنه لم يقاتل أهلها، ولم يستحل أن يريق دم واحد من المسلمين. وجاء الصليبيون لنصرتها فردَّهم، ولم يكن يطلب مالاً. ولا يطلب حكم البلد، بل كان كل مطلبه أن ينضم جيش دمشق إلى جيشه ليحارب الصليبيين.

* * *

وكانت سيرة نور الدين قد ملأت كل قلب محبةً له، وكل لسانٍ ثناءً عليه، فقام أهل الشام على ملكهم ونقبوا السور لنور الدين من جهة الباب الشرقي، فدخل من حيث دخل خالد بن الوليد من قبل، واستقبلوه بالهتاف والأهازيج:

نور الدين يا منصور، وبسيفك فتحنا السور

وبقي هذا الهتاف بذاته في دمشق إلى اليوم يهتفون به في المظاهرات ولا يفهمون مأتاه.

واستسلم مجير الدين، فلم يقتله ولم يعاقبه، وإنّما تركه ينفي نفسه من الشام، ويرحل إلى العراق.

* * *

وكان جوسلان، بطل الإفرنج، وفارس فرسانهم، وحامي حماهم، قد

---

(١) وكلها أماكن حول دمشق معروفة إلى اليوم بأسمائها هذه، والنيرب قد تدعى بالنيربين وهي اليوم (الدواسة) على السفح بين أعالي كيوان والربوه، والمشهور أنّ في (القدم) آثار قدم الرسول، ولا أصل لذلك، ولم تطأها قدمه ﷺ، ولم يصل إلى أبعد من (بصرى) في حوران.

أغار غدراً على ضواحي حلب وكسر حاميتها، ورجع بالنصر والكبر والغنائم والأسلاب. وكان نور الدين قد ألَّف عصائب من أشداء التركمان، فأرسل عصابة منها إلى جوسلان، فذهبت وغامرت مغامرات المغاوير (الكومندوس) حتى انتزعته من فراشه، وجاءت به غنيمة باردة، فألقته تحت رجل نور الدين! فكان وإياه كما قال ابن كلثوم:

فآبوا بالغنائم والسبايا وابنا بالملوك مصفَّدينا

* * *

وكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من المعارك المظفرة، فتح قلعة حارم بعد ما لبثت سبعين سنة وهي حصن الإفرنج، تجرع المسلمين الصاب والعلقم. واستعاد الرُّها (أورفة)، وطهّر الداخل (أكثره) من الإفرنج، ولما توجهوا تلقاء مصر، وعلم أنَّ الوزير فيها (شاور) قد خان أمته، بعث قائده شيركوه (أي أسد الجبل) فذهب هو وابن أخيه صلاح الدين، ففتحا له مصر وطردوا الإفرنج من دمياط.

أخذ البلاد وهي دول وإمارات، كل بلدٍ دولة، وكل قرية حكومة، وتركها وهي دولة واحدة، تشمل الشام ومصر وأعالي الفرات، وما ظلم أحداً، ولا قتل مسلماً، ولا أراق الدم الحرام.

وأشهد أني قرأت تواريخ عظماء الشرق والغرب، فما رأيت بعد الصحابة مثله، وشهد هذه الشهادة من قبل المؤرخ ابن الأثير.

حقر الدنيا، وزهد في أبهة الحكم، وبريق السلطان، ونذر نفسه لله، للغايتين اللتين سعى إليهما: وحدة المسلمين وقهر الإفرنج، وما حاد قط عن طريقهما.

وكان قائداً منقطع النظير، له قلب ملؤه الإيمان، فلا يعرف الجزعُ الطريق إليه، وكان يقول: لو كان معي ألف فارس لا أبالي بعدو! ووالله لا أستظل بظل جدارٍ أبداً.

اعترضه مرة نهر الفرات، فابتغى مخاضة دلَّه عليها دليل تركماني، فخاضه والجيش كله من ورائه فانهزم الأعداء من الدهشة والرعب، قبل أن يهزمهم وقع الحسام.

ورأوه يوم حارم منفرداً عند التل ساجداً يمرغ وجهه بالتراب، يناجي ربه يسأله النصر، ثمَّ أخذته الحال[1]، وارتفع صوته يتضرع ويقول: اللهمَّ انصر دينك، لا تنصـر محمودا (يعني نفسه) ومن هو محمود الكلب حتى ينتصر؟

فنصره الله ذلك النصر المؤزر، وما كان معه إلاَّ قطعة من الجيش، وكان جيشه في مصر.

وكان يأسف على أنَّه لم يرزق الشهادة، ويقول: تعرضت لها غير مرة فلم تتفق لي، ولو كان فيَّ خير، ولي عند الله قيمة، لرزقت الشهادة.

وهذه (يا أيها السادة) منزلة الإيمان والصلة بالله لم يبلغها كثيرٌ من الزهاد والمتعبدين.

* * *

ترك الأذان بـ(حيَّ على خير العمل)، وهي بدعة الفاطميين[2]، وعاد إلى الأذان الشرعي.

وكان يتبع السنة ويقف عند حدود الشرع، منع الخمر في بلاده، وأزال المنكرات، ورفع الضرائب والمغارم. وكان في عدله آية الآيات. وقف مع خصمه أمام القاضي الشهرزوري. وأنشـأ في دمشق دار العدل. وأقـام البيمارستان النوري (مدرسة التجارة الآن)، وكان مستشفى كأرقى مستشفيات الحضارة اليوم. وملأ الدنيا بالمدارس ودور الحديث، ومعاهد الخير. ولبناء المستشفى قصة طريفة: أسَر مرة ملكاً من ملوك الإفرنج، فسأل أن يفتدي

---

(١) كما يعبِّر الصوفية.

(٢) أي العبيديين وما هم على الصحيح بفاطميين.

نفسه، فقبل منه الفداء، وأخذ منه ثلاثمئة ألف دينار، خصصها للمستشفى ولدار الحديث النورية.

وكان ليالي السلم ينام قليلاً ثمَّ يصحو، فيلبس الصوف. ويأتي المسجد خفية فيصفّ فيه قدميه، مصلياً وذاكراً إلى الفجر، ويمضي ليالي الحرب في المناجاة والتضرع[1].

* * *

يا أيها الناس: إن مررتم بسوق الخياطين فوصلتم المدرسة النورية، (وقد كانت منزل هشام بن عبد الملك)، فقفوا على قبر هذا الرجل العظيم، الذي كان ولياً زاهداً في ثياب قائد، وكان عالماً عاملاً في ثياب ملك، وكان واحداً من الستة الذين لم يعرف مثلهم تاريخنا.

هذا الرجل الذي وحَّد البلاد، وطهرها من الإفرنج، ووضع الأساس الذي قام عليه بناء صلاح الدين، فقولوا: رحمك الله يا نور الدين.

ويا أيها الناس: كلما دهمكم خطب جديد، أو هبَّت عليكم من نحو فلسطين عاصفة عدوان، فاذهبوا إلى نور الدين وإلى صلاح الدين، لا لتسألوهما العون والنصر، فما في الوجود ميت يعين حياً، ولست أدعو إلى شرك بالله، وما النصر إلاَّ من عند الله ـ ولكن لتذكروا أنَّها قد حاقت بفلسطين من قبل مصائب أكبر من مصيبة يهود، ونزلت بها نوازل أشد، واجتمعت عليها أوربة كلها، وأقامت فيها دولاً لبثت أكثر من مئة سنة، وكنا على حال من التفرق والضعف والجهل شرٍّ مما نحن عليه اليوم، وقد انجلت مع ذلك الغمَّة وانزاح البلاء، وصارت حكومات الإفرنج التي عاشت في القدس وفي أطراف الشام قرناً كاملاً، صارت خبراً ضئيلاً، يتوارى خجلاً في زاوية من زوايا التاريخ، لا يدري به أكثر السامعين ـ وسيأتي يوم قريب يقول فيه مدرس

(١) ومن أراد سيرته فليرجع إلى المحاضرة القيِّمة التي ألقاها في المجمع العلمي أخي القاضي ناجي الطنطاوي (المقتطف آب ١٩٤٦).

التاريخ لتلاميذه: إنَّ اليهود قد أسسوا مرة حكومة في فلسطين، وهَمَّ العرَب أمرُها، ونال العربَ شرُّها، ثمَّ ذكروا أين طريق الخلاص فخلصوا منها على أيسر حال.

الطريق (يا سادة) أن يظهر في العرب نور الدين جديد، ينشر راية القرآن التي لم تنهزم قط، ويضرب بسيف محمد الذي لا ينبو أبداً.

فانشروا راية القرآن واضربوا بسيف محمد، تطردوا يَهودَ، وتعيدوا مجد العرب.

فاتح القدس

قل للملوك تنحوا عن عروشكم
فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

هذا الذي أخذ الدنيا بسيف الظفر، ثمَّ جاد بها بيد الكرم، هذا الذي روَّع أوروبة مرتين: مرة حين قهر جيوشها بسيفه، ومرة حين شدَه نفوسها بنبله. هذا الذي كان النموذج الأتم للقائد المنصور، وكان المثل الأعلى للحاكم المسلم، وكان الصورة الكاملة للفارس النبيل، والمسلم الصادق. وكان المحرر الأعظم؛ حرر هذه البلاد، الشام وفلسطين، من استعمار الأوروبيين بعدما استمرَّ نحواً من مئة سنة.

هذا الذي انتزع من أصدقائه ومن أعدائه، أعظم الإعجاب، وأصدق الحب. وترك في تواريخ الشرق والغرب أكبر الأمجاد، وأعطر السجايا، وكان اسمه من أضخم الأسماء التي رنَّت في سمع الزمان، ودوَّت في أرجاء التاريخ، وخلِّدت على وجه الدهر: «صلاح الدين الأيوبي».

سقطت على أقدامه الدول، ووقفت على أعتابه الملوك، ودانت له الرقاب، وانقادت إليه الخزائن، ومات ولم يخلف إلَّا سبعة وأربعين درهماً، وديناراً ذهبياً واحداً، ولم يترك داراً ولا عقاراً، فجُهز وأخرجت جنازته ـ كما يقسم القاضي ابن شداد ـ بالدَّين!!.

* * *

لقد قرأت سيرة صلاح الدين مراراً، ولكني عدت أنظر فيها قبل أن أكتب هذا الفصل، فقرأت في سيرته وحروبه أكثر من ألف صفحة، فكان من

أعجب ما وجدت أن ينبغ هذا الرجل العظيم (جداً)، في ذلك الزمان الفاسد (جداً)، وأن يتغلّب على العدو القوي (جداً).

كان المسلمون قبل نور الدين، وصلاح الدين، على شر حال من الانقسام، على حال لا يمكن أن يصل إلى توهمها وَهْم[1] واحد منكم مهما بالغ في تصور الشر، كان في هذه البقعة الضيقة من الوطن الإسلامي، من الدول، بمقدار ما كان فيها من البلدان، ففي كل بلدة دولة مستقلة: في دمشق دولة، وفي شيزر دولة، وفي حماة دولة، وفي بعلبك، وفي حلب، وفي ماردين، وفي خلاط، وفي الموصل، وفي سنجار بجنب الموصل! وفي الحلة[2]، وفي بانياس وفي الجبل دول. وكان في كل دولة ملك أو أمير، أمراء منكرون لهم أسماء عجيبة وسير أعجب. وكان أقصى مدى لصلاح الدين ونور الدين من قبله، أن يكون كواحد من هؤلاء الأمراء، وإن هُو نَبَغ كان أكبرهم، فكيف ظهر هذان البطلان الخالدان، في مثل ذلك الزمان؟

* * *

وكانت قد دهمت الشام قبل صلاح الدين حملتان صليبيتان، جاءتا كموج البحر لهما أول وليس لهما آخر، ساقهما الطامعون في هذه البلاد باسم الغيرة على النصرانية، وإنقاذ أرض المسيح من أيدي الوحوش الضواري ذوات الأنياب والمخالب: المسلمين!

وكانت لهم دول، دول لا دولة واحدة، فلهم في القدس مملكة، وفي أنطاكية إمارة، وفي طرابلس، وفي الرُّها (أورفه) حكومة. ولهم في يافا كونتيّه. دول وإمارات طالت جذورها، وبسقت فروعها، وعششت بومها وباضت وفرخت، وحسب أهلها وحسب المسلمون أنها امتلكت الشام إلى الأبد.

فكيف استطاع صلاح الدين أن يصنع من ضعف المسلمين قوّة، ومن انقسامهم وحدة، حتى واجه بهم أوروبة كلها، وأزال (ما أمكن) من بقايا

(١) «الوهم» و «التوهم» عند علمائنا الأولين ما يسمى «الخيال» ومنه الرسالة القيمة «التوهم».
(٢) وللباطنية (الحشاشين) من الإسماعيلية دولة.

الحملتين الماضيتين، ورد الحملة الثالثة الهائلة التي رمته بها أوروبة؟

أتدرون كيف؟

إنّه ما رد العدو بعدد المسلمين ولا بعُددهم، ولكن بالسلاح الوحيد الذي لا ينفع في هذا المقام غيره: «بالإيمان».

غيَّر ما كان بنفسه من الفساد، فغيَّر الله على يديه ما كان في قومه من الضعف والتخاذل، كان يلهو ويعطي نفسه هواها، فتاب وأناب، لم يفسد بالإمارة كما يفسد بها كل صالح، بل صلح بها بعد أن كان هو الفاسد، ورجع إلى الله، فأرجع الله إليه النصر.

استمدَّ أخلاقه وسيرته من إرث محمد ﷺ، في التقوى والصلاح فأعطاه الله إرث محمد في الغلبة والظفر.

تمسك بالدين وأقام دولته على أساس من الإسلام متين، فاستطاع بهذه الدول المتفرقة الجاهلة الهزيلة، وهؤلاء الأمراء المنكرين ذوي الأسماء العجيبة، أن يحارب أوروبة كلها، أوروبة الحانقة الحاقدة المتعصبة التي اجتمع ملوكها جميعاً على حرب فلسطين.

صحح عقيدته أولاً، وسأل (القطب النيسابوري) فألَّف له عقيدة عكف عليها وصار يلقنها أبناءه، وقرب أهل العلم والدين، فكان مستشاريه وخاصَّته أعلامُ العصر: القاضي الفاضل، والقاضي ابن الزكي، والقاضي ابن شداد، وكان كلما نزل بلداً دعا علماءه، ومن كان لا يأتي منهم أبواب السلاطين أخذ أولاده وذهب إليه، كما ذهب إلى (الحافظ الأصبهاني) في الإسكندرية، وكان يحرص على صلاة الجماعة، ولا يترك الصلاة قط إلَّا في الأيام الثلاثة التي غاب فيها قبل موته، وكان يصوم حتى في أيام المعارك، وكان مكثراً سماع القرآن يبكي من خشية الله عند سماعه، ويواظب على مجالس العلم والحديث، حتى في ليالي القتال، لم يترك صلاة الليل إلَّا نادراً، يلجأ إلى الله كلما دهمته الشدائد، وضاقت عليه المسالك، فيجد الفرج والنجاة، لأنَّها

إن سدَّت أبواب الأرض أحياناً، فإنَّ باب السماء لا يسد أبداً، وكان يقيم الحق لا يبالي ولا يحابي أحداً. أخذ مرة ابن أخيه تقي الدين وأعز الناس عليه بشكوى عامي من دمشق اسمه ابن زهير ونكل به، أمَّا كرمه وهوانُ الدنيا عليه، فأمر لا تتسع له الأحاديث. وكان اعتماده على الله، ما استكثر قط عدواً، ولا خافه ولا فقد أعصابه قط في هزيمة ولا ظفر. وكان متواضعاً يطأ الناس (طراحته) عند ازدحامهم للشكوى، ويردون عليه ويضايقونه في أوقات راحته، ما غضب لنفسه قط، ولكنه إذا غضب لله، لم يجرؤ أحد أن يرفع النظر إلى وجهه، وصار كالأسد الكاسر لا يقف أمامه شيء. وكان محتسباً صابراً، لما جاءه نعي ولده إسماعيل، قرأ الكتاب ودمعت عيناه، ولم يقل شيئاً ولم يعرف الناس إلَّا بعدُ.

ولمَّا جاءه نعي ابن أخيه تقي الدين أبعد الناس عن خيمته وجعل يبكي بكاء شديداً، والقضاة معه يبكون لبكائه ولا يعرفون السبب، فقال لهم والعبرة تخنقه: مات تقي الدين. ثمَّ رجع إلى نفسه فاستغفر الله، وغسل عينيه بماء الورد، وكتم الخبر كيلا يبلغ العدو فيقوى، أو الجيش فيضعف.

وكان حسن العشرة، طيِّب الأخلاق، حافظاً للأخبار والنوادر، وكان معتلًا بدمامل ما تفارق نصفه الأدنى، وكان مع ذلك يركب الخيل ويصبر على الألم، ويخوض المعارك.

* * *

وأي معارك؟ أنا لا أعرف في كل ما قرأت من كتب التاريخ، وأظن أني قرأت تاريخ الشرق والغرب، جيشاً خاض من المعارك أكثر مما خاضه جيش صلاح الدين، لقد ضرب كل رقم قياسي إلى ذلك العصر، خاض أربعاً وسبعين معركة في مدَّة ولايته على الشام، في أقل من تسع عشرة سنة. حارب هؤلاء الأمراء، أمراء الموصل، وأمراء حلب وحماة، وحارب الحشاشين القتالين ومن اشتهارهم بالقتل اشتق اسم (أساسان) في الفرنسية للقاتل. ولا تقولوا كيف حارب أمراء الإسلام؟ فإنَّ الذي يريد أن يبني له

داراً، لا بدَّ أن يزيل الأنقاض والخرائب، فهو يهدم بيته البالي ليبني بيتاً جديداً، وكذلك فعل صلاح الدين، ثمَّ ابتدأت سلسلة المعارك الهائلة، حروب ما عرفت مثلها أرض فلسطين وديار الشام إلى ذلك العصر، حروب لا تقاس بها القادسية ولا اليرموك. حروب جرب فيها كل سلاح: السيف والرمح، والدبابات والمجانيق، والشجاعة والكيد، والذكاء والاختراع، والمروءة والشهامة، وكان صلاح الدين ظافراً فيها جميعاً.

حروب استعملت فيها المنجنيقات التي تقذف الصخور الهائلة كالمدافع الثقيلة اليوم، والسهام المتلاحقة كالرشاشات، يمهد للمعركة بآلاف القذائف، وبالضرب الذي يستمر يومين وثلاثاً. واستعملت الأكباش، وهي عربات ضخمة مصفحة لها رأس ثقيل ينقب الأسوار، والدبابات، نعم الدبابات، وهذا هو اسمها القديم، وكانوا يُفْتَنّون فيها حتى اخترع الإفرنج في حصار عكا دبابة ثقيلة صنعوا منها ثلاثاً، في كل منها أربع طبقات، فجاءت أعلى من السور، وحصنوها بالحديد والجلود المسقاة بمواد يعرفونها تمنع الحريق، ولم تؤثر فيها قذائف المسلمين ولا النار اليونانية التي كانوا يلقونها، وجزع المسلمون وخافوا، فقال لهم صانع من دمشق اسمه ابن شيخ النحاسين، أنا أصنع لكم ناراً تحرقها، فاستصغروه فلما ألح أجابوه، فاستمهل يومين ثمَّ صنع أشياء خلطها ووضعها في قدور ثلاث، وألقاها فانفجرت كالقنابل، بمثل دوي الرعد، وأحرقت الدبابات، وكبَّر المسلمون، وكان يوم عظيم، ولما عرضوا عليه الجوائز أباها، وقال: عملت ذلك لله!

وجاء العدو مرة بكبش (مصفح) عظيم، فأحرقه المسلمون، ثمَّ خافوا أن ينسحب، فرفعوه (وهو يشتعل) بالآلات (اللنشات) حتى قارب السور فصبوا عليه خراطيم الماء، وأخذوه والفرنج ينظرون مشدوهين، فوجدوا فيه (٤٢٥) رطلاً من الحديد.

واستعملوا الحيلة: لما ضاقت الميرة على عكا أثناء الحصار، وفشلت كل محاولة لامدادها بالأغذية، تطوع جماعة من المسلمين فحلقوا لحاهم

ولبسو لباس الإفرنج، وحملوا معهم الخنازير، وتكلموا الفرنسية، وركبوا بطشة (زورقاً ضخماً) ودخلوا بحيلة من أعجب حيل الحروب.

ومن هذه الحيل أنَّ صلاح الدين كان يعرف القاعدة العسكرية، وهي أنَّ الجيش ليس المرابط في الجبهة، ولكنَّ الشعب كله جيش، لذلك كان يستغل كل قواه للحرب، حتى اللصوصية، جمع اللصوص ليتخلص من شرهم، ولكنه لم يحبسهم بل استخدمهم في صنعتهم، فكانوا يسرقون له الأمراء والجنود من فرشهم بطرق عجيبة رواها ابن شدَّاد، وطالما انتزع أمراء من تحت لحفهم والخناجر على أعناقهم، والمخدر في أجسامهم، فلم يروا أنفسهم إلَّا أمام صلاح الدين.

ويوم حطين اتَّبع صلاح الدين (تكتيكاً) حربياً عجيبـاً، حين أجبر الإفرنج على ملاقاته في المكان الذي تخيره هو، وتحصن فيه. ويوم نجح في استرداد القدس أتى من النبل والكرم والمروءة، ما لم يفرغ بعد مؤرخو الإفرنج من الكلام فيه وتقديره.

استردَّ القدس بعدما ملكها الإفرنج إحدى وتسعين سنة، أفتشكون في استردادها اليوم، وقد ملكها اليهود سبع سنين[1]؟ استردها وحولها، يحامي عنها، دول أوروبة كلها وملوكها، أفلا نستردها اليوم وحولها حفنة من شذاذ الآفاق؟

لقد كانت للصليبيين دول، استمرَّت أكثر من مئة سنة فأين تلك الدول؟ ولم نكن على مثل انتباهنا اليوم، فعاملناها لم نقاطعها كما نقاطع الآن إسرائيل، وحالفناها جميعاً حتى دمشق بلدنا قد حالفت مرة الصليبيين ضدَّ المجاهد الأول عماد الدين، وحالفهم الحشاشون، وحالفهم شاور من قبل، فهل بقي مع ذلك أثر للصليبيين؟.

إنَّ الأمة التي أخرجت صلاح الدين، وهي أسوأ من حالنا اليوم حالاً،

(١) أذيع هذا الحديث سنة ١٩٥٥ م.

رأشد انقساماً، وأكثر عيوباً، لا تعجز عن أن تخرج اليوم مثل صلاح الدين.

إنَّ نكبة فلسطين بالصليبيين كانت أشد بمئة مرة من نكبتها بإسرائيل، وقد مرَّت بسلام، فهل تشكون في أننا سننقذ فلسطين؟ أمَّا أنا فوالله الذي لا إله إلاَّ هو، لو بقي على وجه الأرض أربعون مسلماً، لما شككت في أنَّهم يستردونها، وإني لأشك فيمن يشك في هذه الحقيقة، أشك في إدراكه لطبيعة هذه الأمة، أشك في عقله، أشك في أنَّه عربي وأنَّه مسلم[1].

وإذا عجزنا نحن عن أن نعود إلى مثل سيرة صلاح الدين ليكتب لنا مثل نصر حطين، فسيخرج من أصلابنا، من هم أنقى منا وأطهر، وسيستردون فلسطين.

---

(١) وهذا بعد أن نغيِّر ما بأنفسنا، ونعود إلى ديننا، ونجاهد لإعلاء كلمة ربنا.

الظَّاهِرُ بَيْبَرْس

هذا الحديث عن بطل من أعظم أبطال الإسلام، بل من أعظم أبطال الحروب في التاريخ البشري في عهوده كلها، عن الرجل الصالح المصلح، القائد المجرب، المحارب المظفر، الذي تعرفه العامة بقصته التي كانت تشغل الناس الليالي الطوال، في المنازل والقهوات، ويعرفه تاريخ الشرق وتاريخ الغرب، ببطولاته وأمجاده. فهو من أبطال التاريخ، وهو من أبطال الأسطورة، وهو أحد الثلاثة الكبار الذين جاؤوا تباعاً. فأسس الأول، وشاد الثاني، وأكمل الثالث، فطهَّروا هذا الجزء من الوطن الإسلامي من أوضار (الاستعمار)، وأقاموا فيه صرح العزة والمجد، وتركوا في دنيا المكارم والبطولات دوياً لا تخمده العصور: نور الدين، وصلاح الدين، وهذا الثالث الملك الظاهر بيبرس.

* * *

لقد كان واحداً من المماليك، من هذه الطائفة التي كتبت في تاريخنا أعجب الصفحات، وهل أعجب من عبيد يشترون بالمال، كما تشترى السلع، ثمَّ لا يلبثون حتى يصيروا ملوكاً، يتحكمون برقاب الأحرار!

لقد كان عهد المماليك عهد خزي في التاريخ الإسلامي، ولكنه لم يخل من ثلاث مناقب، الأولى أنَّه كان على الغالب عهد حكام قادرين، لأنَّ الملك لم يكن إرثاً فيهم يرثه الابن من أبيه كما يرث جبَّته ودابته ووسادته،

بل كان للأقوى والأقدر، فلا يصل إليه إلاّ شجاع قدير، أو سياسي بارع، والثانية: أنَّ تاريخهم مملوء بالفتوح العظام، وحسبكم بفتوح هذا البطل الذي أحدثكم حديثه. والثالثة: أنَّ جل الآثار الباقية في مصر والشام هي من عهد المماليك، ولهم آثار كثيرة في الهند وغيرها من البلدان، ومن آثارهم في دهلي، منارة قطب، وبقايا مسجد قوة الإسلام.

* * *

أصل الملك الظاهر من القفجاق (في القفقاس)، جلب منها إلى سورية، وبيع في سوق العبيد في حماه بثمانمئة درهم! ولكن المشتري رأى في عينه بياضاً فردَّه بخيار العيب كما ترد البضاعة المعيبة! فاشتراه مملوك للملك الصالح نجم الدين الأيوبي، ثمَّ دخل في مماليك الملك الصالح.

وسيرته صفحتان مختلفتان أبعد الاختلاف، متناقضتان أبلغ التناقض: سيرته قبل الملك، وهي صفحة بطش ومؤامرات وغدر وقتل، وسيرته بعده وهي صفحة إصلاح وبطولة، ونبل وعظمة، لم يصل إلى مثلها من عظماء الأمم كلها إلاّ القليل.

اشتراه الملك الصالح وضمَّه إلى جنده، فظهرت طلائع نبوغه وشجاعته من أوَّل يوم، وما زال يترقى حتى صار قائد الفرقة، التي ردَّت مقدمة الحملة الصليبية التي كان يقودها ملك فرنسا، لويس التاسع الذي دعوا (القديس لويس)، وشارك في حربه، حتى أُسر وحُبس في دار القاضي ابن لقمان في المنصورة... وقصته مشهورة لما فكر في أن يعيد الكرة، بعد إطلاقه ويأتي بحملة جديدة، فقال له الشاعر:

دار ابن لقمان على حالها   والقيد باقٍ والطواشي صبيح

ثمَّ شارك في المؤامرة على طوران شاه ابن الملك الصالح، وغدر به بإيعاز من (شجرة الدر) التي حكمت مدة قصيرة، حكماً سيئاً، ثمَّ لما اضطروها إلى الزواج بعز الدين أيبك ونزلت له عن الحكم، فكان الحكم

شركة! كان الملك الظاهر أحد الشركاء فيه. وكان عهد فساد ورشوة وظلم، حتى أنَّ المقريزي يقول عنه صادقاً: أنَّه لو ملك الإفرنج ما زادوا على هذا الفساد!!

ثمَّ وقع الاختلاف بين الشركاء، وقتلت شجرة الدر زوجها عز الدين، ثمَّ قتلوها. في هذا العهد المضطرب الفاسد، وقع النداء في مصر أنَّ جيوش التتر قد توجهت تلقاء مصر، التتر الذين أزالوا كل ما كان في طريقهم من دول الإسلام من أقصى الشرق إلى مصر، وهدُّوا عرش الخلافة العباسية، وخربوا بغداد، واعتقد الناس جميعاً أنَّه لم يبق في دنيا الإسلام من يقف أمامهم.

هنالك قام الشيخ، الذي سيأتيكم حديثه، العز بن عبد السلام، الذي نفخ في الناس روح الإيمان، وأحيا في نفوسهم سلائق البطولة، ونصب عليهم القائد المجرب (قُطُز) ملكاً. وسار (قطز) بالجيش المصري حتى واجه التتر في موقعة (عين جالوت)، وأنقذ الله به الحضارة والإسلام، وكان الظاهر من قواده الكبار، ولكنه ناوأه عقب المعركة وكاد له، حتى إذا أدركه العجز أظهر له الود والتوبة، فعفا عنه (قطز) وأعاده إلى مصر وأكرمه، فكافأه على ذلك بأن قتله غدراً، وتولى الملك بعده، ولقب نفسه الملك الظاهر.

وهنا تبدأ الصفحة الثانية في تاريخه.

* * *

ولِّي الملك، والبلاد مضطربة، والموظفون فاسدون مرتشون، والمظالم مستمرة، والأعداء في الداخل وفي الخارج. في داخل البلاد أمراء يطمعون بالملك من دونه، فهم يتربَّصون به، ويعدُّون العدد للانتفاض عليه، وفي خارجها أقوى عدوين عرفهما التاريخ الإسلامي كله: التتر والصليبيون، فماذا يصنع هذا الرجل الواحد حيال ذلك كله؟.

لقد صنع العجب العجاب، وجعل من هذه البلاد المتقسمة، وهذه

الحكومات الفاسدة، دولة من أكبر دول الإسلام، وقفت في وجه الشرق والغرب، وحاربت التتر والصليبيين معاً، وكان لها الظفر عليهما جميعاً، وكل ذلك بفضل الملك الظاهر، العبد الذي بيع في سوق العبيد بحماه بثمانمئة درهم، ورد لعيب كان فيه..

بدأ بهؤلاء الأمراء الطامعين بالملك، ومدَّ لهم الحبل حتى إذا استضعفوه وطمعوا فيه، وأعلنوا الثورة عليه، ضبطهم متلبسين بالجرم، وقتل ثورتهم في مهدها.

ثمَّ اتَّخذ من ذلك ذريعة إلى ضبط المماليك، فجمعهم وأكرمهم ورتب لهم الأرزاق ولكنه حجزهم، وحال بينهم وبين إيذاء الناس والاعتداء عليهم، وأفهمهم أنَّ في البلد ملكاً وحكومة، وأنَّ الفوضى قد انقضى عهدها، ثمَّ عمل على الإصلاح فأصدر سلسلة من المراسيم المتتابعة، أبطل فيها المكوس، ورفع المظالم، وجعل للضرائب قانوناً عادلاً معروفاً، وأصلح أسلوب القضاء، ونصب أربعة قضاة للمذاهب الأربعة، وأعاد افتتاح (الأزهر)، وعمل على نشر التعليم، ففتح المدارس وأقام لها المدرسين، وأقرَّ العدالة الاجتماعية، فأحصى الفقراء، وضمن لهم ما يعيشون منه، وأصلح الطرق والترع والجسور، ثمَّ التفت إلى الجيش، فأعاد تنظيمه، وحرَّم على الجند النهب وإتلاف المزروعات، وأخذهم بالطاعة والتدريب، وترك الخمر والفحش.

ثمَّ وجه نظره إلى السياسة الخارجية، فعقد المحالفات مع الدول المجاورة، خشية اتفاقها عليه وتأييد أعدائه، مع بيزنطية وسلاجقة الروم، والمغول، ومملكة صقلية، ثمَّ بدأ سلسلة المعارك العظيمة.

* * *

ويا ليتني أستطيع أن أصف لكم هذه المعارك وأحدثكم حديثها، ولكن هيهات! وكيف ألخِّص في دقائق أحداثاً شغلت المؤرخين، وشغلت القصاص، وكانت شغل الناس على مر الزمان.

خرج بجيشه من مصر إلى فلسطين، وكانت المعاهدة مع صاحب يافا الصليبي قد انتهت ولم تجدد، وحسب الصليبيون أنَّه أمير كهؤلاء الأمراء الذين عرفوهم من قبل، لم يدروا أنَّهم أمام قائد عبقري، من أعظم العباقرة العسكريين في التاريخ، فلم تكن إلاَّ جولة واحدة حتى فتحت يافا، وتلتها طرابلس، وأنطاكية، وارتاع الصليبيون، لما رأوا أنَّ (بيموند) أعظم ملوكهم قد غُلب وأخذت منه أنطاكية، واجتمعوا وفاوضوا التتر والمغول، ليحالفوهم على الظاهر، وهو ماضٍ في طريقه، ووقف له الفرسان (الهسبتاليون)، وكانوا أشجع فرسان أوروبة، فلم يصنعوا شيئاً أمام فرسان المماليك، واستمرت هذه الحروب عشر سنين، حارب فيها مرة المغول والصليبيين في وقت واحد، ولم يغلب قط ولم يمتنع عليه حصن، وكان في شجاعته وثبات عزمه أعجوبة، بنى الأسطول من أربعين سفينة حربية، فتحطم كله، فلم ييأس ولم يداخله القنوط، بل عاد يصنع غيره، ويشرف عليه بنفسه، وكان أبداً على رأس الجيش وكان يتفقد الجرحى، ويواسي أهل القتلى، ويرتب لهم الرواتب.

وانتقض عليه مرة امبراطور القسطنطينية، وحالف التتر، فلم يبال بهما، وصنع مراكب ثمَّ نقلها على ظهور الجمال من بحيرة حمص، إلى نهر الفرات، وحارب الروم والتتر معاً، وعاد الإمبراطور إلى الخضوع له واسترضائه، وجدد من أجله المسجد الذي كان بناه مَسْلَمة بن عبد الملك في القسطنطينية. وحارب الأرمن، (وكانت مساكنهم في قيليقية) لما نقضوا العهد، وكانت كتبه إلى أعدائه أعجوبة في الإيجاز والسخرية والواقعية، واكتفى ببلاغة السيف عن بلاغة القلم، ومن كان فعالاً لم يكن قوالاً، ومن كان يكثر الأقوال فإنَّه يقلُّ الأفعال.

* * *

أخذ البلاد وهي أوصال مقطعة، تحكمها حكومات فاسدة شريرة، ويعيث العدو فيها، ويملك أطرافها، وتركها وهي حكومة واحدة قوية، تشمل

سورية ومصر والنوبة والحجاز وأطراف العراق، وتزلف إليه امبراطور القسطنطينية وملوك إسبانيا، وحكام الشرق والغرب، وكان يطمع في أكثر من ذلك، في أن يعيد توحيد البلاد الإسلامية كلها ويرجع الخلافة، ويحيي رسومها. وجاء بأمير عباسي فبايعه بالخلافة، ولكنه سنَّ سنة سيئة، فجعل الخلافة اسماً بلا رسم، وجعل الخليفة رئيساً بلا حكم. وقهر أقوى عدوين في تاريخ الإسلام، وخلَّف في تاريخ الإصلاح الداخلي، وفي تاريخ البطولات الحربية أروع الأمثلة وأعظم الأخبار.

هذا هو الرجل العظيم الذي كانت تقرأ العامة قصته في القهوات، ويقرأ الخاصة سيرته في المدارس، ويرى الناس آثاره حيثما ساروا، في الشام ومصر، وهذا هو الدليل الثالث على أنَّ هذه البلاد، مهما انقسمت وضعفت وأخذ العدُّو من أطرافها، لا يزال فيها من القوَّة والأيْد، ما تنتفض معه انتفاضة فتلقى عنها هذه الأوضار، وتعود حرَّة نظيفة طاهرة كما كانت.

* * *

وقبر الملك الظاهر في دمشق، في مدرسته التي صارت دار الكتب، ومثابة العلم، غفر الله له، ورحمه، وأجزل ثوابه.

القاضي المتأنّق

يبدأ هذا الحديث في قرية جبلية منفردة عن القرى، ضائعة بين الذرى المعمَّمة بالثلج، والأودية التي تهيم فيها السواقي؛ تطل على البحر المتوسط، لا من جهة الشرق من أعالي لبنان، ولكن من جهة الغرب من ضهور الأندلس[1]، مع رجل لم يقعد على صخور الجبل، ليستجلي جمال الكون، ويكحل العين بفتنة الوجود، بل ليفكر كيف يصل إلى المدينة العظيمة التي يسمع بها ولم يرها، إلى قرطبة دار الخلافة، وقصبة الأرض، ليشكو إلى القاضي عدوان جاره على أرضه. . .

ووجد من يدله على الطريق، ويصحبه في هذا السفر، حتى إذا وصل به إلى أبواب قرطبة، ولاحت له شرفات المسجد وقبابه، وتكشفت له غرف القصر، ورأى تلك الفخامة وذلك العظم، ازداد حيرة على حيرته، ولم يدر أيَّانَ يسلك. ولحظ الناس حيرته، فأقبلوا متطوعين لدلالته، وساروا به حتى بلغ رحبة البلد، فسألهم أن يرشدوه إلى المحكمة. فلما دخلها، سأل أين القاضي؟ فوقفوه أمام القاضي، فإذا هو يرى شاباً بزي الأحداث، له جمة مفرقة (شعر طويل مفروق) وعليه رداء ملوَّن مُعَصْفر[2] (كالقمصان الملونة التي يلبسها شباب اليوم) والكحل ظاهر في عينيه، وأثر الحناء في يديه. وفي

(١) ضهور، من عامي الشام الفصيح، ومنه (ضهور الشوير) في لبنان.

(٢) مصبوغ بالعصفر.

رجله نعل صرارة، فتوقف، ورجع يقول لهم: دلوني على القاضي. قالوا: هذا هو القاضي وأشاروا إليه فقال: إني رجل غريب، وأنتم تستهزئون بي، أنا أسألكم عن القاضي، وأنتم تدلونني على رقاص خليع!

وتركهم غضبان وذهب إلى المسجد، إلى مسجد قرطبة أوسع مساجد الإسلام، الذي لا تزال آثاره إلى اليوم، وهو ميت بعد ما مات أهله، تدهش من يراها، وتمسك عليه أنفاسه، فلا يملك إلاَّ أن يفتح عينيه، ويحبس نفسَه، وينظر. وكان العهد من أعز عهود الإسلام في الأندلس، عهد الحكم بن هشام، وكان المسجد في إبَّان جماله وجلاله، وعُمْرانه بالعلم والعبادة، وكانت تقتسم العالم الدولتان المتحضرتان: الدولة المسلمة في الشرق دولة بني العباس، والدولة المسلمة في الغرب دولة بني أمية، أمَّا أهل أوربة فكانوا بالنسبة إليهما يومئذٍ، كسكان إفريقية الوسطى بالنسبة لفرنسا وبريطانيا في هذه الأيام.

وكان اليوم جمعة فقعد الرجل ينتظر الصلاة، وينظر إلى هذه الغابة من الأساطين المتعاقبة، والأقواس المتعاقدة، والصناعة البديعة، والعظم البادي، حتى إذا كانت الصلاة، ودنت الخطبة، رأى الناس المزدحمين يفتحون الطريق للخطيب، ويتلقونه بالإعظام والإجلال، فنظر فإذا صاحبه، الذي حسبه رقاصاً، قد أقبل بزيه الذي رآه عليه، هو زي الشباب، حتى صعد المنبر فخطب خطبة من أروع الخطب، وأبلغها مقالاً، وأصدقها لهجة، وأحفلها بكل علم نافع، ووعظ بالغ، ثمَّ أمَّ الناس فقرأ قراءة متدبِّر متفهِّم، من قلب خاشع، فبلغ من نفسه بخطبته وقراءته، ما لم يبلغه الخطباء والأئمة أصحاب العمائم الكبار، والجيب الواسعة، واللحى العريضة.

فلما قضيت الصلاة أقبل على جاره، يسأله متردداً مستحيياً: من هذا الذي يلبس لباس المغنين ويتكلم كلام الزاهدين؟ فيعجب الناس من عجبه ويقولون: ألا تعرفه؟ فيقول: لا. ولست من أهل هذا البلد.

فيقولون: هذا محمد بن بشير قاضي قضاة الأندلس، وشيخ الإسلام فيها، وخطيب مسجدها الأعظم.

ويقبل الناس يروون مناقبه ويحدِّثونه حديثه.

* * *

فكان مما حدثوه من مناقبه أنَّه كان لديه دعوى لعم الحكم، على واحد من العامة، وكان يظن المدعي أنَّ له من علو مكانته، ووثيق صلته بالملك، ما يمكّن له عند القاضي، وإذا بالقاضي يقول له: قف بحذاء خصمك ولا تتكلم، حتى أكون أنا الذي أسألك. فلما أدلى بدعواه. قال للمدعى عليه: ما تقول؟ قال: ليس عليَّ شيء أصلح الله القاضي.

قال القاضي للمدعي: هات بينتك. قال: ألا يكفيك قولي؟ قال: لو كفاني ما سألتك البينة. بينَتك. قال: أمهلني.

وذهب العم إلى الحكم صاحب الأندلس، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي، فقال له: ألست تعرف أن لي على فلان كذا؟ قال: بلى. قال: أتشهد لي؟ قال أنت تعرف القاضي وأخاف ألاَّ يقبل شهادتي! قال: كيف وأنت الذي وليته القضاء؟ قال: هو ما أقول لك. قال: فمن يشهد لي؟ فدعا الملك بفقيهين وكتب شهادته أمامهما وأشهدهما عليها. وقال: امضِ بها إليه وأنا أخاف ألا يقبلها.

فلما كان يوم المحاكمة. وقال له القاضي: بينتك. أبرز له شهادة الملك. فقال القاضي: أنا لا أقبل شهادته.

فاستشاط العم غضباً، وجُنَّ جنونه. وذهب إلى ابن أخيه، وقال: أنت ملك البلاد، والقاضي رد شهادتك! ماذا بقي لك من الكرامة والسلطان؟ وضحك الحكم وقال: ألم أقل لك يا عم؟ أنَّ القاضي رجل صالح لا تأخذه في الله لومة لائم، عمل ما يجب عليه، فأحسن الله جزاءه.

قال: فاعزله. قال: أعوذ بالله. أنا أخون المسلمين في عزل مثله، أنا

عملت ما عليَّ وشهدت لك، وللقاضي أن يقبل الشهادة أو يردها.

ولما سُئل القاضي بعد ذلك: لماذا رددت شهادته؟

قال للسائل: يا جاهل والله ما رددتها، لنقص في عدالته، ولكن لا بدَّ من سؤال المدَّعى عليه عمَّا يقوله في الشاهد. فمن كان يجرؤ على الطعن في شهادته لو قبلتها.

يا أيها السادة.. انظروا كيف كان ملوكنا وكيف كان قضاتنا.

* * *

وكان مما حدَّثوه به. أنَّ عامياً أقام لديه دعوى على ابن فطيس الوزير، وكان له في الأندلس سطوة ونفوذ فلما سأل المدَّعي بينته، جاء بشهود فسمع شهادتهم بغيبة الوزير ولم يخبره عنهم، ولم يعرفه بهم، وحكم عليه. فرفع الوزير شكوى إلى الحَكم. وكان القاضي حاضراً، فأومأ إليه الحكم سائلاً. فقال: ليس ابن فطيس ممن يعرَّف بمن شهد عليه، لأنَّه إن لم يجد سبيلاً إلى تجريح شهادتهم، لم يتحرج من استعمال سلطانه في أذاهم في أنفسهم وأموالهم والانتقام منهم، فيدع الناس الشهادة وتضيع أموال الناس.

يا سادة. وهذا مبدأ وضع حديثاً في قانون البينات عندنا، وحسب واضعوه أنَّهم جاؤوا بشيء جديد ليس في الفقه الإسلامي. وهذا ابن بشير يقرره في القرن الثاني للهجرة من أكثر من ألف ومئتي سنة.

قال: فكيف يتَّخذ هذا الزي؟

قالوا: لقد سئل هو عن ذلك. فقال: حدَّثني مالك بن أنس أنَّ محمد بن المنكدر، وكان سيد القراء، كانت له لمَّة (شعر طويل). وأنَّ هشام بن عروة فقيه المدينة (ابن عروة بن الزبير الذي حدَّثتكم عنه) كان يلبس المُعَصْفر وإنَّ محمد بن القاسم كان يلبس الخز[1].

---

(١) على أنَّ للعرف حكمه، وإذا لم ينكر عليه زيه هذا أهل الأندلس لمكانته وديانته، فليس لقاض =

فلما سمع ذلك غدا عليه ورفع إليه دعواه، فرأى عنده من العدل والنزاهة والحزم، ما لا مزيد عليه لمستزيد، وعلم أنَّه قد يكون العالم العابد المتبتل في زي رقاص أو مغن. وقد يكون الدجال المحتال الختال في زي عابد متبتل، وأنَّ العبرة بالنيات والأعمال لا بالصور والأشكال، وأنَّه كان ضيِّق النظر، محدود الفكر، حين وقف عند ظاهر الزيّ، ولم يمض حتى يختبر ما وراءه من المعاملة والفعل.

= أن يتّخذ مثله في بلد يرى ذلك قادحاً بالمروءة مسقطاً للهيبة. وللثياب أثرها في نفس الرجل وخلقه، وفي رأي الناس فيه، ونظرهم إليه، لا ينكر ذلك إلاَّ جاهل أو مكابر.

خَطيبُ الزَّهْــرَاء

أحدثكم اليوم عن قاض كبير، كان قاضي الجماعة في الأندلس، وهو مثل منصب قاضي القضاة في بغداد، وكان خطيبها الأول، وكان عالمها الأكبر، وكان يهزل حتى ليأتي بـالعجائب من النكـات، والغرائب من المضحكات، ولكنه إذا جدَّ الجد، وجاء الواجب وقف مواقف لا تثبت في مثلها الجبال الرواسي.

أمّا نكته فلقد جهدت أن أعرض لبعضها، وحاولت أن أعبر عنها بالكناية والإيماء والإشارة، فوجدتها أفظع من أن يعرض لها في حديث يسمعه من أريد ومن لا أريد، فمن شاء الوصول إليها فإنَّ بعضها في (مطمح الأنفس) للفتح بن خاقان الوزير.

وأمّا مواقفه، فهاكم صوراً سريعة، لطائفة منها، لا أستقصي في الرواية ولا أستوفي التصوير، لأنَّ ذلك كثير، والوقت قصير.

نحن الآن في الأندلس جنة الأرض، في قرطبة عاصمة الدنيا، في العصر الذي لم تعرف الأندلس، في جاهليتها الأولى، ثمَّ في إسلامها أمس، ثمَّ في نصرانيتها اليوم، عصراً أزهى منه ولا أبهى، ولا أكرم ولا أعظم، عصر الملك الكبير، أعظم ملوك الإسلام في عصره، أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر، باني الزهراء.

لقد جُمعت الدنيا بعظمتها وبهائها في الأندلس، وجمعت الأندلس في

قرطبة، وجمعت قرطبة ذلك اليوم في القصر، الذي ألبس من روعة البناء، وجلال الفرش، وعظمة السلطان ما لا يصفه قلم، وأعد لاستقبال وفد قيصر، الذي قدم من القسطنطينية يريق على عتبة الناصر ولاءه ويلتمس تأييده.

وتطلعت نفوس الخطباء إلى الكلام في هذا المقام، وتمنى كل عالم وخطيب، أن يشير إليه الخليفة بالرد على خطبة رئيس الوفد، فلم ينل ذلك واحد منهم، وناله الإمام أبو علي القالي البغدادي ضيف الأندلس، ومؤلف الأمالي.

وقام أبو علي ليتكلم فارتُجَّ عليه، وانقطع فما قدر على كلمة، وكاد يضطرب الأمر، وإذا بشاب يقوم من بين العلماء، فيقف على المنبر، دون القالي بدرجة، ويرتجل خطبة، لم يسمع الناس مثلها، هزَّ فيها القلوب ولعب بالعواطف، وملك المشاعر، وجاء بشيء عَجَب، نبه الخليفة إلى مكانه، فسأل ابنه الحكم عنه، فقال: هذا منذر بن سعيد البلوطي، قال: لأرفعنَّ منه فإنَّه لذلك أهل. فولاَّه القضاء، وخطابة المسجد الجامع، ثمَّ لمَّا بنى مدينة الزهراء، أعجوبة الفن المعماري التي لم يبن مثلها ملك ولا أمير، والتي لو بقيت لكانت الحمراء إلى جنبها كوخاً من الأكواخ، ولما أكمل مسجدها ولاه خطابته.

وكان الخليفة قد استغرق، في الإشراف على بنائها، حتى قالوا أنَّه أضاع صلاة الجمعة مرة، وبنى فيها قاعة جعل قرامدها من الذهب والفضة، وغرم فيها ما لا يوصف، وحشد الناس لافتتاحها الرسمي، وجعل ابتداء حفلات الافتتاح بصلاة الجمعة، وكان الخطيب منذر بن سعيد، فصعد المنبر فبدأ الخطبة بداية عجيبة، بقوله تعالى: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلَّكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدَّكم بما تعلمون، أمدَّكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾.

ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، ذم فيه السرف والترف،

وإضاعة أموال الأمة في زخرفة القصور، ووصله بقوله ودموعه تنحدر من لحيته:

والله يا أمير المؤمنين، ما ظننت أنَّ الشيطان أخزاه الله، يتمكن منك هذا التمكُّن، حتى أنزلك منازل الكافرين، فجعلت قرامد بيتك من الذهب والفضة، والله تعالى يقول: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً عليها يتكئون، وزخرفاً، وإن كل ذلك لَمَّا متاعُ الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾.

ووصله بقوله تعالى: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ خير أم من أسس بنيانه على شفا جُرف هارٍ فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين، لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلَّا أن تَقَطَّع قلوبهم والله حكيم عليم﴾.

وما زال في مثل هذا، حتى نسي الناس الخليفة ونسوا الاحتفال، وصغَت القلوب إلى الله، وصَفَت النفوس لله، وارتجَّ المسجد بالبكاء.

فلما قضيت الصلاة انصرف الخليفة مغضباً، وقال لابنه: أرأيت جرأته علينا، والله...

ماذا ترونه يا سادة فاعلاً معه، إنه لم يفعل إلَّا أن قال:

... والله لا صليت خلفه الجمعة أبداً.

قال له ابنه الحكم، وما يمنعك من عزله؟ فرجع الخليفة إلى نفسه وقال: ويحك أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه (لا أمّ لك) يعزل في إرضاء نفس ناكبة عن سبيل الرشد؟ إني لأستحي من الله أن أجعل بيني وبينه إماماً غيره، ولكنّه قسم سبق[1].

(١) السنة أن يكفِّر عن يمينه ويفعل ما هو خير، والله يقول: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا﴾، أي لا تجعلوا القسم عرضة أي معترضاً طريقكم إلى ما هو أبرّ وأرضى لله، والحديث الصحيح صريح في هذا.

وأمر بنقض الذهب والفضة من القصر.

* * *

وهاكم موقفاً آخر من مواقفه مع الناصر.

أراد الناصر أن يبني قصراً لإحدى نسائه، وكان بجوار المكان دار صغيرة وحمام لأيتام تحت ولاية القاضي، فطلب شراءه، فقالوا: إنَّه لا يباع إلاَّ بإذن القاضي. فسأله بيعه فقال: لا، إلاَّ بإحدى ثلاث: حاجة الأيتام، أو وهن البناء، أو غبطة الثمن.

فأرسل الخليفة خبراء قدروهما بثمن لم يعجب القاضي، فأباه، وأظهر الخليفة العدول عنهما والزهد فيهما، وخاف القاضي أن يأخذهما جبراً، فأمر بهدم الدار والحمام وباع الأنقاض، بأكثر مما قدر الخبراء[1]. وعزَّ ذلك على الخليفة وقال له: وما دعاك إلى ذلك؟

قال: أخذت بقوله تعالى: ﴿أمَّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾.

لقد بعت الأنقاض بأكثر مما قدرت للدار والحمام، وبقيت للأيتام الأرض، فالآن اشترها بما تراه لها من الثمن.

قال الخليفة: أنا أولى أن أنقاد إلى الحق. فجزاك الله عنَّا وعن أُمتك خيراً.

* * *

يا أيها السادة: إذا أردتم أن تعرفوا من أين جاءته هذه الهيبة في الصدور، وهذه الجلالة في النفوس، وهذه المنزلة عند الخليفة والناس، فاعلموا أنَّها ما جاءت إلاَّ من إخلاصه لله، وخوفه منه، وعبادته لله، واتصاله به. إن من خاف الله خافه كل شيء، ومن كان مع الله جعل الخلق كلهم معه، ومن أطاب مطعمه ومشربه استجاب الله دعاءه.

* * *

---

(١) ويظهر أنَّ الخبراء الرسميين هكذا دائماً.

قحط الناس في أواخر مدّة الناصر، فأمر القاضي منذر بن سعيد بالخروج إلى الاستسقاء فتأهّب لذلك واستعدّ، وصام بين يديه (أي قبله) ثلاثة أيام، واستغفر الله من ذنبه، وأحصى حقوق الناس عليه فردّها أو سألهم السماح بها، وخرج وخرج معه الناس جميعاً، رجالاً ونساء وولداناً.

وقال لصديق له من خواص الخليفة وهو خارج: اذهب فانظر ما يصنع أمير المؤمنين؟.

فعاد يقول: ما رأيناه قط أخشع منه في يومنا هذا، إنّه لمنتبذ (منفرد) حائر لابس أخشن الثياب، مفترش التراب، قد رمى منه على رأسه وعلى لحيته، يبكي ويستغفر ويقول: يا رب هذه ناصيتي بين يديك، فإن أذنبت أتراك تعذب الرعية بذنبي، وأنت أحكم الحاكمين، وأنت قادر عليَّ لن يفوتك شيء مني.

فتهلّل وجه القاضي، وقال لغلامه:

اذهب فاحمل المِمْطَر (المشمع) فقد أذن الله بالسقيا، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء.

وقام يدعو، والناس يضجون بالدعاء والتوبة والاستغفار، فما انصرف حتى امتلأت السماء بالغيوم وبلل الناس المطر.

هكذا كان قضاة المسلمين، لم يكونوا مثلي.

اللهمَّ بيدك قلوب العباد، وأنت على كل شيء قدير، اللهمَّ اسلك بنا سبيلهم، والهمنا الاستنان بهم، واجعلنا برحمتك من قضاة الجنة لا من قضاة النار.

وارحم منذر بن سعيد، وكل من اتّخذ الحق شعاراً، وأقام للدين مناراً، إنك أنت أرحم الراحمين.

حُجّةُ الإسلام

نحن اليوم في نيسابور، في معسكر الوزير العظيم، نظام الملك، الذي كان يدير من هذا المعسكر في ضاحية نيسابور، أكثر من نصف بلاد الإسلام، وكان قصره حافلاً أبداً بالعلماء، ولكنه اليوم أحفل منه كل يوم، لأنّه يوم المباراة العامة، وأنتم تعرفون المباريات الرياضية، وتحتشدون لها، ولكنكم لا تعرفون المباريات العلمية التي كانت تسمى المناظرات، ويجتمع لها الناس، ويشرف عليها الأمراء، وقد يكون منها ما هو قاصر على فن من الفنون، كالمناظرات النحوية والكلامية والفقهية، ومنها ما يشتمل على أكثر من فن واحد. أمّا مباراة اليوم فعجيبة حقاً، لأنّها مباراة في كل علم، والمتبارون العلماء جميعاً ضدَّ رجل واحد، يقدم[1] المعسكر للمرة الأولى.

شاب عمره ثلاث وثلاثون سنة. ولكن اسمه كان قد ملأ الأسماع، وتآليفه سارت كل مسير.

وكان اليوم الأول للمناظرة في فقه الشافعية، أصوله وفروعه، واجتمع كبار الفقهاء، وازدحم الناس يستمعون، وحضر نظام الملك، فأوردوا على هذا الشاب غرائب المسائل، فأجاب عنها كلها بنظر دقيق، واستخراج عجيب، وأورد عليهم ما لم يستطيعوا له جواباً، فأقروا له جميعاً بالإمامة في المذهب، و بايعوه على رياسة الشافعية في تلك الديار.

(١) قدم يقدم على وزن علم يعلم أي جاء.

ثمَّ كان اليوم الثاني، فناظر المتكلمين، وأنتم تعلمون أنَّ هاتيك الحقبة كانت العصر الذهبي للكلام، وأنَّ علم الكلام كان يومئذٍ خلاصة الفلسفة والشريعة، وكان المطلب الأعلى للعلماء، وإن كان من الواجب عليَّ أن أقرر هنا أنَّ أسلوب القرآن في تقرير مسائل التوحيد هو الأسلوب الكامل، الذي لا نحتاجٍ معه إلى فلسفة ولا كلام. وكانت مناظرة هائلة، استمرت ساعات، وانتهت بالإقرار له بإمامة المتكلمين، وبأنَّه فذّ مفرد نسيج وحده، لا مثيل له في الرجال.

وكان اليوم الثالث موعد المناظرة في الفلسفة اليونانية، وجاء الفلاسفة الذين قرَؤوا كتب أفلاطون وأرسطو متعالين شامخين بأنوفهم، كأنَّهم يترفعون عن مناظرة هذا الشيخ الفقيه، الذي لم يقرأ (كما ظنوا) كتب فلاسفة يونان، ولا شروح فلاسفة الإسلام. وكانت المناظرة، فما زالوا يتضاءلون ويصغرون، حتى رأوا أنَّ هذا الفقيه أعرف منهم بمذاهب الفلسفة وأشد إدراكاً لها، ولم يخرجوا حتى أقروا له بالتقدم فيها.

واستمرت هذه المناظرة العامة أياماً، قهر فيها هذا الشاب الخصوم، وغلب المناظرين، وأعجب به نظام الملك، الذي أسس المدارس الجامعة في كثير من بلاد الإسلام: في بلخ ونيسابور وهرات وأصبهان ومرو والبصرة والموصل، ولم يفارق مجلسه حتى كتب له مرسوم تعيينه أستاذاً في الجامعة النظامية الكبرى في بغداد[1].

ورحل إلى بغداد، وبغداد حاضرة الأرض ودار الخلافة، فناظر علماءها، فكان له الغلبة عليهم جميعاً، وأقروا له جميعاً بالرياسة والتقدم.

* * *

تسألونني الآن من هو هذا العالم، وهل كانت له هذه المزايا كلها أم

---

(١) وقد ذهبت ومكانها أول الشورجة ومدرسة مرجان الباقية إلى اليوم أنشئت في جوارها. هذا ما عرفته لما كنت مدرساً في العراق سنة ١٩٣٦ ولست أدري ما صنع الله بذلك الآن.

أنت تبالغ وتتخيل، ومن أين جاء؟ وكيف حصَّل هذا كله؟

ثقوا يا سادة أني لا أبالغ ولا أتخيل، وأنَّه كان أكبر مما وصفت، وأنَّه أحد العشرة الكبار جداً من رجال الفكر الإسلامي، وأحد العشرة الكبار جداً من أرباب القلم، وهو أقدر من لخَّص الفلسفة اليونانية، وأقدر من ردَّ عليها، أيَّدها وقوَّاها، ثمَّ ضربها ضربة لم تقم لها بعده قائمة أبداً. وما قرأها على أستاذ ولكن نظر في كتبها بنفسه، لأنَّه كان يرى من المهانة لنفسه وللفكر أن يردَّ على مذهب أو رأي لم يفهمه. فلمَّا فهمها ألَّف كتابه (مقاصد الفلاسفة) فأقبل الفلاسفة أنفسهم عليه لأنَّهم رأوا فيه تلخيصاً وفهماً لم يروه في كتبهم، ثمَّ ألَّف كتابه (تهافت الفلاسفة) فكانت كالضربة القاضية في الملاكمة، لا يقوم بعدها الخصم. وكانت له ميزة عجيبة هي القدرة على هضم كل فكرة، وعرضها عرضاً واضحاً مفهوماً، يجمع بين البيان السهل، والتسلسل المنطقي.

* * *

وقد انفرد بأمر لم يكن لسواه، هو أنَّ حياته قسمان، قسم للعقل وقسم للقلب، وكان إماماً في الحالين، درَّس في الجامعة النظامية في بغداد وألَّف الكتب العجيبة، التي كانت ولا تزال مطمح أنظار المفكرين والفقهاء، ثمَّ تجرد للعبادة والتأمل فألَّف (الإحياء) الذي كان ولا يزال غاية ما يطلبه المتصوِّفة وأرباب القلوب.

هل عرفتم الآن من هو؟ هو حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي.

* * *

أمَّا قصة تحصيله ودراسته، فقصة عجب اسمعوا طرفاً منها لتدركوا كيف تكوَّن الرجل العظيم عواملُ ترونها ضعيفة، ولتعلموا أنَّه ربما كان في أولاد العوام، وفي أبناء الفقراء، من لو كتب له التعلم والدرس لكان منه عالم كالغزالي، أو شاعر كالمتنبي، أو وزير كنظام الملك، أو ملك كالملك الظاهر.

أعود بكم إلى نيسابور، لأقف بكم على دكان صغير، لرجل عامي صالح يشتغل بالغزلْ. رجل لم يكتب له أن يتعلم القراءة، ولم يكن من العلماء ولكنه أهدى إلى الأمة الإسلامية هذا العالم الفذ، ولولاه لم يكن قط عالماً.

هذا هو محمد بن محمد والد الغزالي.

كان ينتهي من عمله فيدخل المسجد، فيقف على حلقات الفقهاء مستمعاً. فيأسى على حاله ويبكي على جهله، ويتمنى لو أنَّ الله جعله فقيهاً، ولكن ولّى الشباب ومضى العمر، ولم يبق له في نفسه أمل فهو يأمل بولده، فيسأل الله من قلب مخلص، أن يرزقه ولداً فقيهاً، ثمَّ يقعد في مجالس الوعظ، فيسأل الله أن يرزقه ولداً واعظاً.

واستجاب الله دعاءه فرزقه ولداً صار من أعظم الفقهاء هو أبو حامد الذي أحدثكم عنه، وولداً آخر كان من أكبر الوعاظ، ولولا أن غطّت عليه شهرة أخيه هذا، لملأ اسمه صحف التاريخ.

وأدرك الوالد الموت والولدان صغيران، فتقطع قلبه حسرة على ألاَّ يكون قد علَّمهما ما فاته من العلم، وكان له صديق صوفي، فعهد بهما إليه، وأوصاه أن ينفق على تعليمهما، ولو أتى ذلك على كل ما خلَّفه لهما من مال.

فكان هذا الوالد أوَّل عامل في تكوين الغزالي العظيم.

والعامل الثاني هو هذا الصوفي، لقد كان يسعه وقد علَّمهما كل ما عنده، وأنفق عليهما كل ما عندهما، أن يقول لهما: اكتفيا بما حصلتما ثمَّ كونا عاملين كأبيكما أو صوفيين مثلي، وأذن لا يكون الغزالي، إلاَّ رجلاً عادياً مغموراً. وإن كان له نبوغ، كان نبوغه محصوراً في هذه البلدة الضيِّقة، وهذه الدائرة الصغيرة، ولكن هذا الصوفي الذي أجهل اسمه كان رجلاً مكشوف البصيرة، فرأى بفراسه المؤمن، وهي من نور الله، أنَّ الولدين خلقا ليكونا

عالمين عَلَمين، وأنَّ هذا الدماغ لا يمتلىء بما وضع فيه هذا الصوفي من علمه القليل، فقال لهما:

لقد أنفقت عليكما كل ما كان لكما من مال، وأنا رجل فقير ليس عندي ما أعينكما به، وحرام أن تدعا العلم، فعليكما بمدرسة من هذه المدارس.

وكانت هذه المدارس هي العامل الثالث في تكوين الغزالي.

هذه المدارس التي أدركتم بقاياها في دمشق، في العمرية في الصالحية التي كانت جامعة حقيقية ذات فروع وأقسام، وفي المرادية، وفي البادرائية وغيرها.

هذه المدارس التي بناها الأخيار من الأمراء والأغنياء، ووقفوا عليها الوقوف الكبيرة وفتحوها لطلاَّب العلم، فهي تقدم لهم الفراش والطعام والشراب والكسوة والنفقة، وتحمل عنهم هموم العيش، وتفرِّغهم لطلب العلم، وتعلمهم مع العلم ما هو خير من العلم، وهو التقى والأخلاق، والعلم بلا تقوى ولا أخلاق شرٌ على صاحبه وعلى الناس. الجهل خير منه! وتعصمهم من مثيرات الهوى، ومفاسد الحياة[1].

والعامل الرابع، الرحلات فقد رحل في طلب العلم كما كان يرحل العلماء، يقطعون الأيام والليالي مسافرين، ليأخذوا مسألة ويتلقوا حديثاً، رحلات خالصة لوجه الله، ولطلب العلم. لا للتسلية ولا للمتعة والتفرج، ولا للتجارة والكسب، وفي إحدى هذه الرحلات تلقى درساً كان له في نفسه وفي مستقبله أبلغ الأثر، درساً لم يتلقه من عالم ولا محدث ولكن من قاطع طريق...

---

(١) وقد عادت إلى دمشق هذه المدارس والحمد لله في السنين الأواخر على أيدي نفر من خيار العلماء كالشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب، والشيخ حسن حبنكة، والشيخ ناصر الدين الألباني والشيخ صالح فرفور، والشيخ عبد الكريم الرفاعي. والشيخ الرنكوسي والشيخ الطيبي، والشيخ المجذوب، والشيخ عبد الحكيم المنير وأمثالهم.

قاطع طريق خرج على القافلة التي كان فيها، فجردها من كل شيء، وكان مع الغزالي دفاتره التي يدوِّن فيها ما يسمعه، فجعل يبكي عليها، ويتوسل إلى قاطع الطريق أن يردها ويقول له: أنا لا أبالي بالمال ولا بالثياب ولكن تعليقتي، هي ثمرة كل ما حصَّلته، فقال له متعجباً: وما تعليقتك؟ قال: دفتر فيه علمي كله.

فضحك قاطع الطريق. وقال له: كيف تقول علمي، وأنت لا تعلمه، وإن ضاعت تعليقتك، لم يبق لك منه شيء؟.

ورماها إليه.

قال الغزالي: هذا رجل أنطقه الله، ليبصِّرني في أمري. ولما وصل إلى البلد حفظ كل ما فيها، وصار لا يبالي إن ضاعت أو سرقت أو احترقت.

والعامل الخامس في تكوينه، صحبة العالم العظيم إمام الحرمين، فقد لازمه مدَّة طويلة، وأخذ منه. وسار أولاً على طريقته، ثمَّ استقل وشقَّ لنفسه طريقة جديدة، وفاق في المعقولات إمام الحرمين، وهو لا يزال إلى اليوم أكبر أئمة الفكر الإسلامي، ونحن نقرأ كتبه، مستفيدين منها، معجبين بها، كما استفاد منها وأعجب بها، رجال عصره، ولقد سما العقل خلال هذه القرون الثمانية. واتَّسع العلم، ولكن الغزالي لا يزال في القرن الرابع عشر، كما كان في القرن الخامس، إماماً يقتدى به، وعبقرياً لا نظير له.

* * *

حياة الغزالي يا أيها السادة: لها صفحتان، هذه الصفحة العلمية والصفحة الصوفية.

لقد بقي في نفسه أثر من أستاذه الأول، الرجل الصوفي الذي أوصى إليه به أبوه، وكان يتنازع قلبه التفكير العلمي الذي هو أثر من إمام الحرمين، وهذا التأمل الصوفي، ثمَّ غلب عليه التصوف، فاستقال فجأة من أستاذية

الجامعة، ورحل منقطعاً إلى العبادة، آخذاً نفسه بالزهد والسهر وقلّة الطعام، وما ابتدعه الصوفية من مناهج زعموا أنّها هي التي توصل إلى الله، مع أنّ أقرب الطرق إلى الله، ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وكان يطوف على الترب والمقابر، ويأوي إلى القفار، ويجاهد نفسه مجاهدة شديدة ليقتل فيها حب الغنى والجاه والملذات، ومع ذلك لم يقبل على الوعظ لأنّه يرى أنّ الواعظ يجب أن يكون نموذجاً كاملاً لما يدعو إليه، وأن يتجرَّد من حب الدنيا ولذائذها، وحب المال وجمعه، قبل أن يعظ الناس. وفي هذه المدة حج ودخل الشام ومصر، وكانت أكثر إقامته في دمشق، في الأموي، في الغرفة التي يصعد منها إلى المنارة الغربية، والزاوية التي عرفت بعد بزاوية الغزالي، وفيها ألّف كتابه العظيم إحياء علوم الدين.

ووقعت له في دمشق وقائع عجيبة، جاءها متنكراً فنزل السميساطية، وكان يقهر نفسه على تنظيف المراحيض إذلالاً لها، ويدخل المسجد بزيّ العوام، وكان ليلة في المسجد فجاء قروي يسأل عن مسألة، فدلوه على دكة المفتين والعلماء، فسألهم فلم يعرفوا جوابها، فدعاه الغزالي فقال ما مسألتك؟ قال: إن المفتين لم يعرفوا جوابها أفتعرف أنت؟ قال: هاتها. فألقاها عليه فأجابه الغزالي عنها. فعاد الرجل إلى المفتين، وقال: أنتم لم تعرفوا الجواب وقد عرفه هذا العامي، وخبرهم بما أجابه به، فشُدِهوا وقاموا إليه فقالوا: من أنت؟ إن لك لشأناً! واستحلفوه فخبرهم، فاحتفلوا به وسألوه أن يعقد لهم من الغد مجلساً، وبحثوا عنه في الغد فلم يجدوه لأنّه كان قد هرب في الليل[1].

ومن وقائعه أنه دخل المدرسة الأمينية مرة (وهي قائمة[2] في سوق الحرير وهي من أقدم المدارس الإسلامية في الدنيا) وكان متخفياً فسمع المدرس يقرأ كتبه ويشرحها، فخاف أن تغلبه نفسه فيظهر أمره فهرب...

(١) وقد جعلت من هذه الحادثة قصة نشرتها في الرسالة في سنتها الثانية أو الثالثة.
(٢) وقد هدمت ولم يبق منها الآن إلا بابها وصارت سوقاً.

ثمَّ عاد إلى بلده، وأكرهوه على أن يعود إلى التدريس، فعاد يدرس في الجامعة النظامية في نيسابور، ولكن بغير النفس الأولى، إذ كان منصرفاً عن المناظرات، زاهداً في الجاه، ثمَّ استقال، وذهب إلى طوس فأنشأ في داره خانقاه (أي تكية) ومدرسة وكان يصرف وقته في العبادة والذكر والتعليم.

حتى مات ميتة تدل على حسن الخاتمة وهو ابن خمس وخمسين سنة فقط.

* * *

هذا هو الغزالي الذي كان أحد أفذاذ المفكرين في العالم كله، وأحد الكبار من أعلام الإسلام، وكان عيبه ضعفه في الحديث، وقد أقبل على روايته في آخر عمره، ولكن الأجل لم يمهله. وكتاب الإحياء على جلالة قدره مملوء بالأحاديث الموضوعة، ومن أراد أن يقرأه، فليرجع معه إلى من خرَّج أحاديثه كالعراقي. أو ليقرأ مختصره للشيخ جمال الدين القاسمي[1].

وشيء آخر هو أنَّ هذه الروح التي تتجلى في كتاب الأحياء روح الانصراف عن الدنيا، والميل إلى الفقر ليست هي الروح الإسلامية، إنَّ الروح الإسلامية تتجلى في سيرة الرسول ﷺ وأصحابه، والعجيب أنه ألّفه في العصر الذي توالت فيه الهجمات على الإسلام من مغول الشرق وصليبيّي الغرب فلو أخذ المسلمون بما يدعو إليه كتاب الأحياء، لما وجدت قوة عسكرية تردّ التتار المغول من هنا ولا الصليبيين من هناك.

هذا هو الغزالي، والفكر الإسلامي من خمسين سنة إلى اليوم مطبوع بطابع شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكنه بدأ يعود إلى طابع الغزالي كما كان من قبل، وكلاهما عظيم ولكن الغزالي أعظم في عالم الفكر، وعالم البيان،

(١) وخير منه منهاج القاصدين لابن الجوزي ومختصره لابن قدامة الذي طبعه في دمشق الأستاذ دهمان وللغزالي نفسه مختصر للأحياء ولكن فيه عيبي الأحياء، الأحاديث الموضوعة. وبعض الصوفيات المخالفة للسنة التي بيَّنها ابن الجوزي في المنهاج وفي تلبيس إبليس.

وابن تيمية أقرب إلى الكتاب والسنة، وإلى ما كان عليه السلف.

رحمة الله عليهما، وعلى كل من وضع لبنة في هذا الصرح العظيم، صرح الفكر الإسلامي.

بقيّة الخُلفاء الرّاشدين

من العظماء رجال، لم يكن لهم في غير الخط مجال، صرفوا أليه هممهم كلها حتى برعوا فيه، ومرنت أيديهم على صنع المعجب من آثاره، وخلفوا لنا لوحات لا تقل جمالاً عن أخلد الصور الفنية. ومنهم رجال ضربوا في أودية البلاغة، وسلكوا طرق البيان، وصاروا أئمة القول، وأعلام الكلام، وتركوا لنا رسائل، هي العسل المصفّى، وهي السحر الحلال. ومنهم رجال صرموا حيواتهم، وأمضوا أعمارهم، في النظر في الأدلة، وتخريج المسائل، حتى صاروا سادة الفقهاء وصدور العلماء. ومنهم رجال كانوا ملوكاً عباقرة مصلحين، بنوا ممالك، ووطدوا دولاً، وفتحوا في الأرض شرعة السماء[1]، وكان حكمهم خيراً على الناس وبركات. ومنهم رجال كانوا قواداً مظفرين، كانوا جن الحروب، ومردة المعامع، لا يخرجون من معركة إلاّ إلى معركة أشد منها، ينتزعون النصر من يد الهلاك، ويبنون الحياة على أشلاء الموت، لا يحاربون للقتل ولا للتخريب ولا للأذى، ولكن ليدفعوا عن الحق والحضارة، شرَّ من يأبى أن يقوم في الأرض صرحُ الحضارة وأن يرتفع فيها لواء الحق. ومنهم رجال كانت عظمتهم أن كرهوا العظمة واجتووها، وزهدوا في الدنيا واستصغروها، وهانت عليهم بمتعتها ولذتها، لما طمعوا بلذاذات الآخرة ومتعها، فأقبلوا على العبادة، وأنسوا بالله، وتجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، يرجون رحمته ويخافون عذابه...

(١) الشرعة والشريعة الطريق، لذلك قلت: (فتحوا).

. . . وهذا عظيم جمع هذا كله، فكان خطاطاً، وكان كاتباً شاعراً، وكان فقيهاً، وكان ملكاً، وكان قائداً مظفراً، وكان زاهداً متعبداً.

حكم الهند كلها، خمسين سنة، فأقام فيها العدل، ونشر الأمن، وأعزَّ الصالحين، وقهر الطغاة الجبارين، وترك آثاراً على الأرض، وآثاراً في الحكم، وآثاراً في العقول: ملأ الهند مساجد ومشافي ومارستانات، وملاجىء للعاجزين، ومدارس للمتعلمين، وسن في أساليب الحكم سنن الخير، فنظم القضاء، وأصلح قوانين الضرائب، وترك للعلماء كتاباً من أجل كتب الفقه الإسلامي، هو السلطان عالمكير[1]، أورانك زيب[2] ابن شاهجان بن جهانكير ابن الإمبراطور أكبر، حفيد تيمورلنك.

نحن الآن في الهند، في القارة التي حكمناها ألف سنة، في الدنيا التي كانت لنا وحدنا، وكنا نحن سادتها، في (الفردوس الإسلامي المفقود) حقاً، ولئن كانت لنا في إسبانيا أندلس فيها عشرون مليوناً، فلقد كان لنا ها هنا أندلس أكبر، فيها اليوم أربعمئة مليون[3] ـ خمس سكان الأرض، ولئن تركنا في الأندلس من بقايا شهدائنا، ودماء أبطالنا، ولئن خلفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء، فإنَّ لنا في كل شبر من هذه القارة دماً زكياً أرقناه، وحضارة خيرة وشيت جنباتها، وطرزت حواشيها، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات، وأنَّ لنا فيها معاهد ومدارس، كم أنارت عقولاً، وفتحت للحق قلوباً، ولا تزال تفتح القلوب، وتنير العقول، وإنَّ لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء، وحسبكم (تاج محل) أجمل بناء علا ظهرَ الأرض.

ولو كنتم تعرفون من تاريخ المسلمين في الهند، ولو مثل القليل الذي تعرفون من تاريخهم في الشام ومصر، لدخلت الآن في الحديث عن أورانك

---

(١) أي زمام العالم أو قائد العالم.
(٢) أي زينة الملك.
(٣) صاروا الآن سبعمئة.

زيب، ولكنكم لا تعرفون مع الأسف تاريخ الهند، ولا أجد بداً من أن أمهِّد لهذا الحديث، بشيء من التاريخ:

لقد مرَّت بالهند أربعة عهود إسلامية، عهد الفتح العربي، ثمَّ عهد الفتح الأفغاني، ثمَّ عهد المماليك، ثمَّ عهد المغول.

كان أوَّل من حمل إلى الهند لواء الإسلام، محمد بن القاسم الثقفي، القائد الشاب الذي هجر منازل قومه في الطائف، ومشى إلى العراق في ركاب ابن عمه الحجاج، الذي ظلم كثيراً وقسا كثيراً، وكانت له هَنات غير هيِّنات، ولكنه هو الذي أبقى لنا العراقيْن وفتح لنا المشرق كله والسند، فبعث المهلَّب العظيم حتى أطفأ نار الحرب الأهلية التي أضرمها الخوارج، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان، وأوفد ابن عمه محمداً العظيم حتى فتح السند.

ولولا الإيمان الذي يصنع العجائب، ولولا الهمم الكبار التي تزيح الجبال، ولولا البطولة التي وضعها محمد ﷺ في قلوب العرب لما استطاع هذا الجيش أن يقطع خمس محيط كرة الأرض، وهو ماش على الأقدام، أو معتل ظهور الإبل والدواب، ما عرف قطاراً ولا سيارة، ولا رأى على متن الجو طيارة، ولما وضع ابن القاسم الحجر الأول في هذا الصرح الهائل، وأدخل الشعاعة الأولى من هذه الشمس التي أشرقت في مكة إلى هذه القارة، وفتح السند ولم تبلغ سنه سنَّ تلاميذ الشهادة الثانوية.

وعاد إليها لواء الإسلام مرَّة ثانية في القرن الرابع، عاد بالفتح على يد السلطان العظيم محمود الغزنوي، الذي خرج من غزنة وكانت قصبة بلاد الأفغان، وهي إلى الجنوب من كابل، فاخترق ممر خيبر، المضيق المهول الذي يشق تلك الجبال الشاهقة شقاً، والذي تجزع أن تسلكه من وعورته ووحشته أسد الفلا، وجن الليالي السود، ثمَّ دخل الهند، وخاض عشرات من المعامع الحمر، التي يرقص فيها الموت، ويشتعل الدم، واجتمع عليه أمراء

الهند وأقيالها جميعاً، فطحن أبطالهم ومزق جيوشهم، ومضى حتى جاب البنجاب، واستجابت له هاتيك البلاد، فأقام فيها حكم الله، وأذاق أهلها عدالة الإسلام.

وجاء من هذا الطريق بعد أكثر من قرن، السلطان شهاب الدين الغوري، فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعاً، وأكمل منه ما كان ناقصاً، وملك شمالي الهند، وبلغت جيوشه دهلي فأوقدت فيها منارة الدعوة الإسلامية، فضوأت بعد الظلمة، وأبصرت بعد العمى، ودوى في أرجائها الصوت الذي خرج من بطن مكة، صوت المؤذن ينادي في قلب الهند ذات الأرباب والآلهة والأصنام أن خابت آلهتكم، وهوت أصنامكم، إنَّما هو إِلّه واحد: لا إِلّه إلاَّ الله محمد رسول الله.

وقامت في الهند حكومة إسلامية قرارتها دهلي.

وبينما كان قطب الدين أيبك قائد السلطان الغوري يفتح المدن بسيفه، كان الشيخ معين الدين الجشتي يفتح القلوب بدعوته، فدخل الناس في الإسلام أفواجاً، وكان هذا الفتح أبقى وأخلد، وكان منه اليوم ثمانون مليوناً من المسلمين في باكستان، وأربعون مليوناً غيرهم في هندستان[١]، وسيبقى الإسلام في تلك الديار إلى آخر الزمان.

وولي الملك بعد السلطان الغوري قائده قطب الدين، الذي فتح دهلي وبدأ به عهد المماليك، وكان منهم ملوك عظام حقاً، منهم قطب الدين هذا باني منارة قطب[٢] (قطب مينار) التي يقف اليوم أمام عظمتها كل سائح يرد دهلي وشمس الدين الألتمش وغياث الدين بَلَبَان.

---

(١) هم على شر حال اليوم من الجهل فيهم وإهمال الحكام لهم. والأمل في جماعة التبليغ وفي جماعة المودودي وفي الجامعات والمدارس كجامعة ديوبند ودار العلوم لندوة العلماء في لكنو، وهي خير مدارس الهند منهجاً ومسلكاً، والعدد الذي ذكرته تضاعف الآن.

(٢) وقد مرَّ ذكرها في حديث الملك الظاهر.

ثمَّ جاء الخَلْج وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجي الذي عدل في الناس، وضبط البلاد، وبسط الأمن، وأوغل في الهند.

وجاء من بعدهم آل تُغْلق، وكان منهم الملك الصالح المصلح فيروز، ثمَّ جاء اللَّوَدهيون، وكان في أحمد آباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمظفر الدين الحليم الكجراتي[1].

وكان للعلماء في دولة المماليك دولة أكبر منها، وكان لهم سلطان أكبر من سلطان الملوك. ولقد روى أخونا أبو الحسن علي الحسني الندوي، أنَّ السلطان شمس الدين الألتمش الذي دانت له البلاد كلها (وكان في القرن السابع الهجري) وخضع له ملوك الهند جميعاً، كان يستأذن على الشيخ بختيار الكعكي، فيدخل زاويته ويسلم عليه تسليم المملوك على الملك، ولا يزال يكبس رجليه ويخدمه ويذرف الدموع على قدميه حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف.

وإنَّ علاء الدين الخلجي أكبر ملوك الهند في زمانه استأذن الشيخ الدهلوي في أن يزوره فلم يأذن له الشيخ.

ولما مرض الشيخ الدولة آبادي المفسر وأشرف على الموت عاده السلطان إبراهيم الشرقي، ودعا عند رأسه أن يكون هو (أي السلطان) فداءه من الموت.

وكانت زاوية نظام الدين البدايوني، أحفل بالقصاد. وأزخر بالناس من قصر الملك، وكان سلطانه الروحي أعظم من سلطان الملك المادي.

كان ذلك يا سادة، لما تجرد هؤلاء العلماء من أثواب المطامع والرغبات، وزهدوا بما في أيدي الملوك، فسعى إلى أبوابهم الملوك، ونزعوا حب الدنيا من قلوبهم، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا.

---

(١) وسيأتي حديثه.

وفي عهد السلطان إبراهيم اللودهي سنة ٩٣٣ هـ جاء بابر حفيد تيمورلنك من كابل وكسر جيوش اللودهي وكانت مئة ألف، باثني عشر ألفاً من فرسان المغول المسلمين، وأسس دولة المغول التي كانت أكبر الدول الإسلامية في الهند، وكان من ملوكها، الملك الصالح الذي أحدثكم عنه: أورانك زيب.

ولمّا مات بابر، وولى ابنه همايون، وثب عليه رجل عصامي لم يكن من بيت الملك ولكن كانت له هِمَم الملوك، فانتزع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة في الدول، ونظم الإدارة والمالية والجيش تنظيماً لم يسبق إلى مثله، هو السلطان شيرشاه[1] السوري، ولما مات عاد الملك إلى ابن همايون، وهو الإمبراطور أكبر وكان من أعاظم الملوك، حكم الهند كلها، إلاّ قليلاً، وطال حكمه فكفر في آخر أيامه بالله، وأكره الناس على الكفر، وابتدع لهم ديناً جديداً، وأزال معالم الإسلام، وأبطل شعائره[2]، وكان معه الجيش، وكان معه الأمراء، وكانت البلاد كلها في يده، فمن يقوم في وجهه، ومن ينصر الإسلام، ومن يدافع عن الدين؟.

لقد قام بذلك شيخ ضعيف الجسم، قليل المال والجاه والأعوان ولكنه قوي الإيمان بالله، كبير النفس والقلب، قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل ما فيها من مال ومناصب ولذائذ، واستهان بالحياة فهو لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه، هو الشيخ أحمد السرهندي.

ولم يكن يطمع بإصلاح الإمبراطور، ولا يجد فيه أملاً، فجعل يتصل بالقواد الصغار، وبالحاشية، ويعدُّ لانقلاب شامل، لا لانقلاب عسكري بل لانقلاب روحي فكري، وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والإيمان. ولما مات أكبر وولى ابنه جهان كير (أي قائد الدنيا)

---

(١) شيرشاه أي الملك الأسد، أو ملك الأسود.

(٢) ولذلك يعظمه المؤرخون من أعداء الإسلام من الغربيين ومن يقلدهم منا بلا علم ولا فهم.

استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندي ابن الشيخ السرهندي أن يشرف على تربية طفل صغير، هو أحد حفدة جهانكير.

ولم يكن هذا الطفل كبير أخوته، ولا كان ولي العهد، ولم يكن يُؤمل له أن يلي الملك، ولكنَّ الشيخ وضع في تربيته جهده، وبذل له رعايته كلها، فنشأ نشأة طالب في مدرسة دينية داخلية، بين المشايخ والمدرسين، فقرأ القرآن وجوَّده، والفقه الحنفي وبرع فيه، والخط وأتقنه، وألمَّ بعلوم عصره، وربي مع ذلك على الفروسية، ودرِّب على القتال. ولما مات جهانكير، وولي شاه جهان، ولى كلاً من أبنائه قطراً من أقطار الهند، وكان نصيب هذا الطفل وهو (أورانك زيب) ولاية الدكن.

وكان لشاهجهان زوجة لا نظير لحسنها في الحسن، ولا مثيل لحبه إياها في الحب، هي (ممتاز محل)، فماتت، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر، وخلَّدها ولكن لا بصورة ولا تمثال، لقد رثاها فخلَّدها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة أشعر منها، فهي شعر، وهي أغنية، وهي صورة، وهي أعظم تحفة في فن العمران.

هي تاج محل، هذا البناء العجيب الذي أدهش بجماله الدنيا، وما زال يدهشها، والذي لانَ فيه الرخام لهذه الأيدي العبقرية فجعلت منه أجمل بناء شيد على ظهر هذه الأرض بلا خلاف، ونقشته هذا النقش الذي لم يعرف قط نقش في مثل دقَّته وفنِّه وسحره.

هذا القبر الذي يأتي اليوم السياح، من أقصى أميركا إلى (اكرا) قرب دهلي ليشاهدوه، ويسمعوا قصته، وهي أعظم قصص الحب على الإطلاق. لقد صدع موت هذه الزوجة الحبيبة الإمبراطور العظيم، فزهد في دنياه لأنَّها كانت هي دنياه، وحقَر ملك الهند لأنَّها كانت أعظم عنده من ملك الهند، ولم يعد له أرب بعدها إلاَّ أن يمَّلِص من حاضره، ويوغل بذكرياته في مسارب الماضي، ليعيش بخياله معها، يستروح رياها، ويستجلي جمالها، ويسمع

خفي نجواها، ويحس حرارة أنفاسها، ثمَّ استحال حبه إياها حباً لهذا القبر الذي شاده لها، فجن به جنوناً، وصار يحس في برودته حرارتها، وفي جموده خطراتها، وفي صمته حديثها، وانصرف عن الملك وأهمله، فوثب ابنه الأكبر فولي الملك إلاّ اسمه، وتصرف بالأمر وحده، ونازعه أخوته، وجاء كلٌّ من إمارته: شجاع من البنغال، ومراد بخش (أي مراد الله) من الكجرات، وأورانك زيب هذا من الدكن، واستطاع أن يغلبهم جميعاً، وينفرد بالأمر، ووضع أباه في قصر من قصور الملك، جعل له فيه، ما يشتهيه من الفرش والطعام واللباس والحاشية والجواري، وجعل له حيال سريره مرآة أقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تدهش السياح، يرى منها (تاج محل) على البعد، وهو مضطجع في سريره كأنَّه أمامه. وكان ذلك كل ما بقي له من لذائذ دنياه!

وكان جلوسه على سرير الملك سنة ١٠٦٨ هـ (قبل ثلاثمئة سنة)[1] وكأني بكم تظنون أنَّ هذا الملك الذي ربي بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية، سيدخل خلوته، ويعمل من قصره مدرسة أو تكية، يصلي ويقرأ في كتب الفقه، ويسيِّب أمور الدنيا ويهملها زاهداً فيها، كلا يا سادة، وما هذه خلائق الإسلام، ولا هذي طريقته، إنَّ العمل لإسعاد الناس، وإقامة العدل، ورفع الظلم، وجهاد الكافرين المفسدين في الأرض، كل ذلك صلاة كالصلاة في المحراب، بل هو خير من صلاة النفل، وصوم التطوع، وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة.

لذلك ترونه قد لبس لأمة الحرب من أول يوم (وكان يومئذٍ في الأربعين) ونهض بنفسه، يقضي على الخارجين، ويقمع المتمردين، ويفتح البلاد، ويقرر العدالة والأمن في الأرض، وما زال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة، ومن بلد يصلحه إلى بلد، حتى امتدَّ سلطانه من سفوح همالايا، إلى سيف البحر من جنوب الهند، وكاد يملك الهند كلها، حتى قضى شهيداً في سبيل الله في أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمئة كيل.

---

(١) من يوم إذاعة هذا الحديث سنة ١٣٦٨ هـ.

ومن خاض هذه المعارك، استنفدت وقته كله، ولم تدع لـه بقية لإصلاح في الداخل، أو نظر في أمور الناس، ولكن أورانك زيب، حقق مع ذلك من الإصلاح الداخلي ما لم يحقق مثله إلاّ قليل من الملوك.

كان ينظر في شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها، بمثل عين العُقاب، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد، فأسكن كل نأمة فساد، وقضى على كل بادرة اضطراب، ثمَّ أخذ بالإصلاح فأزال ما كان باقياً من الزندقة التي جاء بها (أكبر) أبو جده، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال أمراء المجوس لفح من نارها، فأبطل منها ثمانين نوعاً، وسن للضرائب سنة عادلة، وأوجبها على الجميع، فكان هو أوَّل من أخذها من هؤلاء الأمراء، ولولا هيبته ولولا شدَّته في الحق لأبوها عليـه، وأصلح الطرق القديمة، وشقَّ طرقاً جديدة، ويكفي لتدركوا طول الطرق في الهند أن تعرفوا أنَّ طريقاً واحداً مما كان فتحه شيرشاه السوري، كان يمشي فيه المسافر ثلاثة أشهر، وكانت تحف به الأشجار من الجانبين على طولـه وتتعاقب فيه المساجد والخانات!

وبنى المساجد في أقطار الهند، وأقام لها الأئمة والمدرسين، وأسس دوراً للعجزة، ومارستانات للمجانين، ومستشفيات للمرضى.

وأقام العدل في الناس جميعاً، فلا يكبر أحد عن أن ينفذ فيه حكم القضاء، وكان أوَّل من جعل للقضاء قانوناً، فكان يحكم في القضاء بنفسه لا حكماً كيفياً بل حكماً بالمذهب الحنفي معللاً له مدللاً عليه، ونصب القضاة للناس في كل بلدة وقرية، وكان للإمبراطور امتيازات فألغاها كلها، وجعل نفسه تابعاً للمحاكم العادية، ولمن له عليه حق أن يقاضيه به أمام القاضي مع السوقة والسواد من الناس.

وكان الرجل عالماً، فقيهاً بارعاً في الفقه الحنفي، فأدنى العلماء ولازمهم، وجعلهم خاصته ومستشاريه، وبنى لهم المدارس، وجعل لهم الرواتب.

ووفِّق إلى أمرين، لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين.

الأول: أنَّه لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتباً إلَّا طالبه بعمل، بتأليف أو تدريس، لئلا يأخذ المال ويتكاسل، فيكون قد جمع بين السيئتين، أخذ المال بلا حق، وكتمان العلم ـ فما قول مدرسي الإفتاء والأوقاف في الشام؟

والثاني: أنَّه أوَّل من عمل على تدوين الأحكام الشرعية، في كتاب واحد، يتَّخذ قانوناً، فوضعت له (وبأمره وبإشرافه ونظره) الفتاوى التي نسبت إليه، فسميت الفتاوى العالمكيرية، واشتهرت بالفتاوى الهندية، ويعرفها كل من يقرأ هذا المقال من العلماء لأنَّها من أشهر كتب الأحكام في الفقه الإسلامي، وأجودها ترتيباً وتصنيفاً[1].

وكان ـ بعد ذلك كله ـ يؤلف، ألَّف كتاباً في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية، ويكتب الرسائل البليغة، التي تعد في لسانهم من روائع البيان، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها. وحفظ القرآن بعد أن ولي الملك. وكان شاعراً موسيقياً، ولكنه ترك ذلك، وكرهه، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا، ولم يكن يراهم لازمين لأمة لا تزال تبني في الأرض صرح مجدها.

وكان يصلي الفرائض في أوَّل وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال، والجمعة في المسجد الكبير ولو كان غائباً عن المصر لأمر من الأمور، يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة ثمَّ يذهب حيث شاء، وكان يصوم رمضان مهما اشتدَّ الحر، وما أدراكم ما حر الهند؟ ويحيي الليالي بالتراويح، ويعتكف في العشر الأواخر من رمضان في المسجد، ويصوم الاثنين والخميس والجمعة، في كل أسبوع من أسابيع السنة، ويداوم على الطهارة بالوضوء ويحافظ على

---

(١) وضعت على أسلوب القوانين فيها الحكم ولكن ليس فيها ذكر الدليل فممن أراد معرفة دليلها رجع إلى مطولات المذهب كالمبسوط وبدائع الصنائع وشرح الكنز وأمثالها.

الأذكار، ويمد أهل الحرمين بالصلات المتكررة الدائمة.

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم، والبراعة في فنون الحرب، وفي التنظيم الإداري. فكيف استطاع أن يجمع هذا كله؟

كيف قدر أن يتعبد هذه العبادة؟ ويقضي بين الناس؟ ويؤلف في العلم؟ ويكتب المصاحف؟ ويحفظ القرآن؟ ويدير هـذه القارة الهـائلة؟ ويخوض هذه المعارك الكثيرة؟

لقد كان يقسم بين ذلك أوقاته، ويعيش حياة مرتبة، فوقت لنفسه، ووقت لأهله، ووقت لربه، وللإدارة والقتال والقضاء أوقاتها.

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره، وكانت بيده مفاتيح الكنوز، وكان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلّا أرغفة معدودة من خبز الشعير، من كسب يمينه من كتابة المصاحف لا من أموال الدولة!

هذا هو الملك الذي قلت أنّه كان بقية الخلفاء الراشدين، توفي في مثل هذا الشهر من سنة ١١١٨ هـ وما رأى الناس بعده وقلّما رأوا قبله مثله.

رحمة الله على روحه الطاهرة.

المَلِكُ الصَّالِحُ

وهذه سيرة عظيم آخر لا تعرفونه، وما أكثر من لا تعرفون من عظماء الإسلام، ملك آخر كان في سيرته وأعماله مثلاً مضروباً لما ينبغي أن يكون عليه الملك المسلم، حلقة من هذه السلسلة الذهبية التي ضمَّت حلقاتها سير أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، وابن عبد العزيز، ونور الدين وصلاح الدين، وأورنك زيب، هو الملك الحليم مظفر بن محمود، من ملوك أحمد آباد في الهند.

وكانت أحمد آباد حاضرة الهند، ومدينة المدائن، فاقت البلدان ببساتينها وحدائقها، وحسن نظامها، وعظيم عمرانها، وفاقتها بأمنها وسلامها، وإقامة العدل فيها، وفاقتها بكثرة علمائها ومحدثيها، والصالحين من أهلها.

ولد يوم الخميس ٢٠ شوال سنة ٨٧٥ هـ في الكجرات، ونشأ نشأة عالم عابد، في أسرة أكثر ملوكها صالحون متعبدون، وقرأ ما كان معروفاً من كتب العلم، وبرع في الحديث، وكان قد تلقاه عن المحدث جمال الدين المبارك الحميري الحضرمي، ومجد الدين الإيجي، وشارك في العلوم والفنون كلها حتى الموسيقى، وكان خطاطاً جيد الخط، يتقن النسخ والثلث وخط الرقاع المعروف اليوم بالرقعي. وكان يكتب المصحف بيده ويبعث به إلى الحرمين وحفظ القرآن في شبابه.

ومارس السيف والرمح والرمي، والفروسية والمصارعة، وأتقن الفنون

الحربية، وكانت نشأته صورة عن نشأة أورنك زيب التي حدَّثتكم عنها، أو أن تلك على الصحيح صورة عن هذي، لأنَّ أورانك زيب جاء بعده بأكثر من قرن ونصف القرن.

وكذلك ترون أنَّ في الهند المسلمة، التي تجهلون تاريخها ـ كما كنت اجهله قبل أن أرحل إليها ـ ملوكاً في ثياب فقهاء وعلماء ومحدثين، رجالاً جمعوا الدنيا والدين، والعلم والعمل، ونحن لا نكاد نجد في تاريخ بلادنا، بعد عمر بن عبد العزيز ـ الذي كان العلماء أمامه تلامذة ـ إلَّا قليلاً ممن جمع، العلم والسلطان الذي سخَّره للعمل بهذا العلم.

وكان أسلافه كلهم على هذا الطريق ولكنه فاق أسلافه.

ولي الملك ٣ رمضان سنة ٩١٧ وهو في الثانية بعد الأربعين، وحكم إلى أن توفي في ٢ جمادي الأول ٩٣٢، فكانت مدَّة سلطانه خمس عشرة سنة، مرت على الناس مما رأوا فيها من عدله وسخائه، وحزمه وتقواه، وكأنَّها خمسة عشر يوماً.

وكان يتبع السنَّة، ويعمل بما حفظ من الأحاديث الصحيحة، في كل صغيرة وكبيرة، من أمور نفسه وأهله وأمور الرعية، ويدني العلماء ويصحبهم ويكرمهم ويرجع إليهم، ولم يكن يحسن الظن بمشايخ الطرق، ثمَّ مال إليهم بعض الميل في أواخر أيامه، وكان يخاف الله، ويخشى أن يكون قد جانب الشرع، وكان كثير الإنفاق في الخير، فسأل العلامة خرم خان وكانت له ثقة به، وقال له: لقد نظرت فيما أنفقه فإذا أنا بين إفراط في صرف هذا المال، وهو مال المسلمين، وتفريط في منعه، فإذا سألني ربي عن ذلك فبماذا أجيب؟

خبروني يا سادة، كم من العلماء والزهاد والصالحين، من يفكر في مثل هذا الذي كان يفكر فيه ويسأل عنه هذا الملك؟

وكان يحافظ على الوضوء أبداً، وعلى صلاة الجماعة ولم يقرب الخمر

قط، ولم يقع لسانه قط في عرض أحد، وكان يعفو ويسامح، ويعطي ويجتنب الإسراف والتبذير. وكان مطلعاً على أخبار الناس، يقوم بما دقَّ وجلَّ من شؤون المُلك بنفسه. وربما غير زيه، وخرج من القصر ليلاً ونهاراً، يخالط الناس وهم لا يعرفونه، ويسمع ويرى ويطلع على ما يسيئون فيه، وما يشكون منه، وكان يحيط الممالك المجاورة له، لا سيَّما الهندية المجوسية، بشباك من جواسيسه وعيونه، فلا تخفى عنه خافية من أمورهم.

وكان في الحرب قـائداً عبقـرياً، وإن لم يكن يميـل إلى خوض الحروب، ولما استنجد به السلطان محمود الخلجي، وجاءه مستجيراً به، وقد غلبه المجوس على دياره، واحتلوا عاصمته وفيها أهله وأمواله، وخرج ينجده بجيش ضخم، فخدعه العدو، وعرض عليه تسليم القلعة وماطله حتى جاءه القائد الهندي الأشهر (رانكا سانكا) منجداً، وكاد السلطان يسقط بين حجري الرحى، ويحيط به العدو من الجانبين، فإذا هو بحيلة حربية بارعة، وشجاعة نادرة، يفتح القلعة، ويدحر الجيشين المعاديين، ويكون له النصر الأبلج.

ولما وصل إلى بابها، لم يدخلها بل التفت إلى السلطان الخَلْجي وهنأه بالفتح، وقال: باسم الله، ادخلوها بسلام آمنين. وعطف عنان فرسه راجعاً، ولكن الخلجي لم يدعه حتى أدخله قبله، وقدَّم إليه أولاده الذين استُنقذوا به من الأسر، وأراه آثار آبائه، ومعالم بلاده، ثمَّ دعا وجوه مملكته، وقواد جيشه، وقال للسلطان المظفر على ملأ منهم جميعاً: الحمد لله الذي أراني بهمتك ما كنت أتمناه، ولم يبق لي الآن أرب بالملك وأنت أحق به مني.

قال المظفر: أنَّ أول خطوة خطوتها إلى هذه الجهة كانت لله، لا لقصد الملك، والله يبارك لك في ملكك على أن تقيم فيه حكم الله، وتحكم بشرعه، وأن نكون يداً واحدة في كل أمر. قال الخلجي: لقد خلا ملكي من الرجال، وليس لدي جيش يحميه ولا آمن عودة العدو. قال المظفر: أما هذه فنعم. وترك عنده قائده آصف خان باثني عشر ألفاً، وقال لهم: إنَّ جرايتكم

على حالها، ورواتبكم ونفقاتكم كلها عليَّ كما كانت من قبل، وما أعطاكم الخلجي من شيء فهو توسعه عليكم. وأمر للخلجي بخزانة مال.

ولما همَّ بالرحيل سأله أركان دولته أن يستأثر بالقلعة، ويضمها إلى ملكه، فالتفت إلى الخلجي وقال له: احفظ باب القلعة برجالك، ولا تدع أحداً يدخلها بعد نزولي، ولو كان من أصحابي وأولادي.

وأخذه الخلجي، قبل الوداع إلى دار مغلقة ففتحها له، فبرز منها نساء ما رأت العين مثلهنَّ، فنثرن الزهر والجوهر على قدميه، فغضَّ بصره وأشار إليهنَّ أن يحتجبن، لأنَّ النظر إلى الأجنبية حرام. قال الخلجي: كلهن ملكي وأنا مالُكَ والعبد وما ملك لمولاه. فدعا له، وخرج ولم ينظر إلى واحدة منهنَّ.

والعجيب حقاً في القصة المملوءة بالعجائب، أنَّ الخلجي هذا وآباؤه كانوا أعداء دولة الكجرات وألَدّ خصومها، وأعجب منه أنَّ والد الخلجي هذا، المسمى غياث الدين الخلجي، كان قد خرج إلى الكجرات لنصرة كفار الهند على ملوكها المسلمين!

* * *

وكان من دأب الملوك المسلمين (يا سادة) إذا عنوا ببلادهم، وأصلحوا أمرها، أن يعنوا بالبلد الذي هو بلد كل مسلم، بالحرمين، فيقفوا عليهما الأوقاف، ويرسلوا إليهما المدد، وكانت إمدادات المظفر لأهل الحرمين متصلة، وقد صنع مركباً شحنه بأثمن القماش وأرسله هدية هو وما فيه إلى جُدَّة، وبنى بمكة رباطاً فيه مدرسة وسبيل ومساكن، ووقف عليه وقفاً كبيراً، وكانت له في كل موسم صلات ضخمة يبعث بها إليهم

* * *

وكان خبر موته خبراً عجيباً، يدل على حسن الخاتمة، وعلى أنَّه (إن شاء الله) من أهل الجنة، وأنا أروي الخبر، كما جاء في كتاب (نزهة

الخواطر) للعلاَّمة الطبيب الحاذق مؤرخ الهند المسلمة عبد الحي الحسني، والد الصديق الجليل الأستاذ أبي الحسن الندوي نقلاً عن الآصفي. قال:

قال الآصفي: وفي سنة إحدى وثلاثين وتسعمئة، خرج السلطان إلى مصلى العيد للاستسقاء، وتصدق وتفقد ذوي الحاجة على طبقاتهم، وسألهم الدعاء، ثمَّ تقدم للصلاة، وكان آخر ما دعا به أن قال: اللهمَّ إني عبدك ولا أملك لنفسي شيئاً، فإن تك ذنوبي حبست القطر فهـا ناصيتي بيدك فأغثنا يا أرحم الراحمين. قال هذا ووضع جبهته على الأرض، واستمرَّ ساجداً، يكرر قوله يا أرحم الراحمين، فما رفع رأسه إلاَّ وقد هاجت ريح، ونشأت سحابة ببرق ورعد ومطر، ثمَّ سجد لله شكراً، ورجع من صلاته بدعاء الخلق له، وهو يتصدَّق وينفح بيده بالمال يميناً وشمالاً.

وبعد الاستسقاء بقليل اعتراه الكسل، ثمَّ ضعف المعدة.... وفي خلال ذلك عقد مجلساً، حافلاً بسادة الأمة، ومشايخ الدين، واجتمع بهم، وتذاكروا فيما يصلح بلاغاً للآخرة، إلى أن تسلسل الحديث في رحمة الله سبحانه، وما اقتضاه منه وإحسانه، فأخذ يشرح ما من الله عليه به من حسنة ونعمة، ويعترف بعجز شكرها، إلى أن قال: وما من حديث رويته عن أستاذي المسند العالي مجد الدين، بروايته له عن مشايخه، إلاَّ وأحفظه وأسنده، وأعرف لراويه نسبته وثقته، وأوائل حاله، إلى وفاته، وما من آية إلاَّ ومنَّ الله عليَّ بحفظها، وفهم تأويلها، وأسباب نزولها، وعلم قراءاتها، وأمَّا الفقه فأستحضر منه ما أرجو به مفهوم من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولي مدَّة أشهر أصرف وقتي باستعمال ما عليه صالحو الصوفية، وأشتغل بما سنَّه المشايخ الواقفون على حدود الشرع منهم، لتزكية الأنفاس عملاً بما قيل من تشبه بقوم فهو منهم، وكنت شرعت بقراءة معالم التنزيل، وقد قاربت إتمامه إلاَّ أني أرجو أن أختمه في الجنة إن شاء الله تعالى، فلا تنسوني من صالح دعائكم، فإني أجد أعضائي فقدت قواها، فدعا له الحاضرون بالبركة في العمر.

قال: وفي سنة ٩٣٢ عند خروجه من جانبانير ظهرت منه مخايل المستودع بفراق الأبد لها ولأهلها، وأكثر من أعمال البرّ فيها، وفي طريقه إلى أحمد آباد، ولما نزل بها كان يكثر من الخير بها.

وفي أواخر أيامه وكان يوم الجمعة، قام إلى القصر واضطجع إلى أن زالت الشمس، فاستدعى بالماء وتوضأ وصلّى ركعتي الوضوء، وقام من مصلاه إلى بيت الحُرم، واجتمعت النسوة عليه، آيسات باكيات يندبن أنفسهنّ، حزناً على فراق لا اجتماع بعده، فأمرهن بالصبر المؤذن بالأجر، وفرّق عليهنّ مالاً، ثمَّ ودعهنّ واستودعهنّ الله سبحانه، وخرج وجلس ساعة، ثمَّ استدنى منه راجه محمَّد حسين المخاطب (أي المدعو) بأشجع الملك، وقال له: قد رفع الله قدرك بالعلم، أريد أن تحضر وفاتي وتقرأ عليَّ سورة ياسين وتغسلني بيدك، وتسامحني فيه، فأثنى عليه بما هو أهله وفدّاه ودعا له، وسمع أذاناً فقال: أهو في الوقت؟ فأجاب أسد الملك: هذا أذان الاستدعاء لاستعداد صلاة الجمعة ويكون في الهند عادةً قبل الوقت، فقال: أمَّا صلاة الظهر فأصليها عندكم، وأمَّا صلاة العصر فعند ربي في الجنة إن شاء الله تعالى، ثمَّ أذن للحاضرين في صلاة الجمعة، وطلب مصلَّاه، وصلَّى ودعا الله سبحانه، بوجه مقبل عليه، وقلب منيب إليه، دعاء من هو مفارق للقصر، مشرف على القبر، ثمَّ كان آخر دعائه: رَبِّ قد آتَيتَني من المُلك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدُّنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين. وقام من مصلَّاه وهو يقول: استودعكم الله، واضطجع على سريره وهو مجتمع الحواس، ووجهه إلى القبلة وقال: لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله. وفاضت روحه والخطيب على المنبر يدعو له.

رحمه الله وأوسع له في دار النعيم المقيم.

شَيخٌ مِن دِمَشق

ـ ١ ـ

هذه هي قصة شيخ من دمشق، شيخ قال عنه السبكي: إنه لم ير مثله الناس، ولم ير هو مثل نفسه.

شيخ لم يكد يرى تاريخ الإسلام في كل عصوره عشرين من أمثاله.

شيخ كان مفكراً كأحسن ما يكون المفكرون، كان فقيهاً: فقيه النفس لا فقيه الحفظ. وكان له في الشريعة النظر الواسع المحيط بأسرارها، الملم بأصولها وحكمها، والنظر الدقيق الذي ينفذ به إلى بواطن المسائل، ويدرك خوافيها، كان يفكر بدماغ من خلايا مملوءة بالحياة والعبقرية، لا يفكر بعقل من ورق الشروح والحواشي.

شيخ فرغ من شهوات بطنه، وشهوات غريزته، وشهوات المجد والغنى والجاه. وهانت عليه الدنيا فلم يطلب لنفسه شيئاً منها، فجاءه منها كل شيء: المجد والجاه والمنزلة التي خضعت له بها الدنيا.

شيخ كان يهابه الملوك، ويطيعه الشعب، ويذل أمامه الجبارون.

شيخ كان له الموقف الذي أنقذ الله به الحضارة، وحفظ الإسلام، وحوّل مجرى التاريخ.

* * *

كانت مصر في رجّة رعب وجزع، لقد أقبل عليها السيل الجارف، الذي اجتاح في طريقه كل شيء من أقاصي المشرق إلى أطراف الشام: المغول والتتر، الذين كانوا تائهين وراء صحاريهم، كلما رأوا غفلة من دولة الإسلام، أغاروا على جوانبها، فلا تزال جيوشها تطاردهم حتى تلجئهم إلى صحاراهم كما تلجأ الذئاب الكاسرة، إذا دفعتها عن منازل القرية، فتتركهم وتعود، لأنّها لا تجد لهم مجداً فتهدمه، ولا بلداً فتملكه، ولا راية فتطويها، حتى نجم فيهم محارب من أفذاذ المحاربين، مقاتل خطر بطاش هو جنكيز خان، وكان المسلمون قد صاروا دولاً وانقسموا أقساماً، فتمكن جنكيز خان منهم، فأودى بأقرب ملك إليه منهم، خوارزم شاه، وفتح الباب لخلفائه ليسيروا نحو المغرب. وتساقطت إمارات الإسلام، واحدة بعد واحدة، بظلم أمرائها، وخيانة ولاتها، وانقسام شعوبها، وضعف إيمانها، وبعدها عن دينها الذي لا يكون إلا به عزّها، حتى كانت المصيبة الكبرى، فسقطت بغداد، وهوى تاج الخلافة.

وكانت بغداد أم الدنيا، وكانت بغداد قصبة الأرض، وكانت بغداد مثابة العلم والفن والذهب والجمال. تلتقي كلها فيها وتنتهي إليها، كما تنتهي مياه الجداول إلى سِيفِ البحر.

لم تجمع بلد ما جمعت بغداد من ثمرات العقل المفكر، واليد المبدعة، وما يصنع المال، وتعمل القوّة، وتأتي به الحضارة.

فلم تكن إلاَّ كرة واحدة فإذا عمران بغداد خراب، وأنسها وحشة، وجمالها تشويه، وكتبها التي أودعت حصاد العقول وثمرات القرائح، تلقى في دجلة حتى يسودّ حبرها ماء دجلة.

وإذا المجد والخلافة والجاه كما يطمس السطور البنان[1].

سقطت بغداد، وانكسر السدُّ، فانطلق السيل، وساح في كل واد، وانبعثت النار، وامتدَّت ألسنتها تضربها الرياح الأربع فتسوقها إلى كل مكان.

---

(١) من قصيدة لأمين ناصر الدين في رثاء دولة العثمانيين.

وخرج يأجوج ومأجوج، وذهبوا يفسدون في الأرض.

وانبعث جيوش هولاكو كالجراد، يأكل الأخضر واليابس: يأكل المدن والأمجاد[1] والحضارات.

فَمَنْذا[2] يقف السيلَ بعدما اجتاح المشرق كله والعراقَ والشام؟
منذا يطفىء النار وقد أكلت بغداد أم الدنيا؟
منذا يرد يأجوج ومأجوج، بعدما انتشروا في الأرض؟

أي جيش يقف أمام جند هولاكو بعدما تمزق جيش الخلافة، وهوت راياته وديست أعلامه؟

لم يبق من دنيا الإسلام إلاَّ مصر، فهل تقدر مصر على ما عجزت عنه دنيا الإسلام كلها من أقصى خراسان إلى أدنى الشام؟

مصر التي زال عنها سلطان الأيوبيين، حَفَدة صلاح الدين، وقام عليها حكام من مماليك الأتراك. عبيد غرباء يشترون بالأموال، عبيد أجانب يحكمون أحرار العرب، ويا ويل أحرار العرب إن حكمهم عبيد أجانب[3]!

وكان ملكَ مصر ولد جاهل غرير، ما أعطى الملك لأنه أقوى الناس عزماً، ولا لأنَّه أكثرهم فهماً، ولا لأنه أشدهم علماً، بل لأنَّه ابن معز الدين أيبك.

وكانت حكومة المماليك شر حكومة، همُّ رجالها ملء صناديقهم بالذهب، وملء بطونهم بالطيبات، وملء قصورهم بالمماليك والمملوكات..

---

(١) قصروا جمع (فعل) على (أفعال) على المعتل مثل (أبيات وأسياف) وقالوا لم يأت منه صحيحاً إلاَّ كلمات دون العشر كـ (أفراح وأخواتها) وقد استدرك المتأخرون على المتقدمين نحواً من ثلاثين كلمة من الصحيح، فدلَّ ذلك على أنَّه يطرد في الصحيح والمعتل على السواء. وأنَّ مجيد تجمع على أمجاد. اهـ. هذا ما قاله أخي الأستاذ سعيد الأفغاني وهو اليوم المرجع في هذا الشأن وإليه الرياسة فيه في ديار الشام

(٢) هكذا يكتبونها (موصولة).

(٣) ولا يكون المسلم أبداً أجنبياً في بلاد الإسلام.

فماذا تصنع مصر التي لم تكن تملك شيئاً؟.

إنَّ مصر، يا سادة، كانت تملك شيخاً دمشقياً نزح إليها، وسكن فيها، وصار قاضي البلد، وخطيب الجامع. شيخ في قلبه إيمان لو صبَّ في الحجر الصلد لانبجست منه الحياة، ولو وجِّه إلى الجبل الراسي لأزاح الجبل.

شيخ كان يعلم أنَّ هذا الشعب، الذي هزَّه محمد ﷺ حتى أفاق وفتح الأرض، لا تزال في نفسه آثار البطولة التي فتح بها الأرض، إنَّ في عروقه ذكرى المعارك المظفرة التي خاضها، والدماء الزكية التي أراقها، والنصر الأبلج الذي انتزعه من كل عدو، كان يعلم أنَّ هذا الشعب ما دُعي مرة إلى التضحية والجهاد إلاَّ لبَّى، لأنَّ في نفسه الإيمان الذي يحوّل الهزيمة ظفراً، والضعف قوَّة، والفقر غنى، ويصنع من الحجر قنبلة، ومن العصا سيفاً ماضياً، وصرخ الشيخ بأهل مصر: يا أهل مصر اثبتوا واستعدوا وحاربوا، وأنا أضمن لكم على الله النصر.

* * *

أيقظ الشعب الذي نامت في صدره البطولات، فاستيقظ. وجمع الأمراء، فذكَّرهم كيف جاؤوا مماليك فجعلهم هذا البلد ملوكاً، فمن حقه عليهم أن يدافعوا عنه، عن حياتهم فيه وسعادتهم، عن الحضارة التي أظلَّتهم بظلالها، وجاء هؤلاء التتر ليقتلعوها من جذورها، عن الإسلام الذي شرَّفهم الله به، وهداهم الله إليه.

فاستقادوا إليه، وعزلوا الولد الذي كان ملكاً، وأمَّروا عليه البطل القوي، والمحارب المتمرِّس بالحروب، الأمير قطز وسموه الملك الظافر.

وقال الأمراء ليس عندنا أموال، فاطلب من الناس أن يتبرعوا لنا، للجيش. قال الشيخ: لا. حتى تخرجوا ما عندكم، وما في قصوركم من الذهب والفضة، وما عند نسائكم من الحلي، وأن تخلصوا في البذل لله وحده، ليأتيكم منه النصر.

وحرَّك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم، ورأى الناس

ذلك فتسابقوا إلى البذل والجود، وكثرت الأموال، فأعدُّوا العدَّة، وجمعوا السلاح، وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان. واهتزَّت البلدة بالهتاف والتكبير، حتى لكأنَّ كل مصري قائد مظفَّر، وحتى صار كل مصري يشتهي الوصول إلى المعركة، كما يشتهي المحب وصال الحبيبة. والشيخ يعمل دائباً، كلما خبت شعلة الإيمان في بعض النفوس زادها من إيمانه ناراً ونوراً، فكانت كل كلمة منه فرقة جديدة في جيش الجهاد.

وخرج الجيش المصري على أتم هيئة، وأكمل استعداد، تتقدمه فرسان المماليك. ولئن كان المماليك حكام سوء، لقد كانوا والحق يقال أرباب حرب، وأبطال قتال.

وبلغ الجيش بيسان في رمضان سنة ثمان وخمسين وستمئة، وأراد أن ينحدر من أعالي الهضبة إلى عين جالوت، فوجد تحته السيل الذي جرف في طريقه كل شيء من صحارى تركستان وأطراف الصين، إلى عين جالوت: جيش المغول والتتر، وكاد الجزع يخالط نفوس أجناد هذا الجيش الصغير، لما رأوا هاتيك الجموع، وذكروا كم اجتاحت في طريقها من جيوش كانت أجل وأعظم من هذا الجيش، فما صنعت مع هذه الجموع صنيعاً، ولكن الشيخ قام يذكرهم ما ضمن لهم من النصر، استنجازاً لوعد الله، واعتماداً على قوله: ﴿إنْ تنصروا الله ينصركم﴾.

فغلى الدم في العروق، وضربت الحماسة أقحاف الرؤوس، ونزل جيش مصر، نزول الموت، يحث جنده الخيل، يتسابقون إلى النصر والشهادة.

وكانت معركة خاف فيها الخوف، وذعر فيها الذعر، وانجلت عن. . . عن ظفر المصريين.

يا أيها السامعون لقد انهزم التتر الذين دكُّوا في طريقهم كل قوَّة،

واخترقوا كل جيش. انهزموا أمام الإيمان الذي أذكاه في النفوس هذا الشيخ الدمشقي.

انهزموا وأنقذ الله مصر، وأنقذ الله دنيا الإسلام، وأنقذ الله الحضارة والتمدن والعمران، وضمّت معركة عين جالوت إلى سلسلة المعارك المقدّسة، التي خضناها دفاعاً عن الحق والخير والعدل: بدر والقادسية واليرموك وجبل طارق وحطين.

ظفرت مصر. وستظفر الآن مصر. ستظفر[1]. ما في ذلك شك أبداً.

أمّا الشيخ فهو.. هو. لقد انتهى الوقت أيها السامعون. وستعرفون قصة هذا الشيخ في مثل هذه الساعة من يوم الجمعة القادم.

— ٢ —

هو عز الدين بن عبد السلام. عالم من علماء بلدكم دمشق، وقاض من قضاتها، وخطيب من خطباء جامعها الأموي، ولكنه ليس كمن تعرفون من العلماء والخطباء، وليس من أمثالنا من القضاة، وليس فينا من يشبهه أو يقاربه، ليمثل عليه به. إنّه من طراز نادر لا تجود الدنيا بمثله إلاّ مرّة واحدة في القرون الطوال.

ولم يكن هذا الشيخ من أسرة كبيرة، ولا من بيت علم، ولم يقبل على الدراسة في مطلع شبابه، ولكنه طلب العلم على كبر، فقد كان يبيت من فقره في مدرسة الكلاسة، بين الأموي وقبر صلاح الدين، وكانت تغلق أبوابها ليلاً ويبقى وحده فيها، فاضطر في ليلة باردة إلى الاغتسال، ولم يجد إلاّ بركة المدرسة، فغطس فيها ونام، فعاوده الاضطرار مرة ثانية فغطس، فأغمي عليه من شدّة البرد، فشكا ذلك إلى شيخ في المدرسة، فأفهمه أنّه لو كان عالماً لما أقدم على ضرر نفسه، ولعرف أنّ التيمم يغني عن الغسل إن كان الغسل يؤدي إلى المرض.

---

(١) أذيع هذا الحديث في أوائل حوادث العدوان الثلاثي على مصر.

كذلك (يا سادة) لا يصلح التقي إلاَّ بالعلم، ولا يصلح العلم إلاَّ مع التقى، فالمتعبد الجاهل، يضر نفسه وقومه، والعالم الفاسق يتَّخذ علمه وسيلة إلى الدنيا، وسلماً لبلوغ الغنى والجاه.

وأقبل من ذلك اليوم على طلب العلم بهمة ليس لها مثيل، يسهر ليلَه كله في العلم، فلم تمر عشر سنين حتى صار أحد أفذاذ العلماء وأعلام الدنيا، وكان فقيراً ولكن بين جنبيه نفس ملك، وكان زاهداً في الدنيا يراها أهون من أن يهتم بها ويحرص عليها، فلم يستعبده مال ولا جاه ولا امرأة، فمن هنا جاءت هذه الأخبار العجيبة عن جرأته على الملوك والأمراء، فاسمعوها ولكن لا تحاولوا أن تجربوا، حتى تتخلقوا بالخلائق التي دفعته إليها، وحملته عليها، وحتى تعلموا أنَّه لم يعملها تظاهراً، ولا إرضاء للناس، ولا اكتساباً للجاه، بل عملها وهو يراها الشيء الطبيعي كالتنفس والطعام.

ولي خطابة الجامع الأموي مع القضاء، بعدما شرط شروطاً قبلوها منه، وأخذ عليهم العهود أن يطلقوا يده في الإصلاح، فأصلح وأبطل بدعاً كثيرة، منها صلاة الرغائب، وصلاة نصف شعبان، لأنَّ ما يفعله الناس من إحياء ليلة نصف شعبان، والدعاء فيها بهذا الدعاء المعروف، لا أصل له في الدين، والعلماء متفقون على أنَّه من المحدثات.

وكان يحضر خطبته الملوك والأمراء، ويجلونه، ويكبرونه، فلما وقع الخلاف بين الملك الصالح إسماعيل في الشام، وابن عمه ملك مصر، استعان الصالح بالإفرنج الصليبيين وحالفهم على ابن عمه. ومن عجائب المصادفات أنَّ هذا الملك الخائن كان يلقب الملك الصالح، وإنَّ فاروق كان يلقب الملك الصالح.

وأعطى الإفرنج بلدين من بلدان المسلمين، فغضب الشيخ لله، وقام في الجمعة التالية على منبر الأموي فخطب في ذم موالاة الأعداء، وتقبيح الخيانة، وانتهت الخطبة وقام للدعاء للملك كما هي العادة، والملك حاضر

في المسجد، فما كان منه إلاَّ أن أعلن أنَّ الملك قد خان، وأنَّ الخائن لا ولاية له، وأعلن إسقاطه من الحكم!

لم يراع صداقته، ولم يحرص على عطفه، ولم يلجأ إلى زاوية مظلمة فيتلفت حواليه، ثمَّ يقول بصوت خافت: اللهمَّ إنَّ هذا منكر لا أرضى به، ولا أقدر على إزالته! بل صدع بالحق على المنبر، فقبض عليه. وضجَّ الناس وتكلَّم العلماء، فأرسل الملك إلى الشيخ من يقول له: إنَّ الملك يعفو عنه بشرط أن يقبل يده.

قال الشيخ للرسول: يا مسكين، والله ما أرضى أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده!

فحبسه، ثمَّ أرسله إلى الجبهة فسجنه في فسطاط قريب منه، وكان يقرأ القرآن مرَّة في محبسه وعند الملك وفود الإفرنج فقال لهم: أتسمعون هذا القارىء؟ إنَّه أعظم قساوسة المسلمين وقد حبسته لإنكاره تسليمي الحصون لكم وعزلته عن منصبه!

قالوا (واسمعوا ما قالوا) قالوا: والله لو كان قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءهما!!

ثمَّ أطلق فسار إلى مصر فأكرمه ملكها، وولاَّه الخطابة والقضاء، فكان منقطعاً إلى التدريس والإملاء والتأليف، وخلف مؤلفات هي غاية الغايات في جودة البحث، وتحقيق المقصد، ووضوح الأسلوب، وكان وفياً للعلم، لا يبالي في سبيل الحق ورضاء الله، ما يقوله الناس، أفتى رجلاً لا يعرفه في مسألة، ثمَّ ظهر له أنه أفتى خطأ، ولم يكن في تلك الأيام جريدة ولا إذاعة، فأخرج منادياً ينادي في شوارع مصر: يا أيها الناس: من أفتاه أمس عز الدين بن عبد السلام في المسألة الفلانية، فليعلم أنَّ الجواب غلط، وليأت ليسمع الجواب الصحيح!

لذلك سمي سلطان العلماء.

* * *

وكانت له في مصر وقائع مع الأمراء نسمعها اليوم فنراها من باب الخيال.

كان الحكم للمماليك فنظر الشيخ فرآهم لا يزالون في نظر الشرع عبيداً، لم يتحرروا هم، فضلاً عن أن يحكموا الأحرار، فأعلن بوصفه القاضي، أنَّهم سيباعون بالمزاد العلني وكان نائب السلطنة من المماليك، الذين حكم الشيخ ببيعهم!.

وحسبوه يهزل فإذا هو جاد، فشكوه إلى السلطان فنهاه فلم ينته، فقال له السلطان كلمة فيها غلظة، فما كان من الشيخ إلَّا أن...

إلَّا أن ماذا؟ ماذا ترونه صانعاً، وهو لا يملك قوّة ولا مالاً، وقد أثار الحاكمين عليه، وأراد أن يزيد على رقابهم في السوق، ويبيعهم كما تباع الدواب!

ما كان منه إلَّا أن حمل أمتعته على حمار، وأركب أهله على حمار آخر. وكانت هذه دنياه كلها، دنيا تحمل على حمارين... وخرج من مصر.

تقولون: ثمَّ ماذا؟ وماذا يصنع خروجه؟

لقد صنع العجائب يا سادة، لقد خرج أهل مصر جميعاً، بالضجيج والعويل، يسيرون خلفه، وارتجف البلد، وزلزلت مصر، وأسرعوا إلى السلطان يقولون له: تدارك ملكك لئلا يذهب بذهاب الشيخ!

فلحقه فأرجعه وأجابه إلى طلبه.

وذهب كبير المماليك بالسيف إلى دار الشيخ ليقتله، ولم يكن على بابه حرس ولا حجاب، وقرع الباب، فنزل الشيخ وفتح له، فلما رآه الأمير، لم يـر أمامه بشراً، يخوِّفه بالسيف، ولكن رأى الشرع الذي لا تعمل فيه السيوف، فسقط السيف من يده.

ونفذت كلمة الشيخ فنودي على أمراء مصر في سوق العبيد!

* * *

وخرج الملك الصالح أيوب يوم العيد إلى الصلاة بموكبه ودبدبته وعظمته: العسكر مصطفون بين يديه، ووجوه المملكة يسيرون وراءه، والأعلام تلوح على رأسه، والأمراء يقبلون الأرض أمامه، وإذا بشيخ يخرج من باب مدرسته فيناديه باسمه: يا أيوب! فالتفت السلطان ودهش، ووقف، ووقف الناس وشدهوا، حتى كأنَّ الطير على رؤوسهم، فقال له الشيخ: ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوىء لك ملك مصر ثمَّ تبيح الخمور؟ قال: هل جرى ذلك؟ قال: الخمارة الفلانية يباع فيها الخمر، وفيها المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة.

قال الملك: يا سيدي هذه من زمان أبي.

قال: أنت من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا؟

فأمر السلطان بإبطالها من ساعته.

فلما دخل المدرسة سأله تلميذه (الباجي العظيم): يا سيدي لم فعلت ذلك؟ قال: يا بني رأيته في تلك النعمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه. قال: يا سيدي أما خفته؟ قال: تصورت هيبة الله فصار السلطان قدامي كالقطّ!

* * *

يا أيها السادة، هذا شيخ كان يعيش في دنيا من عقيدته وإيمانه، ترك دنيا الناس وزهد فيها، ولم يحرص على متعها ولذائذها، فانقادت له الدنيا، وذلّ له جبابرتها، حتى وقف هذه المواقف التي نراها أدنى إلى الخيال.

ومن خاف الله يا أيها الناس خافه كل شيء، ومن أخلص له وضع هيبته ومحبته في كل قلب، أمَّا من كان مثلنا يطلب الدنيا ويريد المال، ويبغي الجاه، ويحرص على ثناء الناس، فهيهات أن يقدر على شيء.

سُلطانة الهند

أنتقل معكم اليوم إلى بلد بعيد، وزمن بعيد. رحلة طويلة في الأرض نقطع فيها البوادي والصحارى، ونعبر فيها أنهاراً ونركب بحاراً، ورحلة طويلة في الزمان نطوي فيها سنين وادهاراً، حتى نصل إلى دهلي قبل ثمانية قرون.

إلى المدينة التي كانت قرية فجعلها ملوك الإسلام من أعظم مدن العالم.

إلى المدينة التي افتتحها السلطان قطب الدين أيبك سنة ٥٨٤ هـ وكان مملوكاً جاهلاً، فشراه القاضي فخر الدين الكوفي، فخرَّجه في العلم والتقوى، ثمَّ شراه السلطان شهاب الدين الغوري، فنشأه على الشجاعة والقتال، وكانت له همَّة، وكانت له عبقرية، فجعلته ملكاً بعد أن كان مملوكاً، وكتبت له شرف فتح عاصمة الأرض بعدما طرق بابها في الزمان الأول الفاتح الشاب محمد بن القاسم الثقفي، ثمَّ جاس خلالها السلطان القائد محمود بن سبكتكين الغزنوي[1].

وكان لقطب الدين مملوك نبيه اسمه للمش كما يضبطه ابن بطوطة، أو التمش كما يقول غيره، ولا يهمكم بالطبع أكان اسمه التمش أم أشلميش. . . وإنَّما ذكرت ذلك خشية أن يكون في المستمعين من وقع على قصته فهو ينتقدني إن حرفت اسمه.

(١) انظر حديث (بقية الخلفاء الراشدين).

ولا تعجبوا من مماليك يصيرون ملوكاً، فإنَّها سنَّة ذلك العصر (مع الأسف)، لقد مرَّ على البلاد الإسلامية فترة حكمها فيها المماليك، وقد كان منهم خير كثير، وكان منهم شرّ، وليس هذا مجال الكلام عن شرورهم ولا عن خيراتهم.

أقول أنَّ التمش هذا كان عبداً مملوكاً لقطب الدين، فرباه على خلال الخير، وصفات الرجولة، فلما مات قطب الدين، جمع التمش القضاة والمفتين، والوجوه والأعيان، وأعلن استقلاله بالملك، وفتح القاضي فمه ليتكلم ففهم التمش وتبسم، وسبقه فأخرج من تحت مصلاه، كتاباً مختوماً، ودفعه إليه ليقرأه على الأشهاد، فإذا هو كتاب عتقه وتحرره من الرق. وتمَّت البيعة، وسار في الرعية مثل سيرة قطب الدين، وكان محباً للعدل، مقيماً للحق، سنَّ فيه سنَّة خير وبركة، هي أنَّ لباس عامة أهل الهند البياض، فجعل لبس الثوب الملوَّن علامة التظلم والشكوى، فمن ظلمه أحد كائناً من كان، لبسه وعرض له في أي مكان، فأنصفه من ظالمه، ثمَّ خاف ألاَّ يرى المظلوم، فجعل على باب قصره (جرساً) كبيراً يقرعه المتظلم في أي ساعة من ليل أو نهار.

وكان محارباً مظفراً، وإدارياً حكيماً، وسياسياً موفقاً، وحاكماً عادلاً، ولكن أولاده لم يكونوا مثله ولم يسلكوا طريقه بل لقد أفسدهم النعيم وفتنتهم الدنيا، فانصرفوا إلى لذاذاتهم، ورغبات نفوسهم، وبذل في إصلاحهم جهده، فلم يقد في إصلاحهم جهد، فيئس منهم، وكانت له بنت وهب الله لها جسداً يجمع متانة التركيب، وقوَّة الأسر، إلى جمال الخلقة، وفتنة النظر، وأعطاها قلباً ذكياً، وفكراً نافذاً، وذكاء يكشف بواطن الأمور، ويحل معضلات المشكلات، وشجاعة تقحم الموت، ولا تبالي الأخطار، بنتاً اسمها رضية، فصرف همَّه إليها، وجعل معوَّله عليها، ووكَّل بها المعلمين والمربين، ثمَّ درَّبها على فنون القتال، وخدع السياسة، ومرَّسها بالحرب،

وكان إذا غاب ولأّها الأمر مكانه، فسدّت ما كان يسدُّه أبوها وربما زادت بفضلها عليه.

ولمّـا مات ولي السلطنة ابنه الأكبر، ركن الـدين فيـروز شـاه، فأساء وظلم، وهدم ما كان بنى أبوه من الحب والهيبة، وبلغ من عدوانه أن قتل أخاه معز الدين، وامتلأت قلوب الناس بغضاً له وخوفاً منه، وتمنوا زواله، ولم يجرؤوا عليه فلم يكن من رضية إلاَّ أن بدأت هي الثورة... تراءت للناس من سطح دارها، وقد لبست الملوَّن شعار المظلومين على عهد أبيها، فاجتمع عليها الناس، فدعتهم إلى نصرتها فأجابوا، وقادت الثائرين فنازلت بهم أخاها وقبضت عليه وحكمت عليه بـ (الإعدام)[1] قصاصاً له بقتل أخيه.

وتولَّت هي السلطة وكان ذلك في يوم ١٨ ربيع الأول سنة ٦٠٤ هـ.

وكان ذلك حدثاً في الإسلام، وكان شيئاً جديداً وغريباً لم يعرفه التاريخ الإسلامي، وهذا الحـدث هو موضوع حديثي اليوم أيها السادة.

ليس الحديث عن التمش وما ذكرته إلاَّ تمهيداً، ولكن الحديث عن السلطانة رضية التي ملكت الهند الإسلامية أربع سنوات.

وسيحظى هذا الحديث بتعليقات كثيرة، ويثير جدالاً، بين من يرى للمرأة الاشتغال بالسياسة، وبين من يدعو إلى اكتفائها بما خلقت له، بأن تكون ربة البيت، (والبيت هو الوطن مصغراً) وأم الأولاد (والأولاد هم الشعب مختصراً).

وسيجد كلٌّ دليلاً منه على ما يذهبون إليه، ويقول الأولون: هذه امرأة وليت السلطنة، وحكمت وحاربت وجمعت من المزايا ما لم يجتمع إلاَّ لقليل

---

(١) الإعدام بمعنى الموت لم تعرفه العرب وهو مولد ظهر على ألسنة المصنفين والمؤلفين من القرن الثامن. والإعدام في اللغة الفقر، الذي عدم المال والذي أعدمه المال هو الله، لذلك قيل له (المعدم) بفتح الدال.

من أبطال الرجال. ويقول الآخرون: ولكن انظروا مبلغ نجاحها ومدى صلاحها لما عرضت له، وأقدمت عليه، أما أضاع عليها كونها امرأة كلّ ما جمعت من مزايا؟

أمّا أنا فلا أقول اليوم شيئاً. أنا أسرد تاريخاً والتاريخ هو الذي يقول.

* * *

بويعت بالملك، فودعت أنوثتها واتّخذت زيّ الرجال، ولبست لباسهم، وبرزت للناس، متخذةً هيئة الجد والصرامة، وحسبت أنّها تستطيع بهذا التبديل، أن تبدل خلقة الله فيها، وأن تجعل من نفسها رجلاً، وجمعت أطراف الأمور كلها في قبضتها، وأعادت سيرة أبيها في عدله، وفي شجاعته، وكانت تحل المشكلات بنفسها، وتسوس الرعية، وتخوض المعارك. وشهد لها المؤرخون أنّ عهدها كان أحسن عهد عرفته الهند.

ولكن الناس مع ذلك لم يكونوا راضين، وكانوا يأبون أن تحكمهم امرأة، وانطلقت ألسنة المحدثين والناقمين والطامعين، وتكررت على المنابر الأحاديث من أمثال (ذل قوم ولّوا أمورهم امرأة)، وبدأت هذه الحملات همساً، ثمّ ظهرت وتبينت، ثمّ استحالت إلى مؤامرة محكمة، تولّى تدبيرها أخوها الأصغر، والوزير نظام الملك، ورؤوس القادة والفرسان، وأصبحت يوماً فإذا هي سجينة في قصر مطوق بالأعداء، فلم تستكن وبعثت تستثير أنصارها، فهب لنصرتها حاكم أود، وجاء بالجيش يدافع عنها، ولكنّ الثائرين كانوا أقوى منه، فغلبوا جيشه، وأحكموا قيده، وألقوه مع الأسرى، فمات من قهره. وبقيت السلطانة بلا نصير.

هنالك عادت مرغمة إلى طبيعتها، إلى أنوثتها التي زعمت أنّها قد ودّعتها إلى الأبد، واستعملت السلاح الذي هو أقوى من السيف، سلاح المرأة الذي تقهر به الرجل دائماً[1]، وحاربت به الأمراء فشكت بسنانه

---

(١) وهو جمالها وأنوثتها.

قلوبهم، وألقت بـه العداوة بينهم، ثمَّ استعانت ببعضهم على بعض، حتى إذا لم يبق أمامها إلاَّ الأقل منهم، ضربتهم ضربة من لا يرحم، فلم تُبقِ منهم ولم تذر.

واستقامت لها الأمور كرة أخرى.

ولكن هل استمر نجاحها.

لقد جمعت من العقل والحزم، والشجاعة وحسن السياسة، ما لم يجمع مثله، إلاَّ الأفذاذ من الرجال، ولكنها أُتيت من كونها امرأة. إنها سلطانة ولكنها بشر كذلك، فإن تزوجت تبعت بحكم الطبيعة زوجها واستقادت له، وكان هو القوَّام عليها، فصار هو السلطان دونها، وإن أعرضت عن الزواج كانت في حرب مع طبيعتها وغرائزها، وإن اتخذت من اللهو مثل ما يتخذ الرجال، وكان لها بهم مثل علاقـات الحاكمين بـالنساء كـانت المصيبة الكبرى[1].

إنَّ المجتمع يغفر للرجل زلته، ويقبل توبته، ولا يغفر للمرأة أبداً. فيكون الغنم (إن كان غنم) لهما معاً والغرم عليها وحدها، لذلك كان على المرأة إن فكر الرجل مرة قبل أن يقدم على (ذلك الأمر)، أن تفكر هي عشر مرات، ومن هنا كان الهجوم على هذه السلطانة.

كان لها عبد حبشي اسمه ياقوت، تأنس به، وتثق بإخلاصه، فرفعته من مرتبته الصغيرة إلى رتبة أمير الأمراء، فأطلقت بذلك ألسنة الناس بالكلام عليها، فزعموا أنَّ بينها وبينه أكثر من هذا، وأنها إذا أرادت الركوب تركته يحملها، حتى يضعها على ظهر الفرس، وأثاروا أمراء الأقاليم عليها، فكان أول من أعلن الثورة حاكم بتهندا، فسير إليها الجيش، فأسرعت تقود جيشها إلى المعركة، وهي واثقة من النصر، ولكنَّ الجيش الذي أوغرت صدره تلك

---

(١) وهذه حجة من لا يرى للمرأة السياسة والحكم.

الشائعات، لم يعد يرى فيها سلطانة، بل امرأة قبيحة السيرة، مهتوكة الستر، فلم يكد يبصر راية الحاكم الثائر، حتى انضم إليها وتخلى عن ملكته.

وأسر الحاكم الملكة، وجمع الأمراء فأعلنوا خلعها، ونصبَ أخيها الأصغر ناصر الدين بهرام شاه، وعادت امرأة كما خلقها الله، فتزوجت بحاكم بتهندا، أو هي أرغمت على زواجه، وسارت معه إلى إقليمه، وهنالك سلّت سلاح أنوثتها مرة أخرى، وملكت به أمر زوجها، فأسلمها قياده فوثبت به تلقاء العاصمة دهلي، لتستعيد ملكها فكان وجودها على رأس الجيش، سبب عصيانه من جديد، وتخليه عنها ولم ترض أن توقع بنفسها فهربت.

ضلّت أياماً وهي بلا زاد ولا مأوى، حتى نال منها التعب والجوع، فلجأت إلى حرّاث منفرد، في البرية، يحرث أرضه، فسألته القرى فلم تجد عنده إلّا كسرة خبز، فأكلتها ونامت من التعب مكانها، وهي بلباس القواد.

وكانت نومتها الأخيرة.

رأى الفلاح طرفاً من شعارها (ثيابها الداخلية) فعلم بأنّها امرأة فاحتال عليها. . . ثمَّ قتلها، ودفنها في الحقل، وأخذ ثيابها يبيعها في البلد، فشك الناس فيه، وقادوه إلى الحاكم، فاعترف بفعلته فقتل، وأخرجت الجثة فدفنت في قبر مهيب، وكان ذلك في ٢٥ ربيع أول ٦٣٧.

قال ابن بطوطة، وقبرها يزار ويتبرك به!

وكان ذلك نهاية هذه القصة. قصة لو أخرجت كما هي فلماً سينمائياً لكانت في حقيقتها أروع وأمتع من كثير من الأفلام، قصة بها بطولة، وفيها عبرة، وفيها درس بليغ للمرأة.

هي تجربة لاشتغال المرأة بالسياسة، فكيف رأيتم مبلغ نجاح التجربة؟

مُفتي السُّلطان سَليم

نحن الآن في بلاط الملك العظيم الجبار، فاتح الشام ومصر، وناقل الخلافة إلى الترك، الذي هدم دولاً صغيرة، فأقام في مكانها دولة كبيرة، دولة قامت على السيف وحده[1] فلما صدىء السيف والتوى، هوت وتصدعت، وصارت أحاديث.

الملك الذي لقب بـ (ياوز) وكان ياوزاً حقاً: (صاعقة) منقضة لا يقف في وجهها شيء، السلطان سليم؛ ياوز سليم، تاسع ملوك آل عثمان، الملك القاهر البطاش، سفاح الدماء، وسلاب الأرواح، والذي أمن أهل حلب على دمائهم وأموالهم، ثمَّ فرض عليهم ضريبة سماها (مال الأمان)، كادت تستغرق عامة أموالهم، وأرسل إلى السلطان الغوري يطلب منه الدعاء، ثمَّ أمر بقتله، ثم قتل الجاويش الذي تجرأ فنفذ الأمر بقتله، والذي أباد أهل الرملة كلهم لوشاية واش خبَّره بأنَّهم قتلوا جنداً من جنده.

وكان القتل أهون شيء عليه، خنق أخوته لما خشي أن يزاحموه على الملك، وقتل سبعة عشر من أهل بيته، وسبعة من وزرائه، ردَّ عليه الصدر الأعظم يونس باشا (رئيس وزرائه) كلمة، كان الحق فيها مع الوزير، فأمر

---

(١) ولكنها أعزت الإسلام دهراً طويلاً، وفتحت فتوحات عظاماً، وكان منها ملوك كبار منهم الملك العظيم الصالح العبقري محمد الفاتح، الذي فتح القسطنطينية، ثمَّ جاء المتأخرون من ملوكها فساؤوا، ثمَّ جاء الاتحاديون ففسقوا وأفسدوا، ثمَّ جاء أتاتورك فكفر وفجر، ولم يبق ولم يذر.

بضرب عنقه فضربت عنقه قبل أن يتم جملته، ودفن في موضع مصرعه، في خان يونس، بالقرب من غزة، الذي بناه سميُّه يونس الدوادار.

ولما ترك للشراكسة في مصر أوقافهم، قال له رئيس وزرائه بري باشا: يا مولانا، فني مالنا وعساكرنا في حربهم، وتبقي لهم أوقافهم يستعينون بها علينا؟ وكانت رجل السلطان في الركاب فأشار إلى الجلاد، فقطع عنق الوزير، فصار رأسه على الأرض، قبل أن يصير السلطان على ظهر الفرس، حتى صار من أمثال الناس السائرة، من أراد الموت فليصر وزيراً للسلطان سليم.

وكان الرجل إذا سمي للوزارة، كتب وصيته، وأعدَّ كفنه وودَّع أهله، فلا يدري كلما ذهب ليقابل السلطان أيعود ماشياً على رجليه، أم محمولاً على قفاه.

* * *

نحن الآن يا أيها السادة: في بلاط السلطان سليم، وأهل الديوان الملكي في أماكنهم، وقلوبهم من خوف السلطان في وجل، لا يدرون، أيدعو بأحدهم فيسعده، أو يناديه فيبعده، أو تحل به نزوة من نزواته فتقعده فلا يقوم أبداً.

فلم يرع الوزراء وأهل الديوان، إلاّ دخول الشيخ المفتي عليهم، وما كان من عادة المفتي أن يدخل الديوان وليس له فيه حاجة، فوثبوا إليه يستقبلونه حتى أقعدوه في صدر المجلس وقالوا له: أي شيء دعا المولى إلى المجيء إلى الديوان العالي؟ قال: أريد أن أدخل على السلطان، ولي معه كلام. فاستأذنوا له على السلطان فأذن له، وحده. فدخل وسلَّم عليه وجلس، والسلطان ينظر إليه وقد بدت بوادر الغضب على محياه، وسكت محنقاً يرقب ما يأتي به الشيخ الذي دخل عليه بلا دعوة، وجلس أمامه بلا إذن، فقال الشيخ: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد أمرت بقتل مائة وخمسين من العمال لا يجوز قتلهم شرعاً، فعليك بالعفو

عنهم. فطار الغضب بعقل السلطان من هذه الجرأة عليه، ولم يعد يبصر من أمامه، وكاد يأمر بضرب عنق الشيخ (والأمر بالقتل على طرف لسانه دائماً). ثمَّ ضبط نفسه وأراد ردعه، من غير قتله، وقال له: إنَّك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك. وأعرض عنه، وارتقب أن يكف الشيخ وينصرف. ولكن الشيخ قال له: بل أتعرض لأمر آخرتك وإنه من وظيفتي، ومهما عشت فإنك ميت، ومعروض على الله، وواقف بين يديه للحساب، فإن عفوت فلك النجاة، وإلاَّ فإنَّ أمامك جهنم، لا يعصمك منها ملكك، ولا ينجيك سلطانك.

أتدرون ماذا كان؟ لقد ذلَّ السلطان الجبَّار أمام الشيخ الضعيف، وهانت القوَّة أمام الحق، وخضع ملك الزمان أمام سطوة الشرع، ولم يعد الشيخ هو الذي يتكلَّم، بل أعظم موجود عرفته هذه الدنيا: الإسلام.

وكذلك يذل أكبر جبار أمام العالم الصادع بالحق، الذي لا يبالي إلاَّ الله... وعفا السلطان عنهم جميعاً. وجالسَ المفتي ساعة يحدثه ويكرمه. فلما قام ليخرج قال الشيخ: تكلمت في أمر آخرتك، وبقي لي كلام متعلِّق بالمروءة. قال السلطان: ما هو؟

قال: هؤلاء من خدم السلطان، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس؟

قال: لا.

قال: فأعدهم إلى مناصبهم.

قال السلطان: نعم؛ إلاَّ أني أعاقبهم لتقصيرهم في خدمتهم.

قال: هذا جائز، لأنَّ التعزيز مفوض شرعاً إلى رأي السلطان، ثمَّ سلَّم عليه وانصرف.

* * *

هذا المفتي هو المولى علاء الدين علي بن أحمد الجمالي، الذي

تولى التدريس والفتوى (مشيخة الإسلام) ستاً وعشرين سنة، على عهد السلطان بايزيد والسلطان سليم وابنه السلطان سليمان القانوني (باني التكية الكبرى في دمشق، أمَّا الصغرى القديمة فهي من بناء أبيه سليم هذا) كان عالماً عاملاً، يمضي وقته كله في التلاوة والعبادة والدرس والفتوى، ويصلي الصلوات الخمس مع الجماعة. وكان كريم النفس، طيِّب الأخلاق، عظيم المهابة، صداعاً بالحق، متخشعاً متواضعاً عفيف اللسان؛ ما ذكر أحداً بسوء، ولا جرت على لسانه قولة الخنا، وكانت أنوار العبادة تتلألأ على جبينه، وكان يحب العزلة فجعل مجلسه في غرفة مطلَّة على الطريق وأدلى منها زنبيلاً (سلة) ربطه بحبل، فمن كان له سؤال واستفتاء، ألقى سؤاله في الزنبيل وحرَّك الحبل، فأخذه وأجاب عليه، وأدلى بالجواب. فعرف بلقب (زنبيليّ زاده علي أفندي).

وألقى الله هيبته في قلب السلطان سليم، فكان يمتثل أمره، ويجيب طلبه. ذلك حين أفهمه أنَّ وظيفة المفتي هي المحافظة على آخرة السلطان، كما أنَّ وظيفة الطبيب المحافظة على صحته. أفيسكت الطبيب إن رأى الملك يتناول السم؟ ألا ينهاه، فإن لم ينته أمسك بيده قسراً، وأراق الكاس جبراً؟ فلماذا يسكت المفتي إن رأى الملك يورد نفسه جهنم؟

وكانت له معه مواقف كثيرة، اختتم هذا الحديث بذكر واحد منها:

لما خرج السلطان سليم إلى إدرنه خرج المفتي لوداعه وتشييعه، فرأى في الطريق أربعمئة رجل مشدودين بالحبال، يسوقهم الجند، فسأل عن حالهم، فقالوا: إنَّهم خالفوا أمر السلطان، فحكم عليهم بالقتل.

فذهب المفتي إلى السلطان فلقيه وهو راكب، فقال له على ملأ من الناس:

ـ هؤلاء لا يحل قتلهم.

فقال السلطان: أيها الشيخ إلى متى تتدخل في أمور السلطنة؟ الزم

حدك، واشتغل بوظيفتك! أما لك وظيفة تقتصر عليها؟ أما لك عمل تعمله؟

قال الشيخ:

هذه وظيفتي وهذا عملي، فإن سمعت نجوت، وإلاَّ لقيت ملكاً هو أقدر عليك، منك عليهم.

وأدار عنق دابته ومشى بلا تسليم، فاحمرَّ وجه السلطان، وكاد يتفجَّر منه الدم، ووقف على فرسه صامتاً مدَّة طويلة، وهو في غضب لم يغضب مثله، والناس كلهم خائفون، سكوت، لو ألقيت إبرة على التراب لسمع صوتها.

ثمَّ مشى في طريقه وأمر بالعفو عن القوم.

* * *

هذا لتعلموا أنَّ العظمة في تاريخنا، هي عظمة هؤلاء الرجال. هؤلاء العلماء الذين علموا ليعملوا، وآمنوا فظهر إيمانهم على أقوالهم وأفعالهم، وحركاتهم وسكناتهم، فكانوا مع الناس في معاشهم، ومع الملوك في مناصبهم، ولكن قلوبهم كانت أبداً مع الله، لا تعمل إلاَّ له ولا ترجو إلاَّ إياه، وترى الدنيا ومن عليها في جانب الله أهون من ذرة في الفضاء، فلا تحفل منها بطعام ولا شراب، ولا شهوة نفس، ولا نشوة سلطان، ولا تخاف فيها ملكاً ولا جباراً، لأنَّها كانت مع الله، فكان الله معها، وهو ملك الملوك وقاصم الجبارين.

ولو أنَّ عصراً خلا من أمثال هؤلاء لخلا منهم هذا العصر الذي صورت لكم اليوم صورته، ولكنهم موجودون أبداً، معجزة حية باقية لخاتم الأنبياء محمد ﷺ وتصديقاً لقوله: لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرها من خالفها حتى تقوم الساعة.

الاحتفال بالمولد

قلت في الكلمة التي أذعتها يوم المولد، إنَّ أول من ابتدع الاحتفاء به، هو الملك المظفر، صاحب أربل، فكتب إليَّ كثيرون يسألونني، من هو الملك المظفر، وما خبره، فجعلت جوابي لهم هذا الحديث.

* * *

كان الملك المظفر قائداً من قوَّاد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وعاملاً من عماله، أمَّا لقب الملك فكان في اصطلاح تلك الأيام يطلق على كل والٍ أو حاكم، ولو كان والي مدينة، أو حاكم قرية، بل لقد جرت عادة الأيوبيين (وهذا من قبيح عاداتهم، التي أدَّت إلى الانقسام المستمر) أن يطلقوه على الولد من أولادهم، وهو صبيٌّ، كما يطلق ملوك أوروبة على أبنائهم لقب (البرنس).

وكان أبوه من شجعان التركمان، وكان يلقَّب بـ(كجك) ومعنى كشُك في التركية، الصغير، لأنَّه كان قصير القامة، صغير الجسم ولكنه كان قوياً مفرط القوَّة، جريئاً بالغ الجَرَاءة وكان من قوَّاد آل زنكي، حضر الوقائع العظيمة، وفتح الفتوح الجليلة وولي أعالي العراق والجزيرة، فسار فيها السيرة الحميدة، ووقف فيها الأوقاف، ولما شاخ وقارب المئة، نزل عمَّا كان يليه، ولم يبق لنفسه إلاَّ مدينة إرْبل[1].

---

(١) ويسمونها اليوم أربيل، وهي ولاية إلى جنب الموصل.

وكان ابنه الملك المظفر (هذا)، يدعى كوكبوري، ومعناه في لسانهم (الذئب الأزرق)، وكان منقطعاً إلى صلاح الدين، رحمة الله على روحه، شهد معه المشاهد كلها، وكان أحد قوَّاده الكبار، وكان من أثبتهم في المعارك قدماً، وأجْرئهم قلباً، وأعرفهم بفنون القتال، ما عرف الهزيمة قط.

ولما تضعضع الجيش الإسلامي غداة معركة حطين، وكاد ينكسر ويتمزق، بقي ثابتاً في الميدان مع السلطان صلاح الدين، والملك تقي الدين صاحب حماة[1] في قطعة صغيرة من الجيش، وتلقوا بصدورهم هجمة الإفرنج ثمَّ ردُّوها، كما تتلقّى صخرة الشاطىء الموجة العالية العاتية، ثمَّ تردُّها، وعاد بذلك الجيش الإسلامي إلى مواقعه، وكان الظفر الأبلج، الذي لا تزال تتحدَّث حديثه العصور.

وفي حصار عكا، كان له مع السلطان أشرف موقف، يعرفه ويعرف أمثاله، من عاد يقرأ هذه الصفحات الغرّ المحجَّلات من تاريخنا، صفحات البطولة المعجزة التي احتواها تاريخ (الأبطال الثلاثة): نور الدين، وصلاح الدين، والظاهر، وأنا أوجب على كل مسلم اليوم أن يقرأها مرة ثانية، ليجدد إيمانه بالله، وبأنَّ فلسطين ستعود إلينا، وليعرف من أين الطريق إلى استرجاع فلسطين.

* * *

أمَّا سيرة الملك المظفَّر في السلم فلم تكن دون سيرته في الحرب، هنالك النجدة والثبات والظفر، وهنا العدل والإحسان والكرم، وليس ذلك عجباً ولا نادراً في ذلك العصر، فإنَّ الناس (كما قال القائلون) على دين ملوكهم، ومتى صلح الرأس صلحت الجوارح، ومتى كان السلطان مثل صلاح الدين، كان الأمراء مثل الملك المظفر.

---

(١) أي والي حماة.

لقد قرأت سيرته، وسمعت خبره من شاهد عيان، وعصريّ[2] صادق، هو القاضي ابن خلّكان، فما دريت أأقرأ سيرة ملك من الملوك، أم رئيس جمعية خيرية للمواساة والصدقات والترفيه والإحسان، هذا هو عمله الذي يعيش له، ويعيش منه، ولا همّ له غيره، ولا عمل له سواه.

ولقد عرفت سير كرماء ضربوا بكرمهم الأمثلة، ولكنهم كانوا يعطون الشعراء والمغنين والسائلين، ويبذرون ويضعون الأموال في غير مواضعها، أمّا الملك المظفر، فكان كرمه للناس جميعاً، ولولا ما سنّ من سنن سيئة في يوم المولد، من اللهو والسماع، لشهدت بأنّه لم يكن له نظير.

* * *

لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة والبذل، لا للشعراء فما كان للشعراء منه حظ، ولكن للفقهاء والفقراء، والوعاظ والمحتاجين، وكان يجلُّ العلماء، ويدني مجالسهم، ويستسلم لهم، ويهشُّ للوعظ، ويصغي للفوائد.

وكان له كل يوم قناطير من الخبز توزع توزيعاً عاماً على الفقراء، في أماكن خصصها لذلك في نواحي البلدة، فلا يطلب أحد شيئاً منه إلاَّ أعطيه، فكان العامة يأكلون خبزهم من ماله، ولا يتكلفون له، ولا يفكرون فيه.

وكان يرى الخبز حقاً لكل إنسان يأخذه مجاناً، كالماء والهواء، وهذه الثلاثة هي ضرورات الحياة، وهي على درجات، أمّا الهواء الذي لا يصبر عنه الحيُّ لحظة، فهو ميسور في كل مكان، أمّا الماء فيصبر عنه قليلاً، لذلك كان كثيراً موفوراً، وإن خلت منه مواضع، أمّا الخبز فيصبر عنه أمداً أطول، لذلك كان أقل.

وكان إذا عاد من الديوان، وجد على بابه كل يوم طوائف من

---

(٢) عصريه أي معاصره، ومعاصر ومثلها مواطن لم تسمع عن العرب الأوّلين.

المحتاجين فيوزع عليهم الثياب الرخيصة النافعة، التي اتخذت لدفع البرد ورد المرض، لا للفخفخة والفخر، ويعطي كلا عطية صغيرة: دينارين أو ثلاثة.

ورأى المرضى الذين لا يرجى لهم شفاء (الزَّمْنىٰ) والعميان فبنى لهم أربعة مستشفيات، وتلك هي سنة الإسلام، شرع بها من الملوك الوليد بن عبد الملك، ثمَّ صارت شعار الملوك الصالحين من المسلمين، وقرَّر لهم كل ما يحتاجون إليه من الفرش والحمامات والمراحيض، والخدم والممرِّضين[1] ورتب لهم المطابخ تقدم لهم الطعام والشراب، وعيَّن لهم وعاظاً يعظونهم ويعلمونهم، ومحدِّثين يقرؤون لهم ويسلُّونهم، وكان يزورهم زيارات مفاجئة، ويقف عليهم واحداً واحداً، يسأل كلًّا عن طعامه وشرابه، وما يشكو منه، وما يشتهيه، ويبرُّهم بالمال والفاكهة والطُرف.

وأنشأ داراً للضيافة، ينزل فيها كل مسافر ثلاثة أيام، يتغدَّى فيها ويتعشى وإذا أراد السفر أعطوه نفقة ومعونة.

وفتح مدرسة عظيمة، جعلها قسمين: قسماً للحنفية وقسماً للشافعية وأقام لها المدرسين، وجعل لهم وللطلبة المرتَّبات والعطايا. وفتح مدرستين للصوفية!

وكان له عمَّال يسافرون مرتين في السنة، إلى البلاد الساحلية التي كانت بيد الإفرنج، يفكُّون أسرى المسلمين، ويعينوهم على العودة إلى ديارهم.

وجعل للحج بعثة رسمية، تذهب كل سنة مع الحجاج، تخدمهم وتتعهدهم وتعين الفقير والمنقطع منهم، وأرسل معهم ستة آلاف دينار لفقراء الحرمين.

وكان له بمكَّة المآثر الجليلة، منها أنَّه كان أوَّل من أجرى الماء إلى

---

(١) أما الممرضات فلا يجوز اختلاطهن بالرجال، والكشف على عوراتهم إلا عند الضرورة أو الحاجة الشديدة التي لها هنا حكم الضرورة.

عرفات ليلة الموقف، وكان الحجاج يشكون قلّة الماء، وأنفق فيه النفقات الطائلة.

* * *

وكان يؤخذ عليه، أنّه كان على طريقة مبتدعة المتصوفة، الذين يقيمون حفلات السماع، ويتواجدون ويرقصون، ويأتون أعمالاً ليست من الدين، ولا يعرفها السلف ولا أوائل الصوفيين، وكان مولعاً بها، يزور مدارس الصوفية التي أنشأها لهم فيُجمع له المغنون (المنشدون) فيسمع منهم، مثل الذي تسمّيه إذاعة دمشق، الأناشيد الدينية، والدين بريء منه، ولم يسمع مثله الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا التابعون، ولا عرفوه، ومن هذه (الأناشيد) ما يخلو من كفر صريح، وسؤال الرسول ما لا يقدر عليه إلّا الله، ووصفه بما لا يوصف به إلّا الله. ومنها ما هو وقاحة وسوء أدب وغزل بالرسول ووصف جماله، وذكر للهجر والوصال[1]...

والدين ما كان عليه الرسول وصحبه، ومن زعم أنّ في المحدثات ما هو من الدين، فقد نسب النقص إلى الشريعة، وادّعى بأنّه زاد في القربة والطاعة على الرسول ﷺ، وسيصدم هذا الكلام كثيراً من السامعين، ويرون فيه غير ما عرفوا وألفوا، ولكنه هو الحق، والحق أحق أن يتبع.

أعود إلى الموضوع.

لقد قلت لكم، أنّ الملك المظفر كان أوّل من أظهر الاحتفاء بالمولد، وأحيا لذلك بدعة العبيدين المدعون بالفاطميين، في مصر، لما حكموها، وأنا أنقل إليكم وصفاً لذلك الاحتفاء، نقلاً عن المؤرخ الثقة القاضي ابن خلكان، وهو شاهد عيان، لتروا أنّه لم يكن احتفالاً دينياً، ولم يكن مجلس عبادة وذكر، ولا مقام طاعة وتبتل، وإنّما كان (معرضاً) كهذه المعارض التي

---

(١) منعت الإذاعة على أثر هذا الكلام ما يسمى (الأناشيد النبوية) فأخرج طائفة منشوراً يردّون فيه عليّ، ويحتجون عليها، واستدلوا بأن الرسول ﷺ سمع قصيدة كعب بن زهير وفيها غزل!!.

تقيمها دول أوربة في هذه الأزمان، فيه اللهو وفيه الغناء وفيه كل شيء.

كان الناس يتوافدون إلى (إربل) حتى تصير مثل أرض المحشر، ويصحب كل منهم أهله ويحمل تجارته إن كان تاجراً، وبدائع مصنوعاته إن كان صانعاً مبتكراً، ويعد خطبه ومواعظه إن كان خطيباً أو واعظاً محترفاً، وقصائده إن كان شاعراً.

ويقيم المظفر أبنية مؤقتة من الخشب، كل واحدة بطبقات أربع أو خمس يؤجرها لمن شاء، فإذا كان شهر صفر زينوها بأنواع الأصباغ والستائر والأوراد والصور والأعلام والأضواء، حتى تكون أعجوبة[1]، ويدع لنفسه وحشمه عشرين منها، ينتقل إليها وكذلك يفعل القواد وكبار رجال الدولة.

ويكون في الباقي جوقات[2] المغنين، والممثلين وأصحاب الخيال (شيء مثل كراكوز) وتبطل معايش الناس، وتتعطل المدارس إلى يوم المولد.

والملك يدور كل ليلة فيقف على المغنين وأصحاب الخيال وعلى كل بناء وقبَّة يتفرَّج ويعطي العطايا. وكان يجعل المولد سنة في التاسع من ربيع الأول وسنة في الثاني عشر للخلاف الوارد في تعيين يوم مولده ﷺ.

* * *

تبدأ الاحتفالات ليلة المولد بسَوْق عدد هائل من الإبل والبقر الغنم بالطبول والأناشيد والناس وراءها بالأعلام والمزامير والصياح حتى تذبح ويعدُّ لحمها للولائم، فتقام القدور، ويعد الطعام الكثير ثمَّ يذهب إلى المسجد فيخرج من صلاة العشاء، بين يديه الشموع العظيمة والمشاعل والناس وراءه، حتى ينتهي إلى (الخانقاه) فيقيم تلك الليلة سماعاً عظيماً (أي ما يسمونه اليوم ذكراً، وما هو بالذكر) ويأتي الصوفية بعجائب الإنشاد والرقص

---

(١) كما يكون في المعارض تماماً.

(٢) جوقة كلمة عربية.

والتواجد، فإذا كان يوم المولد، نصب له برج كبير فيجلس عليه مع رؤساء دولته، وبرج أوطأ منه للصوفية والعلماء، ويمرُّ الجيش بين يديه في عرض عظيم، بفرسانه ورجّالته وأعلامه وراياته وطبوله، وجماعات الصوفية والمنشدين، وطلبة المدارس، وعامة الناس ثمَّ يقوم الخطباء والوعاظ، وينشد المنشدون، ويخلع على الجميع ويعطيهم، ثمَّ يدعى كل من حضر، وهم آلاف مؤلفة، إلى الموائد فيأكلون جميعاً.

وقد ألَّف له الحافظ ابن دحية رسالة في المولد، كانت أوَّل مولد أُلِّف.

* * *

هذه سيرة رجل كان من أنفع الناس للناس، ومن أعدل الملوك في الرعية، ومن نماذج الحكم الصالح، وكان ذلك طبعاً فيه لا تطبُّعاً، وكان يقدم إليه الطعام فيأكل منه لقمة فيستطيبه، فيقول: ارفعوه، وخذوه إلى فلان الفقيه أو فلان الفقير. وكان يستحسن الثوب فيخلعه ويقول: خذوه إلى فلان الصالح أو فلان المحتاج. وكان قائداً من أبرع القوَّاد، ومحارباً من عباقرة المحاربين، وأسأل الله أن يغفر له إن كان من أنصار البدع في الدين، ومن أعوان المتصوفين المبتدعين، توفي ليلة الأربعاء ١٨ رمضان سنة ٦٣٠ هـ.

بَـاني مُـرَّاكِش

هذا الحديث عن عبقري من عباقرة التاريخ الإسلامي، وعن موقعة من أعظم المواقع الحربية في تاريخ الشرق والغرب ولا بدَّ لي قبل الكلام على هذا الرجل العبقري، وعلى هذه الوقعة الفاصلة من شيء من التمهيد التاريخي.

* * *

أعود بكم إلى القرن الخامس، وأذهب بكم إلى صحارى المغرب الأقصى.

وقد كانت هذه الصحارى يومئذٍ لقبائل (زناته) فزاحمتها من الجنوب قبائل جديدة، أقوام بعدد الحصى والرمال يعرفون بالملثمين، لأنَّهم يتلثمون أبداً في الحرب وفي السلم، ويذكرون في تعليله أنَّ العدو أغار عليهم مرة، وكان الرجال بعيدين عن الحيِّ، فلبس نساؤهم لباس الرجال، وتلثمن وركبن الخيل، فحسبهم العدو رجالاً، وخاف وهرب. فلزموا اللثام من ذلك اليوم تبركاً به، وكانوا جنَّ الحروب، ومَرَدة المعارك، وكانوا عجائب في الشجاعة والإقدام.

وكانوا في الأصل على جهالة مطبقة، فأحب زعيمهم أن يعلِّمهم الإسلام وأن ينوِّر به قلوبهم، فاختار فقيهاً من القيروان اسمه الشيخ عبدالله الجزولي، وكان هذا الشيخ وحده سبب هداية هذه الخلائق، ونقلها من ظلمة

الجهل إلى نور الإيمان، ومن الصحارى الإفريقية الجنوبية، إلى ملك المغرب كله والأندلس، وهو الذي جعل كل واحد من الملثمين، داعية إلى الله، ومجاهداً في سبيله كلَّ[1] طاغية يقف في وجه هذه الدعوى، ويمنعها أن تسير، ولم يكن سبب هذا النجاح أنَّه كان أعلم الناس علماً، وأنَّه كان أفصحهم فصاحة، فلقد كان في الناس من هو أعلم منه وأبلغ، ولكن سببه الأوحد أنَّه كان مؤمناً حقاً، وكان متحمساً راغباً في الإصلاح، وأنَّه لم يكن يطلب الجاه ولا المال ولا الضياع ولا اللذات، بل يطلب الله والدار الآخرة.

وكانوا يعرفون بالملثمين فسماهم المرابطين، وكان هذا الفقيه هو الحاكم، وهو الذي يصرِّف الأمر، ولكنه مع ذلك لم يدَّع الإمارة، بل تركها ليحيى اللَّمتوني، ولما مات ولَّى مكانه أخاه أبا بكر اللمتوني، وتوفي هذا الفقيه بعد ما أسس الأسس، وأقام الدعائم لدولة المرابطين، التي ظلَّلت رايتها فيما بعد المغرب كله، من تونس إلى البحر الأطلنطي والأندلس، وما خصَّ نفسه يوماً بطيب مأكل أو ليِّن ملبس، ولم يكن له أرب في النساء. ومن هنا ترون أنَّ عالماً واحداً يدعو إلى الله بإخلاص، يحيي به الله أمة كاملة.

* * *

وانفرد أبو بكر اللمتوني بعد موت الفقيه الجزولي بالأمر، فجاء بشاب من بني عمِّه اسمه يوسف بن تاشفين، فولَّاه قيادة شطر من الجيش أبقاه في صحراء المغرب، ليتمَّ العمل الذي بدأ به الشيخ الجزولي، وعاد هو إلى الجنوب، إلى بلاد قومه من (لمتونة)، لأنَّ امرأة من قومه ظلمت فنادت: لقد ضيعنا أبو بكر. فقال لها: لبيك. وأسرع إلى بلاده. يقيم الحق والعدل فيها ويصلح من أمرها، ويجاهد الكفار من حولها، وبقي ابن تاشفين في الشمال.

ولا نعرف من أين جاء ابن تاشفين، ولا ندري كيف نشأ، ولا يحدثنا التاريخ عن ذلك شيئاً، ولا نعرفه إلَّا يوم ولِّي هذه القيادة. ولِّي القيادة، ولم يكن للمرابطين إلَّا الصحراء يعيشون فيها بدواً رحَّلاً، ويسيطرون على قبائلها،

(١) كلمة (كل) مفعول به لاسم الفاعل: مجاهد.

فسار بهم ابن تاشفين إلى المدن، إلى فاس، حاضرة المغرب، وكبرى مدنه، فافتتحها، وأقام عليها أميراً يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله. ثمَّ توجه إلى طنجة، في طريق ما سلكها قبله جيش، فافتتحها وأقام عليها أميراً. وما زال يفتح المدن، مدينة بعد مدينة، حتى فتح مدن المغرب الأقصى كلها، ثمَّ ملك الجزائر، ثمَّ توجَّه إلى تونس فغلب عليها. وكان في كل بلدة أمير، يظلم الناس، وحكومة تعيث في الأرض فساداً، فجعلها كلها حكومة واحدة. من تونس إلى البحر، البحر الذي بلغه من قبل الفاتح الإسلامي عقبة بن نافع فخاضه بفرسه وقال: اللهمَّ لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك، حتى أفتح الأرض كلها أو أموت.

وعاد ابن تاشفين، فاختار موضعاً نزهاً، حوله جبال تطيف به من بعيد، اسمه مَرَّاكُش، ومعناها بلغة البربر (مرَّ مسرعاً) لأنَّه كان مأوى للُّصوص وقطَّاع الطرق فبنى فيه مدينة مراكش، سنة ٤٦٥ هـ؛ وعاد أبو بكر فاستقبله ابن تاشفين وأظهر له الخضوع، ولكنه لمَّا رأى ما بلغه من القوَّة والأيْد، ترك الأمر له وعاد من حيث جاء، يجاهد في الصحارى الجنوبية حتى مات شهيداً، وانفرد ابن تاشفين بالأمر.

* * *

وكان ابن تاشفين هذا نحيف الجسم، أسمر اللون، خفيف اللحية؛ دقيق الصوت. يحسبه من يراه ويسمعه، رجلاً ضعيفاً مسكيناً، فإذا خَبَرَه وجده الأسد قوَّةً ومضاءً، والصقر حدَّة بصر، وسرعة انقضاض؛ وكان محارباً ليس له نظير؛ وقائداً من الطبقة الأولى من القواد، وكان خيِّراً عادلاً، يميل إلى أهل العلم والدين، ويكرمهم ويجعلهم أصحابه وبطانته، ويحكِّمهم في نفسه وفي بلاده، ويتبع حكمهم ما داموا يتكلمون بلسان الشرع، ويحكمون بحكم الله، وكان يحب الصفح، ويميل إلى العفو، مهما عظم الذنب وجلَّت الخطيئة، وكان زاهداً متقشفاً لم يستأثر بمطعم ولا مشرب، ولم يرتفع في عيشه عن عيش أفقر رعاياه، فعاش حياته كلها لم يعرف القصور الفخمة، ولا

الموائد الحافلة، ولا حياة السرف والترف، لم يأكل إلّا خبز الشعير ولحم الإبل، ولم يشرب إلّا لبن النياق، وكان قوي الجسم مشدوداً شد الوتر، وبقي على ذلك حتى قارب المئة. وكانت الألقاب فاشية في الأندلس، فكل من حكم فيها بلدة، أو سيطر على ناحية من الأرض، اتّخذ أبهة الملك، وألقاب السيادة، وهو قد أسس دولة من أكبر دول الإسلام وبنى مدينة من أجل المدائن، ورضي بأن يكون تابعاً للإمامة العظمى، لأنّه كان يرى رأي الإسلام، وهو أنّه لا يجوز أن يكون المسلمون إلّا دولة واحدة، وكتب إلى الخليفة العباسي يستمد منه الإمارة، فأرسل إليه بمرسوم الولاية على المغرب، وسمى نفسه (أمير المسلمين)، وأعلن أنّه تابع للخليفة في بغداد.

* * *

في هذا الوقت الذي انتقل فيه المغرب الإسلامي، من الفرقة والانقسام والضعف، إلى الوحدة والقوة، وزالت على يد الفقيه الجزولي، والقائد ابن تاشفين، هاتيك الدويلات الصغار، وقامت الدولة الكبيرة، كانت الحال في الأندلس على العكس، فقد زالت دولة الناصر، ودولة المنصور من بعده، وقامت هذه الحكومات الصغيرة المتنافرة المتناحرة، التي لا يفتأ كبيرها يغير على صغيرها، وكل جارة منها تعتدي على جاراتها. وبلغ الأمر إلى ما هو شرّ من ذلكم، إلى أن صارت كل دولة منها تستعين على أختها بالإسبان، بالعدو المشترك، الذي يتربص بالجميع، ويكيد للجميع، ولم يسلم من هذا الخزي أحد منهم!

وأخذ الإسبان يستفيدون من هذا الخلاف، ويأخذون من أطراف البلاد الإسلامية، وكلما فتحوا طريقاً للعداوة بين دولتين من هذه الدول الهزيلة، دخلوا منه يوغلون في بلاد الإسلام، ويتقدمون أبداً إلى الأمام[1]. وجعلت المدن تَسّاقط في أيديهم واحدة بعد واحدة، فلا ينتبه المسلمون، حتى

---

(١) كما يصنع اليهود الآن في لبنان (١٩٨٥).

سقطت طليطلة، وهي قلعة الإسلام، فكانت سقطة لها دويٌّ رجّ الأندلس، فأفاق هؤلاء الأمراء وأيقنوا أنَّ الهوة قد تفتحت تحت أقدامهم، وأنَّهم جميعاً ساقطون فيها، إذا لم يتحدوا ويتجمعوا، وكانوا جميعاً يدفعون الجـزية للأذفونش (الفونسو ملك قشتالة) حتى كبيـرهم المعتمد بن عبـاد الملك الشاعر، فلما أخذ طليطلة لم يعد يرضى بالجزية، وعزم على أخذ البلاد. فتوجهوا جميعاً تلقاء المغرب، ورأوا أنَّه لا نجاة لهم إلَّا إذا استنجدوا بأمير المسلمين، ابن تاشفين. وكان القائم بهذا ابن عباد، فخوفوه من طمع ابن تاشفين في الأندلس، واستيلائه عليها، فقال كلمته المشهورة: أنا أعرف هذا، ولكني أفضل أن أرعى جمال أمير المسلمين، عن أن أرعى خنازير ملك الإسبان!

وكان مرجع أمراء الأندلس لابن عباد، فلما رأى هذا أخذوا برأيه، وكتبوا كتاباً واحداً، بلسانهم جميعاً يستقدمون به ابن تاشفين، ولبَّى الطلب، وحشد جيشاً ضخماً وجاز به البحر إلى الأندلس، وكان الأذفونش في حرب ابن هود أمير سرقسطة، فلما بلغه عبور ابن تاشفين، ترك حربه وجمع أمراء النصارى في جيش واحد، وتوجه ليلقى به ابن تاشفين الذي انضمَّ إليه أمراء المسلمين جميعاً، ومشى الجيشان إلى المعركة الفاصلة، التي اجتمعت فيها جيوش النصرانية كلها في جانب، وجيوش الإسلام في جانب، ولم يكن الفريقان قد اجتمعا من قبل أبداً في جيش موحد. وكان اللقاء في سهل أفيح بالقرب من مدينة بَطَلْيُوس سمي (سهل الزلاَّقة)، وكانت الوقعة يوم الجمعة في الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمئة أي قبل تسعة قرون[1].

اصطفَّ الفريقان، حتى لقد نقل ابن خلكان أنَّه لم يكن في ذلك السهل الواسع موضع قدم لم يكن فيه جندي مستعد، ولا تزال الأمداد تتوالى من الجانبين، حتى لم يبق محارب من هؤلاء وأولئك إلَّا حضر المعركة.

---

(١) من يوم إذاعة هذا الحديث من (إذاعة دمشق).

وأخطأ ابن عباد خطيئة كادت تودي بجيوش المسلمين كلها، خطيئة دفعته إليها شجاعته، ونسي أنَّ الرأي قبل شجاعة الشجعان، ذلك أنَّه باشر القتال قبل أن يصل ابن تاشفين إلى الميدان واضطرب أمر الجند الإسلامي، وأخذ الناس على غير تعبئة وغير استعداد، فصار أمرهم فوضى، ودهمهم فرسان النصارى، فحطموا كل مقاومة إسلامية، وسحقوا كل ما كان أمامهم، وسقط ابن عباد صريعاً، قد أصابه جرح غائر، وفرَّ رؤساء الأندلس يائسين، وظنَّ الأذفونش أنَّ ابن تاشفين مع المنهزمين، فلما رأى ذلك ابن تاشفين، هجم بنفسه يتلقَّى بصدره صدمة فرسان الإسبان يحف به أبطال المغرب، وضرب الطبول الضخمة فارتجَّت الأرض، وطويت تحت أقدامهم، ووقف الهجوم الإسباني، ثمَّ شق جيش الإسبان واخترقه حتى احتلَّ قيادة الأذفونش، فلما صار فيها عاود الإسبان الهجوم أشد وأقوى من الهجوم الأول، فانخرقت جبهة المسلمين، ولكنهم عاودوا الهجوم واحتلوا القيادة مرَّة ثانية، فهجم الإسبان ثالث مرة. هجوم المستميت اليائس، فترجل أمير المسلمين ابن تاشفين وهو يومئذٍ شيخ في نحو الثمانين، وترجل معه نحو أربعة آلاف من حَشَمه السودان، ووقفوا كأنَّهم جدران الصخر، وبأيديهم الأتراس والسيوف، وقفز واحد منهم على فرس الأذفونس، فقبض على عنقه بيد، وطعنه بالثانية بخنجره في فخذه، فاخترق الخنجر الدرع والعظم ودخل في سرج الفرس، وفرَّ وفخذه معلَّقة بالسرج، ووقعت الهزيمة الكبرى في جيش الإسبان وكان النصر.

وكانت معركة من أعظم المعارك الفاصلة في تاريخ البشر؛ فقد اجتمعت فيها لأوَّل مرة قوى الإسلام كلها في الأندلس والمغرب في وجه قوى النصرانية كلها في إسبانيا، وكانت معركة شديدة أظهر فيها الفريقان من البراعة والشجاعة، ما يجري من غرابته مجرى الأمثال، وظهرت فيها مزايا التربية الصحراوية، فانهزم أبطال الأندلس، حتى المعتمد بن عباد فارس العصر؛ ولم يثبت إلَّا بنو الصحراء، الذين لم يفسدهم ترف الحضارة، ولا نعيم القصور. وبدَّلت مسير التاريخ، فقضت على هاتيكم الدويلات الهزيلة

المتنافرة المتناحرة، التي كانت تدفع الجزية للإسبان عن يد وهي صاغرة، وتستعين بهم على حرب أخواتها في اللسان والدين، وعادت للأندلس وحدتها تحت الراية الإسلامية الكبرى، وكانت على وشك السقوط فأخّرت هذه المعركة سقوطها أربعمئة سنة، كل ذلك بعمل هذا الرجل النحيف الضامر الخافت الصوت، الذي كان يومئذٍ شيخاً في نحو الثمانين من عمره. هذا الشيخ البدوي البربري الذي لم ينشأ في المدن الكبار، ولم يرها في صدر حياته، ولم يتعلّم في المدارس ولم يدخلها، ولم يكن ينطق بالعربية ولا يكاد يفهمها، ولم يعرف في عمره لذّة النعيم ومتع العيش؛ ولكنه مع ذلك أقام دولة من العدم، دولة تقيم حكم الله؛ وتتبع شريعة الرسول الأعظم ﷺ. دولة امتدت من تونس إلى الأطلنطي إلى آخر الأندلس، ولم يَدّعِ الاستقلال فيها، ولا اتّخذ ألقاب السلطان، ولكنه قنع بأن يكون أميراً تابعاً اسماً للخليفة العباسي في بغداد.

يا سادتي ويا سيداتي:

إنَّ تاريخكم فياض بالبطولات والمفاخر والمكارم، ولكنكم لا تكادون تعرفون تاريخكم.

شَارِحُ القَامُوسِ

لو سئلت ما هو أشهر كتاب عربي، لقلت أنَّه القاموس، للفيروز آبادي فقد بلغ من شهرته أن سُمِّي كل معجم قاموساً، مع أنَّ القاموس اسم لهذا الكتاب وحده، وإلى جنب القاموس في كل خزانة كتاب شرح القاموس، الكتاب الجليل الذي يزيد في إحاطته وشموله، على المعجم العظيم لسان العرب.

وحديثي اليوم عن الزَّبيدي شارح القاموس، عن الرجل الذي كان طرازاً نادراً في العلماء. والذي كان نموذجاً للشيخ الذي جعل (المشيخة) تجارة، وصورة للعالِم المترف الثريّ، والذي بلغ من قدره أنَّه كان أشهر علماء الأرض في زمانه، ونال من الحظوة عند العامة والخاصة، وعند الملوك والأمراء، ما لم ينله إلَّا الأقل الأقل من العلماء، والذي كان مشاركاً في كل علم، ملماً بكل فنّ، إماماً في اللغة وفي الحديث وفي التاريخ، وكان أديباً شاعراً، وكان مع ذلك وقوراً مهيباً، بشوشاً بسَّاماً، وكان مع هيبته ووقاره، خفيف الروح، عذب النكتة، مستحضراً للنوادر العجيبة، متحدثاً قليل النظير.

* * *

ولد في الهند سنة ١١٤٥ هـ قبل مئتين وثلاثين سنة[١] ونشأ بها، ثمَّ رحل في طلب العلم كما كان يرحل العلماء في ذلك الزمان، وحجَّ مراراً، ونزل

(١) أذيع هذا الحديث سنة ١٣٧٥ هـ.

الطائف سنة ١١٦٦ فأقام بها زمناً وورد مصر سنة ١١٦٧.

وفي مصر لمع نجمه وسار اسمه، ونال المنزلة التي وصفت لكم، وقد اتّصل أوّل أمره بالأمير إسماعيل كتخدا، وألقى الله محبته وإكباره في قلبه، فأولاه جانباً من دنياه، ونبّه إكرام الأمير الناس إليه، فأقبلوا عليه، وتسابقوا إلى سماع درسه، وحضور مجلسه، وأهدوا إليه الهدايا الفاخرة، فحسنت حاله، ولبس الملابس الفاخرة، واشترى الخيل المسوَّمة، وكان نحيفاً ربعة مورّد الوجه، متناسب الأعضاء، يتّخذ الزي الحجازي خلافاً لزيّ علماء الأزهر، ويلبس العمامة الحجازية على القلنسوة المزركشة[1]، ويترك لها عذبة، فكانت غرابة زيه من أسباب زيادة الإقبال عليه، فانتقل إلى (سويقة اللالا)، وكانت يومئذٍ حيّ الأعيان والكبراء، وفتح بيته للناس. وكان يقيم الولائم، ويهدي إلى من يهدي إليه، وجعل ينقّل درسه من مسجد إلى مسجد، ومن حي إلى حيّ، وزار بلاد الصعيد ثلاث مرات. وكان حيثما حلَّ، احتشد له الناس وازدحم عليه طلبة العلم والعلماء، وتسابق إلى إكرامه ودعوته الأمراء والكبراء، وعُني به شيخ العرب همام، وهو كبير أعيان تلك البلاد، ورحل إلى مدن الوجه البحري كدمياط ورشيد والمنصورة وغيرها مراراً، ثمَّ تزوج وأحب زوجته حباً ما أحب مثله قيس ليلاه، ولا العباس فَوْزَه، وعاش معها في مثل نعيم الجنات. وشرع بشرح القاموس، وكان كلماً أتمَّ كراريس أرسل منها إلى علماء الأقطار الإسلامية. فاشتهر قبل إكماله، فلما أكمله أولم الولائم العظيمة، وجمع العلماء والوجهاء، وكان احتفال ضخم، لبث عمراً وهو حديث الناس.

ولمَّا أنشأ محمد بك أبو الذهب جامعه المعروف بالقرب من الأزهر، أقام فيه خزانة كتب كان يشتري لها الكتب النادرة بأغلى الأثمان، وقد اشترى أوّل نسخة من شرح القاموس بمئة ألف درهم فضة!

ولم يمنع الزَّبيدي ما نال من دنيا عريضة، من الاشتغال بالعلم،

---

(١) لم يبق الآن من يلبسها في الحجاز إلا الشيخ الشنقيطي سفير الأردنّ في السعودية.

والعكوف على التصنيف، والولع بإقراء الطلبة، وإحياء العلوم التي اندثرت ونسيت كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الحديث، وألَّف في ذلك كله كتباً جليلة.

وكان مع هذا الجاه، وهذا العلم، يشتغل بالوعظ وبالرُّقى والتمائم (الحجب) ويجيز بالأوراد والأحزاب الصوفية الطرقية، ويوهم أنَّه المهدي!. وكان هذا إلى غريب زيِّه وهيئته، إلى معرفته باللغة التركية واللغة الفارسية والكرجية، وإتقانه أساليب معاشرة الملوك والكبراء، وأساليب التأثير على العامة كان هذا من أسباب ما نال من شهرة، وما كان له من مكانة نال بعضها بالعلم الحق، وبعضها بهذه الأساليب!!.

* * *

وكانت مجالس الأمالي قد مضت وانقطعت من عهد السيوطي. والأمالي من مفاخر تاريخ العلم الإسلامي، فأعادها ووصلها، وشرع يملي من حفظه على طريقة السلف مجالس في الحديث، مبتدئاً بذكر الأسانيد والرواة والمخرجين.

وكان كلما قدم عليه قادم أملى عليه الحديث المسلسل بالأولوية، وهو حديث الرحمة، برواته ومخرجيه، ويكتب له سنداً بذلك ويخبره به، ويكتب سماع الحاضرين، فكان الناس يعجبون من ذلك.

وكان ينظم (مسرحيات) أخرى، أعجب تأليفاً وإخراجاً، وذلك أنَّه كلما دعاه أحد أقام له الموائد الفاخرة، وجمع الأهل والإخوان، فيقبل معه خواص الطلبة، ومعه القارىء والمستملي وكاتب الأسماء، فيقعد على كرسي عال فيتلو القارىء ما تيسر من آيات الكتاب ثمَّ يقرأ المستملي، أي المعيد ثمَّ يقرأ لهم الشيخ شيئاً من الأجزاء الحديثية، كثلاثيات البخاري أو الدارمي أو بعض المسلسلات، وصاحب المنزل وأصحابه وأقرباؤه، والنساء والبنات من خلف الستائر يسمعون ولا يفهمون شيئاً بالطبع! وخلال ذلك يدار على الحاضرين

بالبخور والعنبر، وماء الورد، ثمَّ يختم الدرس بالصلاة على الرسول، على النسق المعتاد وبالنغمة المعروفة، ثمَّ يكتب الكاتب أسماء الحاضرين حتى النساء والصبيان وبكتب الشيخ تحت ذلك (صحيح) ويمضي...

فكان الناس يرون رواية مسرحية عجيبة، يتحدثون بها فتزيد من شهرة الشيخ(١).

وطلب منه بعض شيوخ الأزهر إجازة، فقال: لا بدَّ من قراءة أوائل الكتب، واتفقوا على الاجتماع في جامع شيخون، وحضر الاجتماع أهل تلك الناحية وطلبة العلم فيها، فالتمسوا منه بيان المعاني فانتقل من الرواية إلى الدراية، وكان درس عظيم، استمرَّ مدة طويلة. وكان يمزج الحديث بالفقه بالعربية بالرواية، ولم يكن ذلك معروفاً من مشايخ الأزهر في تلك الأيام.

وأحبه بعض الأمراء الكبار مثل مصطفى بك الإسكندراني، وأيوب بك الدفتردار، وسعوا إلى منزله، وأهدوا إليه الهدايا الجزيلة، واشترى الجواري وعمل الأطعمة للضيوف، وأكرم الواردين من الآفاق.

وانتقلت شهرته إلى تركيا، فطلب إلى العاصمة (اسطنبول) فامتنع، فرتبت له المرتبات الكبار، وكاتبه أمراء المسلمين من الترك والحجاز واليمن والهند والشام والعراق والمغرب والسودان والجزائر، وكثرت عليه الوفود والهدايا العجيبة، منها أغنام فزان، وهي عجيبة الخلقة يشبه رأسها رأس العجل، فأرسلها إلى أولاد السلطان، فكان لها وقع عظيم، وكذلك الببغاء والجواري والعبيد، فكان يرسل ذلك إلى الجهات المستغرب فيها، ويأتيه في مقابلها أضعافها، وأتاه من طرائف الهند واليمن أشياء نفيسة، منها العود والعنبر بالأرطال.

وصارت له شهرة عظيمة عند أهل المغرب، حتى أن من يحج ولا يزوره لا يرون حجه كاملاً، وكلما ورد عليه وارد سأله عن اسمه ونسبه وبلده

(١) وكل ذلك من البدع المحدثات، التي لم يعرفها علماء السلف، ولا صنعها أحد من المحدثين.

وأصحابه وجيرانه، ويكتب ذلك فإذا جاءه بعدُ أحد هؤلاء الأصحاب يقول له: جارك فلان حيّ؟ وأخوك فلان هل ربحت تجارته؟ وأين عمك هل أكمل بناء بيته؟.

فيقوم المغربي ويقبل يديه ورجليه، ويرى ذلك من الكشف[1]!.

فتراهم في أيام الحج طالعين إلى داره، نازلين منها، وما منهم إلاَّ ومعه هدية أو طرفة، ويسأله العلماء فمن ظفر منه بجواب، ولو على ورقة بقدر الإصبع، فكأنَّما ظفر بحسن الخاتمة!

وكان يعرف كيف يحمل الكبراء على احترامه، ولما جاء حسن باشا مصر، وذهب إليه كل كبير فيها مسلِّماً، لم يذهب الشيخ، وبعث من حمل الباشا على زيارته فزاره في داره، وخلع عليه الشيخ فروة ثمينة لا تقدر بمال، وقدم له حصاناً سابقاً على سرج مذْهب، وعباءة ثمنها ألف دينار، وكان قد أعدَّ ذلك قبل هذه الزيارة، فكان ذلك سبباً في علوّ مكانته عنده حتى صارت شفاعته لديه لا ترد، وإن أرسل إليه كتاباً أو ورقة قبَّلها قبل أن يقرأها وأمر بإنفاذ ما فيها[2]، وأرسل مرة إلى أحمد بك الجزار كتاباً ذكر له فيه أنَّه المهدي المنتظر، وسيكون له شأن عظيم، فوقع عنده موقع الصدق لميل النفوس إلى الأماني، ووضع ذلك الكتاب في عنقه مع الحجب والإحراز والتمائم! وكان يسرُّ ذلك إلى بعض من يقدم عليه ممن يدَّعي المعرفة بالجفر والزايرجه وهاتيك الحماقات التي كانت رائجة في تلك الأيام، ومن قدم عليه من جهة مصر سأله عن الشيخ الزبيدي، فإن خبره أنَّه قد عرفه واجتمع به وأثنى عليه تقبله قبولاً حسناً، وأجزل صلته، وإن لم يكن يعرفه أو لم يمدحه ردَّه وجفاه مهما كانت منزلته[3].

---

(١) ويراه العقل والشرع من الحيل التي لا تليق بالعالم.

(٢) فكانت تلك الهدية من الشيخ رشوة ظاهرة.

(٣) ويمثل عقلية هذا الباشا (انتصرت...) الدولة العثمانية!.

ولما شرع بشرح الإحياء للغزالي، بيض منه أجزاء وأرسلها إلى الروم والشام والمغرب ليشتهر كما اشتهر شرح القاموس.

* * *

ووقع له حادث، قلب حياته قلباً، وحوّله من هذه الحياة الاجتماعية التي كان مضرب المثل فيها، إلى عزلة وانطواء على نفسه، ذلك هو وفاة زوجته التي أحبها الحب العظيم، وأعطاها قلبه كله، وقد روّعه موتها، وأنساه وهو العالم الجليل، ما قد رواه وحدّث من كراهية تجصيص القبور، وإقامة القباب عليها، فدفنها عند القبر المنسوب للسيدة رقية في ظاهر القاهرة، وعمل لها مقاماً عليه قبّة، ومقصورة أقام عليها الستور والقناديل، ولازم قبرها مدّة حتى كاد يجنّ، وبنى بيتاً بجنب القبر أسكن فيه أمها[1]، وأخرج الأموال الطائلة فجعلها جوائز كباراً، يمنحها لمن يرثيها أو ينظم فيها.

وأغلق عليه بابه، واحتجب على الناس، وأبى أن يدخل عليه أحداً أو أن يقرأ درساً. وردّ الهدايا التي كانت تجيئه، ومنها هدية أيوب بك الدفتردار، وهدية عظيمة بالغة القيمة من سلطان المغرب.

وقال فيها روائع الشعر، وأذا ألهم الله طالباً من طلاب الأدب فجعل موضوع أطروحة يقدمها إلى جامعته رثاء الشعراء زوجاتهم، فعدَّ من المتقدمين جريراً، ومن المتأخرين أباظة وصدقي، فلا ينسى الزبيدي شارح القاموس.

ومن قوله فيها القصيدة البائية البارعة ومطلعها:

أعاذل من يُرزأ كرزئي لم يزل كئيباً ويزهد بعده في العواقب

وقوله في قصيدة أخرى:

ما خلفت من بعدها في أهلها غير البكا والحزن والأيتام

---

(١) وذلك كله ممنوع شرعاً.

وقوله في غيرها:

مضت فمضت عني بها كل لذة تقر بها عيناي فانقطعا معا

وقوله:

زبيدة شدت للرحيل مطيها غداة الثلاثا، في غلائلها الخضر
تميس كما ماست عروس بدلّها وتخطر تيهاً في البرانس والأزر
سأبكي عليها ما حييت وإن أمت ستبكي عظامي والأضالع في القبر
ولست بها مستبقياً فَيْض عبرة ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

ولمّا جاء الطاعون سنة ١٢٥٠ وكان خارجاً من صلاة الجمعة، طعن فحمل إلى داره.

وذكر المصنف الذي نقل عنه الشيخ عبد الرزاق البيطار[1] في تاريخه المخطوط:

إنّه زاره فرأى أهل زوجته قد فتحوا صناديقه وخزائنه وفيها ما كان يهدى إليه، من الغرائب العجيبة، والتحف الثمينة، فتناهبوها وهربوها، من نفائس القماش، وأنواع الشال الكشميري، والفراء والعباءات والطرائف النادرة، ومما رآه كومة من ساعات الجيب الغالية لا تزال بأغلفة بلادها ما أخرجت ولا استعملت.

وفتح الشيخ عينيه فرأى ذلك فأشار مستفهماً، أن ما هذا؟ ثمّ أغمضها وقبضه الله إليه، فمات.

مضى، ولكنه خلّف أكثر من خمسين مصنفاً، حسبه أن يكون منها شرح إحياء علوم الدين، وأن يكون منها تاج العروس في شرح القاموس.

---

(١) العالم المتفنن، جد الأستاذ الجليل الشيخ بهجة البيطار، وتلميذ جدنا الذي قدم مصر سنة ١٢٥٠ الشيخ محمد الطندآني أي الطنطاوي، وعنه نقلت أكثر أخبار الزبيدي، وقد طبع هذا الكتاب الآن.

مُوسَى بْنُ نُصَيْر[1]

هذي صفحة من تاريخ الفتح، الذي كان أعجوبة التاريخ في سرعته ومضائه، كما كان أعجوبة التاريخ في استمراره وبقائه، وفي طهر أسلوبه ونقائه، وفي سمو مقصده وعلائه. رأى التاريخ فتوحاً لا تعد من كثرتها ولا تحصى، فما رأى فتحاً أسرع منه ولا أنفع. لم يكن فيه شعب غالب وشعب مغلوب. بل كان فيه أتقياء بررة، وفساق فجرة، وملحدون كفرة، فكان أكرم الناس أتقاهم، سواء فيه أكان في الأصل من الغالبين أو المغلوبين. لأن الإسلام لا ينظر إلى الأنساب، بل إلى الأعمال. ولا يميز الناس بآبائهم بل بأنفسهم. وليست العظمة فيه بعلو الجاه وكثرة المال، بل بصدق الإيمان وحسن الفعال.

ولئن هدى الله مصر بعمرو، فكان إسلامها حسنة من حسناته. فالمغرب حسنة من حسنات عقبة بن نافع أولاً، وحسان بن النعمان ثانياً، وموسى بن نصير أخيراً. ولولا موسى ما استقر فيها الفتح، ولا خلصت للإسلام. ولولا موسى ما كان لنا في الأندلس هذا الفردوس الذي فقدناه.

وموسى بطل مظلوم، ظلم في حياته، فكانت مكافأته شر مكافأة على أحسن عمل. حمل وزرها سليمان بن عبد الملك إذ أساء إلى كل من أدركه من الفاتحين الذين أحسنوا للعروبة والإسلام، ولم يكن له من أعمال الخير إلا أنه سمع رأي روح بن زنباع فجعل ولي عهده الخليفة الصالح المصلح عمر بن عبد العزيز.

وظلم بعد موته. فخلَّد اسمَ طارق، هذا الجبل، والجبل الآخر الذي أقامه في التاريخ من المكرمات، وكاد ينسى اسم (جبل موسى). وهو الذي بعث طارقاً، وهو الذي مكن له، وهو الذي أرسى أساس ذلك الصرح الذي شاد طارق شرفة من عالي شرفاته...

على أني لا أظلم طارقاً، وسيأتي عنه من الحديث ما فيه النصفة والحق إن شاء الله.

* * *

هذه سيرة موسى بن نصير، أعرضها عرض القصة المتسلسلة، لا أقف فيها لأعلل وأدلل، وأقابل وأفاضل، بل أدع الحوادث تنطق بلسان حالها، لتكون قصة لمن أرادها قصة يتسلى بها، وتاريخاً لمن شاء العبرة من التاريخ.

ولم يكن موسى قائداً عسكرياً فقط، بل كان (كما ترون بعد) حاكماً إدارياً، وكان خطيباً بليغاً، وكان ديناً مراقباً ربه، عاملاً لآخرته. وكان نموذجاً كاملاً، لطلبة الدورة الثانية في مدرسة محمد ﷺ، وهم التابعون، أما طلبة الدورة الأولى فهم خلاصة البشر، ولباب اللباب «صحابة رسول الله».

وكان والده نصير (مولى عبد العزيز بن مروان) من حرس معاوية، فلما أعلن معاوية ثورته على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقام بهذا الانقلاب العسكري الذي نجح (مع الأسف)، قعد عن نصرته، فقال له معاوية:

ـ ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها؟

ـ فقال:

ـ لم أستطع أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري.

ـ قال: ومن هو ويحك؟ (فوازن في نفسه بين حق معاوية عليه في وجوب نصرته، وحق الله عليه في وجوب القعود عنها، ورأى أن الله يعصمه

إن أطاعه من معاوية، وغير معاوية، ومعاوية لا يعصمه من الله).
ـ قال: الله.
ـ فأطرق معاوية ملياً، ثم قال له:
ـ لقد قلت حقاً. وأنا أستغفر الله.

ولو كان معاوية ملكاً كمن يعرف التاريخ من الملوك لغضب عليه، ولكنه كان صاحب محمد ﷺ، كان من كتاب الوحي الذي أنزله الله عليه. فلما رأى الحق رجع إليه.

ولزم موسى عبد العزيز بن مروان وكان أمير مصر، وكان خير بني مروان، لا يفضله فيهم إلا ابنه عمر العظيم. فكان موسى مع المجاهدين لنشر الإسلام في افريقية، سلك معهم الصحراء، وركب معهم البحر، وقاد حملات وسفناً إلى أن ولي الخلافة عبد الملك، فأراد أن يشرف أخاه الأصغر بشراً بولاية العراق، ولكنه كان يعرف ضعفه عنها، وكان يعلم أن من ولّى رجلاً ولاية وفي المسلمين من هو أقدر عليها، فقد خان الله ورسوله والمسلمين. فكتب إلى أخيه عبد العزيز أن يبعث بشراً (وكان معه في مصر) أميراً على العراق، وأن يبعث معه بموسى. وأن يفهمه أنه هو الأمير الحقيقي، وما لذاك إلا الاسم، وأنه مسؤول عن كل خلل أو تقصير، فاستلم بشر إمارة العراق ظاهراً، وكان موسى الأمير حقاً. فأدار الأمور خير إدارة، وساس الناس أعدل سياسة، وبقي على ذلك حتى مات بشر، وولي الرجل الحازم الصارم الظالم الحجاج. وكان يكرهه ويتهمه بتهم هو بريء منها، فاستأذن عبد الملك في عقوبته، وكان في دمشق صديق لموسى هو خالد بن أَبَان فكتب إليه:

«إنك معزول، وقد وجه إليك الحجاج بن يوسف، وقد أمر فيك باغلظ أمر فالنجاة النجاة، فإما أن تلحق بالفرس فتأمن، وإما أن تلحق بعبد العزيز مستجيراً به. ولا تمكن ملعون ثقيف من نفسك فيحكم فيك».

فلما أتاه الكتاب ركب فلحق بعبد العزيز بن مروان وكان في الشام قد وفد يحمل أموال مصر إلى أمير المؤمنين.

وغضب الحجاج لما رآه أفلت منه. وكتب إلى عبد الملك: «يا أمير المؤمنين، إن موسى بن نصير قد اقتطع من أموال العراق، ما لا يقدر. وفر فابعث به إليّ».

ولكن عبد العزيز أدخله على أخيه الخليفة، وعمل حتى رضّاه عنه، ثم سيّره معه إلى مصر. وبقي في مصر، حتى خلا مكان القائد العام لجيوش العرب بموت حسان أو بعزله (وفي ذلك روايتان). فولي موسى القيادة العامة.

وكانت راية الإسلام قد رفرفت من قبل على افريقية كلها، على يد عقبة بن نافع أولاً. الذي اخترق بجيشه الشمال الافريقي كله، ماضياً وسط القبائل البربرية كالسهم. ثم على يد حسان بن النعمان. ولكنها كانت حركة عسكرية. لم يكن بعدها استقرار. ولم تطهر البلاد من قوى الأعداء.

فلما تسلم موسى، رأى الجيوش الإسلامية التي بلغت البحر قد عادت إلى القيروان، التي بناها عقبة بناءً مؤقتاً، لتكون مركزاً ثابتاً للقيادة، قد أصابها الجزر بعد ذلك المد، فاضطرت إلى الانسحاب والتوقف بعد ذلك الهجوم[1].

والقيروان نفسها لم تكن إلا مجموعة من الأكواخ والخصاص، حتى أن المسجد لم يكن أكثر من جدران من الطين قد سقفت ببعض الخشب، وكانت الجبال المحيطة بها كلها بيد البربر. وكانوا يهددون المدينة دائماً، فكان أهلها يصبحون على ترقب، ويمسون على حذر.

---

(١) كما وقع لرومل أقدر قائد معاصر في أقوى جيش حديث بعد ذلك بثلاثة عشر قرناً، ولكن رومل فشل نهائياً، وفشل خصومه وإن ظفروا في المعركة. وعادت البلاد إلى أهلها. وما أهلها إلا أولئك الفاتحين الأولين.

ولم يجد الفاتحون المسلمون في كل من قابلوا من الأمم من هو أقوى ساعداً، وأجرأ قلباً، وأكثر بالحرب تمرساً من الترك في الشرق، والبربر في الغرب. فرمى الله أولئك بقتيبة وهؤلاء بعقبة ثم بموسى.

ولما وصل موسى إلى مقرّ القيادة في ذات الجماجم. جمع القواد والضباط، وخطبهم خطبة عرفهم فيها بنفسه وبخطته، وأعلن فيها أسلوبه في الحكم. فكان الأسلوب العمري: شدة في غير عنف. ولينا في غير ضعف، وتواضعاً في غير مذلة. لا استئثار فيه ولا استبداد، وليس فيه حمل على باطل. فكان مما قال:

«وإنما أنا رجل كأحدكم. فمن رأى مني حسنة فليحمد الله وليحضّ على مثلها. ومن رأى مني سيئة فلينكرها فإني أخطىء كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون. ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان إن شاء الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ثم نقل القيادة إلى المركز الأمامي، إلى القيروان. وهناك خطب خطبة ثانية أعلن فيها طريقته في القيادة العسكرية، كما أعلن في الأولى طريقته في الإدارة المدنية، فقال:

«ليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر، وسمت به همته ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم من غير أن يكلم أو يكلم. متوكلاً في حزمه، جازماً في عزمه، مستزيداً في علمه، مستشيراً لأهل الرأي في إحكام رأيه. إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً، وإن نكب أظهر جلادة وصبراً. راجياً من الله حسن العاقبة. وإن من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة، وايم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها، أو يحكم الله فيها وهو خير الحاكمين».

وفي هذه الخطبة الموجزة المعجزة، أصدق صورة للقائد الكامل، ولقد أمضى كل ما قاله فيها، فجرد حملة من خمسمئة فارس. وصلت إلى زعوان وعادت بشيء من الأسرى والغنائم.

ووجه حملة أخرى بقيادة ابنه عبد الرحمن، وثالثة بقيادة ابنه مروان، فطهر بذلك منطقة القيروان كلها من الأعداء. وأمن على مركز القيادة. وأحصيت الغنائم فبلغ الخمس ستين ألفاً. أعده ليبعث به إلى عبد العزيز، وكتب إليه في ذلك كتاباً، أخطأ الكاتب فيه فذكر أن الخمس كان ثلاثين ألفاً.

فلما وصل الكتاب إلى عبد العزيز، أكبر الرقم ولم يصدقه وكتب يقول له: «هل هذا صحيح أو هو خطأ من الكاتب».

فأجابه أنه خطأ كما قدر الأمير، ولكنه خطأ نقص لا زيادة، والرقم الحقيقي هو ستون ألفاً.

* * *

ووجه همته إلى الفتح.

وكان أدنى القبائل إليه هواره وزناته وكتامه، تسرح في موضع حكومة الجزائر اليوم. وهي قبائل بربرية مقاتلة لا تحصى كثرة وعدداً، وكان في المغرب الأقصى قبائل صنهاجة القوية الشديدة، وكانوا جميعاً محاربين صحراويين، ولكن العرب كانوا كذلك صحراويين محاربين. وكانوا مسلحين بالإيمان الذي يجعلهم يطلبون الموت في سبيل الله، كما يطلب غيرهم الحياة، فلم يكن يخيفهم شيء، وهل أخوف من الموت، فبماذا تخيف من يطلب الموت؟.

وجرد الحملات أولاً على القبائل القريبة منه، وكانت قد جربت قتال العرب المسلمين وعرفت ما هم في الحروب. فدافعت دفاعاً قوياً، وكانت مواقع مهولة كان فيها الظفر للمسلمين فاستسلمت تلك القبائل.

فصالحهم موسى وأخذ منهم رهائن لئلا يغدروا على عادة تلك القبائل. فأحس منهم الغدر، فهم بالبطش بالرهائن فقالوا له:

لا تعجل أيها الأمير حتى يتبين لك الأمر، فإن آباءنا وقومنا لن يعودوا إلى الخلاف، ونحن في يدك، فإن وجدتهم غدروا فأنت على ما تريد أقدر منك على استحيائنا بعد القتل. فأمهلهم وخرج إلى كتامة فوجد وجوهها ورؤساءها قد تلقوه مسالمين معتذرين. فقبل منهم واستحيا رهائنهم.

* * *

وتوجه بعد ذلك إلى قبائل صنهاجة. بقوى ضخمة من أهل الديوان (أي الجند النظامي) والمتطوعة من العرب وممن أسلم من البربر، فوجد النهر في طريقه في فيضانه وزيادته، فأحدث فيه مخاضة غير التي كان أحدثها عقبة ومضى قدماً، فوجدهم مستعدين للحرب، وكانت المعركة في دارة واسعة بين جبال منيعة اختاروها، لا يوصل إليها إلا من مضايق قليلة بين الصخور، ودارت المعركة يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت إلى العصر. وكانت من أعنف المعارك.

وخرج خلالها فارس من فرسان البربر. فدعا إلى المبارزة فلم يجبه أحد، لما رأوا من شكله وهوله. فأمر موسى ابنه مروان فخرج إليه. فلما رآه البربري شاباً حدثاً ضحك منه وقال له:

ارجع فلست أريد أن أعدم منك إياك.

فحمل عليه مروان، حتى ألجأه إلى طرف الجبل، فكر البربري ورماه بالمزراق، وهو كالرمح القصير فتلقاه مروان من الهواء بيده، ولحقه فرماه به، فخرق جنبه وسقط.

وكان الظفر للمسلمين، وبسطوا سلطان الإسلام على الشمال الإفريقي، ولم يبق إلا منطقة طنجة والريف، وبعث بالأخماس إلى الخليفة.

* * *

وهاكم خبراً يدلكم على جانب من نبل هذا الرجل وتقاه.

لما قدم كتاب موسى على عبد الملك بن مروان بالفتح، أمر له بمئة ألف عطية له يأخذها من الأخماس، وله أن يأخذها شرعاً لأن السنة إن من جاءه شيء من هذا المال بغير طلب منه له، ولا استشراف نفس. كان له أن يأخذه ثم يتموله أو يتصدق به. فإن أخذه لنفسه انتفع به في دنياه والدنيا فانية، وإن تصدق به قدمه بين يديه ابتغاء منفعة في الآخرة الباقية، فآثر موسى الآخرة على الدنيا، وجمع الجند فأشهدهم أنه جعله كله معونـة للمسلمين، وفي الرقاب[1].

وكان إذا أفاء الله عليه شيئاً، نظر في الأسرى ومحص عقولهم، وجرب فطنتهم، فمن وجده ذا عقل وفطنة، عرض عليه الإسلام، فإن أسلم أعتقه وتولاه، وتعهده حتى ينجب، فنشأ بذلك طبقة من البربر كان منها القواد ومنها العلماء. ولعل طارقاً فاتح الأندلس كان من هؤلاء، لأن أصح الأقوال في أصله أنه كان من مسلمة البربر.

كان عقبة قد وصل إلى البحر الأعظم (الأطلسي) فخاضه بفرسه، وقال: «اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك».

ولولا أن البحر منعه لمضى.

أما موسى فلم يمنعه البحر أن يمضي، ولم يخضه بفرس ولا ناقة. بل دخل البيوت من أبوابها، ونال الأمور بأسبابها، فركب ظهر البحر بسفينة وأسطول، وكان موسى كما قدمنا قد شارك قبل إمارته في الجهاد المقدس في البر وفي البحر.

فلما أخضع الآن البر كله، وأتم ما كان ابتدأ به عقبة. ولى وجهه شطر البحر، فأنشأ داراً للصناعة، وهي بركة عظيمة جداً حفرها في موضع أمين

---

(١) أي لتحرير العبيد.

قريب من موضع تونس اليوم، وحفر قناة أجرى فيها الماء من البحر إلى هذه البركة. وأمر بصناعة مئة مركب. . .

وقدم عطاء بن أبي نافع الهذلي في أسطول مصر. وكان قد بعثه عبد العزيز إلى جزيرة سردانية، فأرسىٰ بسوسة، فأمر له موسى بما يحتاج إليه، وكتب إليه أن ركوب البحر قد مضى في هذا العام وقته، وقد جاء تشرين الآخر فلا تغرر بنفسك وبالمسلمين. فلم يلق عطاء بالاً لكتاب موسى ولم يبال به، وشحن مراكبه وأبحر. فافتتح جزيرة صغيرة وأصاب مغنماً وربحاً، وعاد فأصابته الرياح العاصفة وهاج عليه البحر، فغرق عطاء وغرق من كان معه، ووقع من نجا منهم إلى سواحل افريقية، فلما بلغ ذلك موسى، بعث فرقة من الجيش للتفتيش عنهم وإنقاذهم، وأمر بحطام تلك المراكب فأدخلت دار الصناعة وجددت، فلما تم الأسطول، احتفل بإنزال سفنه إلى البحر احتفالاً ضخماً حضره وجوه الناس وأشرافهم. فأعلن أنه راكب بنفسه فرغب الناس في الركوب وأسرعوا، فلما اكتمل جمعهم في السفن، عقد لواء القيادة لولده عبد الله، وولاه عليهم وأمره بالإقلاع من ساعته، فوصل إلى صقلية وفتح مدينة فيها، ورجع بالنصر المؤزر، والغنائم الوافرة. وتعاقبت الغزوات في البحر إلى سردانية وصقلية. وافتتحت الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة وغيرهما).

* * *

ثم وجه ابنه مروان ففتح السوس الأقصى ومدينتها طنجة، ولم يبق بقعة في افريقية خارجة عن حكم الإسلام إلا سبتة، فكانت من أملاك اسبانيا.

وكان موسى عازماً على افتتاحها بل كان يطمح إلى افتتاح اسبانيا ذاتها. ولكن أحب أن يمهد لذلك بمعارك فرعية. خوفاً من المغامرة بجمهور الجيش الإسلامي، وعملاً بتوجيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وأعد حملة بحرية بقيادة طريف بن مالك البربري، فوصلت إلى الجزيرة التي سميت جزيرة طريف، وعادت سالمة غانمة.

فجهز حملة كبيرة، من سبعة آلاف أكثرهم من البربر. وكان البربر قد أسلموا وحسن إسلامهم. والبربر أمة صحراوية، سليمة القلوب، متينة الأخلاق، حاربت الإسلام أولاً كما حاربه العرب. ثم قبلته كما قبلوه. فكان منها جند موسى وأعوانه في هذا الجهاد. فنجحت ذلك النجاح العجيب، وفتح مدناً عظاماً، وكاد يكتسح الأندلس كلها[1] لولا أن موسى، أمره بالتوقف حتى يلحق به، وكان موسى (وهو القائد العام) لم يرد من بعث طارق فتح البلاد بل إثارة معارك محلية للاختبار ودراسة حال العدو، وحدد له أمداً لا يجاوزه، والحياة العسكرية تقوم على الطاعة فلما جاوز المدى، وأوغل بجيشه الصغير حتى صار معرضاً للتطويق، كان مستحقاً للعقوبة على ما أتى من المخالفة، وإن كان مستأهلاً للشكر على ما أصاب من النجاح. ولو كان طارق قائداً من قواد اليوم وفعل ذلك لحوكم أمام المجلس العسكري فإما أن يعاقبه وإما أن يخفف الحكم عليه أو يبرئه. وهذا ما صنعه موسى بطارق كما تعلمون بعد قليل.

دخل موسى الأندلس بجيش كبير. فيه ثمانية عشر ألفاً نصفهم من البربر، يحمي به جيش طارق، ويشد إزره، وكان شيخاً كبيراً قد جاوزت سنه السبعين، ولكنه كان كالأسد الكاسر، فعبر اسبانيا ودوخها، لم يقف أمامه عدو، ولم يثبت أمامه خصم، ولم يستعص عليه حصن.

ترك الجبل الذي دخل منه طارق، ودخل من الموضع الذي كان معروفاً إلى أيام المقري مؤلف نفح الطيب (إلى ما قبل ثلاثمئة سنة فقط) بجبل موسى، كما عرف مدخل طارق بجبل طارق، ولا يزال يعرف بذلك إلى الآن، في الدنيا كلها.

ثم سلك غربي الطريق الذي سلكه طارق، فأتى أولاً على شذونة فافتتحها عنوة، ثم سار إلى مدينة قرمونة (كارامونا) ولم يكن في الأندلس

---

(١) ستقرأ خبر ذلك مفصلاً إن شاء الله.

(كما في نفح الطيب) أحصن منها، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال. فدخلها. ثم مضى إلى اشبيلية، وكانت أعظم المدن شأناً، وأعجبها بنياناً، وأكثرها آثاراً. وكانت دار الملك قبل القوط. فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس، حولوا السلطان إلى طليطلة وبقي رؤساء الدين في اشبيلية. فامتنعت على موسى مدة ثم فتحها الله عليه، واعتصم فلول جيش الاسبان في قلعة لقنت (آليكانت) ففتح الحصن وتوجه إلى مدينة ماردة (ميريدا) وكانت عاصمة مملكة قديمة ذات عز ومنعة وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر، فحاصرها ودافع أهلها دفاعاً شديداً. فعمل موسى دبابة[1]، دب المسلمون تحتها من برج إلى برج يهدمونه بمعاولهم، فصالحه أهلها وفتحت. وانتفضت اشبيلة وثار أهلها فبعث إليهم ابنه عبد العزيز فأعاد فتحها ثم توجه موسى إلى طليطلة.

ولما لقي طارقاً، ووقعت عليه عينه ترجل طارق، فوبخه موسى على مخالفته أوامر القيادة العليا، وهم بعقوبته وطالبه بأداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك، واستعجله بالمائدة فأتاه بها بعدما خلع رجلاً من أرجلها وخبأها عنده.

ولهذه المائدة أخبار كثيرة، وأوصاف فيها مبالغات. وكانت تسمى مائدة سليمان النبي عليه الصلاة والسلام. وما لسليمان علم بها. وحقيقة أمرها أن أتقياء النصارى في إسبانيا كانوا يوصون بالأموال الجزيلة للكنائس، فإذا اجتمع ذلك المال صاغوا منه الموائد والكراسي من الذهب والفضة وحلوها بكريم الحجارة، وحمل عليها القساوسة الأناجيل في حفلاتهم وأعيادهم.

وكانت تلك المائدة في طليطلة مما صيغ في هذا السبيل، وبالغوا في تفخيمهما، يزيد فيها كل ملك على ما صنع سلفه، حتى بلغت مبلغاً لم

---

(١) عربة مغطاة بالخشب والجلود، يهجمون بها على الأسوار، ومنها ما له رأس من حديد ثقيل لنقب السور يسمى الكبش.

تصل إليه تحفة من التحف. ولم يكن يبلغ حقيقة قدرها ثمن من الأثمان.

* * *

ثم عفا موسى عن طارق، وغفر له مخالفته في جنب ما جاء على يديه من عظيم الفتوح، وأقره على مقدمته. وسيره لفتح شرق الجزيرة، وسار هو غرباً، وكانا قد انتهيا من فتح مقاطعة الأندلس، ومقاطعة قشتالة، وتوجه موسى إلى الأراغون، فاجتمعا أمام أسوار سرقسطة، فافتتحت بقيادة موسى، ثم شرق طارق فافتتح بلنسية (فالانس) وبرشلونة (بارسلونا) وهي العاصمة الثانية للبلاد، ثم اخترق موسى جبال البرنس (البرنة) وفتح جنوبي فرنسا. ووجه طارقاً إلى جليقية، وهي الزاوية الشمالية الغربية من اسبانيا ولم يكن قد بقي للعدو غيرها، وأعلن موسى خطته الجريئة العظيمة، وهي اختراق أوربة من الغرب إلى الشرق، وافتتاحها كلها، وكان ذلك ممكناً عسكرياً، وكان موسى أهلاً له بمساعدة طارق وغيره من قواده، وكان قادراً بعون الله عليه، وكان في ذلك (لو تم) تغيير تاريخ العالم، وكانت السيادة اليوم في الأرض للمسلمين، وكانوا هم أرباب العلم والقلم، والسيف والعلَم، ولنجت الدنيا من شرور الغرب والشرق، من القنبلة الذرية التي تهلك الحرث والنسل، وتخرب المدن والقرى، ومن القنبلة (الأخرى) التي تذهب الدين والخلق والحرية والإنسانية وهي الشيوعية، ولكن الله لم يُرِدْ هذا، ولا رادَّ لإرادته، فأقام دونه حاجزاً من أمرِ الخليفة في دمشق باستدعاء موسى إليه، وأنتم تعرفون بقية المأساة التي انتهت بها سيرته.

الصَّقْـرُ الأُمَـوِيّ

هل قرأتم قصص المغامرات الكبرى، أو رأيتم أفلامها؟ تصوروا أغرب قصة ابتكرها خيال أديب لتروا، أن أعجب قصص الخيال لا تبلغ حقيقة هذه القصة التاريخية الواقعة التي جئت أحدثكم الليلة عنها.

قصة رجل رمته الحياة بأدهى الدواهي، ونزلت به إلى الحضيض الذي يدعو أشد الناس أعصاباً إلى الجنون أو الانتحار، فقفز قفزة واحدة من حضيض الإخفاق إلى ذروة الفلاح والنجاح.

* * *

وكانت دمشق في عهد مظلم من عهودها السود، يحكمها حكام صغار النفوس، كبار المطامع والأهواء، جبنوا عن المكارم والفتوح، وجرؤوا على المعاصي والفسوق، جمعوا بين الطغيان على الناس والعبودية للشيطان، همهم حفلات اللهو ومجالس الطرب، يبذرون الأموال على الشعراء للدعاية، وعلى المغنين للّذة، وعلى النساء والخمور، ناموا على ملذاتهم وسهر أعداؤهم، وسكروا بنشوة السلطان، وخمرة الهوى، وصحا خصومهم، واضطجعوا على فراش الملذات، وقام مناوئوهم يستعدون ليوم النزال...

غفلوا عن ساهر حول الحمى باسط من سعدي مفترسي
حام حول الملك ثم اقتحما ومشى في الدم مشي الضّرس[1]

أولئك هم بعض ولاة بني أمية في أواخر العهد بأمية، نسي الأحفاد

(1) من موشحة شوقي.

منهم سيرة الأجداد، ونزعت أمية ثوب الجهاد، وطوت أمية راية الفتوح، واستكانت أمية إلى اللهو والدعة. واختفت من أفق الدولة تلك الكواكب النيِّرة، وغابت من سجلاتها تلك الأسماء الكبيرة، فلم يعد فيهم مثل معاوية ولا عبدالملك ولا الوليد ولا عمر بن عبد العزيز، ولم يعد في ولاتها مثل زياد والحجاج، ولا في قوادها قتيبة وابن القاسم، والمهلب وطارق. واعتلى سرير الخلافة خلفاء صغار ضعاف.

ظلمت أمية وفجرت، والظلم والفجور توأمان، ما كان الحاكم قوياً قديراً إلا كان عادلاً، ولا كان عاجزاً قاصراً إلا كان ظالماً يستر ضعفه عن الفضيلة بظلم الرعية.

وذاقت أمية عاقبة ظلمها:

أعد الحطب في الخفاء، وهيىء البارود، ولم يبق على انبعاث النار إلا أن تقدح الشرارة الأولى. وطارت الشرارة من أقصى الأرض، من خراسان[1]، واندلعت النار، ولم يعد ينفع نذير الوالي البصير نصر بن سيار.

وفتشت أمية عن الرجل الذي يعيد سيرة أخلافها الأولى، معاوية وعبد الملك ووجدته وكان مروان. . وكان مروان كاسمه صخراً صلداً، وكان رجلاً حقاً، ولكنه جاء مع الأسف والدنيا مولية، والنهار آفل، والنار قد اندلعت وامتدت حتى وصلت ما بين المشرقين وضاعت أمية إلى الأبد.

وضاع العرب وما أضاعهم إلا الانقسام، والعصبية الجاهلية ما بين قيسية ويمانية، وتلكم مصيبة العرب أبداً، ولو كان العرب متحدين، ولو كانوا صفاً واحداً ما حكمهم أمس عبيد المعتصم من الأتراك ولا مماليك المماليك من كل أمة، ولا غلبهم اليوم على فلسطين كلاب البشر وجراثيم الإنسانية اليهود. .

وحكم الفرس دولة الإسلام باسم بني العباس.

---

(١) خراسان هي الجزء الجنوبي من أفغانستان.

فخلت من أمية القصور، وامتلأت بأمية القبور، وجفتهم أعواد المنابر، وعانقت أجسادهم الجذوع، وتتبعت الدولة الجديدة بني أمية قتلاً وحرقاً وإهلاكاً، ولم يفلت منهم إلا شاب واحد، هو البطل الذي أحدثكم عنه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وأخوه الطفل الصغير، ابن ثماني سنين، وخادمه بدر.

هؤلاء بقية الأسرة التي حكمت ثلث المعمور من سطح هذه الأرض، ورفعت راية الإسلام على أقطار لم تكن تدري ما الإسلام. كان الإسلام ممتداً من آخر حدود فارس إلى آخر حدود مصر، فوصلته من هنا إلى الهند وتخوم الصين، ومن هناك إلى وسط فرنسا، ووصلت جيوشها إلى أسوار القسطنطينية وإلى جبال الحبشة.

هؤلاء الثلاثة هم بقية الشُمّ الأماجيد من عبد شمس، فإن يذهبوا لا يبق في الأرض أثر من عبد شمس، وكانت الدنيا كلها عليهم، الدولة والجيش والناس، كان الناس لِما ذاقوا من أواخر خلفاء أمية حرباً على الأمويين جميعاً. تألبت الدنيا كلها على أمية، ونسيت فتوح أمية، ولكن أمية هي التي زرعت الظلم فحصدت الهلاك، والناس ينسون فضل الأسلاف إن عم ظلم الأخلاف، والناس يغفرون كل شيء إلا أن يتخم الحاكم بجوع الشعب، ويشتري لذاته بألم الشعب، ويحرم الشعب ليعطي مغنية أو شاعراً، ثم إن الناس مع كل قائم، فإلى أين يفر، وماذا يصنع؟ أين يذهب والبلدان كلها قد خضعت للسفاح من بني العباس، وأين يختفي والناس كلهم يدلون عليه إن عرفوه. وليس معه معين إلا غلامه بدر. ولا مال إلا جوهرة وصلت إلى ابن أخته، لو أخرجها ليبيعها لعرفوه بها فقتلوه.

إنه موقف مقطوع فيه الأمل، ولكن عبد الرحمن لم ييأس. كانت لعبد الرحمن أعصاب قدت من الفولاذ، وبصر كأنه ينظر من وراء الغيب، وعقل لا تدنو إلى إدراك تفكيره العقول، رمى ببصره إلى البلدان، فوجدها كلها مغلقة دونه، وعرضها بذهنه حتى ألمّ بها كلها، فلم يجد إلا الأندلس، ولكنه كان في

العراق، وأين أنت يا أندلس من العراق؟.

ولم ييأس ومشى إلى الأندلس، ودون الأندلس صحارى وجبال ومهالك، ودون الأندلس سدس محيط الأرض.

واعترضه الفرات فألقى بنفسه يسبح في الفرات ومعه أخوه، وكلت قوى الطفل ونادوه بالأمان، فاغتر ورجع، ولم يسمع نصح أخيه، فذبحوه أمامه وهو يبصر ويرى، ولم يبق معه إلا غلامه بدر.

وانطلق يمشي، يمشي في الليل ويختبىء في النهار، من قرية إلى قرية، ومن ركن إلى ركن والطريق لا ينتهي، وأي طريق، طريق الأندلس يا أيها الناس.. تصوروا أن عليكم أن تمشوا من دمشق إلى بيروت بلا زاد ولا راحلة..! أتصورتموها؟ فكيف بعبد الرحمن وعليه أن يمشي من أطراف العراق إلى الشام، ومن الشام إلى مصر، ومن مصر إلى طرابلس، ومن طرابلس إلى تونس، ومن تونس إلى الجزائر، ومن الجزائر إلى أقصى المغرب ثم يعبر البحر وهو فقير ضعيف مطارد منفرد ما معه إلا غلامه بدر.

ويا ليت أن لديّ مذكرات له فيما رأى في طريقه وما شاهد، إذن لكانت أعجوبة العجائب في قصص المغامرات ولكنها لم تكتب.

ووصل الأندلس، وكانت الأندلس في معزل عن الدولة، لم تدرِ بما جد من أحداث وما كان من انقلاب، ولم يشغل العرب فيها أنهم مهددون من هنا بالإسبان، ومن هنا بالبربر ومن بعيد بالفرس، من أنصار العباسيين لم يشغلهم هذا كله عن شنشنتهم الأولى، عن الخلاف، عن العصبية بين القيسية واليمانية، هذا الخلاف الذي أفسد تاريخنا كله وبقي فينا، بقيت آثاره في لبنان إلى ما قبل قرن واحد إلى مذبحة (عين داره).

واستطاع هذا الطريد الشريد أن يرمي نفسه في المعمعة وأن يكون سياسياً كأبرع سياسي في الدنيا، فيفرض نفسه على الناس فرضاً، حتى انقادوا له، وكذلك ينقاد الناس للعبقرية وللبيان، وأن يكون قائداً كأبرع قائد

في التاريخ، يخوض المعارك، ويدير الحروب حتى صار سيد الأندلس.

إن سيرة عبد الرحمن الداخل، أروع سيرة في تواريخ الأمم للأمل الذي يذيب الصعاب كما تذيب الشمس جبلاً من الثلج، والهمة التي تضم المشرق إلى المغرب، والعبقرية التي تنشىء وتشيد من العدم وجوداً ضخماً. الرجل الطريد الذي استلم إرث أمية ملطخاً بالوحل، مغموساً بالدم، فجعله أسمى من النجم، وأبهى من سنا الشمس[1]. الرجل الذي أنشأ دولة عاشت قرنين ونصف، وأخرجت مثل الناصر والحكم وسجد على أعتابها ملوك الإفرنج والروم.

يا شباب العرب، إن في تاريخكم أروع أمثلة البطولة والسمو الإنساني، فلا تكتفوا بقراءة التاريخ، ولكن اعملوا على أن تكتبوه بأعمالكم، وأنا لم أحدثكم اليوم حديث عبد الرحمن الداخل، ولكن ذكرتكم به لترجعوا فتقرؤوا تاريخه.

---

(١) وقد صنع مثل ذلك عبد العزيز. حين جاء الرياض وهي في يد عدوّه وما معه إلا رجال لا يبلغون المئة، وتركها وهي عاصمة الجزيرة العربية التي وحّدها بعد الفرقة، وقواها بعد الضعف. وجعل منها دولة لها بين الدول مكان، وذكرها على كل لسان.

قَراقُوش المُفتَرى عَلَيه

حدثتكم من شهور حديثاً، صححت فيه خطأً شائعاً، وبرأت فيه متهماً مظلوماً، حين رددت باطل المتنبي، وبينت حق المؤرخين في كافور الملك العادل الذي صغره المتنبي وهو عظيم، وسيف الدولة الذي جعله المتنبي أعدل الملوك، وكان على براعته في الحرب من ظَلَمة الحكام.

ولقد جئت أحدثكم اليوم عن رجل راح ضحية الأدب المفتري، كما راح كافور بعده ضحية الشعر الظالم. هو قراقوش.

وقراقوش المسكين، الذي صار على ألسنة الناس، في كل زمان وكل بلد المثل المضروب لكل حاكم فاسد الحكم، فكلما أراد الناس أن يصفوا حكماً بالجور والفساد، قالوا: هذا حكم قراقوش.

وهم يحرفون اسمه، فوق تحريف تاريخه، فيقولون: قراقاش بدل قراقوش، وقراقوش معناها بالتركية ـ النسر الأسود ـ (قوش: نسر، قرا: أسود).

إن قراقوش يا أيها السامعون له صورتان: صورة تاريخية صادقة، وصورة روائية صوّرها عدو له من منافسيه.

والعجيب أن الصورة التاريخية الحقيقية طُمست ونُسيت، والصورة الخيالية الباطلة بقيت وخلدت، فلا يذكر قراقوش إلا ذكر الناس هـذه

الحكايات العجيبة، وهذه الأحكام الغريبة، التي نسبت إليه، وافتريت عليه.

فمن هو قراقوش؟.

هو أحد قواد بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي، كان من أخلص أعوانه ومن أقربهم إليه، وكان قائداً مظفراً، وكان جندياً أميناً، وكان مهندساً حربياً منقطع النظير.

وكان مثالاً كاملاً للرجل العسكري، إذا تلقى أمراً أطاع بلا معارضة ولا نظر ولا تأخير، وإن أمر أمراً لم يرض من جنوده بغير الطاعة الكاملة، بلا اعتراض ولا نظر ولا تأخير.

وكان أعجوبة في أمانته، لما أحسَّ الفاطميون بقرب زوال ملكهم، شرعوا يعبثون بنفائس القصر، ويحملون منها ما يخف حمله، ويغلو ثمنه، وكان القصر مدينة صغيرة، كدّس فيها الخلفاء الفاطميون[1] خلال قرون، من التحف والكنوز والنفائس، ما لا يحصيه العد، ولو أن عشرة لصوص أخذوا منه ما تخفي الثياب، لخرج كل منهم بغنى الدهر ولم يحسّ به أحد.

فوكل صلاح الدين قراقوش بحفظ القصر، فنظر فإذا أمامه من عقود الجواهر والحلي النادرة، والكؤوس والثريات، والبسط المنسوجة بخيوط الذهب، ما لا مثيل له في الدنيا، هذا فضلاً عن العرش الفاطمي، الذي كان فيه من أرطال الذهب، ومن نوادر اليواقيت والجواهر، ومن الصنعة العجيبة ما لا يقوّم بثمن[2].

وكان في القصر فوق ذلك من ألوان الجمال في المئات والمئات من الجواري المتحدرات من كل أمم الأرض، ما يفتن العابد.

فلا فتنه الجمال، ولا أغواه المال، ووفى الأمانة حقها، ولم يأخذ

(١) كذا يدعوهم الناس وليسوا على التحقيق من الفاطميين.

(٢) ومثله عرش الطاووس الذي تعتز به اليوم إيران وما هو لها، إنما هو لشاهجهان باني (تاج محلّ) أجمل بناء على هذه الأرض.

لنفسه شيئاً، ولا ترك أحداً يأخذ منها شيئاً.

وهو الذي أقام أعظم المنشآت الحربية، التي تمت في عهد صلاح الدين، وإذا ذهبتم إلى مصر، وزرتم القلعة المتربعة على المقطم، المطلة على المدينة، فاعلموا أن هذه القلعة، بل هذه المدينة العسكرية، أثر من آثار قراقوش.

وإذا رأيتم سور القاهرة، الذي بقي من آثاره إلى اليوم ما يدهش الناظر، فاعلموا أن الذي بنى السور، وأقام فيه الجامع، وحفر البئر العجيبة في القلعة هو قراقوش.

ولما وقع الخلاف بين ورثة صلاح الدين، وكادت تقع بينهم الحروب، ما كفهم ولا أصلح بينهم إلا قراقوش.

ولما مات العزيز الأيوبي، وأوصى بالملك لابنه المنصور، وكان صبياً في التاسعة من عمره، جعل الوصي عليه والمدبر لأمره قراقوش، فكان الحاكم العادل، والأمير الحازم، أصلح البلاد، وأرضى العباد.

هذا قراقوش، فمن أين جاءت تلك الوصمة التي وصم بها؟ ومن الذي شوّه هذه الصورة السوية؟.

إنها جريمة الأدب يا سادة.

لقد أساء المتنبي إلى كافور، فألبسه وجهاً غير وجهه الحقيقي، وأساء ابن مَمّاتي إلى قراقوش فألبسه وجهاً غير وجهه الحقيقي.

ولم يعرف الناس من الاثنين إلاّ هذا الوجه المعار كوجوه الورق التي يلبسها الصبيان أيام العيد.

وابن مَمّاتي هذا كاتب بارع، وأديب طويل اللسان، كان موظفاً في ديوان صلاح الدين، وكان الرؤساء يخشونه ويتحامونه، ويتملقونه بالود حيناً وبالعطاء أحياناً، ولكن قراقوش وهو الرجل العسكري الذي لا يعرف الملق

ولا المداراة لم يعبأ به، ولم يخش شرّه، ولم يدر أن سن القلم أقوى من سنان الرمح، وأن طعنة الرمح تجرح الجرح فيشفى، أو تقتل المجروح فيموت، أما طعنة القلم فتجرح جرحاً لا يشفى، ولا يريح من ألمه الموت.

فألف ابن مَمّاتي رسالة صغيرة، سماها «الفافوش في أحكام قراقوش» ووضع هذه الحكايات ونسبها إليه.

وصدقها الناس، ونسوا التاريخ.

ومات قراقوش الحقيقي، وعاش قراقوش الفافوش كما مات كافور التاريخ وعاش كافور المتنبي، وكما نسي عنترة الواقع وعرف عنتر القصة.

وهذا يا سادة سلطان الأدب، فيا أيها الأدباء، اتقوا الله في هذا السلطان، ويا أيها الناس لا تخدعوا بتزييف الأدباء.

الوَزِيــرُ الشَّـاعِرُ

حديثي عن وزير أندلسي، إن غدا اليوم مجهول الاسم لا يعرفه إلاَّ العلماء.. فلقد كان اسمه في الأمس من أشهر الأسماء... وكان علماً من الأعلام، يعرفه الخاص والعام.

إنه أحد العباقرة الذين أخرجتهم الأندلس الخضراء، الفردوس الذي أضعناه، بدأ من الحضيض بلا نسب ولا مال فرفعه ذكاؤه وأدبه إلى القمة، فلما بلغها غلبت عليه أخلاق أهل الحضيض فغدر وخان، فهبطت به خيانته ونزل به غدره، من القمة إلى القبر.

وزير شاعر أديب، لملك شاعر أديب، هو محمد بن عمار وزير المعتمد بن عباد.

وهو أشعر من ابن عباد، وهو أحد السبعة الكبار من شعراء الأندلس إن لم يكن أشدهم أسراً وأجزلهم شعراً.

نشأ في شِلْب، وهي مدينة كبيرة في (البرتغال) غربي الأندلس، يزعم ياقوت أنه قلَّ أن ترى من أهلها من لا يقول الشعر ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فَدّانه، وسألته عن الشعر، نظم من فوره ما اقترحت عليه، في أي معنى طلبته منه.

في هذه المدينة الشعرية نشأ هذا الوزير الشاعر، فكان ينظم الشعر يمدح به كل من يلقاه، من عظيم وحقير، وكبير وصغير، جواهر يرمي بها

ذات الشمال وذات اليمين، فتقع في الروض المونق وتقع في الوحل القذر، ثم اتصل بالمعتمد، وكان المعتمد شاباً، ينظم الشعر، ويحب الأدب، فما زالت حاله معه تقوى، وصلته به تزداد، حتى صار شقيق نفسه، ورفيق أنسه، وغلب عليه، حتى انطلقت ألسنة الناس فيه، فأمره والده المعتضد بإبعاده عنه، فهام في مدن الأندلس، شريداً طريداً يبعث إلى المعتضد بأروع الشعر، من أمثال قصيدته التي بعث إليه بها من سُرْقُسْطة، ومطلعها:

عليّ وإلا ما بكاء الغمائم وفيَّ وإلا ما نواح الحمائم

والقصيدة الأخرى التي جاء فيها بهذا البيت النادر:

السيف أفصح من زياد خطبة في الحرب إن كانت يمينك منبرا

ولكن المعتضد لم يأذن له بالعودة إلى ولده، فبقي ابن عمار مغترباً في أقاصي الأندلس حتى مات المعتضد، وولي المعتمد، وأعاده إليه، وقربه منه، حتى لم يبق فوق منزلته منزلة، وحتى صار منه كجعفر البرمكي من هارون الرشيد. وكانت نهاية أمره معه، كنهاية جعفر مع الرشيد.

لا، لن أسرد عليكم تفاصيل حياته، ما لكم ولتفاصيل حياته، وليست الإذاعة(*) مدرسة لتعليم التاريخ، ولستم تلاميذ في هذه المدرسة.

إني أسرد عليكم من حياته مواقف فيها الإمتاع لمن شاء الاستمتاع، وفيها العبرة لمن أراد الاعتبار.

كانت حياة ابن عمار علواً وانخفاضاً، وبؤساً يعقبه نعيم، ونعيماً يكون بعده البؤس.

لما كان يدور بشعره على الناس، يمدح من يلقاه، وجه بقصيدة إلى تاجر غني في شِلْب، وكانت لابن عمار دابة لا يملك ثمن عَلَفها، فوجه إليه الرجل بمخلاة شعير، ففرح بذلك ابن عمار ورآها من أسنىٰ الجوائز، ودار الدهر دورة، وصار ابن عمار وزير المعتمد، فتوجه يوماً إلى شِلْب، ودخلها

(*) أذيعت من إذاعة دمشق.

في الموكب الضخم، والجند الكثيف، والعبيد والحشم، فكان أول ما صنعه، أن سأل عن هذا التاجر فلما جاءه، أخرج المخلاة وكانت معه فملأها له دراهم، ودفعها إليه، وقال له: لو ملأتها يومئذ قمحاً بدل الشعير، لملأتها لك اليوم دنانير بدل الدراهم.

ودار الدهر دورة أخرى، فخان مولاه، وأعلن الخروج عليه، والاستبداد بالملك دونه، فلما فشل وغلب على أمره، وهرب فلم يجد مهرباً، ولجأ إلى أمراء الأندلس، فلم يلق عندهم ملجأ، قبض عليه المعتمد وجاء به مقيداً ذليلاً، وأخرج الناس كلهم كبيرهم وصغيرهم ليروه على هذه الحال من المذّلة والهوان، وهم الذين كانوا يخرجون كلهم لاستقباله، وهو في العزّ والسلطان، وكان أكبر المسرة للكبير منهم أن يدنو منه، فيمس ركابه أو يقبل ركبته، فصار أصغر من فيهم يرميه بحجر أو يبصق عليه. حتى وقفوه أمام المعتمد، فذكره بإحسانه إليه، ونعمه عليه، ومقابلته ذلك بالغدر والخيانة، فأطرق ولم يجد له جواباً، فأمر به إلى السجن، وبعث إليه من السجن بقصائد هي في الشعر آيات معجزات، منها قصيدته التي يقول في مطلعها:

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

قصائد لو توسّل بها (كما يقول صاحب المعجب) إلى الفلك لكف عن دوره، فكانت رقى لم تنجع، ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تنفع.

وقابل المعتمد الضراعة بالإعراض، وتَذَلُّلَ ابن عمار له بالتكبر عليه، وانتهى أمره بأن قتله بيده في فورة غضب أعمى بصره، وكأن نفس ابن عمار كانت تحدثه بهذا المصير، فلقد كان يوماً مع المعتمد، فقربه إليه حتى حلف أن يناما معاً على وسادة واحدة، فرأى في منامه أن المعتمد يقتله فقام مذعوراً ولف نفسه في حصير ونام في الدهليز، فلما افتقده الملك وقام يفتش عنه رآه على هذه الحال، فسأله فخبره الخبر، فطمأنه أن ذلك مستحيل، ولكن هذا الذي رآه مستحيلاً وقع.

ودار الدهر دورات أخرى وإذا بالملك يقاسي من ابن تاشفين ما قاساه منه وزيره ابن عمار.

خان الوزير فأنزله ملكه من سدة الحكم إلى ظلام السجن وأذاقه مرارة النقم بعد حلاوة النعم، فجاء ابن تاشفين فصنع بالمعتمد ما صنع المعتمد بابن عمار، نقله من القصر إلى القفر، ومن مدن الأندلس إلى قرية في صحراء إفريقية، ومن أوسع الغنى إلى أضيق الفقر، حتى قتله الحزن.

وهذه هي الدنيا، إقبال وإدبار، وعلو وانخفاض، وسيد يصير مسوداً. ومسود يصبح سيداً.

وليست حظوظاً ولا مصادفات، ولكنها خطة مدبّرة من لدن حكيم قدير.

عِـــبْرَة

كنت أتمنى ألا أحدثكم إلا أحاديث المكارم والمفاخر، ولا أقص عليكم إلا أخبار النصر والظفر ولكني رجل مؤرخ، وحياة الأمم كحياة الأفراد، فيها الصفاء وفيها الكدر، وفيها الأعراس وفيها المآتم. ولا أكون أميناً على التاريخ، ولا صادقاً في الرواية، ولا ناصحاً للقارئين، إذا أريتكم صفاء الماضي دون كدره، وسردت عليكم مباهجه دون مآسيه، ولعل العبرة في الهزيمة أكبر من العبرة بالنصر.

وأنا أستجديكم اليوم الدمع، وأدعوكم إلى البكاء لا بكاء أبي عبد الله الصغير الذي سأحدثكم حديثه فهذا بكاء الأنذال، إنما أريد بكاء الرجال، والرجل قد تجيش عاطفته، ويسيل قلبه دمعاً من عينيه، ثم يمسح الدمعة، وينسى العاطفة، ويحكم العقل، ويمضي إلى العمل فلئن ضاعت منا الأندلس (وسترون لم ضاعت) فقد أبقت لنا عبرة، ولقنتنا درساً.

حديث اليوم عن الفردوس الإسلامي الذي فقدناه، عن المأساة التي لم ير تاريخنا مثلها، اللهم إلا مأساة فلسطين، التي ستغدو لنا إن بقينا على غفلتنا وانقسامنا، أندلساً جديدة، ولن يكون ذلك إن شاء الله ما دام في السماء رب عادل، وعلى الأرض شعب مسلم.

الحديث عن أبي عبد الله الصغير، وعن سقوط الأندلس، وما هو (مع الأسف) إلا إشارات عابرة لتلكم الأحداث الجسام، وكلمات قليلة عن

هاتيكم الفواجع الكبار التي ملأت صحف التاريخ أسىً وحزناً.

نحن الآن في أواخر العهد بالأندلس، فلقد تقلص ذلك المجد المنبسط، وانزوت تلك الراية التي كانت ترفرف على أسوار طليطلة وقصور قرطبة، وعلى سيف البحر من المرية إلى برشلونة، والتي جازت جبال البرنس (البيرنة) حتى بلغت قلب فرنسا، لقد مضى ذلك كله وانقضى، فلا أمية باقية، تلوح أعلام قوادها وهي على عرش الخضراء في دمشق، أو على عرش الزهراء في قرطبة، ولا الموحدون تموج (الزلاقة) بفرسانهم الذين ينتزعون النصر من بين فكي الدهر، لقد ذهبت الدول الحاكمة القوية، فناد اليوم لا يلبك القائد عبد الرحمن الغافقي، ولا الأمير عبد الرحمن الداخل، ولا الخليفة عبد الرحمن الناصر، ولا يجبك الملك المظفر أسد الصحراء ابن تاشفين. وقد ذهبت الإمارات القوية، فما في البلاد اليوم مثل الحاجب المنصور ولا مثل ابن عباد، ما فيها إلا إمارة صغيرة حقيرة فيها عرش صغير حقير، نخر سوس الخلاف باطنه، وهدت فؤوس الاسبان جوانبه، ولا يزال أهله يتنازعون عليه، ويتقاتلون من حوله، عرش بني الأحمر في غرناطة.. أتعرفون من أين جاءت هذه الإمارة التي كتب الله أن يكون ضياع الأندلس على أيديها؟.

كانت دولة الموحدين تحكم البلاد كلها، والموحدون صحراويون أشداء، لم تكن الحضارة بترفها قد أفسدتهم يوم أقبلوا، ولا المدن بنعيمها، فكانوا ينامون بمثل عين الذئب، ويكشرون عن مثل أنياب الأسد، كانوا أسود قفر، فانجحرت منهم الذئاب، وفرت من أمامهم، فلما ذاقوا متع الحضارة، واستراحوا إلى النعيم صاروا طواويس، فاستأسدت من ضعفهم الثعالب.

وخرج عليهم ابن هود، فاقتطع لنفسه ما استطاع من بلادهم، وخرج على ابن هود ابن الأحمر، فانتزع منه ما قدر عليه من بلاده، وكان الموحدون في الأصل خارجين على الإمامة العظمى، فكانت مملكة بني الأحمر هذه، مملكة خوارج على خوارج على خوارج.

ولم ينج ابن الأحمر من أمراء كانوا أصغر منه، فخرجوا عليه، يشترون منه ملكه برأس ماله، وكان يحميهم الاسبان الذين كانوا يمدون أيديهم أبداً من وراء ستار، فيضرمون هذه النار، فلم يجد وسيلة لاستبقاء لذة الحكم، إلا أن يبيع نفسه للشيطان، ويخضع للاسبان، ويجعل من نفسه ملكاً على المسلمين، وتابعاً لأعدائهم وكذلك يصنع حب السلطان.

وهذه مصيبتنا دائماً، الانقسام وشهوة الحكم.

ثم تتنبه في نفسه حمية المسلم، وتستيقظ عزة المؤمن، فيقطع حبل مودة الاسبانيين، وتقوم الحرب بينه وبينهم، ويعينه ملوك المغرب بجامع الإخوة الإسلامية التي لا تنفصم قط عراها، فينتصر عليهم.

ويتسلسل الملك في أولاده، إلى العهد الذي أحدثكم حديثه، حين يقوم النزاع على هذا العرش الصغير الذي لا يستحق أن يتنازع عليه غريبان، فضلاً عن أن يتقاتل من أجله أخوان، أبو عبد الله الكبير المعروف بالزغل، وأبو الحسن والد أبي عبد الله الصغير، وغلب الثاني على الملك، وإن كان الأول أقوى وأحزم وأبرع وأحكم، واستهوته حلاوة هذا العسل، فأنسته السم الكامن في قرارته، وحُمَات النحل التي تحوم من حوله، وغرق في لذائذه، وكانت له زوجة شريفة عفيفة من بنات عمه اسمها عائشة، هي أم ولديه محمد وهو أبو عبد الله الصغير ويوسف، فتركها وعشق فتاة اسبانية بارعة الجمال فاتنة الحسن، وارتكب جريمة مثلثة اللعنات:

١ ـ حكمها في نفسه وقصره، واطلعها على دخيلته وسره هي وقومها الاسبان أعداؤه وأعداء بلاده ودينه[1].

٢ ـ وظلم من أجلها زوجته الشرعية وجافاها وأذلها.

٣ ـ ثم عمل ما لا يعمله رجل شريف، فحبسها هي وولديها في البرج، وبقيت الحمراء كلها لهذه الاسبانية تمرح فيها هي وأعوانها، وتكيد للعرش

(١) وزواج الخلفاء ببنات الأعداء، كان من أكبر أسباب الضياع.

وصاحبه، وتخدم قومها الاسبان وهي محمية بعرش الملك المسلم.

وكانت هذه السيدة عائشة امرأة قادرة داهية أريبة، فلم ترض لنفسها هذا المصير، وأعدت العدة للفرار من البرج العالي وكاتبت أنصارها، وهيأتهم للثورة على زوجها، ثم شققت الستائر والملاحف، واتخذت منها حبالاً تعلقت بها وولداها وهبطت من البرج.

وبينما كان أبو عبد الله الكبير يقاتل الاسبان، ينازل جيشاً لهم جراراً جاء ليقضي على هذه البقية الباقية من دولة العرب في الأندلس، كانت عائشة وابنها أبو عبدالله الصغير يقاتلان الملك العربي، الأب يؤثر لذته على مروءته، ويسيء لولده إرضاء لزوجته، والابن يحارب أباه، وكل ذلك والعدو على الأبواب.

هذا العدو الذي لم يكفه ما اقتطع من بلاد العرب، ولم يكفه ما أراق من دمائهم، فهو لا يزال لما يرى من تخاذلهم وانقسامهم وغفلتهم، يطمع في القضاء عليهم[1].

وانتزع أبو عبد الله الصغير هذا العرش المنحوس من أبيه، وغلبه عليه ولكن الأسبان جاءوا فأسروا أبا عبدالله الصغير، وحرموه بر الوالد، ولذة الحكم.

وراحت عائشة تعمل عملها، تستبيح كل شيء لتنقذ ولدها، لقد غلبتها عاطفتها فنسيت حقوق الأمة، وواجبات الدين، وأحكام الشرف، فعرضت على الاسبان معاهدة تخضع البلاد كلها لحكم ملك قشتالة، ويؤدي أهلها الجزية إليه بعد أن كانوا هم الذين يأخذونها منه، معاهدة الذل والخزي والعار، ومع ذلك فقد تدلل الإسبان وأعرضوا، وشمخوا بأنوفهم، لأنه لم يعد يرضيهم وقد رأوا العرب يفقدون سلائق آبائهم، وبطولات ماضيهم إلا أخذ كل شيء. ولم يطلقوا أبا عبد الله الصغير من الأسر إلا بعد ثلاث سنين. ودفعت البلاد

(١) هذا ما قلته وأذعته من أكثر من خمس وثلاثين سنة، أسأل الله ألا يتكرر فينا الآن، مع عدوّنا الجديد قوم إسرائيل، ومن يقف وراءهم، ويحمي ظهورهم، ويملأ بالطعام بطونهم، وبالمال خزائنهم، وبالسلاح بأيديهم.

حريتها ثمن حريته، وبذلت كرامته وحياتها ليتربع على عرشه ـ وعاد معه الانقسام، وانشطرت البلاد الإسلامية شطرين: شطر تبع هذا الملك الذي باع نفسه للشيطان كما فعل جده من قبل، فكان ملكاً على المسلمين وعبداً للاسبان، وشطر بقي على الولاء لعمه أبي عبد الله الكبير.

ووقعت الحرب الأهلية، وأعان الاسبان صنيعتهم وتابعهم، فطرد عمه وانفرد على هذا العرش الملطخ بالأوضار.

ورحل أبو عبد الله الكبير إلى المغرب، وكان بطلاً مجرباً وقائداً حازماً أريباً، ورأى الاسبان أنه لم يبق في الميدان إلا هذا الشاب الضعيف، أبو عبد الله الصغير، فقرعوا طبول الحرب، وأعلنوا أن قد أزفت ساعة إخراج العرب من اسبانيا التي كان دخولهم إليها سبب نعم الله عليها، نقلها من الجهل إلى العلم، ومن الهمجية إلى المدنية، وأقام فيها صرح الحضارة الخيّرة التي أرساها على العلم والإيمان، فأثمرت السيادة والسعادة والأمان وقبست أوربة منها ومن المشرق أسباب الثقافة والعرفان.

وكانت عائشة قد أغضبت الله لترضي الاسبان، وألبست قومها الذل والعار، ليستمتع ابنها بهذه اللعبة الحلوة التي اسمها العرش، فلم تستبق العرش، ولا رضا الاسبان.

وكانت المعركة الأخيرة، وبدأ الهجوم الغادر على القرى المسلمة في الضواحي، فكان منها أمثال «دير ياسين» و «تل الزعتر»، وورد اللاجئون بالآلاف المؤلفة على غرناطة، وهاج الناس وماجوا يفتشون عن القائد. والمسلمون مهما قل عددهم، ونضب موردهم وساءت حالهم، وانقطع مددهم، لا يفقدون بطولتهم ما داموا يجدون القائد الذي يقودهم في المعركة الحمراء ـ فلما ظهر هذا القائد وكان البطل الفارس المغوار موسى بن أبي الغسان[1] ورفع لهم لواء

---

(١) لي مسرحية عنه مثلث في (الأمنية) في دمشق سنة ١٩٣٢ م بقيت مخطوطة عندي حتى طلبها الرائي (التلفزيون) في جدة، وأعطاها لمخرج اسمه العوري فأضاعها وما خجل ولا اعتذر.

الجهاد، وسل سيف القتال، عصفت في رؤوسهم نخوة العروبة، وغلت في دمائهم عزة الإيمان وأقدموا يدافعون، ولولا ضعف أبي عبدالله الصغير، ولولا هذه الحاشية حاشية السوء، ولولا الانقسام وتدخل النساء في شؤون الملك، لبدأت هذه الفئة المجاهدة، عهداً جديداً في تاريخ الأندلس، قد يمتد قروناً أخر، وما كان طارق يوم هبط هذه الجزيرة، أقوى عدة ولا كان أكثر عدداً، ولكن كان جنده أشد اتفاقاً وطاعة، وأكثر إيماناً.

لقد أبدى موسى وهؤلاء الأبطال المجاهدون من ضروب البطولة، وألوان التضحيات، ما لم يعرف التاريخ أعظم منه روعة، وأكثر جلالاً، لكن كانت لله إرادة في العرب والاسبان، فلم يكن لهذه التضحيات وهذه البطولات ثمرة تقطف من رياض النصر. لقد قر رأي هذا الملك الضعيف العاجز وحاشيته على التسليم وكانت الهدنة.

وعقدوا معاهدة جديدة مع الاسبان ونسوا أنهم كلما عاهدوا عهداً نقضوه. معاهدة ظنوا أنهم سيحفظون بها للعرب أملاكهم وحريتهم في دينهم ودنياهم، فلم يكن منها إلا ما حدثكم التاريخ، وقص عليكم الرواة.

وتلفتوا يفتشون عن نصير، فلم يجدوا نصيراً، واستجاروا بإخوانهم المسلمين فلم يلقوا مجيراً، وكان آل عثمان في أوج سلطانهم، يحكمون ما بين خراسان وأسوار فينا، ولكن لم يلتفت إليهم السلطان سليمان عاهل آل عثمان، الذي كان يومئذ أعظم ملوك أوربة، رغم الصرخة القوية التي أطلقها الشاعر الأندلسي، فدوت في أرجاء الأرض ولا تزال تدوي في جِواء الزمان.

وخرج الملك المسلم، سليل الأبطال، ليضع بين يدي عدوه أمانة القرون التي انتهت إليه، ليلقي على قدميه بكرامة المسلمين وأمجادهم، ليفتح له عاصمة ملكه، ويبيحه أبهاء الحمراء ومقاصرها، فلما تلاقيا هم بأن ينزل عن فرسه، مترجلاً أمام فردينند، فمنعه من الترجل وتقبل خضوعه واستخذاءه، ثم حوله إلى زوجته ايزابيلا فقدم إليها طاعته وولاءه. وسلمها مفاتيح غرناطة.

وانتهى هذا السفر الضخم الذي ملأناه مجداً وفضيلة وعلماً، فكانت خاتمته الخزي والعار، وهكذا تقوض هذا الصرح الذي أقمناه على جماجم أبطالنا، ونضحنا عليه دماء شهدائنا، ثم هدمناه بمعاول التفرق والانقسام، وشهوة الحكم وانتهاب اللذات، وهكذا انتهت في لحظة حياة ثمانمائة سنة عاشها العرب في الأندلس جعلوها فيها شعلة نور، وروضة زهر وثمر، على حين كانت أوربة صحراء موحشة، تائهة تحت سجف الظلام.

وبكى أبو عبد الله بكاء الجبان الذليل فصرخت أمه عائشة: ابك مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال.

ومشى أبو عبد الله حتى إذا بلغ تل غرناطة، وقف وتلفت ينظر من بعيد إلى شرفات القصر الذي كان منزل آبائه وملعب صباه وعرش ملكه فصار لعدوه[1].

فهو لن يدخل أبهاءه مرة ثانية ولن يمرح في جناته، ولن تكتحل عينه برؤية الماء يفور من نوافيره ولن يصافح أنفه ريا عبيره.

وأدار رأسه، ومشى إلى الأمام يستقبل الآتي المجهول. وغابت عن عينيه أبراج الحمراء إلى الأبد.

(١) اقرأ في كتابي (قصص من التاريخ) قصة (محمد الصغير) إنها قصة متخيّلة كتبتها أنا، ولكن ما قرأها عربي مسلم إلا بكى.

البَرَامِكَة

هذي قصة رجال سَمَوْا إلى سماء العز، وبلغوا من السعادة ما لم يكن يبلغ مثله أحد، ثم هوَوْا فجأة إلى قرارة المذلّة، وقاسوا من الشقاء ما لم يكد يقاسي مثله أحد، فكانوا عجباً في رُقيّهم، وكانوا عجباً في هُويّهم.

رجال كانت لهم في تاريخنا أضخم الأسماء، وأكثرها بريقاً، وأشدها دويّاً.

تعاونت على تخليد هذه الأسماء القوى كلها: قوة التاريخ، وقوة الأدب، وقوة الأسطورة. أما التاريخ فلهم فيه أجمل صفحات الكرم، الكرم الذي تخطّى الأشباه، وقطع الأمثال، ولهم فيه النبل والعقل والفضل والبذل.

وأما الأدب فلهم فيه أعظم الذكر، استنطقوا بالمدح كل شاعر، وحملوا شكرهم على كل لسان. وأما الأسطورة فقد ولدت منهما معاً، فكان نصفها للتاريخ ونصفها للأدب، وعاشت في قصص ألف ليلة وليلة، تلك التي لم نكن نرى فيها إلا عبث أولاد، وأداة فساد، ورأى فيها الغربيون رائعة العصور لوحة من عالم مسحور، فيه من عبقر طيوب وعطور، وولدان وحور.

حازوا الدنيا وبذلوها، وجمعوا الكنوز وفرّقوها، وملكوا القلوب بإحسانهم وأعتقوها، فأصفتهم الود، وثبتت لهم على الولاء، وبقيت على حبّها لهم بعد نكبتهم كما كانت أيام سعادتهم.

إذا وزنتهم بموازين البشر، كان لكفّتهم الرجحان، وإن وزنتهم بميزان الدين شالت كفّتهم في الميزان. أكبرهم الناس لكرمهم، وعظموهم لجلالة أقدارهم، ورآهم الشرع مخالفين عاصين، ورأى عملهم سرفاً وتبذيراً،

والمبذرون كانوا من إخوان الشياطين، هذا إن كان تبذيرهم في مال أنفسهم، فكيف إن كان في أموال المسلمين.

كانوا يعطون ما لا يملكون لمن لا يستحق هذا العطاء، فجادوا بالملايين على الشعراء والمغنّين، وفي الأمة من الأتقياء الصالحين والفقراء المستحقين ملايين لا يجدون ما يسد الخلة ويقيم الأوَد.

وُضعت في أعناقهم أمانة السهر على هذه الأمة كلها، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، فتركوها وأقبلوا على اللذات فسمعوا وطربوا، ولَهَوْا ولعبوا، حتى إذا ملّوا وتعبوا، ناموا عن الواجب عليهم، وقعدوا عن أداء حق هذه الأمانة التي وضعت في أعناقهم، فعجّل الله لهم العقوبة في الدنيا، وجعل منهم تحقيقاً لما خبّر به الرسول ﷺ حين قال: «مَنْ أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه» والظالم الذي تكون عقوبته في الدنيا ويَسْلم في الآخرة يكون من الناجحين.

وما أسردُ قصّتهم إلا لتكون عبرة لمن يغترّ بهذه الدنيا، ويطمئن إلى ما نال فيها من سلطان المال والجاه، ليرى أنه مهما نال فلن يبلغ ما بلغه البرامكة، ثم لما نزل بهم القدر هلك عنهم مالهم، وما أغنى عنهم سلطانهم.

* * *

كان في (بلخ) في خراسان ـ الأفغان ـ معبد ضخم يسمونه (التوبهار) ولم يكن معبداً لله رب العالمين، بل كان معبداً للنار يعبدونها من دون الله، لا يُزهّدهم فيها أنهم يوقدونها بأيديهم، وأنه بلغ من هوانها أن لو بالوا عليها لانطفأت. وكان سادِنُه (برمك) رجل الدين في البلد، ووجه الناس فيه، سبقه إلى هذا الشرف أبوه (جاماس) من قبله، وجده (يستاسف) من قبل أبيه، كانوا رأس المجوسية، وكانوا أركانها حتى وصلت إليهم الرحمة التي بعث الله محمداً ﷺ بها لتعم العالمين، من شاء منهم أن يستقيم، فأطفأ الإسلام نار الشرك وأبدلهم بها نور الإيمان، كما عوّضهم من نار الظلم والطغيان جنة العدل والإحسان؛ فأبصروا الحق فاتّبعوه، ونشأ (خالد بن برمك) هذا، مسلم القلب

عربي اللسان. وكانت العربية تسير في ركاب الإسلام، فما احتل الإسلام قلوب أمة إلا احتلت العربية ألسنة أهلها. وكان في هذه الحضارة عناصر عقلية واجتماعية، يونانية وفارسية وهندية، ولكن العقيدة بقيت إسلامية خالصة واللسان بقي عربياً خالصاً.

وقامت دولة بني العباس على أكتاف الأعاجم، وفتح المجال لأهل الكفاية والمزايا منهم، فكان خالد مع من ظهر فضله. وذاع اسمه، وتدرّج في (الحركة السرية) التي كانت تعمل لهدم الدولة الأموية، حتى صار من وجهاء أصحاب قحطبة بن شبيب، وصحِبَه في حروبه، وولّاه الإشراف على مالية الجيش وقسمة الغنائم، واتخذه مستشاراً له يستفيد من عقله ويرجع إلى رأيه، ولبث دائباً على العمل حتى نجحت هذه الحركة، وتم القضاء على الأمويين، وكانت بيعة السفاح، فدخل عليه خالد للبيعة، فلما سمع كلامه ورأى فصاحته وبيانه لم يشكّ أنه من صميم العرب، وأبقاه في عمله، وهو قسمة الغنائم والإشراف على مالية الجيش، ثم نقله إلى ديوان الخراج، ثم إلى ديوان الجند، ثم رقّاه إلى ما يشبه منصب الوزارة. وبقي على ذلك حتى مات السفاح وولي المنصور، فأقره في الوزارة سنة وشهوراً، ثم لما تقرب أبو أيوب المورياني من المنصور سعى بخالد وعمل على إبعاده، فولاه المنصور بلاد فارس سبع سنين، ثم عُزل ونُكب، ثم أعيد أميراً على الموصل، ولبث فيها حتى ولي المهدي فأعاده إلى فارس، ووجهه مع ولده هرون في إحدى غزواته.

وكذلك انتقل هذا الرجل من ابن سادن في معبد نار في الأمة المغلوبة، إلى أمير ووزير في الدولة الغالبة، وما أعانه على ذلك نسب ولا حسب، ولا مال ولا نشب، بل أعانه عليه وأوصله إليه العلم والفضل والأدب، ولقد ذكر المسعودي أنه (لم يبلغْ مبلغ خالد أحد من ولده، في جوده ورأيه، وبأسه وعلمه، لا (يحيى) في رأيه ووفور عقله، ولا (الفضل بن يحيى) في جوده ونزاهته، ولا (جعفر) في كتابته وفصاحته، ولا (محمد) في شرفه وبُعد همته، ولا (موسى) في شجاعته وجرأته).

* * *

وهذي صورة واحدة من صحة عقله وصواب مشورته، وسبب تبرّك قحطبة القائد برأيه: لما بعث أبو مسلم قحطبة بن شبيب الطائي لمحاربة يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري والي الأمويين، كان خالد في جملة مَن كان معه، فنزلوا في طريقهم في قرية، فبينما هم على سطح بعض دورها يتغدّوْن إذ نظروا إلى الصحراء، وقد أقبلت منها أقاطيع الوحش من الظباء وغيرها حتى كادت تخالط العسكر، فنظروا إليها متعجّبين ولم يفكر أحد في شأنها. فقال خالد لقحطبة: أيها الأمير ناد في الناس أن يركبوا ويستعدوا للقتال قبل أن يهجم عليهم العدو.

فقام قحطبة مذعوراً فنظر فلم ير أحداً، فقال: يا خالد ما هذا الرأي؟ قال: العدو مسرع إليك، أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت؟ إن وراءها لجمعاً كثيفاً. فما كادوا يركبون ويستعدون حتى طلع عليهم العدو، ولولا خالد لهلكوا.

* * *

ونشأ ولده (يحيى) في بيت الإمارة، وفي دارة العز، يعيش مع أولاد الخلفاء كأنه واحد منهم، ولكن أباه لم يتركه يستسلم إلى اللهو واللعب، بل أخذه بالقراءة والأدب، ودرّبه على العمل، وصرّفه في المناصب حتى (كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أحسن حال).

وأُعجب به المهدي وقرّبه إليه، وخلط أهله بأهله، حتى لقد سمح بأن يرضع ولده هارون (الرشيد) من زوجة يحيى مع ولده الفضل، وأن يرضع الفضل من الخيزران، ثم جعله مؤدباً له، بل لقد فوّض إليه أمر تربيته والقيام عليه، حتى صار له أباً بعد أبيه، وصار يدعوه (يا أبي) حين يناديه، وكذلك تبدلت الحال، فبعد أن كان سراة قريش في الجاهلية، وكان أوائل الخلفاء من بعد الإسلام، يبعثون بأولادهم إلى البادية ليتربّوا في مضارب الأعراب في شمس الصحراء وطُهرها، صار الخلفاء العباسيون يسلمون أولادهم إلى الأعاجم ليربّوهم وراء جدران القصور، مع ربّات الخدور، فكان ذلك من أسباب زوال دولة العرب.

وأخلص يحيى لهارون، ورمى بنفسه على الموت من أجله، ووقف موقفاً لولاه ما وصلت الخلافة إلى هارون.

ولا بد لي من أن أمهد لذكر هذا الموقف بكلمة من التاريخ: كانت الخلافة في الأصل رياسة انتخابية يختار لها المسلمون من شاؤوا، من الصالحين لها، ثم لا يكون الخليفة ملكاً مستبداً، ولا حاكماً مطلقاً، ولكن أميراً مقيداً بالكتاب والسنة، ليس له أن يُحل حراماً، ولا أن يحرم حلالاً، ولا أن يبتدع برأيه بدعاً تخالف أصول الإسلام وقواعد الدين.

فلما جاء معاوية حوّلها من خلافة إسلامية إلى ملكية كسروية أو قيصرية، وكانت بدعة امتدت جذورها في تاريخنا، فحيثما نظرت منه وجدت شوكها وأذاها، وما رأيت خلافاً ولا حرباً داخلية إلا بسببها، ولا كان هذا الاستبداد وهذا اللعب بالدماء والأموال إلا من بعدها.

وكان كل خليفة يمهد لولده كما مهد معاوية ليزيد. لم يكفهم أن اتخذوا عباد الله خَوَلاً، ومال الله دُوَلاً، وخالفوا في ذلك أحكام الإسلام وسنة أبي بكر وعمر، حتى تصرفوا في الناس وهم أموات كما تصرفوا فيهم وهم أحياء، فأوصَوْا بهم إلى مَن أحبّوا واختاروا كما يوصي المرء بغنمه وشائه ودرهمه وديناره. وأدركتْ هذه البدعة المهدي بن المنصور فقسم البلاد في حياته بين ولديه موسى وهارون: لموسى المشرق كله، ولهارون المغرب كله الشام ومصر وإفريقية، وجعل يحيى بن خالد معه، إليه ديوانه والقيام على عمله، والوكالة عنه إذا غاب، فكان بمثابة (الأمين العام) في عُرف هذه الأيام، ثم كتب لهما العهد من بعده، لموسى أولاً ثم لهارون من بعده.

وبدا فضل هارون على موسى فنجح في الإدارة، وظفر في الحرب، ورجع من خليج القسطنطينية بالنصر والغنائم، وكان (يحيى) صاحبه ومشيره في ذلك كله، فأحب المهدي أن يقدمه على موسى، فبعث إليه (وكان في جرجان) بعض

أهل بيته لينزل عن ولاية العهد لأخيه طوعاً واختياراً لئلا يُنزله عنها قسراً وإجباراً، فلم يُجب، فبعث إليه رسولاً يدعوه فأبى وضرب الرسول وأعلن العصيان؛ فغضب المهدي، وأخذته عزة المُلْك؛ فسار إليه بنفسه ليريه قدره ويأخذه بالطاعة أخذاً، فلم يكد يخرج من بغداد حتى كان الأجل أسبق إليه من الأمل، والمنيّة أعجل من الأمنيّة؛ فمات فجأة، وبويع موسى بالخلافة وتسمى بـ (الهادي).

* * *

مات المهدي بـ (ماسبذان) وبويع موسى الهادي بالخلافة وهو بعيد بـ (جرجان) فاقترح القوّاد على هارون ـ وكان مع أبيه في (ماسبذان) أن يحملوا المهدي إلى بغداد ليُدفن فيها.

فقال هارون: ادعوا إليّ أبي (يحيى بن خالد البرمكي) فصار إليه فقال له:

ـ يا أبتِ ما رأيك فيما اقترحوه؟

ـ قال: ما أرى ذلك.

ـ قال: ولِمَ؟

ـ قال: لأن من عادة الجند كلما مات خليفة أن يطالبوا برواتب سنتين أو ثلاث سلفاً، وإني لأخشى أن يتعلقوا بالنعش إذا رأوه وأن يتحكموا ويشتطوا ولا يدعوه يسير حتى يُعطوا ما يطلبون. ولكن أرى أن يُدفن رحمه الله ههنا وتأمر لمن معك من الجند بجوائز مئتين مئتين وتُنادي فيهم بالقفول، فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم يكن لهم مقصد إلا أهليهم وأوطانهم فلا يعرجون على شيء دون بغداد. ففعل ذلك، وصاح بالجند لما قبضوا الدراهم: بغداد... بغداد... فعاد بهم.

وبدأ (يحيى) بذلك خطواته الأولى في طريقه إلى احتلال المكان الأعلى في الدولة.

ولما وصل الجند إلى بغداد وتفرقوا أدركوا الخدعة، وعرفوا أن الخليفة قد مات، فتجمعوا يطالبون بالأرزاق والعطايا، وساروا إلى قصر الربيع فأحرقوا بابه ودخلوه. . .

واهتمّت الخيزران ـ أم الخليفة ـ بالأمر، وخافت تفاقم الثورة؛ فبعثت إلى الربيع (وكان شيخ الدولة) وإلى يحيى بن خالد تُشاورهما. أما الربيع فلبّى وحضر، وأما يحيى فقد أدرك بوفرة عقله وبُعد نظره أن الخليفة الجديد يغار على أهله، ويكره من أمّه (خصوصاً) أن تدخل في أمور الدولة، فلم يحضر فكانت العاقبة أن غضب موسى على الربيع ورضي عن يحيى وأكرمه. وأقرّ موسى أخاه هارون فيما ولّاه أبوه ـ وهو المغرب كله ـ وأمر أن يبقى معه وأن يتولّى من أمره ما كان يتولاه أيام أبيه.

* * *

ولكنْ سرعان ما تبدلت الحال، وتغير قلب (الهادي) على هارون، وعملت على ذلك عوامل: أظهرها ثلاثة: أمُّه الخيزران، وحاشية السوء، وتفوق هارون.

١ ـ أما أمّه الخيزران فقد كانت قوية الطبع، محبة للسيطرة، وكان المهدي من حبه لها يُغضي عنها حتى كادت تغلب عليه، فلما مات ورأت أنها استطاعت أن تظهر أيام البيعة لموسى ـ وهو غائب في جرجان ـ وأن تعمل عملاً، غرّها ذلك وأغراها على الاستجابة لمطالب هواها، فأقبلت تَخبّ في أمور الدولة وتضع، وتسعى لأن تولّي وتعزل، وصار بابُها أحفل بالطالبين والمراجعين من باب الخليفة؛ وغضب من ذلك موسى، وكانت فيه رجولة، وكانت فيه غيْرة، وهما خَلّتان لا تكادان تفترقان. وكان يعلم أن المرأة إنما خُلقت لبيتها فما دخلت في أمور الدولة إلا أفسدتها، ولو كانت السياسة تصلح لأنثى لصلُحت لسيدة النساء وأعقلهنّ عائشة أم المؤمنين. وحاول موسى منعها وكان يقول لها: ما للنساء والكلام في أمر الرجال؟

فلما لم تستمع، ولما كثُر ترداد القوّاد والأمراء عليها، جمعهم يوماً وقال لهم:

ـ أيُّما خير، أنا أم أنتم؟

ـ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين

ـ قال: فأيّما خير، أمّي أم أمهاتكم؟

ـ قالوا: بل أمّك يا أمير المؤمنين.

ـ قال: فأيّكم يُحب أن يتحدث الرجال بخبر أمّه، فيقولوا فعلت أم فلان. وصَنَعت أم فلان وقالت أم فلان؟

ـ قالوا: ما أحدٌ يُحب ذلك.

ـ قال: فما بالُ الرجال يجيئون أمّي فيتحدثون بحديثها؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتّة، فشق ذلك عليها، فاعتزلته وحلفت لا تكلمه، وأخذت تكيد له وتميل مع هارون؛ فأغرته به من حيث لا تشعر.

٢ ـ وأما حاشية السوء ممن كان يخشى سطوة هارون، أن ينقِمُ منه شيئاً، فقد عملوا على صرف قلب الهادي عنه والإيقاع بينه وبينه حتى همّ بخلْعِه.

٣ ـ وأما تفوق هارون واضطراد لمعان نجمه وارتفاع منزلته، فقد مسَّ مواطن الأَثَرة من نفس الهادي، فعزم على تحويل ولاية العهد إلى ابنه جعفر، وأعلن ذلك لخاصته فوافقه عليه كبار القواد، منهم يزيد بن مزيد، وعبد الله بن مالك، وعلي بن عيسى، فخلعوا هارون وبايعوا جعفراً.

وتنكّر الهادي لهارون وأعرض عنه، فأعرض عنه الجلّة والكبراء، ثم زاد فأمر ألا يُسار أمامه بحَرْبةٍ، وكانت هذه الحربةُ شعار الأمراء، وأن لا يَركب في موكب، فغدا كأنه منبوذ.

وكان في خلال ذلك يُرهبه ويُرغّبه، ويتخذ إليه الوسائل لينزل عن ولاية العهد لجعفر، حتى ملّ هارون وضاق صبره، فأوشك أن يستجيب، فقال له يحيى ـ وقد بقي وحده على الولاء له ـ: لا تفعلْ.

ـ قال: أليس يترك لي ما أعيش به مع ابنة عمي؟ (يريد زُبيْدة بنت المنصور وكان يحبها حباً شديداً).

ـ قال يحيى: وأين هذا من الخلافة؟ ولعله أن لا يترك لك بعد ذلك شيئاً. . .

وما زال به حتى جعله يأبى.

وسُعِيَ إلى الهادي بيحيى بن خالد، وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف، وإنما يُفسده يحيى بن خالد.

فأغضب ذلك الهادي، وبعث إلى يحيى من يجيء به ليلاً؛ فأيِسَ من نفسه؛ وودع أهله؛ وتحنّط، وجدد ثيابه ولم يشك أنه يقتله.

فلما أُدخل عليه قال:

ـ يا يحيى، ما لي ولك؟

ـ قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته؟

ـ قال: فلم تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليّ؟

ـ قال: من أنا حتى أدخل بينكما؟ إنما صيّرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره؛ فقمت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلى أمرك.

ـ قال: فما الذي صنع هارون؟

ـ قلت: ما صنع شيئاً، وما ذلك فيه ولا عنده.

فسكن غضبُه ورده إلى داره، فذهب إلى هارون فوجده قد طاب نفساً بالخلع، فثبته وقوّى نفسه، وبعثت الخيزران جارية لها كانت أرضعت هارون، إلى يحيى فشقّت جيبها بين يديه وبكت إليه وقالت:

ـ تقول لك السيدة: الله الله في ابني لا تقتله ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله ويريد منه، فبقاؤه أحبُّ إليّ من خلافته ومن الدنيا بجميع ما فيها.

فصاح بها يحيى: وما أنت وهذا؟ إن يكن ما تقولين فإني وولدي وأهلي سنُقتل قبله، فإن اتُّهِمْتُ عليه فلست بمتّهم على نفسي ولا على أولادي.

فلما كان من الغد، جلس الهادي للناس، وقال لحاجبه: لا يدخل عليّ يحيى بن خالد إلى آخر الناس. فأذن الحاجب للناس، حتى إذا لم يبق أحد،

أدخل عليه يحيى فدخل، وكان في المجلس جِلّةُ الناس وكبار القوّاد، فما زال الهـادي يُدنيه ويُقربه حتى أقعده بين يديه وقال له:

ـ إني كنت أظلمك فاجعلني في حِلّ.

فتعجب الناس من إكرامه إياه وقوله... فقبّل يحيى يده وشكر له، فقال له الهادي:

ـ مَن الذي يقول فيك يا يحيى:

لـو يمسُّ البخيـل راحـة يحيى   لسَخَتْ نفسُـه ببـذل النـوالِ؟

ـ قال: تلك راحتك يا أمير المؤمنين، لا راحة عبدك.

وكلّمه في خلع الرشيد، فلم يرَ منه قبولاً؛ فاستبقاه بعدما انفضّ المجلس، وخلا به، فلم يجد منه إلا الإصرار، فأمر به إلى السجن.

ولبث في السجن أمداً، وضيّق عليه حتى لم يشك في الموت، فبعث برقعة إلى الخليفة يسأله فيها أن يسمع منه، فدعا به فسأله ماذا يريد، فقال له يحيى:

ـ يا أمير المؤمنين، أخْلني. فأخلاه فقال:

ـ يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان الأمر، أسأل الله ألاّ تَبلغه، وأن يُقدمنا قبله (يريد موت الهادي) أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحُلُم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم؟.

ـ قال: والله، ما أظن ذلك.

ـ قال: يا أمير المؤمنين، أفتأمن أن يسمو إليها بعض أهلك، فتخرج عن ولد المهدي، أو أن يطمع فيها غيرهم من غير أسرتك؟ ولو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تعقده له، فكيف بأن تَحُلّه عنه وقد عقده المهدي له؟.

إني أرى أن تُقرّ هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر أتيته بالرشيد، فكان أول من يبايعه.

ـ قال: نبّهتني يا يحيى.

وأمر بإطلاقه.

ولم يلبث موسى إلا قليلاً حتى مات، وكانت خلافته سنةً وثلاثة أشهر فقط، وقعد هارون الرشيد على سرير الخلافة، وكان الذي أقعده عليه (بعد الله الذي لا يكون شيء إلا بأمره ومشيئته) هو يحيى بن خالد، بثباته على الوفاء له، وعقله وفضله، وهذا الأسلوب العجيب في الصراحة والمنطق المهذب الذي كلّم به موسى، كما كان لعقل موسى وقبوله بالحق لما رآه، أثر في هذا الظفر، ولقد شهد بذلك يحيى نفسه بعد ذلك فقال:

ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى.

* * *

كان يحيى أول من عَلِم بموت الهادي، فجاء إلى الرشيد وهو نائم فقال: قُم يا أمير المؤمنين. قال: كم تروّعني رغبة منك بخلافتي وأنت تعلم حالي عند هذا الرجل! فإنْ بَلَغه هذا فما تكون حالي؟ فقال: لقد مات موسى.

فوثب فقعد في فراشه، فجاءه رسول آخر قال: وُلد لك غلام.

فسمّاه عبد الله، وكان هو عبد الله المأمون، وكانت ليلة من ليالي الدهر: مات فيها خليفة، ووليّ خليفة، ووُلد خليفة!.

وما كان أسرع ما نال يحيى ثمرة ما زرع. لقد ولّاه الرشيد وزارته، بل ولّاه ما هو أكبر من الوزارة (نيابة الخلافة) وقال له:

ـ أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويُمنك وحُسن تدبيرك، وقد قلّدتك أمر الرعيّة، وأخرجتُه من عُنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمضِ الأمور على ما ترى.

ودفع إليه خاتمه، وقام إبراهيم الموصلي يُنشده قصيدته التي يقول فيها:

ألم ترَ أن الشمس كانت سقيمةً ... فلما ولي هارون أشرقَ نورُها
بيُمنِ أمينِ الله هارونَ ذي الندى ... فهارونُ واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور، وكان يحيى يَعرِضها عليها ويَصدُر

عن رأيها إلى أن ماتت بعد أربع سنين.

وابتدأت من تلك الساعة دولة البرامكة، دولة لم يكن فيها من الفضائل إلا نُبْلُ النفس وكرمُ اليد وفصاحة اللسان، أما إقامة حدود الله واتّباع شرع الله وحفظُ أموال المسلمين فلا تؤخذُ إلا من حِلّها ولا توضع إلا مواضعها، وصيانة دمائهم وأبشارهم فلا يُنال منها إلا بحقها، والتخلق بأخلاق الصالحين، واتباع سبيل المؤمنين والبُعد عن اللهو واللعب والحرام، أما ذلك كله فما كان منه في هذه الدولة إلا القليل.

* * *

دامت هذه الدولة سبع عشرة سنة... سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً بالضبط، كان فيها البرامكة هم المتصرفين[1] في مُلك هارون الرشيد، ولم يكن حكمهم كحكم من جاء بعدهم من التُرك أولاً، والبويهيين الفرس ثانياً، والسلاجقة التُرك أخيراً، حين غدا الخليفة اسماً بلا رسم، وصورة بلا معنى، بل كان الخليفة يحكم حين يريد الحكم، ويُبرم ما يُحب إبرامه من الأمر. ذلك لأن الدولة العباسية لم تزل في شبابها، ولا يزال لخلفائها سلطانُهم، ولم يكن المعتصم قد أجرم تلك الجريمة المنكرة، إذ جاء بغلمان الأتراك فحكّمهم برقاب العرب، فصارت الدولة إلى انحدار، وما زالت تنحدر حتى كان عهد المماليك الذين يُشترَوْن بالمال، ثم يكونون هم الملوك الذين يتصرفون بالأموال وبالرجال.

* * *

نال يحيى الوزارة أولاً، ولم تكن وزارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم، ولا بالمعنى الذي استقرّت عليه الحال في العصر العباسي فيما بعد، ولم تكن له سلطات محدودة بدستور أو قانون، بل كان منصبه نوعاً من الوكالة عن الخليفة، فكانت هذه الوكالة تتسع أو تضيق، باتّساع صدر الخليفة وضيقه، وميْله إليه أو ميله عنه.

وكان هارون الرشيد رجلاً قوياً مقتدراً، ولكنه كان عاطفياً يتبع خاطر

---

(١) كلمة المتصرفين خبر كان، وكلمة (هم) تأكيد وهذا هو التعبير الصحيح.

الحال ووحي الساعة كما يقولون، فكانت أعماله كلها ارتجالات ومفاجآت.

لما بشّره يحيى بالخلافة وكان هو الساعي له فيها، والمدافع عنه فيها، أحسّ بعرفان الجميل يغمر قلبه، وذكر أنه لولا يحيى لكان قد تنازل عن ولاية العهد، فمنحه تفويضاً مطلقاً، وزاده في السنة التالية فأضاف إليه الخاتم مع الوزارة، وتسرّب أولاده إلى الحكم، وتداولوا الولايات والمناصب الكبرى بينهم، وأخذ يحيى يتخلى عن تبعات الحكم لأولاده، فترك الخاتم للفضل أولاً، وهو أخو الخليفة من الرضاع، ثم صار لجعفر، وغدا يحيى بمثابة المستشار للخليفة والموجه المرشد لأولاده جميعاً، وما كان يتمّ شيء إلا برأيه.

لما أراد الرشيد نقل الوزارة قال ليحيى:

ـ يا أبت، إني أريد أن أجعل الخاتم الذي لأخي الفضل، لجعفر، وقد احتشمتُ من الكتابة إليه في ذلك فاكفِنيه؛ فكتب إلى ولده الفضل:

ـ قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك.

فكتب إليه الفضل:

ـ قد سمعتُ مقالة أمير المؤمنين فيَّ وفي أخي وأطعت، وما انتقلت عن نعمة صارت إليه، وما غربت عني رتبة طلعت عليه.

قال جعفر:

ـ لله أخي، ما أنفس نفسه، وأبين دلائل الفضل عليه، وأقوى منّة العقل فيه وأوسع في البلاغة ذرعه.

وولّى الرشيد الفضل خراسان، فتوجه إليها وأقام بها، فلها عن أمورها، وكان في الدولة يومئذ دائرة خاصة سرية لمراقبة أعمال الولاة، وإخبار الخليفة بها، يُسمّى القائم عليها (صاحب البريد)، لا يعرف الوالي شخصه ولا سلطان له عليه، فكتب صاحب البريد في خراسان إلى الرشيد بخبره، ووصل الكتاب إليه، ويحيى جالس بين يديه.

وكان فيه: إن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر

في أمور الرعية. فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى وقال له:

ـ يا أبت، اقرأ هذا الكتاب واكتب إليه بما يردعه عن هذا.

ومن هنا يظهر لكم مبلغ تسلط البرامكة عليه ورفقه بهم، ولو أراد أن يقيم حكم الله على والٍ يشتغل عن الرعية بلذّته وصيده لكان العزل أيسر ما يُعاقب به.

وكتب إليه يحيى كتابة أب إلى ولده المدلل:

انصب نهاراً في طلاب العلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيبْ

حتى إذا الليل أتى مقبلاً ... واستترت فيه وجوه االعيوب

فكابد الليل بما تشتهي ... فإنما الليل نهار الأريب

كم من فتى تحسبه ناسكاً ... يستقبل الليل بأمر عجيب

أرخى عليه الليل أستاره ... فبات في لهو وعيش خصيب

ولذةُ الأحمق مكشوفة ... يسعى بها كل عدوّ رقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب فلما فرغ قال:

ـ بلغت يا أبت.

وأقرّ هذه الخطة الخبيثة التي اختطّها هذا الرجل لابنه: لم يأمره بتقوى الله في السر وفي العلن ومراقبته في الخلوة وفي الملأ، واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولم يلقنه خشية الله بل خشية الناس والله أحق أن يخشوه إن كانوا مؤمنين.

على أن الفضل قد صلح بعد ذلك، ولم يعُد يفارق المسجد نهاره كله. ولما وصل إلى مدينة (بلخ) وهي وطنهم الأول وفيها (النوبهار) المعبد الذي كان أجداده سدنته وكانوا يوقدون فيه النار التي كانوا يعبدونها من دون الله، أمر الفضل بهدمه، فصعُب عليهم هدمه لمتانته وإحكام بنائه، فهدم ناحية منه وأقام فيها مسجداً.

ووَلي جعفر نيابة مصر، ثم نيابة سجستان، أي إنه جعل إليه أمر نصّب

الوالي عليها وعزله، فولّى عليها رجلاً ولم يخرج إليها بنفسه.

ثم ولّاه رياسة الحرس. ولما اضطربت الشام لِما كان فيها من العصبيّات القبلية واختلّ أمرها دعا الرشيد جعفراً فقال له:

ـ إما أن تخرج أنت، أو أخرج أنا.

ـ فقال له جعفر: بل أقيك بنفسي.

فشخص جعفر في جيش ضخم، ومعه جِلّةُ القُوّاد، فأخمد الفتنة وسنّ سنّة سيئة ما رأيت قبله من صنعها، هي أن العرب ـ مُذ كانوا ـ يقتنون السلاح ويحملونه، فجاء جعفر في هذه الحملة، فصادر الأسلحة وأدوات القتال، فلم يدع بها رمحاً ولا فرساً، ومدحه منصور النميري لما توجه إلى الشام بقصيدة طويلة منها:

لقد أُوقِدتْ بالشام نيرانُ فتنةٍ — فهذا أوانُ الشام تُخمدُ نارُها
إذا جاش موجُ البحر من آل برمكٍ — عليها جنَتْ شُهبانُها وشَرارُها
رماها أميرُ المؤمنين بجعفرٍ — وفيه تلاقى صَدعُها وانجبارها
فإنّ أميرَ المؤمنين بنفسه — أتاكم وإلّا نفْسه فخيارها
هو الملك المأمولُ للبرِّ والتُقى — وصولاتُه لا يُستطاعُ خِطارها
وزيرُ أمير المؤمنين وسيْفُه — وصَعْدتُه والحرب تَدمى شِفارها
ومَن تُطْوَ أسرارُ الخليفةِ دونه — فعندك مأواها وأنت قرارُها
وفيتَ فلم تَغْدر لقوم بِذمّةٍ — ولم تَدْنُ من حالٍ ينالُك عارها
إذا ما ابنُ يحيى جعفرٌ قَصَدت له — مُلمّات خَطْبٍ لم تَرْعه كبارها

ولما عاد ودخل على الرشيد قبّل يديه ورجليه وقال:

ـ الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي، وأجاب دعوتي، ورحم تضرّعي، وأنساً في أجلي حتى أراني وجه سيدي، وأكرمني بقربه وامتنّ عليّ بتقبيل يده، وردّني إلى خدمته، فوالله إن كنتُ لأذكر غيبتي عنه ومخرجي والمقادير التي

أزعجتني، فاعلم أنها كانت بمعاصٍ لحقتْني، وخطايا أحاطت بي. ولو طال بُعدي عنك يا أمير المؤمنين ـ جعلني الله فِداك ـ لخِفتُ أن يذهب عقلي إشفاقاً على قُربك وأسفاً على فراقك، وأن يَعْجَل بي عن إذنك الاشتياقُ إلى رؤيتك، والحمد لله الذي عصمني في حال الغيبة وأمتعني بالعافية، وعرّفني الإجابة ومسّكني بالطاعة، وحال بيني وبين استعمال المعصية، فلم أشْخَص إلا عن رأيك، ولم أُقدم إلا عن إذنك وأمرك، ولم يخترمْني أجلي دونك.

والله يا أمير المؤمنين ـ فلا أعظمَ من اليمين بالله ـ لقد عانيتُ ما لو تُعْرَض لي الدنيا كلها لاخْترت عليها قربك، ولما رأيتها عوضاً من المُقام معك....

ولم يَقْصُر يحيى الولايات على ولديه الفضل وجعفر، بل فتح بابها لأولاده جميعاً، بل للبرامكة كلهم.

فكان ولدُه موسى يُنتدب للمهمات العسكرية. لما هاجت الفتنة الأولى في الشام بين النزاريّة واليمانية (وهي كالفتنة التي ذهب جعفر للقضاء عليها) انتدب لها موسى بن يحيى، فخرج إليها ومعه القُوّاد والأجناد وجماعة من مشايخ الكُتّاب، فسكّن الفتنة، ومدحه الشعراء، فقال إسحاق بن حسان الخزيمي يخاطب يحيى، ويصفه بأنه حامي الإسلام، الساهر عليه الذي لا يفرط فيه، وقد أقام في بغداد وبثّ أولاده في الأطراف:

مَن مُبلغٌ يحيى ودونَ لقائِه ... زأراتُ كل خنابسٍ همهامِ
يا راعي الإسلام غير مفرّطٍ ... في لينِ مُغتَبطٍ وطيبِ مَشَامِ

وقال غيره:

قد هاجَتِ الشامُ هيْجاً ... يُشيبُ رأسَ وليدِهْ
فصبَّ موسى عليها ... بخيْلِه وجنودِهْ
هو الجوادُ الذي بذَّ ... كلَّ جودٍ بجوده

أعْـداه جـودُ أبـيـه يحـيـى وَجـودُ جـدوده

و(محمد) أخو يحيى ولّاه الرشيد حجابته، ثم قسم بلاد الخلافة كلها بين جعفر والفضل، كما قسمها المهدي من قبل بين ولديه موسى وهارون، فكان للفضل شرقيّ البلاد من بغداد إلى السند، ولجعفر غربيّها من بغداد إلى المغرب، ثم عقد ولاية العهد لولديه الأمين والمأمون، فضمّ الأول إلى الفضل وجعله في حِجره، وضمّ الثاني إلى جعفر وجعله في حِجره.

وتوجّه الفضل إلى خراسان، فأحسن السيرة فيها، وبنى المساجد والرباطات، وغزا ما وراء النهر، فخرج واتّخذ جُنداً من العجم سمّاهم العباسية، وجعل منهم جيشاً بلغ عدده نصف مليون جندي لهم سجلات وقيود ورواتب معينة. وقدِمَ بغداد منهم عشرون ألفاً فسُمّوا في بغداد (الكُرنْبية) وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة:

ما الفضلُ إلّا شِهابٌ لا أُفولَ لـه عند الحروب إذا ما تأفِلُ الشُّهُبُ
أثـبتَّ خمسَ مِئـينٍ في عِـدادهُـم مِن الألوف التي أحْصَتْ لك الكتبُ
يُقـارعـون عن القـوم الـذين هُم أوْلى بـأحمدَ في الفـرقان إن نُسبـوا

وقال سَلْم الخاسر:

وكيف تخـاف مِن بُؤْسٍ بـدارٍ تَـكنَّفَهـا الـبـرامكـةُ الـبُـحـورُ
وقـومٍ منهمُ الـفضـلُ بـن يحيى نـفـيرٌ مـا يـوازنُـه نـفـيرُ
لـه يـومـانِ يـومُ نـدىً وبـأسٍ كـأنّ الـدهـرَ بـينـهـا أسـيرُ
إذا مـا البـرمكيُّ غـدا ابنَ عشْرٍ فـهِـمَّـتُـه وزيـرٌ أو أمـيرُ

وليدرك القارىء مبلغ ما أصاب الفضل من هذه الولاية، أسوقُ له خبرَ ما ناله قائد مِن صِغار قوّاده هو إبراهيم بن جبريل، فإنه خرج معه وهو كاره للخروج؛ فأحفظَ ذلك الفضلَ عليه وأغضبه.

(قال إبراهيم):

فدعاني يوماً بعد أن أغفلني حيناً، فدخلتُ عليه، فلمّا صرتُ بين يديه سلّمتُ فما ردّ عليّ، فقلتُ في نفسي: شرٌّ والله، وكان مضطجعاً فاستوى جالساً ثم قال لي:

لِيفرُخْ روْعُك يا إبراهيم فإن قُدرتي عليك تمنعُني منك.

ثم عقد لي على سجستان، فذهبتُ وجمعتُ خراجَها وجئتُه به، فوهَبه لي وزادني فوقه خمسمائة ألف درهم، فعاد إبراهيم إلى بغداد بسبعة ملايين!.

بمثل هذا الكرم كانوا يمتلكون القلوب، وإنما هي أموالُ الله يتصرّفون فيها، يجمعون هذا المال من الآلاف المؤلفة ليعطوه لرجل واحدٍ، يجودون بما لا يملكونه ويعطونه لمن لا يستحقونه.

ولما رجع إلى بغداد خرج الرشيد بنفسه لاستقباله ومعه القُواد والكُتّاب والأشراف، فجعل الفضل يُعطي الرجل ألف ألف، والرجل خمسمائة ألف كما روى الطبري، فكان ما وزّعه في ذلك اليوم شيئاً يفوق الوصف ويستعصي على العدّ، وقال فيه مروان:

إذا الناسُ راموا غايةَ الفضلِ في الندى   وفي البأس ألفَوْها من النجم أبعدا
سما صاعداً بالفضـل يحيى وخالـدٌ   إلى كـل أمـرٍ كـان أسنى وأمجـدا

وكان يحيى خلال ذلك في منصب المستشار للخليفة والموجّه للدولة، كأنه غدا عند نفسه فوق الولايات لا يتدخل فِعلاً إلاّ إن اضطرّته الأحداث إلى ذلك.

وما زالت دولة البرامكة في صعود، وما زالوا يتداولون الولايات حتى حجّ الرشيد ومعه ابناه الأمين والمأمون، وحج معه يحيى ومعه ابناه جعفر والفضل، فلما صاروا في المدينة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطى الناس عطاءهم، والعطاء نوع من الضمان الاجتماعي كان أحدثه عمر بن الخطاب، وهي رواتب من الخزانة العامة تكاد تعمّ الناس جميعاً، ثم جلس الأمين ومعه الفضل فأعطاهم عطاءهم، ثم جلس المأمون ومعه جعفر فأعطوهم عطاءهم فكان أهل المدينة يسمّون ذلك العام عام الأعطية الثلاثة وفي ذلك يقول ابن مناذر:

أتانا بنو الأملاك مِن آل برمكٍ فيا طيبَ أخبارٍ ويا حُسنَ مَنظرِ
لهمْ رحلةٌ في كل عام إلى العِدى وأخرى إلى البيت العتيق المُعطّرِ
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقتْ بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فتظلم بغداد وتجلو من الدجى بمكة ما حجّوا ثلاثة أقمرِ
فما خُلقت إلاّ لجودٍ أكُفُّهمْ وأقدامهمْ إلاّ لأعوادِ مِنبرِ

ولما انتهى الحج استعفى يحيى الرشيد من الولاية فأعفاه، واستأذنه في الإقامة بمكة فأذِن له فبقي فيها وتخلّى عن الدنيا.

ولا ندري أكان ذلك ليقظة روحيّة لحِقَتْه فصنع ما ينبغي أن يصنعه كل عاقل، يؤثر الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، أم كان ذلك رياءً وخداعاً، وبقي في مكة شهوراً، ثم عاد إلى بغداد حين سمع أن الرشيد أطلق يعقوب بن داود من سجنه.

وذلك أن يعقوب هذا، كان وزيراً للمهدي، وحظي عنده جداً، ولمع نجمه حتى قال فيه بشّار:

بني أُميــة هُبّــوا طــال نــومكُم إن الخليفة يعقوبُ بن داود

ثم غضب عليه المهدي، فسجنه في بئر، وبنى عليه قبّة، وتركه في البئر منفرداً، فبقي فيها وحده خمس عشرة سنة لا يرى ضوءاً، ولا يسمع صوتاً، ولا يكلّمه أحد، إلاّ أنهم يُدْلون إليه كل يوم رغيفاً وكوز ماء[1]، ويؤذنونه بأوقات الصلاة. ثم أخرجوه وقد نبت شعره حتى صار مثل شعور الأنعام، فلم يستطع أن يُبصر لطولِ ما بقي في الظلام، فوقفوه بين يديْ الرشيد وقالوا:

ـ سلِّمْ على أمير المؤمنين.

ـ فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين المهدي.

قال: لستُ به.

ـ قال: السلام عليكَ يا أمير المؤمنين الهادي.

قال: لستُ به.

---

(١) وهذا ما لا يسيغه العادل من شرائع الأرض، ولا تأذن بمثله شريعة السماء.

ـ قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد.

قال: نعم. ثم قال له:

ـ والله لم يشفع فيك عندي أحد، ولكني حملتُ البارحة بنتاً صغيرة على عنقي، فذكرتُ حمْلك إياي على عُنقك، فرحمتُ ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك.

وأنعم عليه وأحسن إليه. واشتمّ منه يحيى رائحة الخطر على دولته، وغار منه ـ كما يقول ابن كثير في تاريخه ـ وخشيَ أن يُعيده الرشيد إلى منزلته التي كان عليها أيام المهدي؛ فأخذ يكيدُ له، وفهم ذلك يعقوب فآثر الفرار، وكان زاهداً حقاً في خيرات الحكم، وفوائد القُرب من الولاة بعدما عاش في ظلمهم وعسفهم خمس عشرة سنة، فاستأذن الرشيد في الذهاب إلى مكة، فأذن له فذهب إليها، وبقي فيها حتى مات.

* * *

أُوتيَ البرامكة من المواهب، وجمعوا من خلال السيادة، ما نالوا بِهِ الآمال وسبقوا به الأقران.

فكان جعفر في علمه وفضله، وفي بيانه وعقله من إحدى فلتات الدهر، وكانت توقيعاته مثلاً في البلاغة يُحتذى، ومرآة في البيان يُجتلى، وكانت في باب الإيجاز تقرُب من حدّ الإعجاز.

والتوقيعات هي ما يكتبه الأمير على القصص (أي العرائض) التي تُرفع إليه، يأمر لصاحبها بعطاء أو منع وقبول أو ردّ، على نحو ما (يشرح) الموظف اليوم على العرائض.

رُفعت إليه شكوى من عامل من عماله، فوقّع فيها إلى ذلك العامل: «قد كثُر شاكوك، وقلّ شاكروك فإمّا اعتدلتّ وإمّا اعتزلت».

أربع كلمات أجملتْ قصّته وأوضحت غلطته واستدعت توبته واستدنت

نكبته. واعتذر إليه رجل فقال له: «قد أغناك الله بالعذر منّا، عن الاعتذار إلينا، وأغنانا بالمودّة لك عن سوء الظن بك».

ولم يكن يتعمد حلاوة اللفظ ولو كان فيها ضياع الحق، كما كان يصنع ذلك الثقيل المتكلف الصاحب بن عبّاد الذي قال لقاضي (قمّ): «يا أيها القاضي بقُمّ. . .» ثم وقف كما وقف حمار الشيخ في العقبة، ولم يجد ما يسدد به السجعة إلا أن قال له: «. . . قد عزلناك فقمْ».

فقيل للقاضي: فيمَ عُزلتَ؟ قال: في سجعة!.

بل كانت توقيعات جعفر تجمع اللفظ والمعنى، والعلم والأدب. ولقد وقّع يوماً في حضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع، ولم يخرج في شيء منها عن موجب الفقه.

تقولون: من أين له الفقه؟ من الإمام أبي يوسف صاحب الإمام الأعظم، ضمّه إليه أبوه، وألزمه صحبته فعلّمه وفقهه.

* * *

وكان أستاذه الأول أبوه يحيى، فقد كان يقول له ولإخوته: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدّثوا بأحسن ما تحفظون. فكانوا يعملون بهذه النصيحة، فكان حديثهم صفوة الصفوة ولباب اللباب، فكانوا ملوك الكلام كما كانوا ملوك المال وملوك الناس.

وكان يحيى من العقلاء الكرماء البلغاء. ومن كلامه: «ثلاثة تدلّ على عقول أربابها: الهدية والكتاب والرسول» ومنه: «الدنيا دُوَل، والمال عارية، ولنا فيمن قبلنا أُسوة، وبنا لمن بعدنا عِبرة» ومنه: «مَن لم أُحسن إليه فأنا مخيَّر فيه، ومَن أحسنتُ إليه فأنا مرتهنٌ به» ومنه: «إذا أقبلت الدنيا فأنفقْ فإنها لا تبقى، وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى».

قلت: وبهذا ضاعت خزانة الدولة، ثم ضاعت الدولة كلها، وهي لعمري شر نصيحة، وخير منها آداب الإسلام وهي القصد في الإنفاق،

والتوسط بين التبذير والتقتير، وألّا يجعل المرء يده مغلولة إلى عنقه ولا يبسطها كل البسط فيقعد (ملوماً) من الناس، (محسوراً) في نفسه، وأن ينفق حيث يدفع الشرع إلى الإنفاق وينوي به وجه الله، ويمسك حيث يؤثر الشرع الإمساك.

(ومنه): ذكر النعمة من المنعم تكدير، ونسيان المنعم عليه كفر وتقصير.

(ومنه): النية الحسنة مع العذر الصادق يقومان مقام النُجح.

(ومنه): إذا أدبر الأمر، كان العطب في الحيلة.

(ومنه): مَن غيّرته الولاية كانت الولاية أكبر منه.

(ومنه): مما يدلّ على حِلم الرجل، سوءُ خُلُق غلمانه.

وولّى الرشيد، رجلاً ولاية، فلما دخل عليه يودعه كان عنده جعفر ويحيى فقال لهما: أوصياه فقال له يحيى: وفّر، واعمُرْ.

وقال جعفر: أنصِفْ وانتصِفْ.

وقال الرشيد: اعدلْ وأحسنْ.

وشهد المأمون، وهو مَن هو في البلاغة والعقل، بأنه لم يبلغ مبلغ يحيى من الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة أحد من ولده.

أما كرمهم فقد جاوزوا به كل سابق، وقطعوا به كل لاحق، على أني لا أراه لهم محمدة ولكن مذمة، والكرم إنما يحسن إن أعطيت من يستحق مما تملك، أما مَن عمد إلى مال الأمة الذي اؤتمن عليه فبسط به يديه وألقى به ذات اليمين وذات الشمال كما فعل البرامكة، وكما كان يفعل أكثر الخلفاء والأمراء، من قبلهم ومن بعدهم ـ وإن لم يبلغوا في ذلك مبلغهم ـ أما من صنع ذلك فقد جنى جناية وارتكب جرماً وكان هو واللص سواء، بل هو لعمري شر من اللص، فاللص إنما يسرق لنفسه، ويعمر دنياه بخراب دينه، وهذا يسرق للناس ويبيع دينه بدنيا غيره فيكون أخسر الناس.

فمن أخبار هذا الكرم العجيب:

أن إبراهيم الموصلي الذي أخذ من أموال الأمة، هو وولده إسحاق، ملايين وملايين لا يحصيها العد، ما أخذاها بعلم نشراه، ولا بمجد أثّلاه، ولا بفتح فتحاه، بل أخذاه بأصوات لحناها، وغناءٍ ردّداه. حرم الخلفاء أصحاب الحق في هذا المال، وأعطوه المغنّين والعازفين والجواري، وأنفقوه في لذات أنفسهم، وفي لهوهم وشهواتهم، فجرّ ذلك عليهم هولاكو، ومن بعده مَن عرفنا من المستعمرين.

جاء إبراهيم يوماً إلى يحيى يشكو إليه ضيقاً فقال له:

ـ ويحك ما أصنع بك؟ ليس عندنا في هذا الوقت شيء، ولكن ههنا أمر أدُلك عليه، فكن فيه رجلاً قد جاءني خليفة صاحب مصر (أي والي مصر) يسألني أن أستهدي صاحبه شيئاً، وقد أبيت ذلك عليه فألحّ عليّ، وقد بلغني أنك قد أعطيت بجاريتك فلانة ثلاثة آلاف دينار، فهو ذا أستهديه إياها وأخبره أنها قد أعجبتني فإياك أن تنقصها عن ثلاثين ألف دينار وانظر كيف تكون.

قال إبراهيم: فوالله ما شعرتُ إلّا بالرجل وافاني فساومني بالجارية فقلت لا أنقصها عن ثلاثين ألف دينار فلم يزل يساومني حتى بذل لي عشرين ألف دينار، فلما سمعتها ضعُف قلبي عن ردها فبعتُها وقبضت العشرين ألفاً ثم صرت إلى يحيى فقال لي:

ـ كيف صنعتَ في بيعك الجارية؟ فأخبرته وقلت:

ـ والله ما ملكت نفسي أن أجبت إلى العشرين ألفاً حين سمعتها.

قال: إنك لخسيس، فخذ جاريتك بارك الله لك فيها، وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءني في مثل هذا فإذا ساومك فلا تنقصها عن خمسين ألف دينار فإنه لا بد أن يشتريها منك بذلك.

فجاءني الرجل فاستَمْتُ عليه خمسين ألفاً، فلم يزل يساومني حتى أعطاني ثلاثين ألف دينار فضعُف قلبي عن ردها ولم أصدق بها فأوجبتها له، ثم صرت إلى يحيى فقال بكم بعتَ الجارية؟ فخبّرته فقال:

ـ ويحك ألم تؤدّبك الأولى؟

قلت: ضعُف قلبي والله عن ردها.

قال: هذه الجارية جاريتك فخذها إليك.

وقد روى هذه القصة ابن خِلّكان، ولست أدري أيروونها مدحاً ليحيى أم قدحاً؟ وما هي إلا مؤامرة احتيال، وهي وسخة من أولها إلى آخرها، ولو وقعت في أيامنا هذه ـ على فساد هذه الأيام ـ لأُحيلَ كلُّ من اشترك فيها إلى محكمة الجنايات، لأن (الوزير) يحيى احتال على الأمير وهو فوق ذلك قَبِلها منه وهي رشوة لا هدية. والأمير ما أهداها إلا ليظلم الناس ويستخلص ثمنها منهم أضعافاً مضاعفة.

ودخل عليه الأصمعي يوماً فقال له:

ـ يا أصمعي هل لك زوجة؟

ـ قال: لا.

قال: فجارية؟ ـ قال: لا.

فأمر بإخراج جارية في غاية الحُسن والجمال.

(قال الأصمعي) فقال لها: ـ قد وهبتكِ لهذا.

وقال لي: يا أصمعي خذها لك.

فشكرتُه ودعوتُ له. فلما رأت الجارية ذلك بكت وقالت:

ـ يا سيدي تدفعني إلى هذا مع ما ترى من سماجته وقُبحه؟

ـ فقال لي: هل لك أن أعوّضك عنها ألفيْ دينار؟

وأعاد الجارية إلى داره وقال لي:

ـ أنكرتُ على هذه الجارية أمراً، فأردت أن أعاقبها ثم رحمتها.

ـ قلت: هلا أعلمتني فأسرّح لحيتي وأُصلح عِمّتي واتطيّب واتجمّل؟

فضحك وأمر لي بألف أخرى.

وكان يحيى إذا ركب يُعطي كل من تعرض له مئتي درهم، فركب ذات يوم فتعرض له رجل فقال له:

يا سميَّ الحصور يحيى أُتيحتْ ... لكَ من فضل ربنا جنّتانِ
كلُّ من مرّ في الطريق عليكم ... فلهُ من نوالكم مئتانِ
مئتا درهمٍ لمثلي قليلٌ ... هي منكم للقابسِ العجلانِ

قال له يحيى: صدقتَ، وأمر بحَمْله إلى داره، فلما رجع يحيى من دار الخلافة سأله عن حاله، فذكر له أنه تزوج وقد أُخذ بواحدة من ثلاث: إمّا أن يؤدّي المهر وهو أربعة آلاف، وإمّا أن يُطلّق، وإما أن يقيم جارياً للمرأة (أي نفقة وراتباً) يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها.

فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر، وأربعة آلاف لثمن منزل، وأربعة آلاف لِما يحتاج إليه المنزل، وأربعة آلاف للبِنْية (أي للزفاف)، وأربعة آلاف يستظهر بها.

فأخذ عشرين ألفاً بثلاثة أبيات لا معنى لها ولا مَبنى!

وقال محمد بن عمر الواقدي:

كنتُ حنّاطاً بالمدينة (أي بياع حنطة) في يدي مئة ألف درهم للناس، أضاربُ بها فتَلِفَتْ وضاعت، فشخَصْتُ إلى العراق فقصدتُ يحيى بن خالد فجلستُ في دهليزه، وأنِسْتُ بالخدم والحُجّاب وسألتهم أن يوصلوني إليه فقالوا:

ـ إذا قُدّم الطعام إليه لم يُحجب عنه أحد، ونحن نُدخلك عليه.

فلما حضر طعامه أدخلوني فأجلسوني معه على المائدة فسألني:

ـ مَن أنت؟ وما قِصّتُك؟

فأخبرتُه، فلما رُفع الطعام وغسلنا أيدينا دنوتُ منه لأُقبّل رأسه فاشمأزّ من ذلك، فلما صِرت إلى الموضع الذي يُركب منه، لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال:

ـ الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك: استعنْ بهذا على أمرك وعُد إلينا

في اليوم الثاني، فأخذتُه وانصرفت وعُدتُ في اليوم الثاني فجلستُ معه على المائدة فأنشأ يسألني كما سألني في اليوم الأول.

فلما رُفع الطعام دنوت منه لأقبّل رأسه فاشمأزّ مني، فلما صرت إلى الموضع الذي يُركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال لي:

ـ الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك: استعن بهذا على أمرك وعُد إلينا في غد.

فأخذته وانصرفت، فعدت في اليوم الثالث كما أمر، فأُعطيت مثل ذلك الذي أُعطيت في الأول والثاني، فلما كان في اليوم الرابع أُعطيتُ مثله وتركني بعد ذلك أقبّل رأسه وقال:

ـ إنما منعتُك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفي ما يوجب هذا، فالآن قد لحقك بعض النّفع مني، يا غلام، أعطه الدار الفلانية، يا غلام أفرش له الفرش الفلاني، يا غلام أعطه مئتي ألف درهم يقضي دينه بمئة ألف ويُصلح شأنه بمئة ألف ثم قال لي:

ـ الزمْني وكن في داري.

ـ فقلتُ: أعزّ الله الوزير، لو أذِنتَ لي بالشخوص إلى المدينة لأقضي الناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق بي.

ـ قال: قد فعلتُ.

وأمر بتجهيزي، فشخصتُ إلى المدينة فقضيتُ ديْني ثم رجعت إليه فلم أزل في ناحيته.

وكان له كاتب يختص بخدمته، ويقرب من حضرته، فعزم على ختان ولده، فاحتفل له الناس على طبقاتهم وهاداه أعيان الدولة ووجوه الكُتّاب والرؤساء على اختلاف منازلهم، وكان له صديق قد اختلّت أحواله وضاقت يده عما يريده لذلك مما دخل فيه غيره، فعمد إلى كيسين كبيرين نظيفين فجعل في أحدهما ملحاً وفي الآخر أُشناناً مطيّباً وكتب معهما رقعة فيها:

لو تمت الإرادة لأسعفتُ بالعادة، ولو ساعدت المُكنة على بلوغ المهمة لاتّبعتُ السابقين إلى برّك، وتقدّمتُ المجتهدين في كرامتك، ولكن قَعَدتِ القدرة عن البغية، وقصّرت الجدة عن مباراة أهل النعمة، وخفت أن تطوى صحائف البر وليس لي فيها ذِكر، فأنفذتُ المبتدأ بيُمنه وبركته والمُختتم بطيبه ونظافته صابراً على ألم التقصير، متجرّعاً غُصَصَ الاقتصار على اليسير.

فلما حضر يحيى الوليمة عرض عليه كاتبُه الهدايا جميعها حتى الكيسين والرقعة، فاستظرفها وأمر أنْ يُملأ الكيسان مالاً ويُرَدّا عليه، فكان ذلك أربعة آلاف دينار.

ومضى أولاده كلهم على سُنّته في هذا الذي تعوّد الناس أن يسمّوه كرماً، ولو كان من أموال أنفسهم التي تعبوا في تحصيلها من وجوه الحلال لكان اسمه سفهاً وتبذيراً يستحقون به الحَجْر من القاضي، فكيف وهو من أموال الناس التي ائتمنهم الله عليها؛ إنه لا يُسمى إذاً إلا السرقة بأبشع صورها.

هذا جعفر يبذل أربعين ألف دينار في (فرج. . .) جارية، وأربعون ألفاً من أهل بغداد يشتهون عُشْر الدينار، ثم لا يكفيه هذا حتى يَهبَ المال لمن لا حقٌّ له به.

* * *

لم يكمل البحث، ومرّ عليه الزمان، فضعفت الهمة وضاعت الأصول، وانصرفت عنه إلى سواه، فآثرت أن أنشره ناقصاً، على أن أهمله كاملاً.

مَعْنُ بنُ زائِدَة

كان أجمل صفتين عند العرب، يتّصف بهما الرجل: الشجاعة والكرم.
أما الشجاعة فلأنهم كانوا يعيشون في بادية، لا حكومة يحتكمون إليها، ولا شرطة يحتمون بها، ومَن لم يكن شجاعاً قوياً أودى به وبماله وأهله الأقوياء، ومَن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب. وأما الكرم فلأنه لم يكن فيهم فندق، ولا في ديارهم مطعم، فمن نزل بقوم فلم يطعموه مات جوعاً، فكانوا يطعمون الغريب ليطعَموا وهم غرباء، ومن هنا رسخت هاتان الصفتان في نفوسهم حتى صارتا شعار العربي وأمارته، وعليهما دار فخر شعراء الحماسة، ومدحُ شعراء المدح، وبقيتا فينا إلى اليوم، فلا تجد خُلقاً أجلّ في عيوننا من الشجاعة، ولا حقاً أكبر عندنا من حق الضيف، ولو جاء يشغلك بحديثه الفارغ عن موعد لك لا تستطيع خلافه، أو عمل لا تملك تركه، حتى أن العدو إذا وطىء بساطك محا هذا الوطء ما كان منه من رزايا وأسواء.

وما سُقت هذه المقدمة إلا لأن الحديث اليوم عن رجل جمع هاتين الخلّتيْن، فكان فيهما مثلاً مضروباً.

وأُحب أن تعلموا أن هذا الكرم هو الذي أضاع مُلكنا: الكرم الجاهلي الذي يجاوز السَّرَف، ويقارب التبذير، وإنّ أدب الإسلام خير منه وأولى، ألا تبخل ولا تبذر، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط.

حديث اليوم عن القائد العربي الذي سمعتم به، الجريء المغامر،

والكريم الجواد: معن بن زائدة الشيباني. ومن منكم لم يسمع باسم (معن) الأمير البطل الممدَّح من بني شيبان أبطال ذي قار، أهل البطولات والصولات وقبيلة الرجال والأبطال؟

لحياة معن ثلاث مراحل:

مرحلة في خدمة بني أميّة، تنقل فيها في الولايات، وكان منقطعاً إلى (يزيد بن عمر بن هبيرة) أمير العراقيْن. ولما حاصر المنصور واسط وقف في وجهه ودافعه عنها وأراه العجب، فلما آلت الخلافة إلى بني العباس اختفى وطلبوه فلم يصلوا إليه، فلما ولي المنصور البطاش المخيف اشتد في طلبه، فتنكّر أعرابياً أقام في الشمس حتى لوّحت الشمس وجهه، وخفف من عارضيْه (شعر الخدين) ولبس جُبّة صوف، وركب جملاً، وراح يتنقل في البلاد، يخالط الناس على حذر، ويدخل فيهم على خوف، حتى كان يوم الهاشمية.

يوم فاجأتْ طائفة من مارقة خراسان، المنصور بثورة عارمة، جبهوه بها وهم يحُفّون به للتسليم عليه، وحالوا بينه وبين جنده، وكادوا يقضون عليه، وكان (معن) حاضراً متنكراً، فلما رأى ذلك، رفع لِثامَه ورمى بنفسه عليهم كالبلاء النازل، وأعمل فيهم سيفاً كأنه شُعلة من جهنم، وما زال بهم حتى شقّ الطريق إلى المنصور فحماه منهم وفرّقهم عنه، ومكّن للجند أن يقبضوا عليهم.

وخرج المنصور، كأنما قد خرج من القبر، ودعا هذا البطل المجهول الذي أنقذه من الموت وردّ عليه الحياة فقال: مَن أنت؟

قال: أنا مَن تطلبُه بذنبه يا أمير المؤمنين، معن بن زائدة، وها أنذا بين يديك، فاستحيا المنصور، وشكر له هذه اليد وأكبرها، وقرّبه من ذلك اليوم حتى صيّره من أكبر قوّاده، وقرّب ابن أخيه البطل النجيب (يزيد بن مزْيد الشيباني) فصار هو أيضاً من القوّاد الكبار: وبلغ منزلةً لم يسْمُ إليها إلا القليل، وهو الذي رثاه مُسلم بن الوليد ـ صريع الغواني ـ المرثية الخالدة:

أحقٌّ أنه أودى يزيدُ؟ تكلم أيّها الناعي المشيد
ابنْ لي مَن نعيتَ وكيف فاهت به شفتاك وأراك الصعيد

أحــامــي المُـلك والإســلام أودى فــما لــلأرض ويحــك لا تمــيــد

واسمعوا مِن (معن) نفسه خبراً طريفاً ممّا لقي في هربه من المنصور من العجائب قال:

فارقتُ مرة بغداد متوجهاً إلى البادية لأقيم بها (قال): فلما خرجتُ من باب حرب ـ وهو أحد أبواب بغداد ـ تبعني أسود متقلد بسيف، حتى إذا غبتُ عن الحرس، قبض على خطام الجمل فأناخه وقبض على يدي فَقلت له:

ـ وما بك؟

فقال: ـ أنت طِلبْة أمير المؤمنين.

ـ ومَن أنا حتى أُطلَب؟

فقال: أنت (معن بن زائدة)

فقلتُ له: ـ يا هذا، اتّقِ الله عز وجل وأين أنا من (معن)؟

فقال: ـ دع هذا، فإني والله لأعرفُ بك منك.

فلما رأيتُ منه الجد قلت له: هذا عِقدُ جوهر قد حملته معي، وهو يقدَّر بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئته به، فخذه ولا تكن سبباً لسفك دمي. قال: هاته.

فأخرجتُه إليه، فنظر فيه ساعة وقال: صدقتَ في قيمته، ولستُ قابِلَه حتى أسألك عن شيء فإنْ صدقْتني أطلَقْتك، فقلت: قُلْ، قال:

ـ إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبتَ مالك كله قط؟

قلت: ـ لا. قال: فنصفه؟ قلت: لا. قال: فثُلُثَه؟ قلت: لا.

حتى بلغ العُشر فاستحييتُ، وقلتُ: أظن أني فعلت هذا، قال:

ـ ما ذاك بعظيم، أنا والله رجل فقير، ورزقي من أبي جعفر المنصور كل شهر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألوف الدنانير، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في هذه الدنيا مَن هو أجود منك،

فلا تُعجبْك نفسك، ولتحقِرَ بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة.

ثم رمى العقد في حِجْري، وترك خِطام الجمل، وولّى منصرفاً. فقلت: يا هذا والله قد فضَحتني.

قال: أردت أن تكذّبني في مقالي هذا، والله لا آخُذه ولا آخذ لمعروفي ثمناً أبداً، ومضى لسبيله... (قال معن): فوالله لقد طلبتُه بعد أن أمِنْت وبذلت لمن يجيء به ما شاء، فما عرفتُ له خبراً.

وتنقل بعد ذلك في الولايات، فولي اليمن وسجستان وأعمالاً بينها، وكان حيثما سار ينثر البطولات والعطايا، حتى صار طائيّ عصره، وجواد زمانه، ووقف الشعراء قصائدهم عليه، وانقطع كثير منهم إليه منهم مروان بن أبي حفصة أكبر شعراء تلك الأيام[1]، حتى لقد أثار على نفسه حسد الخلفاء، ولولا ما كان له من حضور البديهة وحُسن التخلص لناله منهم أذى.

دخل يوماً على المنصور، والمنصور حريص على مال الله، مقتصد في الإنفاق، يُحاسب عماله على السَّرَف والتَّرَف، ويأخذهم بالشدة، فقال له بلهجة المعاتب الغاضب:

هيهِ يا معن، تُعطي مروان مئة ألف على قوله:

معنُ بنُ زائدةَ الذي زيدتْ به شرفاً على شرفٍ بنو شيبانِ؟

قال: لا يا أمير المؤمنين، إنما أعطيته على قوله في هذه القصيدة:

ما زلتَ يوم الهاشمية معلناً بالسيفِ دون خليفة الرحمن
فمنعتَ حوْزته وكنت وقاءه مِن وقعْ كلِ مُهنّدٍ وسِنان

يذكره بدفاعه عنه، وإنقاذه نفسه، فما كان من المنصور إلا أن قال: أحسنت يا معن.

---

(١) أعني الشعراء المحافظين، أما أكبر الشعراء المجددين فهو بشار. ولي فيه كتاب صغير، فيه محاضرة ألقيتها على طلاب الكلية العلمية في دمشق سنة ١٩٣٠ لما كنت أدرس لهم الأدب العربي، وهو من كتبي التي لم أعد أرضى عنها فلذلك لم أعد طبعها.

ومن حسن جوابه، ومعرفته بخطاب الملوك أن المنصور قال له يوماً: ما أكثر وقوع الناس في قومك يا معن. قال:

ـ يا أمير المؤمنين:

إن العرانينَ تَلْقاها مُحَسَّدةً   ولن ترى للئام الناس حُسّادا

ودخل عليه يوماً وقد أسنَّ، قال: كبرتَ يا معن..

ـ قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين.

ـ قال: وإنك لقوي.

ـ قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين.

ـ قال: وفيك بقيّةٌ.

ـ قال: لك يا أمير المؤمنين.

فلما بلغ هذا الكلام الإمام الزاهد (عبد الرحمن بن زيد) قال: ويْحَ هذا، ما ترك لربه شيئاً. ومعن شاعر مجوّد، وبليغ بينّ، وله قصائد مشهورة.

أما كرمه، فكان أعجوبة، ولست أستطيع أن أروي منه إلا قصة واحدة، قصة مشهورة تدلكم على (ديموقراطية) العرب التي كانت فيهم طبعاً أصيلاً، لا تكلّفاً ولا دعاية ولا حرب أعصاب، وعن كرمه العجيب.

أراد أعرابي أن يمتحن كرمه وتواضعه، فوقف عليه في مجلسه فقال:

أتذكرُ إذْ لحافُك جلدُ شاةٍ   وإذْ نعلاك مِن جلد البعيرِ؟

فغضبتِ الحاشية، وهمّوا به، ولكن معناً كفَّهم وقال: أذكرُ ذلك يا أعرابي ولا أنساه.

قال: فسبحان الذي أعطاك مُلكاً   وعلّمك الجلوس على السرير

قال: سبحانه وتعالى!.

قال: فلستُ مسلّماً ما عشتُ يوماً   على معنٍ بتسليم الأمير

فهاج الحاضرون، ولكنّ معناً منعهم وقال: يا أعرابي، السلام سنة،

وأنت حرّ أن تسلم على الأمير أو لا تسلّم.

قال: سأرحل عن بلاد أنت فيها ولو ضاق الزمان على الفقير

قال: إن جاورتنا فأهلاً ومرحباً، وإن رحلتَ فبالسلامة.

قال: فجدْ لي يا ابن ناقصةٍ بشيءٍ فإني قد عزمتُ على المسير

قال: أعطوه ألف درهم.

قال: قليل ما أتيتَ به وإني لأطمعُ منك بالشيء الكثير

قال: زيدوه ألفاً.

قال: سألتُ الله أن يُبقيك ذُخراً فما لَك في البرية من نظير

قال: كم أعطيتموه على هجائه فيّ؟ قالوا: ألفينْ، قال: أعطوه على مدحته ثلاثة.

وكانت خاتمة معن، أن دسّ له الخوارج ناساً منهم، فدخلوا مع عمال يعملون له فقتلوه، وقد انتقم له ابن أخيه البطل (يزيد بن مزيد).

وكان يزيد صنيعته، وهو الذي كشف نبوغه، ولذلك قصة طريفة.

ورثاه الشعراء المراثي الكثيرة. وكان من أجود ما رُثي به القصيدة الخالدة التي قالها مروان، والتي يقول فيها:

ألمّا على معنٍ وقولا لقبره سقتْك الغوادي مَربعاً ثم مَربعا
فيا قبرَ معنٍ أنت أولُ حفرة مِن الأرض خُطَّت للسماحة موضعا
ويا قبر معنٍ كيف واريت جودَه وقد كان من البرِّ والبحرُ مُترعا؟
بلى قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميتٌ ولو كان حياً ضقتَ حتى تصدّعا
فتىً عِيشَ في معروفهِ بعد موته كما كان بعد السيل مَجراهُ مرتعا

* * *

أَبُودُلامَـــة

لقد أبكيتكم يوم حدثتكم حديث الشاعرة المفجوعة[1]، والأم الثكلى عائشة، واستدررت الدمع من أبخل العيون بالدموع، فدعوني اليوم أضحككم كما أبكيتكم، دعوني أحدثكم عن شاعر خفيف الروح، طالما أضحك الخلفاء والقواد، هو الشاعر المشهور أبو دلامة. ولا تقولوا، أعني لا يقل بعض المتنطعين منكم، وما أبو دلامة والحديث عن أعلام الإسلام[2]. فإن أعلام الإسلام كل رجل كان له في التاريخ ذكر، وكل امرأة كان لها في الحياة الإسلامية أثر، أتحدث عن الأخيار لتقتدوا بهديهم، وربما تحدثت عن الأشرار لتعتبروا بهم، ثم إني أحب أن أنبه أن كل هذه الأخبار التي أحدثكم بها اليوم قد رواها المحدث الكبير الخطيب البغدادي، والقاضي الجليل ابن خلكان، وعنهما نقلتها إليكم، فلا يثر عليّ السادة العقلاء جداً، كما ثاروا يوم حدثتكم عن الحب عند الشريف الرضي، وأنا هنا لأتحدث عن الزاهد العابد والشاعر البليغ، والقائد البارع، والعالم العامل، عن الرجال، وعن النساء، من كل لون وكل باب، ولو اقتصرت على طائفة لا أتعداها لصار الحديث مملولاً، وأنا لا أبالي أن تسبوني، ولكني لا أحب أن تملوني.

وبعد فمن هو أبو دلامة الذي قدمت للحديث عنه هذه المقدمة الطويلة؟

كان كما يقول الخطيب ـ وهذا الوصف له ـ شاعراً مطبوعاً، كثير النوادر

---

(١) هي الشاعرة عائشة التيمورية وسيأتي الحديث عنها في الصفحة ٣٦٩.

(٢) كان عنوان هذه السلسلة في إذاعة دمشق (أعلام الإسلام).

في الشعر، وكان صاحب بديهة يداخل الشعراء ويزاحمهم في جميع فنونهم، وينفرد في وصف الشراب والرياض.

وزاد أبو الفرج أنه كان فاسد الدين رديء المذهب، ولكن الذي روّج له عند الخلفاء: السفاح والمنصور والمهدي، وجعله يتمكن عندهم ولا سيما المنصور، ويأخذ منه على بخله جزيل العطايا، هو صراحته وخفة روحه، وحضور بديهته، وسرعة جوابه على بلاغته ومتانة شعره.

وكان يضحك الخلفاء حتى في المواطن التي لا يسوغ في مثلها الضحك، ماتت حمادة بنت عيسى زوجة المنصور، وخرج الخليفة ووجوه القواد وكبار الرجال في جنازتها، فلما وقفوا على القبر قال المنصور لأبي دلامة يعظه ويذكره: ماذا أعددت ويحك لهذه الحفرة؟ (وأشار إلى القبر).

قال: حمادة بنت عيسى زوجة أمير المؤمنين.

فضحك المنصور وكل من حضر وقال له: فضحتنا قبحك الله.

وخرج مع المهدي وعلي بن سليمان مرة إلى الصيد، فرمى المهدي غزالاً فأصابه، ورمى علي فأخطأ وأصاب سهمه كلباً من كلاب الصيد.

فقال أبو دلامة على البديهة:

قد رمى المهدي ظبياً شك بالسهم فؤاده
وعليّ بن سليما ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما كل امرىء يأكل زاده

فضحك المهدي حتى كاد يسقط عن سرجه، وأجازه.

وكان ينطلق لاستدرار عطايا الخلفاء، دخل مرة على السفاح، فقال له:

سلني حاجتك؟... قال: كلب صيد.

قال: ويلك! أهذه حاجتك؟ كلب؟... قال: نعم..

قال: أعطوه إياه...

قال: يا أمير المؤمنين، فكيف ألحق به، أأعدو على رجلي؟

قال: أعطوه فرساً. . . قال: فمن يخدم الفرس؟

فأمر له بغلام؛ قال: فإن صدت صيداً فمن يطبخه؟

فأمر له بجارية. قال: يا أمير المؤمنين، وهؤلاء يبيتون في الطريق؟

فأمر له بدار. قال: يا أمير المؤمنين، قد صيرت في عنقي جملة من العيال، فمن أين أنفق عليهم؟

فأعطاه مالاً جزيلاً، وقال بقيت لك حاجة؟

قال: نعم. تدعني أقبل يدك. . . قال: أما هذه فلا.

قال: ما منعتني حاجة أهون عليّ منها.

قال الجاحظ: فانظر إلى حذقه في المسألة ولطفه فيها. ابتدأ بالكلب فسهل القصة، وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله ابتداء ما وصل إليه.

وولدت له بنت فغدا على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ولد لي الليلة بنت،. . . قال: وما تريد؟ قال: أريد أن يعينني عليها أمير المؤمنين. وأنشده:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس إنَّ لكم ... مجداً تليداً وأنتم أفضل الناس

قال: فهل قلت في ابنتك شيئاً؟ فأنشد على الفور:

فما ولدتك مريم أم عيسى ... ولا رباك لقمان الحكيم
ولكن قد تضمك أم سوء ... إلى لباتها وأب لئيم

قال: فماذا تحب أن أعينك؟. .

قال: بملء هذه. . . وأخرج خرقة بين أصابعه. . .

قال المنصور: املؤوها له، فلما فتحوها إذا هي كيس من قماش رقيق

جداً متين وسع أربعة آلاف درهم.

ولما قدم المهدي من الريّ دخل عليه أبو دلامة فأنشأ يقول:

إني نـذرت لئن رأيتـك سـالمـاً بقـرى العـراق وأنـت ذو وفـر
لتصلين عـلى النـبي محـمـد ولـتـمـلأن دراهمـاً حـجـري

فقال: صلى الله على محمد، أما الدراهم فلا.

قال: أنت أكرم من أن تفرق بينهما ثم تختار أسهلهما...

فأمر بأن يملأ حضنه دراهم.

ومن حسن تخلصه أنه دخل مرة على المهدي، وعنده جلة القواد ووجوه بني هاشم، فقال له المهدي ليضحك منه: أحلف لئن لم تهجُ واحداً من هذا المجلس لأضربنك ضرباً مبرحاً... فجعل ينظر في وجوه القوم، فكلما نظر إلى واحد غمزه بأن يعطيه، فما كان منه إلا أن هجا نفسه فقال:

ألا أبـلغ إلـيـك أبـا دلامـة فليس من الكـرام ولا كـرامـة
إذا لبس العـمـامـة كـان قـرداً وخنـزيـراً إذا نـزع العـمـامـة
فإن تـك قـد أصبت نعيم دنيا فـلا تفرح فقـد دنت القيـامـة

فضحك القوم، ولم يبق أحد إلا أجازه.

ومن طرائفه أنه دخل على المهدي وهو يبكي، قال: مالك؟

قال: ماتت أم دلامة. وأنشده قوله فيها:

وكنـا كـزوج من قـطا في مفـازة لدى خفض عيش ناعم مونق رغد
فـأفـردني ريب الـزمـان بفقـده ولم أر شيئاً قط أوحش من فـرد

فأمر له بثياب وطيب وأموال، وخرج، فدخلت أم دلامة على الخيزران تبكي، وأعلمتها أن أبا دلامة قد مات، فحزنت لها وأعطتها مالاً.

فلما دخل المهدي على الخيزران قالت: قد مات أبو دلامة. قال: بل أم دلامة التي ماتت.

قالت: كيف وقد كانت عندي، قال: بل هو الذي كان عندي.
وعرفا الحيلة فضحكا...

وكان جباناً يفر من القتال ويحتال لذلك بشتى الحيل. واضطر مرة إلى الخروج في جيش روح بن حاتم المهلبي لقتال الخوارج، فكانت القصة من أعجب القصص، فيها حل لهذه المشكلة التي استعصت على الحلول مشكلة الحرب.

كان قريباً من الأمير في المعركة، فغلب عليه ما ركب في نفسه من الطمع، وجرب إحدى حيله، فقال للأمير: أما والله لو أن تحتي فرسك ومعي سلاحك لفعلت في العدو الأفاعيل... فضحك الأمير، وقال: والله العظيم لأدفعن إليك ذلك، ولآخذنك بالوفاء بشرطك. ونزل عن فرسه، وأعطاه سلاحه، ودفعهما إليه دفعاً...

قال أبو دلامة: فلما حصل ذلك في يدي، وزالت عني حلاوة الطمع قلت: أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، وقد قلت بيتين فاسمعهما، قال: هات فأنشدته:

إني استجرتك أن أقدم في الوغى ... لتطاعن وتنازل وضراب
فهب السيوف رأيتها مشهورة ... فتركتها ومضيت في الهرّاب

قال الأمير: سترى ما أصنع بك إن هربت... وبرز فارس من الخوارج، بطل من الأبطال ما بارزه أحد إلا قتله. قال: اخرج إليه يا أبا دلامة.
قلت: الله الله أيها الأمير في دمي... قال: والله لتخرجن.

فلما رأيت منه الجد قلت: أيها الأمير، فإنه أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا، فأمر لي برغيفين ودجاجة محمرة، فأنا والله جائع، ما شبعت من الجوع، فأمر له به، وقال: وبشيء من الحلوى وفاكهة... فأخذته وبرزت عن الصف. فلما رآني الخارجي أقبل عليّ، وسيفه في يده، وعيناه تقدان[1]، وعليه فرو قد أصابه المطر فابتل، وأصابته الشمس فانفتل، فكان كأنه الوحش...

(١) من وقد يقد، مثل وعد يعد.

فقلت: على مهلك يا هذا، قف نتكلم أولاً، فتوقف، هل تقاتل من لا يقاتلك؟

قال: لا. قلت: أتقتل رجلاً على دينك؟... قال: لا.

قلت: فلماذا تقاتل؟.. قال: اذهب إلى لعنة الله.

قلت: لا أفعل أو تسمع مني.. قال: قل...

قلت: هل كان بيننا عداوة قط أو ثأر أو تعرفني بحال تغضبك عليّ أو تعلم بين أهلي وأهلك ثأراً؟ قال: لا والله... قلت: ولا أنا والله. وإني لأهواك وأنتحل مذهبك وأدين دينك وأريد السوء لمن أراده لك.

قال: يا هذا جزاك الله خيراً، فانصرف.

قلت: إن معي زاداً أحب أن آكله معك، وأريد مؤاكلتك؛ لتتأكد المودة بيننا؛ ويرى أهل العسكر هوانهم علينا. قال: فافعل.

فنزلنا عن أفراسنا، وقعدنا على الأرض نأكل، والعسكران قد ماتا من الضحك.

فلما استوفينا ودعني، ثم قلت: إن هذا الجاهل يعني الأمير، إن أقمت على طلب المبارزة ندبني إليك فتتعبني فانصرف راشداً. فانصرف.

ومن مجونه أنه مرض ولده؛ فاستدعى طبيباً ليداويه، وشرط له أجراً معلوماً. فلما برىء قال: والله ما عندنا شيء نعطيك، ولكن ادع على فلان اليهودي حتى أشهد لك أنا وابني شهادة زور. فمضى الطبيب إلى قاضي الكوفة، وهو الإمام الجليل ابن أبي ليلى، فادعى عليه، وأنكر اليهودي قال: لي بينة، وذهب فأحضر أبا دلامة وولده، وخاف أبو دلامة ألا تقبل شهادته لفسقه؛ فأنشد في الدهليز قبل أن يدخل بحيث يسمعه القاضي:

إذا الناس غطوني تغطيت عنهم   وإن بحثوا عني ففيهم مباحث

فلم يكن من القاضي إلا أن دفع للطبيب الأجرة من ماله، وأعرض عن الدعوى.

هذه صورة شاعر ماجن، لا أسردها لتكون قدوة للناشئين، بل لتكون سلوة للسامعين، وليحمد الله ذو الدين على دينه وذو الوقار على وقاره.

أردت منها أن أضحككم اليوم كما أبكيتكم بالأمس، وكذلك ننتقل في هذه الأحاديث بين دين ودنيا، وجد وهزل، وعقل وقلب، لنضرب في كل طريق، وندخل كل قلب.

وأعتذر إلى من لا يعجبه إلا الجاد النافع من الأحاديث.

* * *

تَوضِيح

كل يوم يمضي يصير تاريخياً، وما مرَّ من فصول هذا الكتاب إنما كان أخبار (رجالٍ من التاريخ) البعيد، وما سيأتي ممّا لم يكن في الطبعات السابقة للكتاب هو من أخبار (رجالٍ من التاريخ) القريب، ضممته إليه، وألحقته به.

فكانت هذه الطبعة حاوية بحمد الله لما ليس في الطبعات السابقة، أسأل الله أن ينفع بها، وأن يثيبني عليها.

عَائِشَةُ التَّيْمُورِيَّة

جئتُ اليوم أحدثكم في الأدب، وأخاطب فيكم العاطفة، وأُزجي لكم الحديث عن امرأة خلّدها البيان، امرأة وُلدت سنة ١٢٥٦ هجرية وماتت من نحو خمسين سنة[1]. وأنتم تعرفون ما كانت حال النساء في تلك الأيام، كن أسيرات الجهل وضيق الفكر واستبداد الرجل، فكان من أعجب العجب أن تنشأ فيهن شاعرة مجوّدة وكاتبة بليغة، فاقت أدباء عصرها، وسبقت في مضمار الرثاء العاطفي أدباء العصور كلها، وكانت واحدة جمعت عجيبتين اثنتين: أولها أنها شاعرة مجوّدة، والمجوّدات في الشعر من النساء أقل من القليل، لا في العربية وحدها، بل في كل ألسنة العالم، والأدب العربي على طوله لم يعرف مئة من الشاعرات المجوّدات، على حين قد عرف عشرة آلاف من مجوّدي الشعراء. والثانية أنها نشأت في عصر تلك حال المرأة فيه.

وأُحب أن أنبهكم إلى أن الإسلام بريء مما أصاب المرأة، وأن التاريخ الإسلامي حافل بذكر العالمات الأديبات من النساء في عصوره كلها حتى في العصر الماضي، وفي مكتبتي الآن أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة لمن نبغ من نسائنا، وفي كتب الجرح والتعديل ذكر المئات من المحدثات اللائي كن أساتذة الرجال، وكثير من المحدثين عندما يذكرون أساتذتهم يعُدون أساتذة من النساء، وقد سمعتم في حديث الصالحية ذكر العشرات من العالمات في آل قُدامة وحدهم، ولو حسبتم العالمات النابغات من نساء المسلمين الذين اعترف لهن الرجال وجلسوا بين أيديهن وأخذوا عنهن، وأمثالهن من نساء أمم الغرب كلها لرأيتم أنه ليس

(١) من تاريخ إذاعة هذا الحديث من إذاعة دمشق سنة ١٣٧٠ هـ.

عندهم واحدة مقابل كل عشرة عندنا، ونسمع بعد ذلك من يقول: إن الإسلام هو الذي صيّر المرأة على هذه الحال.

لا، ولكن الإسلام أمر بالعلم ودعا إليه، وأمر بأن تكون المرأة عفيفة شريفة محتشمة متسترة بعيدة عن مواطن الريب ومداعس الزلل، لأن العلم الذي لا يجيء إلا بذهاب الشرف خير منه الجهل.

وبعد، فهذه الشاعرة الأديبة الكاتبة التي شقّت الطريق لأترابها والتي سبقت زمانها، والتي كانت أعجوبة في بيانها هي السيدة (عائشة التيمورية) أخت العلامة المحقق أحمد تيمور رحمه الله، وعمة رائد الأقصوصة العربية ابنه محمد تيمور وأخيه كبير القصصيين المصريين اليوم محمود تيمور.

نشأت في أسرة تركية غنية، فتعلمت القراءة والكتابة في القصر على طريقة بنات الأكابر، فتنبّهت في نفسها الرغبة في المطالعة والإشراف على مجالس العلم في القصر، ولكن أمها أرادتها على ما كان من شأن أترابها الخياطة والتطريز، وأبت البنت إلا ما تميل إليه فطرتها، واستمرت المعركة حتى برز الأب اسماعيل تيمور فقال لها: دعي هذه البنت للعلم، وعليك بأختها ربّيها كما تريدين، وأحضر لها المعلمين والمعلمات، فأخذت النحو والعروض عن فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية، وهذا يدلكم على أنه لم يخْلُ ذلك العصر من عالمات وأزهريات.

والصرف والفارسية على علي خليل رجائي، والقرآن والخط والفقه على إبراهيم تونسي، وحفظت عشرات الدواوين، وطالعت كتب الأدب حتى صارت تنظم بالعربية والفارسية والتركية، ولها دواوين فيها جميعاً، ولم يكن يفوقها من شعراء عصرها إلا البارودي (ذاك أمّة وحده) والساعاتي، ولها كتابة، منها المسجّع، ومنها المُرسل، ومنها البليغ، وهي أول من دعا إلى تعليم المرأة، ولها في ذلك مقالات واشعار، وكانت تحبّذ الحجاب، وترى أنه لا يمنع من العلم والأدب، ولها القصيدة المشهورة:

بيَد العفاف أصونُ عزَّ حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرةٍ وقّادةٍ وقريحةٍ ... نقّادة قد كمّلت آدابي
ما ضرّني أدبي وحُسن تعلّمي ... إلاّ بكوني زهرة الألباب

ما ساءني خدري وعقد عصابتي — وطراز ثوبي واعتزاز رحابي
ما عاقني خجلي عن العليا ولا — سدْل الخمار بلِمّتي ونقابي
عن طيِّ مضمار الرهان إذا اشتكت — صعب السباق مطامح الركاب

عاشت في سعة من العيش وإقبال، ورُبّيت في العز والدلال، ولكن الدهر الذي لا يدوم على حال رماها بالنكبة التي تصدع قلوب الأبطال من الرجال، فكيف بشاعرة من ربات الحجال مرهفة الحس رقيقة القلب تعيش بالعاطفة والحب؟! أصابها بما لم تطق له احتمالاً، كانت لها بنت اسمها (توحيدة)، جمع الله لها جمال الخلق وسمو الخُلق، فيّاضة الأنوثة، ساحرة الطرف، بليغة النطق، مهذبة الحواشي، ما رآها أحد إلاّ أحبها، وبلغت ثماني عشرة سنة وتزوجت، فما مر على عرسها شهر حتى أصابها مرض مفاجىء فماتت.

وروّعت عائشة الصدمة وشدهتها، ولم تستطع التصبر، ونسيت كل شيء إلا ابنتها، وتركت كل شيء إلا الانقطاع لرثائها، ولبثت على ذلك سبع سنين كوامل، قالت فيها قصائد تبكي الصخر وتحرك الجماد، وأثّر طول البكاء في عينيها؛ فلم تعُد تُبصر، ثم ألهمها الله الصبر بعد سبع سنين، وشُفي بصرها، ولكنها لم تنس هذه النكبة أبداً، وهاكم أبياتاً من قصيدة واحدة لها لا أعرف في الشعر العربي أحدَّ منها حساً، ولا أظهر عاطفة ولا أبلغ في إثارة الأسى، وهي في هذا ـ لا في جودة السبك وروعة البيان ـ تفوق ما قالت الخنساء في أخيها، وما قال ابن الرومي في ابنه، وتفوق قصيدة التهامي المشهورة في ولده.

بدأت القصيدة تصف روعة الخطب ولوعة الحزن فقالت:

إنْ سالَ من غرب العيون بحورُ — فالدهرُ باغٍ والزمانُ غَدورُ
فلكلِّ عينٍ حقُّ مِدرار الدِّما — ولكلِ قلبٍ لوعةٌ وثُبورُ
ستر السّنا وتحجبت شمسُ الضحى — وتغيَّبتْ بعد الشروق بدور
ومضى الذي أهوى وجرّعني الأسى — وغدتْ بقلبي جذوةٌ وسعير
يا ليْته لما نوى عهد النوى — وافى العيونَ من الظلام نذير

ثم أخذتْ تصف كيف بدأ بها المرض في رمضان سحراً، ألمَّ بها على شبابها وصغرها، فلما أصبحوا جاءوا بالطبيب فكتب لها الدواء وبشّرها بالشفاء:

طافتْ بشهر الصوم كاساتُ الردى	سَحَراً وأكوابُ الدموع تدورُ
فتناولت منها ابنتي فتغيّرتْ	وجَنَاتُ خدٍّ شانها التغيير
فذَوَتْ أزاهيرُ الحياة بروضها	وانقدّ منها مائسٌ ونضير
لبستْ ثيابَ السُقم في صغر وقد	ذاقتْ شراب الموت وهو مرير
جاء الطبيبُ ضُحى وبشّر بالشّفا	إن الطبيب بطبّه مغرور
وصفَ التجرّع وهو يزعمُ أنه	بالبُرء من كل السقام بشير

واسمعوا كيف استبشرت الفتاة بدواء الطبيب، وسألته التعجيل بشفائها لأجل شبابها، بل من أجل والدتها التي حرّمت على نفسها طِيبَ المنام:

فتنفّستْ للحزن قائلةً له	عجّلْ ببُرئي حيث أنت خبيرُ
وارحم شبابي إن والدتي غدت	ثكلى يُشيرُ لها الجوى وتشير
وارأفْ بعينْ حرّمت طِيبَ الكرى	تشكو السهاد وفي الجفونِ فُتور

وأمسكوا الآن بقلوبكم لا يصدعها الحزن، وبعيونكم لا يقرّحها البكاء، واسمعوا هذا المقطع الذي بلَغتْ فيه الشاعرة الذروة، وسبقت فيه كل من قال مرثية عاطفية. اسمعوا البنت وقد رأت عجز الطبيب فداخل قلبها اليأس وتصورت الموت وانطلقت تودع أمها:

لما رأتْ يأسَ الطبيب وعجزَه	قالت ودمعُ المقلتين غزيرُ:
أمّاه قد كَلَّ الطّبيبُ وفاتني	ممّا أؤمّلُ في الحياة نصيرُ
لو جاء عرّاف اليمامةِ يبتغي	بُرئي لردَّ الطرفَ وهو حسير
يا روْعَ روحي حلّها نزْعُ الضّنى	عما قليلٍ وُرقُها ستطير
أمّاه قد عزّ اللقاءُ وفي غدٍ	سترَيْن نعشي كالعروس يسير
وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي	هو منزلي وله الجموعُ تصير
قولي لربّ اللحد رفقاً بابنتي	جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلّدي بإزاء لحدي بُرهةً	فتراكِ روحٌ راعها المقدور
أمّاه قد سلَفت لنا أمنيَةٌ	يا حُسنَها لو ساقها التيسير
كانت كأحلامٍ مضتْ وتخلّفتْ	مُذ بانَ يوم البيْنُ وهو عسير

وتصوروا الأم وهي تعود إلى الدار فلا تلقى ابنتها، وترى جهاز العرس

ما زال باقياً، ولكن العروس قد أُودعتْ حفرة باردة، وأُهيلَ عليها التراب، ويرن في أُذنها صوت هذه العروس تقول لها وهي تعالج جذب الموت:

عـودي إلى ربْـعٍ خـلا ومآثر ... قـد خُـلّفت عـني لهـا تـأثـيرُ
صـوني جهاز العـرس تذكـاراً فـلي ... قـد كان منـه إلى الزفـاف سـرور
جرّتْ مصائبُ فُرقتي لكِ بعـد ذا ... لُبسَ السـوادِ ونُـفِّـذ المسـطور
والقبـرُ صـار لغُصنِ قـدِّي روضـةً ... ريْحـانُها عـنـد المزار زُهـور
أمّـاه لا تـنـسَـيْ بحـقّ بُنـوّتي ... قـبـري لئـلا يَحـزنَ المقـبـور

وهاكم جواب الأم:

فـأجبتُهـا والـدمعُ يحبسُ مَنـطقي ... والـدهـرُ مِن بُعـد الجوار يجـور:
بنـتـاهُ يـا كـبـدي ولـوعـةَ مُهجتي ... قـد زال صفـوٌ شـأنُـه التكـديـر
لا تـوصي ثكلى قـد أذابَ فؤادها ... حُـزنٌ عـليـك وحـسـرةٌ وزفـير
قسـماً بغضّ نـواظـري وتـلهّفي ... مُـذ غـاب إنسـانٌ وفـارق نـور
وبقُبلتي ثغـراً تـقـضّـى نـحبُـه ... فحُرمت طِيبَ شـذاه وهـو عـطير
والله لا أسلـو التـلاوة والـدُعـا ... مـا غـرّدتْ فـوق الغصون طيـور
كـلا ولا أنسى زفـير تـوجّـعي ... والقـدُّ منكِ لـدى الثرى مـدثـور
إني ألِـفْـتُ الحـزنَ حـتى أنـني ... لـو غـاب عني سـاءني التـأخـير
قد كنتُ لا أرضى التباعـدَ برهـةً ... كـيف التـصـبّـرُ والبـعـادُ دهـور
أبـكيـكِ حـتى نلتـقـي في جنّـةٍ ... بـريـاضِ خُـلدٍ زيّنتْهـا الحـور

يا أيها السامعون..

أرأيتم كيف نسِيتُم مصائبكم وبكيْتُم لمصاب هذه الفتاة التي ماتت من ثمانين سنة[1]؟! هذه عظمة الشعر رحمةُ الله على هذه الشاعرة التي لم يظهر بعدها مثلها.

* * *

(١) من تاريخ نشر هذا الكتاب.

الشيخ طاهر الجزائري

هذا رجل لا يكفي للحديث عنه مقالة ولا رسالة، لأن له في كل مظهر من مظاهر الحياة في الشام اليوم أثراً، وفي كل ناحية من نواحي الإصلاح عملاً، ولأنه باعث نهضة، وكان معلم جيل.

هل هلال النهضة العربية في بلاد الشام، ومن الشام (ساحله وداخله)، انبعثت أنوارها حتى ملأت دنيا العرب فكانت نهضة عربية إسلامية، حفزت العرب إلى الزهو بمجد آبائهم، والعمل على إعادة ذلك المجد. تسلحوا لها بالعلم، وكان الشيخ من أوائل من رغب فيه، ودفع إليه. وعادوا إلى اللغة الفصحى والبيان العربي، وكان في مقدمة من أعاد الناس إلى الفصحى وجلا لهم وجه البيان، وبنوها على الهمم الشم والعزائم الرواسخ، وكان من السابقين إلى تثبيت هذه العزائم، وإعلاء تلك الهمم، وهو الذي تخرج به الصفوة المختارة من رجال الرعيل الأول، في العلم وفي الأدب وفي السياسة.

ولم آسف على فوات لقائي برجل من رجال هذا العصر، كما أسفت على أني لم ألق الشيخ طاهراً الجزائري، وأن كل حظي من قربه أني شيعت (رحمه الله) جنازته. ولكني قرأت الكثير عنه، ورويت الكثير من أخباره عن أقرب الناس إليه، أستاذي محمد كرد علي رحمهما الله وخالي محب الدين الخطيب، ولقد عرفت رجالاً، وسمعت برجال كانوا أعلم علماً، وكانوا آدب أدباً، وكانوا أكتب، وكانوا أخطب، وكانوا أعظم جاهاً، وأضخم اسماً، وأبعد ذكراً من الشيخ طاهر، ولكن للشيخ طاهر مزية. لم يكن مثلها (فيما أعلم) لواحد منهم ـ

اللهم - إلا جمال الدين الأفغاني، الذي كان صوته أول صوت أهاب بالقافلة النائمة أن تستيقظ وتعاود المسير- وسرا في نشأته وفي خلقه، هو أنه كان يترك أثراً من الخير أينما حل، فكان مجلسه حيثما جلس مدرسة، ولقاؤه أينما لقيته درس، يعلمك مسألة، أو يرشدك إلى كتاب، أو يلقنك خلقاً من أخلاق الخير، وكان يعلم بفعله لا بقوله، دعا إلى النظر في الكتب، فلم يكد يدع كتاباً لم ينظر فيه، ودعا إلى التأليف فكان له من التواليف ما عده من مكثري المصنفين، ودعا إلى حفظ الوقت، فلم يكن يضيع من وقته لحظة في عمل غير نافع، ودعا إلى ترك هذه المجاملات والرجوع إلى أخلاق المسلمين الأولين، من الصراحة والصدق، وقصد الحقائق وترك الأباطيل، فكانت حياته كلها كذلك.

وكاد ييأس المصلحون، ولكن الشيخ لم ييأس، ولم ير مستحيلاً إيقاظ هؤلاء العرب، الذين ناموا دهوراً طوالاً تحت أغطية الجهل والعامية والخمول، ولم يسلك طريق الطفرة، فالطفرة لا تأتي بخير، ولا الثورة، فالثورة تبيد ولا تشيد، بل عمد إلى إزالة أسباب الداء، وإلى الترغيب في العلم، والحث عليه ليحارب الجهل، ورد الناس إلى اللغة، وتعريفهم فضلها، ليدفع العامية، ونشر أخبار السلف، وتاريخ الفتوح، لينفي الخمول.

وكان يعطي كلاً ما يناسبه، كالطبيب الذي يحمل دواءه الشافي، ويدور على المرضى، فلا يعطي إلا بمقدار، ولا يداوي إلا عن بينة من المرض، يجمع حوله طائفة من أعلام الشباب، هم صفوة خلطائه وعيون مريديه، فيصرح لهم الرأي، ويبين لهم الطريق، وطائفة من الشيوخ يعرض لهم تعريضاً، ويمهد لهم تمهيداً، وطائفة من الفتيان ينشئهم على برنامجه، ويسيرهم من حيث لا يشعرون في طريقه، وطائفة من العامة يقنع منهم بتقويم الأخلاق، وإصلاح المجتمع، وكان يجالس الموظفين الكبار والباشوات الأتراك، يأمل أن ينال منهم خيراً، وقد نال منهم في الحقيقة خيراً كثيراً.

كانت الكتب المخطوطة متفرقة في المساجد والزوايا، يخشى عليها الضياع، ويخاف التلف، فعمل على جمعها في مدرسة الملك الظاهر (التاريخية) في دمشق، فقام عليه الجاهلون من أصحاب النظر القصير أعداء كل إصلاح،

وقالوا (شرط الواقف)، فاستعان عليهم بصديقه الوالي حمدي باشا، ولولا صداقته إياه لضاعت هذه الكتب، ولم تنشأ دار الكتب الظاهرية التي نعدها اليوم من مفاخر الشام.

وكان التعليم في دمشق: الكتاتيب للصغار، وحلقات المساجد للكبار، فكان من أكبر العاملين على افتتاح المدارس العصرية، ووضع بذور (المعارف) في سورية، والغريب أنه قد افتتح مدارس للبنات من تلك الأيام، وأن الناس قد أقبلوا عليها، ولدى عمتي التي تعيش معنا إلى اليوم[1]، شهادة عليها خاتم الشيخ طاهر تاريخها سنة ١٣٠١ هـ. ولولا صلته برجال الحكم من الأتراك ما كانت المدارس.

وكان في طرف مقبرة الباب الصغير تل، لا يمسي مساء كل يوم، حتى يستحيل إلى ساحة حرب، يقتتل فيه أهل الميدان وأهل الشاغور، بالحجارة والعصي، عصبية جاهلة كان لها في بلاد العرب كلها أمثال: فمثل (الزكرتكيات) في الشام (الفتوات) في مصر، و(القبضايات) في لبنان و(أبو جاسم لر) في العراق.

وعلم الشيخ (وكان من أعلم الناس بخطط دمشق) أن تحت هذا التل مدافن نفر من آل البيت، فسعى حتى أزال التل، وأبرز القبور، وآخى بذلك بين الحيين، وإن كان قد فتح بذلك باباً جديداً للبدع المنكرة من حيث لا يريد.

* * *

وكان أشد خلق الله تشجيعاً للناشئين، وتنشيطاً للعاملين، يحاول أن يوصل الناس جميعاً إلى المثل الأعلى، لا يرفعهم جميعاً إليه، فإنه لا يمكن أن ترفع الناس كلهم إليه، ولكنه يقربه إليهم، ويسهل بلوغه عليهم، حتى ترتفع بهم هممهم إلى محاولة بلوغه. وكان يقول لأصحابه:

ـ إن جاءكم من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام فلا تقولوا له: إن هذا مستحيل، بل علموه. فلعل اشتغاله هذه الثلاثة الأيام بالنحو، تحببه إليه، فيقبل عليه.

---

(١) توفيت رحمها الله بعد كتابة هذا الفصل.

وكان كلما رأى مخايل النجابة في أحد سيره في طريق العلم، ووصله بشعبة من شعبه، وكان أكثر اهتمامه بإدخال العلم إلى بيوت (الأكابر) وهو الذي دفع صديقنا الأستاذ سامي العظم (وكيل وزارة العدل السورية بالأمس ونزيل مصر اليوم[1] إلى طريق الباب.

وكان له وهو شيخ ذهن رجل درس في أوربة، معرفة بقيمة هذه العلوم الجديدة، وبالصحافة وأثرها، وبالعمل المنظم. فرغ من أمر طعامه ولباسه، فكان مضرب الأمثال في ذلك، وكانت ثيابه عجباً من العجب، لأنه لم يكن يفكر فيها، ولا يريد منها أكثر من أن تستر وأن تدفىء، وكان يتخذ من جيوب الجبة مكتبة، ففي جيب[2] كتاب مخطوط، وفي جيب رسالة، وفي جيب أوراق ودفاتر، وفي الجيب الرابع... خبز وقطع من الجبن ومن الحلاوة...

حدثني الشيخ قاسم القاسمي رحمه الله، أن أصحابه رأوا جبته قد أبلتها الأيام وصيرتها شيئاً نكراً، فاحتالوا عليه حتى اشترى جبة جديدة، وأخفوا عنه القديمة فاضطر إلى لبسها، ولم يكن أصعب عليه من لبس الجديد، وذهبوا به إلى مجلس في (دمر) في قصر الأمير عمر الجزائري، وكان المجلس حول بركة عظيمة لها نافورة عالية مشهورة، وكان فيه جلة علماء ذلك المشرب، الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي وأمثالهما، وإذا بالشيخ ينزع الجبة، ويقوم بها إلى البركة فينزل بها فيها: غمساً غمساً، ثم ينشرها على شجرة، حتى تجف وتنكمش وتقرمد فيلبسها، وسأله سائل منهم، فيقول:

ـ كانت جديدة شغلتني بالخوف عليها عن العلم، فالآن استرحت من التفكير فيها.

كان يسهر الليل كله، يدور على بيوت أصحابه ومريديه، أو يقبع يدرس ويؤلف، وكان أكثر مقامه في مدرسة عبد الله باشا في طريق بين البحرتين في دمشق القديمة، فإن كان مشغولاً وطرقه طارق، أطل فقال له: «مشغول، عد في وقت آخر»، مهما كانت منزلته.

حدثني أحد وجهاء العامة، قال:

---

(١) توفي بعد كتابة هذا الفصل رحمه الله.

(٢) الجيب فتحة عنق القميص لكن استعملت الكلمة بالمعنى الذي يعرفه الناس.

ـ ذهبت إليه مرة، فردني، وأبى أن يدخلني، فتألمت وأزمعت هجره، ثم قلت، أعامله بمثل ما عاملني به، فجاءني مرة، ففتحت له، وقلت: «مشغول، عد في وقت آخر»، فذهب مسروراً يقول: «بارك الله، هكذا، هكذا، (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا)، صدق الله».

فإن دخل عليه الغليظ من حيث لا يشعر، دفع إليه كتاباً، وقال: «خذ، اقرأ هذا»، وتركه وعاد إلى ما كان فيه. ومن قوله في ذلك: «إشْغَلوهم (يعني الغلاظ) قبل أن يشغلوكم».

وكان يطيل المشي وحده، ومعه كراس ينظر فيه، مشى يوماً في (وادي الشاذروان) في دمشق، وهو أجمل أودية الدنيا بإجماع أئمة الذوق، فلحقه أحد الثقلاء، وكان من عادة الشيخ الإسراع في المشي. فجعل يسايره يسرع معه، يحدثه حديثاً له أول وليس له آخر، عن جده الذي مات ومن ورثه، وكيف قسموا الإرث، وخلاف من خالف في ذلك، وما يقول كل من الفريقين المختلفين، حتى وصل معه إلى قريب (الهامة)، والشيخ لا يسمع منه ولا يلتفت إليه، حتى انتهى فقال:

ـ سيدي. هل أصبنا أم أخطأنا؟

فما رد عليه، فأمسك بيده حتى إذا انتبه، قال:

ـ هل أصبنا أم أخطأنا؟

ـ قال: نعم بلى (وكانت هذه لازمته) نعم بلى، الإنسان يخطيء ويصيب، الإنسان يخطيء ويصيب.

وترك الرجل مصعوقاً من الدهشة، ومضى...

* * *

أما إباؤه، وعزته في نفسه، فلم يكن بعدهما زيادة لمستزيد.

نزح إلى مصر، لما ضاقت الشام وحكامها بدعوته وأخذ يبيع من كتبه ومن ذخائر المخطوطات التي أفنى حياته في اقتنائها، وكان يأبى الثمن الغالي ـ

مكتبة المتحف البريطاني، وأمثالها من المؤسسات الأجنبية، أو من أفراد الناس الذين يشترون الكتب للتجارة، ويبيع بنصفه لدار الكتب المصرية، ليبقى الكتاب في أيدي العرب، ولا يخرج منها إلى أيدي الإفرنج.

فلما كادت تنفد كتبه، سأل أحمد تيمور باشا الشيخ علي يوسف أن يكلم الخديو (وذلك سنة ١٩١٣) في منحه مرتباً دائماً أسوة بمن كان يمنحهم المرتبات من العلماء والأدباء، ونجحت الوساطة، ومنح الراتب، فلما خبر به غضب أشد الغضب، وقال للشيخ علي:

ـ كأني بك قلت للخديو: إن الشيخ طاهر أثنى عليك. نعم إني أثنيت عليه لتأييده مشروع زكي باشا في خدمة الكتب العربية، ولكن ما الذي يضمن لك، ألا يأتي الخديو بضد هذا العمل الطيب يوماً فأذمه؟ فلماذا تسود وجهك بسببي؟ ومن أذن لك أن تدخل نفسك في خصوصيات أمري، اذهب فأبطل ما سعيت بإتمامه. . .

ورجع يعيش عيش الكفاف والتقتير بأثمان ما بقي من كتبه.

فكان الشيخ علي يوسف، يقول بعد ذلك:

ـ كنت أظن أن هذه الطبقة قد انقرضت، فلما رأيت الشيخ طاهراً علمت أنه لا يزال على وجه الأرض بقية منها.

* * *

وبعد فإني ما رأيت الشيخ، ولكني رأيت آثاره الخيرة في كل مكان، والثناء عليه وذكر مناقبه على كل لسان.

كان من المؤلفين المكثرين، إن عد المؤلفون المكثرون، وكان من أئمة المربين إن ذكر المربون، وكان من رؤوس المصلحين، ومن العلماء العاملين، وكان من الأركان الكبار في هذه النهضة التي نأوي اليوم إليها، ونتفيأ ظلالها، وننعم بخيراتها.

رحمه الله، وطيب ذكراه.

الشَّيخُ بَدْرُ الدِّين الحَسَني

لقد فتحت عيني على الدنيا، وأنا أسمع الناس في دمشق، العالم منهم والجاهل، يصفونه بأنه شيخ الشام، وأنه المرجع في كل أمر - في الخاص والعام إن قال وقف العلماء عند قوله، وإن أمر لم يخالف أحد عن أمره، يجمعون على تقديمه وتعظيمه، يرون طاعته من طاعة الله، لأنه يبين للناس حكم الله، ويعلمهم شريعة الله، ولئن كان الشيخ طاهر الجزائري رجل الإصلاح، فهذا رجل العلم.

رجل عاش ثمانين سنة بالعلم وللعلم، ما جرى فيها بغير العلم لسانه إلا أن تكون كلمة لا بد منها، يوجز فيها العبارة، ويستعين على إفهامها بالإشارة، ثم يعود إلى درسه وكتابه، ما ترك الدرس قط ولا يوم وفاته، وما تركه إلا ساعة احتضاره، الرجل الذي لبث ثمانين سنة، ما مس جنبه الأرض وما اضطجع إلا في مرض الموت ما مرض قبل ذلك قط وما نام كما ينام الناس، بل كان يجلس في الليل ليقرأ فإذا غلبه النعاس اتكأ برأسه على وسائد أعدت له فأغفى ساعتين أو ثلاثاً من الليل متقطعات ومن النهار ساعة، الرجل الذي كان يراقب الله والناس عنه غافلون، ويقرأ العلم ويسبح والناس نائمون. تخلف عن قافلة العلماء العاملين الأولين إبراهيم والحسن وسعيد والسفيانين ليجيء وحده في آخر الزمان وما تنكب عن السنن ولا حاد عن الطريق، كما تتخلف الزُّهَرة عن النجوم لتكون نجمة الصبح هادية المدلجين ومرشدة الضالين، وكما تتخلف الزَّهْرة الأخيرة في الروض لتكون هدية الملوك وتحفة الأبهاء.

كان عجباً في علمه وإحاطته واستقامة ذاكرته التي لم تلوها الأيام، وتوقد

ذهنه الذي لم تطفئه السنون، عجباً والله لا ينقضي به الإعجاب، كان فهرساً حياً لكل مخطوط ومطبوع من الكتب، في كل فن فلا تكاد تسأله المسألة حتى يقول لك هات الكتاب الفلاني، وافتح، فتفتح كيفما جاء معك فيقول: قبل أو بعد حتى إذا دنوت أخذ الكتاب فقلب صفحتين أو ثلاثاً فإذا جواب مسألتك كأنما وضعه بيده. كان هذا شأنه أبداً لم تكن هذه نادرة من نوادره وكان ذلك منه في صعاب المسائل وغرائبها. يقع عليها في غرائب الكتب قبل أن تقع أنت على الكلمة في القاموس، وكان والعلماء في دمشق متوافرون، وأهل الاختصاص كثيرون، يعد الإمام المرجع في كل فن: في اللغة وغريبها وفي الصرف وفي النحو وفي فقه المذاهب الأربعة المدونة، والمذاهب التي لم تدون، مذاهب الصحابة والتابعين والأئمة من أمثال الأوزاعي والليث والظاهري والطبري وفي البلاغة وفي الحديث رواية ودراية، وفي معرفة الرجال والأسانيد، وفي الكلام والفلسفة والأخبار، يقرأ دائماً لا يشغله عن القراءة إلا أن يكون نائماً أو في صلاة أو درس، أو في طريقه من المسجد إلى البيت، ما فارق الكتب قط، ولا استعان على النظر بنظارة، وقد مات وهو حديد البصر صحيحه، ما أحب في الدنيا غير الكتب، وأواني الخزف الصيني، فكان يشتري الكتاب يسمع به ولو كان مطبوعاً في أقصى الهند، ويشتري المخطوط ولو بوزنه ذهباً، ولا يدع كتاباً حتى يقرأه، أو يتصفحه تصفح المتثبت كأن عينيه زجاجة فتوغراف ودماغه لوحته، فلا يرى مسألة إلا ثبتت صورتها فيه إلى الأبد. وكان يقرأ ويقرىء أبداً ما شاء وشاء الطالب، اقرأ الرياضيات قوماً لما طلبوها منه والفلك والفلسفة كما أقرأ الحديث وكان درسه في الأموي أعجوبة من رآها ووعاها فقد رأى إحدى عجائب الزمان، وكان كمجالس الإملاء الأولى التي كانت الدعائم الكبرى في صرح تاريخنا العلمي، وإذا كان السيوطي قد قال إنه آخر من أملى في اللغة والحديث فقد قال ذلك لأنه لم يدرك الشيخ بدر الدين وكم ترك الأول للآخر.

وأعرف من كتب من هذا الدرس عشر مجلدات ضخام وفيه يبدو علم الشيخ وهذه الذاكرة التي لا تمن بمثلها الدنيا مرة كل مائة سنة، فكان يأخذ حديثاً كيفما جاء، فيذكر طرقه كلها، ويعرف بالرواة جميعهم، ثم يشرحه لغة ونحواً وبلاغة شرح إمام من الأئمة الأولين، فكل كلمة بشاهدها وكل شاهد

بتفسيره ثم يذكر تعليقات المحدثين، بأسانيدها ومصادرها ثم يذكر ما أخذ منه الفقهاء، وما اختلفوا فيه، وأدلة كل منهم ثم يوازن بينها ويرجح راجحها من انتهاء الصلاة إلى أذان العصر، ما يقف ولا يتلعثم ولا يعيد كلمة ولا يقطع جملة كأنما يقرأ من كتاب مفتوح.

وكان يبدل موضوع الدرس بمناسبات عجيبة إذا رأى ما يدعو إلى تبديله، وقف مرة على الحلقة العلامة الأجل أصولي العصر الشيخ محمد بخيت فأوسع الناس له ودعوه إلى الدخول فدخل كالكاره وقعد متعظماً، كأنه يترفع عن أن يجلس من أحد مجلس التلميذ، وكان بعلمه وفضله أهلاً لهذا الترفع فحول الشيخ الدرس حتى جاء على مسألة أصولية وكان الدرس في أوله وأفاض في علم الأصول ساعتين وربعاً والشيخ بخيت يلم أطرافه ويضم ثوبه حتى جلس على ركبته وطفق ينظر مشدوهاً فلما انتهى قام إليه كأنه يشير إلى تقبيل يده والشيخ يتملص إذ كان يكره أن تقبل يده ولا يحب ذلك من العامة فكيف من شيخ الإسلام وقال له الشيخ بخيت «ربنا يخليك ما فيش في الدنيا النهار ده واحد تاني زيك».

كان علمه عجيباً وكانت سيرته أعجب من علمه، عاش أكثر من ثمانين سنة، وما عاش في الحقيقة إلا يوماً واحداً أعيد ثلاثين ألف مرة فكان في ثباته واستقامته مثلاً مفرداً كان ينهض من منامه بعد نصف الليل وما كان ينام في الحقيقة وإنما كان يجلس يقرأ الليل كله كتلميذ ليلة الامتحان فإذا غلبه النعاس أمال رأسه على الوسادة فأغفل ثم أفاق والمصباح إلى جانبه وأمامه مائدة عليها أطباق صغار فيها الفرانى[1] والمعجنات والفواكه، ينال منها فإذا نهض توضأ من البركة، في داره الكبيرة التي بقيت إلى الآن فارغة وكان في شبابه يكسر بيده الجليد ويتوضأ في الشتاء فلما شاخ كان يعد له الإبريق على المدفأة ليجده إذا احتاج إليه ساخناً.

---

(١) الفرانى جمع فرنيّة وهي (الكاتو).

ثم يقوم فيصلي ما شاء الله أن يصلي فإذا كان السحر خرج فوجد بعض مريديه وتلاميذه ينتظرونه أمام الباب تحت الشاذروان (الرواق) لا يثنيهم مطر ولا برد حتى يخرج فيمشوا معه إلى الأموي فيصلي فيه مع الجماعة ويمضي إلى دار الحديث إلى غرفة له فيها صغيرة مبسوطة بالبسط، ما فيها إلا جلد و(طراحة) ومخدات من قش ولطالما دخل هذه الغرفة من ناس: من رجال الدين ورجال الأديان، وطالما دخلها علماء أعلام وأمراء وحكام كانت ترتج الأرض من تحتهم وترتجف القلوب من خشيتهم فإذا دخلوها نزعوا أحذيتهم وجلسوا على ركبهم، وتخشعوا وصمتوا، جمال باشا، (وما أدراكم ما جمال باشا) وولاة من قبله ومفوضون سامون من بعده فكان جلال هذه الغرفة يجعل الجبار طفلاً والعالم العلامة تلميذاً والكبير عند نفسه وعند الناس صغيراً أمام هيبة العلم والتقى والدين.

فيبقى فيها في إقراء وذكر وصلاة حتى يقترب الغروب فيمشي إلى داره ليفطر لأنه كان يصوم الدهر وفاء بنذر نذره ما رآه أحد إلا بين داره ومدرسته والجامع الأموي إلا إذا أخذوه في نزهة وذلك شيء كالنادر.

وهو ابن نفسه، شيخه كتابه، ما عرف عنه أن قرأ إلا على الشيخ أبي الخير الخطيب أخذ عنه مبادىء العلوم ثم اشتغل وحده وأقبل على المطالعة ما ترك النظر في الكتب ساعة من نهار عمره كله، وما ترك الإقراء قط. ولقد كان موعد درس من دروسه قبل وفاته بساعتين، فلما رأى الطلبة ما به هموا بالرجوع فأشار لهم أن يقرؤوا وهو يستمع.

ولقد كان يعيش في سعة من دنياه ولكن الدنيا كانت في يده لا في قلبه وكان اعتماده على الله لا على المال فلا يحرص عليه حتى يناله من غير حله ولا يجزع إن ذهب بغير علمه، ولا يتسع المجال إلا لشاهد واحد هو أنه اشترى مرة مجموعة من الزبادي الصينية النادرة بنحو مئة ليرة ذهبية وقد قلت لكم إنه لم يكن له رغبة إلا في شيئين يشتريها ولو بأغلى الأثمان الكتب والصيني ووضعها في دهليز مغلق بجانب الغرفة يكون فيه دائماً أكياس من السكر والرز يعطي منها فقراء الطلبة فقال للشيخ صادق أبي قورة رحمة الله على الاثنين يابا ادخل.. أي

أن يأخذ شيئاً من السكر والرز وكان قليل الكلام إن كفت الإشارة ترك العبارة وإن أجزأت الكلمة قطع الجملة فدخل يأخذ وأمال الكيس فرماه على الصيني الذي شرى بمئة ليرة ذهبية فطحنه طحناً وتراكض الطلبة فكفهم الشيخ وقال لا يابا (وكانت تلك كلمته):

وراح يطيب خاطر الشيخ صادق لئلا يخجل. ومد يده بشيء من المال فدفعه إليه.

أما دينه وعبادته وصلته بالله فهاكم عليها شاهداً آخر شاهداً واحداً أيضاً حدثني السيد كامل باش إمام رحمه الله. قال لما مدت سكة الحديد الحجازية ـ أعادها الله ـ وسار أول قطار كان فيه الشيخ، فوقف القطار في البرية في غير محطة لشيء طرأ على المحرك فنزل الركاب يصلون المغرب.

وإنهم لفي الصلاة، وإذا بالقطار يسير فتركوا صلاتهم ولحقوه يتعلقون به وبقي الشيخ لم ينتبهوا له حتى بعد القطار فتفقدوه فلما لم يجدوه أرجعوا القطار فإذا هو لا يزال في مصلاه في الصحراء الواسعة حيث لا ماء ولا عمران ولا أنس ولا جان لم يشعر بسير القطار.

وكان من أعجب أمره أن لم يغتب أحداً قط ولم تجر في مجلسه غيبة وهذه مسألة قد يستسهلها من لم يجربها فجربوا أن تدعوا الغيبة وسماعها يوماً واحداً فقط ثم قولوا يرحم الله الشيخ، الذي كان في عمله وفي سيرته بقية السلف ونادرة العصر والذي سيمر وقت طويل قبل أن ترى مثله ديار الشام لا بل بلاد الإسلام.

* * *

الشّيخ عليّ الدّقر

الرجل الذي هز دمشق، من أربعين سنة هزة لم تعرف مثلها من مئتي سنة، وصرخ في أرجائها صرخة الإيمان، فتجاوبت أصداؤها في أقطار الشام، واستجاب لها الناس، يعودون إلى دين الله أفواجاً، يبتدرون المساجد ويستبقون إلى حلقاتها، وأعانه عليها زميله وصديقه الشيخ هاشم الخطيب، وملأ ذكرهما البلد، وشغل أهلها، ودخل أثرهما كل دار، وكان الاختلاف فيهما في كل مجلس، وصارا حديث الناس، فمن لم يكن معهما متحمساً لهما كان عليهما متحمساً في عدائهما.

.. وإذا كان من القراء من لم يسمع باسم الشيخ علي الدقر قبل الآن فإن اسمه عندنا على كل لسان ـ وهو في الشام علم الأعلام ـ وإذا كان من المصلحين من طارت (شهرتهم) في الآفاق. فإن الشيخ علي ممن عرفوا في بلادهم، وجهلوا فيما وراءها. وهو تلميذ الشيخ بدر الدين. ما طالت قراءته عليه، ولا بلغ بين تلاميذه مبلغ الشيخ محمود العطار، فضلاً عن أن يبلغ في العلم منزلة الشيخ البدر أو يدانيه.

ولكنه أعطي من التوفيق في العمل، والعمق في الأثر، ما لم يعط مثله الشيخ بدر الدين، ولا غيره من مشايخ الشام في تلك الأيام.

لقد أمضى شطراً من عمره، لا يدري به أحد، وشطراً لا يجهله فيه في دمشق أحد، ولقد سمعنا به أول مرة، سنة ١٣٤٤، ونحن طلاب في المدارس الثانوية. وكان من أوائل (المواد) في منهج دعوته، ترك المدارس الحكومية،

والإقبال على طلب العلم الديني. فكنا نذهب إليه لنسمع هذه الدعوة العجيبة، ولا نستطيع أن نجهر بإنكارها، خوفاً من مريدي الشيخ المؤمنين بها، الذين يبطشون بخصومها، ثم نال منا كلام الشيخ، وأثرت فينا مواعظه فجعلنا نذهب لنستمع إليها، نخرج من المدرسة، فنكتب دروسنا على عجل، ونسأل أين درس الشيخ اليوم؟؟ فإذا عرفنا مكانه، أسرعنا إليه.

نقعد في الحلقة قبل موعد الدرس بساعة نخشى من كثرة الازدحام ألا نجد، إن تأخرنا، مكاناً، لأن (الشيخ علي) كان يدرس في مسجد صغير، عند باب الجابية في دمشق، فكان يمتلىء كله، ويقف الناس على أبوابه وأمام نوافذه، ولم يكن في الدرس علم غزير، ولكن كان فيه شيء لا يجده سامعه عند ذوي العلم الغزير، فيه الموعظة التي تخرج من القلب لتقع في القلب فتحرك فيه خامد الشعور، وتثير فيه كامن الإيمان، فيه ما يملأ بالدموع الأماقي، ويبكي من الخشوع العيون، فيه ما يقيم ويقعد، ويلين أفئدة كانت أشد من الصخر، ويستخلص من أيدي الشيطان نفوساً كان قد تملكها وتحكم فيها الشيطان، فيه ما يشعر حاضره أنه انتقل من هذه الدنيا، إلى مجالس الجنان.

فيه ما لا أستطيع أن أعرف القارئين به لأنه شيء يرى ولا يوصف، ويذاق ولا يعرف وكان الشيخ يسأل، من أين يأتي بهذا الكلام الذي يلقيه على الناس، ومن أي كتاب ينقله، فما كان يجيب ولو أجاب لقال: بأنه ينقله من الصلاة في ظلمات الليالي، والمناجاة في هدآت الأسحار، ومن حلاوة الإيمان التي يذوقها في ساعات الخلوة بالله، والتوجه إليه، والقيام بين يديه، من هناك يملأ هذه (البطارية) التي يعيش أهل الدرس ساعة على ضوئها.

ولم يكن في سيرة الشيخ علي قبل تلك السنة حادث يستحق التسجيل، فلقد كان أبوه من سراة التجار، وكان له أخوة أكبر منه يشاركون أباهم أعماله، ويعاونونه في تجارته، على حين كان يتبع هو العلماء ويحضر الدروس ويقرأ على الطريقة الأزهرية التي لم نكن نعرف طريقة لطلب العلم غيرها، وهي أن يأخذ الشيخ نسخة من الكتاب، ويأخذ كل تلميذ نسخة، فيقرأ لهم ويشرح، أو يقرؤ ون عليه ويفسر، لا عمل له إلا بيان قصد المصنف رحمه الله.. وتوضيح

عبارته، أما تلخيص الموضوع، والكلام فيه، والإلمام بجوانبه، وأمثال هذا مما يهتم به طالب العلم اليوم، فلم يكن من همهم، فإذا ختموا الكتاب شرعوا بغيره، فلا يدرس طالب العلم علوماً ولكن يقرأ كتباً.

كانت هذه طريقة العلماء جميعاً، وهي التي سلكها الشيخ علي، ولم يظهر عليه نبوغ في علم من العلوم، يسترعي الانتباه، ولكنه ظهرت عليه بوادر الصلاح، وحضور القلب، وإنه إن وعظ لم يأت بألفاظ حلوة، تقرع الأذن ثم لا تجاوزها، بل بمعان تصل إلى القلوب، قبل أن تصل الألفاظ إلى الآذان.

وانتهى من طلب العلم، واكتفى بما حصل منه، وقعد يدرس في المسجد الصغير، عند باب الجابية في دمشق (المعروف بجامع السادات) ويحضر درسه نفر، كانوا لقلتهم تتسع لهم سدة المسجد، فكان الشيخ يقرأ فيها لا ينزل منها.

وكان أبوه يحتاج إليه، لمعاونته في أعماله الكثيرة، وتجارته الواسعة، وكان مقياس صلاح الرجال عنده، القدرة على الأعمال، وعلى اكتساب المال، فلما رأى ما انتهى إليه، تألم وشكاه إلى صديق له، بقال أمام المسجد، وقال له: ما أدري والله من أين يعيش، وكيف تكون حاله بعدي؟!

واستمر الشيخ علي في درسه، وكانت أيام الانتداب في الشام، وقد بدأ الفساد يدخل إلى البلاد، والشيخ لا يدري بشيء، لأنه لا يعرف من دنياه إلا داره ومسجده وكتابه وصلاته. وجاءه من قص عليه خبر ما جد في البلد من التكشف، وكان كل الذي جد أن امرأة واحدة، معاونة مديرة دار المعلمات سارت في الطريق مكشوفة الوجه.

وخبر المدارس التي تعلم علوماً ما سمع بها الشيخ وما عرفها، من علوم الكفار، وإن مدرسيها من الذين تعلموا في بلاد الإفرنج أو على أيدي الإفرنج.

فعظم عليه الأمر، وفكر ليالي طوالاً.. ماذا يعمل؟

وظهر أثر هذا التفكير الطويل.. في دروسه، فلم يعد يقتصر على شرح عبارة الكتاب بل صار يتكلم من عنده، يرقق القلوب ويذكر بالآخرة.. ويدعو إلى الإصلاح، فكثر المستمعون حتى ضاقت عنهم السدة، فنزل إلى أرض

المسجد، ثم ضاق عنهم المسجد، فصار يدرس في (جامع السنانية) الكبير.

وكان لصفاء قلبه يقول: نحن نحن، ما تبدل فينا شيء، فلماذا هذا الإقبال؟

وتسابق الناس إليه، وازدحموا عليه كما ازدحموا على زميله في الدعوة الشيخ هاشم رشيد الخطيب وأشهد لقد سمعته مراراً، فوجدت أن عنده ما يدفع إلى هذا الازدحام، ولم يكن في دروسه (كما قلت) علم غزير ولكن كان فيها من روعة التذكير، وشدة التأثير، ما ليس له نظير.

كان يخشع هو فيخشع السامعون، ويبكي فيبكون، وربما قال كلاماً (عادياً) تسمعه كل يوم، فتحس إذا سمعته منه كأنك لم تسمعه من قبل.

وعظم الإقبال عليه فما تبدل فيه شيء، وما اغتر ولا تعاظم، وكان من أجمل سلائقه أنه لا يمد يده إلى أحد، وأنه كان يعطي ولا يأخذ، لم تستهوه الدنيا ولم يفتنه المال، ولم تغرره المناصب، وبقي على ما كان عليه.

وكان غنياً من جهتين، غنياً بماله الذي ورثه عن أبيه. وغنياً بقلبه، وهذا هو الغنى. ورب رجل يملك من الأموال ما لا تأكله النيران. وقلبه قلب فقير، وفقير لا يملك قوت يومه، وبين جنبيه نفس ملك.

وكان أقرب الناس إليه، التجار وأبناء القرى، لا سيما قرى حوران، وحوران قطر عظيم، في جنوبي الشام، على حدود البلقاء (الأردن) كانت فيه قديماً مملكة الغساسنة. ولكنه كان يعيش يومئذ في (جاهلية) مزدوجة، ففيه الجهل الذي هو ضد العلم، والجهل الذي هو ضد الحلم، وكان كثير من أهله يعيشون عيشة من لم يدر أن رسولاً بعث، وقرآناً نزل.

فعمد الشيخ إلى كل بلدة، أو قرية، يأخذ من أولادها من يعلمه ويفقهه في الدين فيلازم الشيخ سنوات، يعود بعدها إلى بلده، معلماً ومرشداً، فأحيا الله به تلك الديار، وردها إلى شرعة الإسلام.

ولم تمر على دعوته شهور حتى تجاوبت أصداؤها في أقطار الشام كلها، وأحس بها القاصي والداني، واعترف بقوتها العدو والصديق، ولكنها عنيت بالمظهر أكثر من عنايتها بالجوهر، وقامت على إصلاح (الخارج) قبل إصلاح (الداخل)، فتسابق الرجال إلى لوث العمائم على الطرابيش، حتى لم يبق في البلد (شاش)، وأسرع النساء إلى اتخاذ الإزار الأبيض، بدل الملاءات السود، حتى فقد من السوق القماش، واستراح الحلاقون، من (العمل) في وجوه الرجال، فعطلت الشفرات وعملت الأمشاط.

.. ثم مل العامة من هذا كله، وفترت حماستهم، وذهبت حدة هذه الدعوة من نفوسهم، وزال بريقها في عيونهم، فانصرفوا عنها، وكان أثرها فيهم كحريق القش اليابس، يلتهب في دقيقة، لينطفىء بعد ساعة، ولكن النار التي أوقدها الشيخ لم تنطفىء، ولئن خبت عند العامة، فلم يبق لها لهيب ظاهر، فلقد بقيت في الخاصة خفية ولكنها دائمة، كنار الفحم الحجري، بطيء اشتعالها، بطيء زوالها.

ذلك أن الشيخ لما رأى إقبال أولاد القرى عليه، من حوران ومن البلقاء ورآهم غرباء في دمشق، لا نادي لهم فيها، خاف عليهم من الفساد، وأشفق عليهم من التعب وكان في دمشق، غرف كثيرة في المساجد موقوفة على طلبة العلم، قد تسلط عليها ناس ليسوا من أهل العلم، ولا من طلابه، يتخذونها مجالس للتسلية، أو بيوتاً للسكن، أو مخازن لعروض التجارة. فاستخلص منها ما استطاع استخلاصه فأسكن فيه هؤلاء الطلاب. ثم رأى أن هذا كله لا يكفي، وأن طلبة العلم في حاجة إلى مسكن قائم ومورد دائم، فألف من هؤلاء التجار الذين يحفون به جمعية، سماها (الجمعية الغراء لتعليم أولاد الفقراء) وهو اسم غريب. ولكن العبرة بالمسمى لا بالاسم، وعملت هذه الجمعية عملاً عظيماً، ففتحت مدارس للصغار، ومعهداً علمياً للكبار.

* * *

وكان في دمشق مدرسة كبيرة بناها نائب الشام على عهد المماليك، الأمير

تنكز[1] وكانت في الأصل في ظاهر دمشق، فصارت اليوم لب البلد.

وكانت الدولة العثمانية، قد جعلت منها مدرسة حربية، ثم ورثها الفرنسيون لما اغتصبوا الحكم في الشام، فاستعان الشيخ علي بالشيخ بدر الدين على جعل المعهد فيها.

وكان الشيخ بدر الدين (كما قلت لكم) شيخ دمشق، أمره فيها الأمر، لا يخرج عليه حاكم أو محكوم، وكان لا يمشي إلا إلى مسجده ومدرسته، فلما استعان به الشيخ علي، قال: امش يابا.

وكانت كلمته لكل من يخاطبه من كبير أو صغير (يابا)، فمشى معه الشيخ علي وتلاميذه من ورائه.. حتى دخل الشيخ المدرسة. فأسرع إليه مديرها وكان ضابطاً فرنسياً كبيراً، يستقبله، ويكرمه ويسأله عما يأمر به، فقال له (والترجمان يترجم):

- يابا، هذه مدرسة دينية، وفيها مسجد وأنتم ما لكم فيها حق، فأعطوها للشيخ علي يجعلها معهداً علمياً.

فقال له الضابط:

- كما تأمر، لكننا نحتاج إلى مهلة حتى نفتش عن محل ننتقل إليه، وننقل إليه متاعنا.

قال الشيخ:

- طيب يابا.

ولم يمر شهر حتى استلمت الجمعية الغراء المدرسة وكانت واسعة الرقعة، تصل بين شارع النصر وميدان المرجة، ولكنها مخربة، قديمة البناء، فشرعت الجمعية بتجديد بنائها، وجمعت لذلك الأموال الكثيرة قدم جلها أعضاء

---

(١) المؤرخون يرادفون بين اسم جنكيز وتنكز، فلعل هذا من ذاك.

الجمعية، واشتغلت في ذلك سنين، حتى أعيد بناء المدرسة كلها ورجعت كالعروس بعد أن صارت كالعجوز.

وأنا أحب (والكلام عن الشيخ علي وشيخه البدر) أن أعرض للقراء صفحة مطوية من تاريخ الشيخ بدر الدين، هي رحلته في سنة ١٩٢٤ م مع الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب، من دمشق إلى دوما إلى النبك إلى حمص إلى حماة إلى حلب، هذه الرحلة التي طافوا فيها بلاد الشام (سورية) كلها، وكانوا كلما وصلوا بلدة أو قرية، خرج أهلها على بكرة أبيهم (كما كان يقول أجدادنا) لاستقبالهم بالأهازيج والمواكب، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد، فتكلموا فيه ووعظوا وحمسوا، وأثاروا العزة الإسلامية في النفوس، وذكروا بالمجد الغابر، وحثوا على الجهاد لإعلاء كلمة الله، فكانت هذه الرحلة هي العامل الأول والمباشر لقيام الثورة السورية، التي امتدت سنتين، وأذهلت ببطولتها أهل الأرض.

والثورة كما نعرف نحن وقد رأيناها رأي العين، ويعرف كل شامي أدرك تلك الأيام، قد قامت في الغوطة، قبل أن تقوم في الجبل (جبل الدروز)، وقد بدأت بخروج طلبة العلم، بدافع الجهاد، ومن أوائل من خرج إليها شيخ من تلاميذ الشيخ هاشم، لا يزال حياً، فاسألوه فعنده الخبر اليقين هو الشيخ محمد إسماعيل الخطيب، ومن هؤلاء الذين خرجوا وعملوا العجائب، البطل الشهيد حسن الخراط (وقد كتبت عنه فصولاً طوالاً في مجلة الناقد التي كانت تصدر في دمشق سنة ١٩٣٠ م) وكان حارساً ليلياً، أمياً، قاد عصابات المجاهدين، ووقف بهم في وجه فرنسا، يوم كانت فرنسا أقوى دولة برية في أعقاب الحرب الأولى، وغلبها واحتل دمشق ثلاثة أيام.

وكانت معارك (جسرتورا) تهتز بأخبارها أسلاك البرق، وأمواج (اللاسلكي) وتتناقلها أكبر جرائد العالم، فهل تعرفون ما جسر تورا؟

جسر قديم، على نهر عرضه خمسة أمتار، كانت تقف وراءه المئات من الثوار تحتمي بحيطان البساتين، وبشجر الزيتون والمشمش، وترد بالبنادق العثمانية العتيقة حملة فيها عشرة آلاف، ومعها المصفحات، ويقودها جنرال!

وليس الكلام عن الثورة. ولكن قلت ما قلت، لأبين أثر الشيخ بدر الدين وتلميذيه علي وهاشم في قيامها.

* * *

وبعد، فإن (حركة) الشيخ علي لم تقف، ولا تزال بعد موته قريباً مما كانت في أواخر حياته فمعهده لا يزال قائماً. ومن طلابه الذين ينهجون نهجه، ويتبعون أثره اثنان من علماء الشام.. الشيخ حسن حبنكة وله معهد ضخم، يبث فيه العلم، وينشر روح الإسلام... والشيخ عبد الكريم الرفاعي وعنده مئات ومئات من الطلاب، وهو قائد من أفضل قواد الجبهات الإسلامية، إخلاصاً وعلماً وعملاً، وعفة يد، ونزاهة نفس، وحسن خلق.

وكان سر نجاح الشيخ علي، صلاحه، وعبادته، وورعه، وأنه موقن بما يدعو إليه، يقيم الحق الذي يراه على نفسه وأهله، قبل أن يقيمه على الغريب، وكان من منهجه أنه إذا جاء رمضان، وقف دروس العلم وانصرف إلى العبادة وتلاوة القرآن وذكر الله بالقلب وباللسان، معتكفاً هو وتلاميذه في المسجد، تاركين الدنيا وراء بابه، قلوبهم مع الله، وألسنتهم رطبة بذكر الله، يعيشون في جنة من جنان الخلد، ولكنها في الدنيا، فيكون لهم من رمضان مدد روحي وذخر يدخرونه زاداً للسنة كلها.

وكان الشيخ علي (كالشيخ بدر الدين) جميل الصورة، ناصع البياض، أزرق العينين، حلو التقاسيم، له لحية بيضاء كبيرة تزيده جمالاً، وكان كلاهما يتخذ العمامة التجارية من القماش الهندي المطرز، لا العمامة البيضاء عمامة العلماء.

قلت: إن والد الشيخ شكاه مرة إلى صديق له بقال عند باب الجابية.. وقال له: ما أدري كيف يعيش هذا الولد وكيف يصير إذا كبر؟

وعمر هذا البقال حتى بلغ الشيخ ذروة مجده، وازدحمت عليه الألوف، وأقبلت عليه القلوب، وكان يوماً في دكانه، فرأى الشيخ خارجاً من المسجد، ووراءه الحشود من أرباب العمائم، فذكر ما قاله الأب، واستغرق في الذكرى،

حتى غاب عن حاضره، وعرته حال روحية غريبة فنزل من الدكان واتجه إلى مقبرة (الباب الصغير) وصرخ بأعلى صوته:

ـ يا أبا صادق، يا أبا صادق، ارفع رأسك فانظر ابنك علي كيف صار؟!

*   *   *

الشَّيخ محمود ياسين

في هذا الحيّ المعتزل الساكن الذي كان آخرَ البلد، ما بعده إلا المقبرة، فنبعت مِن ورائه اليوم شوارع فِساح وساحات، وقصور عامرات، وكان آخرَ دمشق القديمة، فصار أولَ دمشق الجديدة، ولكنه بقي على شرقيّته وشاميّته، لم يصل إليه الجديد، ولم يألف أهله التقليد، والذي كان أبداً مسكن الصالحين، لم يخْلُ مِن عالم زاهد، وفقيهٍ معلّم مِن يوم كان القرية التي خرج منها الأوزاعي إلى أن شُيّد فيها الجامع المأنوس الذي أُسِّس مِن يوم أُسِّس على التقوى، وأقيم على الهُدى، وبُنِيَ على أنقاض الخان الذي كان ماخوراً، فجمع الله به بين فضيلتين: باطل يُرفع، وحق يوضع، وذهبت الغانيات الفاتنات، وجاء العابدون المتبتّلون، فمن ذلك سُمّي (جامع التوبة).

في حارة ضيّقة إذا مدّ الرجلُ يديه بَلَغتا جداريْها، في دار فيها صَغيرة، صحنُها بركةٌ حولها مَجاز، وبناؤها غرفتان فوق درج كان يُقيم الشيخ الزاهد حقاً الشيخ (محمود ياسين الحمّامي) رحمهُ الله رحمةً واسعة.

وفي تلك الساحة بابٌ، إنْ أنت جُزته دخلت إلى بستان فسيح، وروضٍ أنيق، فيه ما اشتهيت من ثمر، وما رجوت من زَهر، جُمعت فيه فواكه الشتاء والصيف، وأزهار السهل والجبل، وجَنى اليوم والأمس من كل غَضّ جديد، وقديم مرّت عليه قرون وما فقد جِدَّته ولا أضاع غضارته، وفيه اللذة وفيه الربح وفيه المُتعة وفيه النفع، وفيه نهر إن شئت علَلتَ منه وإن شئت نَهلْت، وإن شئت ملأت، وإن شئت سبحت، وفيه قصر مسحور تُشرف منه على الدنيا كلِّها: غابرها وحاضرها، تستمع منه كل حديث ولو قضى محدّثوه من عصور،

وتُجالس فيه كل عالم وأديب ولو مات من دهور، ثم إنْ أردت أقبلوا عليك، وإنْ أشرت سكتوا عنك، لا يغضبون ولا يعتبون، وإن استعدت أعادوا عليك.

والمكان بعدُ ـ يا سادة ـ ذَرعُه خمسٌ في خمس، ولكنه حوى هذا كله وأكثر منه. هذه هي مكتبة الشيخ، وهذي هي الغرفة التي قلّما كنت أجد مكاناً هو أحلى في عيني وأمتع لقلبي منها، وقلّما أجدُ ذكريات بُقعة أعزَّ عليّ وأطهر وأغلى من ذكرياتها، فكنت كلما جئتها شعرت بأُنس الروح ولذة الاطمئنان.

وإذا كانت دمشق قد بكت في صاحب هذه المكتبة يوم توفي، رجل الصلاح والإصلاح، فقد بكيت فيه مع العلم العمل، ومع الزُّهد الرضا، وكانت حياته في نظري درساً لمن أراد أن يتعلم كيف يكون المرء سعيداً وكيف يجمع الدنيا والآخرة، واللذة والشرف، وكيف يثق أن السعادة ليست بالمال الذي يتقاتل الناس عليه ولا الجاه الذي يسعون إليه، ولا بالقصور الشُمّ والمنازل العوالي، فقد زرت القصور وجالست الملوك وصاحبت الأغنياء، ولازمت الرؤساء، فلم أرَ السعادة على أتمها وأكملها إلا في أمثال هذه الدار التي لا تتجاوز غرفة مفروشة بالسجاد النظيف على الخشب، على جوانبها مقاعد، والجدران كلها كتب، يخلع الداخل إليها نعله ثم يجلس على الأرض، فحيثما جلستَ دفءٌ ونظافة تُشعرك نظافة الروح ودفء الحب، يستقبلك فيها هذا الشيخ بوجه تقرأ في أساريره الطِيب والإخلاص، وترى في عينيه الحب والطُهر، يسلم عليك يرحب بك لا ترحيب المتكلف وسلام المنافق، وترى منه الود الصادق، والرأي المُحكَم والنكتة والتواضع، وتراه حائراً فيما يُكرمك به.

يُلزمك محبته، ويُشعرك إجلاله، لا يتصنع لذلك ولا يريده، ولا يتطلبه بلفظ ولا فكر، ولكن منظره ومخبره يوحيان إليك بذلك كله.

كان سعيداً لأنه كان مؤمناً بالله، يعلم بأن كل ما جاءه فمنه، وكل ما ذهب منه فبحُكمِه. كان راضياً أبداً إن أُعطي أو مُنع لأنه كان راضياً عن الله، ويوقن بأن الرزق مقسوم وأن الله هو المحيي لا المال، فكان المال أهونَ شيء عليه، فإن جاءه أكل منه وأطعم، وإن بَعُد عنه صبر وعفّ.

وكان ينعم بمتعة الطُرفة على أحسن ما نَعِم بها بشر، فكان يعيش في قفر

الحياة في واحة مخضرة ظليلة، وروضة ممرعة أنيقة.

وكان واسطة عقد جماعة من كرام الناس أحبُّهم وأحبوه، ودعاهم إلى الخير فاتبعوه، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر فأطاعوه؛ فاتحدوا قلباً وقالباً، فهم يقرؤ ون معاً، ويصلون معاً، ويذهبون ويجيئون، ويجدّون ويهزلون، كل دار لأحدهم دار لهم كلهم، وكل ماله مالهم، يجيء الشيخ محتاج منهم فيُعطيه كيس ماله ليأخذ منه ما يريد، ولكنه يُضيقُ فلا يأخذ منهم، خَلَّةٌ فيه رحمهُ الله.

تآخت أسرهم، وتوادّت نساؤ هم، حتى إن أربعة منهم، أحدهم الشيخ، رأوا حاجة الناس إلى الاصطياف، ورأوا فساد المصايف فاختاروا بقعة في (الهامة) من فوقها الجبل الأشجر، ومن تحتها ومن حولها الخمائل المتتالية، والنهر يجري أسفل منها زاخراً فياضاً، فبنوا فيها داراً، مشتركة فيهم مهاياةً، قسموا بينهم أيام الصيف وأيام الشتاء، وليالي القمر وليالي الظلام، فكانت شيوعيةً إسلامية.

وكان رجل دين حقاً، لست أعني أنه من هؤلاء الواعظين المحترفين الذين يعظون من ألسنتهم لا من قلوبهم، قد لبسوا ثياب الصلاح على المنبر، كما يلبس الممثل ثياب الملك على المسرح، فإذا تم الوعظ وانقضى التمثيل، نُضيت تلك الثياب، فعاد الملك صُعلوكاً والواعظ طماعاً خبيثاً، ولا الذين يتخذون التُقى دعوى يكسبون بها الدنيا، والنُسكَ شبكة يصطادون بها المال، يزهّدون الناس ولا يَزْهدون، ويَعِظون ولا يتعظون، ولا الأتقياء في المجّان فقط يصلون مئة ركعة، ويسبّحون ألف تسبيحة، ويسكنون المساجد ويعانقون المصاحف. ثم لا تجود أكفّهم بقرش إلا إن جاد بالمال الحديد الأصمّ، ولا تلين قلوبهم لعطاء إلا إن لان جَلمدُ الصخر، ولا من الذين طلقوا الدنيا ثلاثاً، وحرّموا على أنفسهم طيباتها، وعافوا لذيذ المآكل وناعم الملبس، بل أعني التقيَّ حقاً الذي يتبع الشرع ويقف عند أمره ونهْيه، ويجد حلاوة الإيمان ولذة العبادة، وما رآه أحد يصلي إلا اشتهى الصلاة، كما يشتهي المرء أكلة طيبة رأى حسناء تأكلها، من كثرة خشوعه وظهور إخلاصه وطيب صلاته.

لا يجلس متجهم الوجه يعِظ أبداً، ويتلو الأحاديث ولا يتظاهر بخشونة

الثوب وتطويل السُبْحة وتعريض الجبة كما يصنع هؤلاء الذين يدّعون الولاية دعوى بلا دليل، فإذا جاءت الدنيا وعرضت المطامع نَسُوا دعواهم بل كان زاهداً حقاً، وهو يأكل ويشرب، ويستمتع ويؤم البساتين، ولا يأكل محرماً، وكانت زهادته في المال عرضت له الفُرص ليكون موظفاً كبيراً فأبى، وآثر تعليم الصبيان في مدرسة صغيرة، فلما جاء الفرنسيون جعلوا للمدارس الخاصة معونة على أن يفتشوها فأبى، وكان وحده المُعارض فأُغلقتْ مدرسته، ولم يكن يملك شيئاً فعُرِض عليه القضاء فأبى إلا أن يكون كاتباً في المحكمة الشرعية، ثم عُيِّن مدرساً، وكل المدرسين يأخذون المال بلا عمل، فحمل كتابه وذهب فدرّس، وكان ينفق بعد هذا إنفاق من لا يخشى الفقر ولا يرجو إلا الله ولا يعتمد إلا عليه، يجيئه الأصحاب فيأخذون من ماله ومن علمه، يقرؤون عليه ويأكلون عنده.

يا سادة:

لو شئت أن أحدثكم عن الشيخ محمود رحمه الله صديقاً وجدت له في رأسي ذكريات من أقدس وأنفس ما عرف الناس من ذكريات الصداقات، ولو شئت أن أحدثكم عنه معلماً لوجدت مآثره في التعليم. ولو شئت أن أحدثكم عنه مصلحاً لوجدت جهده في الإصلاح، ولكن الوقت ضيق، وأنا أريد أن أحدثكم عنه على أنه الرجل التقيّ السعيد.

إني لأعرض سَير من أعرف فلا أكاد أعرف رجلاً كان في ظني أسعد منه، وإذا كان المعلمون يأخذون الأجر من الطلاب فإن الشيخ يُعطي الطلاب أجرة ولم يرزأ أحداً شيئاً، يُعطي ولا يأخذ ويتفضل ولا يقبل أن يُتفضل عليه.

هذي يا سادة لحظات مع رجل عاش سعيداً ومات حميداً، فما رأيت في الناس من أحبه الناس حياً وبكوه ميتاً مثلما أحبوه وبكوه، ولقد كانت جنازته مأتماً عاماً ما تدري فيه من المُعزّي، ومن المُعزَّى وهو الذي ستظل مآثره وتظل سيرتُه درساً لمن أراد أن يعرف كيف يجمع الإنسان سعادة الدارين ولذة الحياتين رحمه الله.

* * *

الشيخ عزيز الخاني

قعدت أتذكر ما أعرفه عن الفقيد رحمة الله على روحه، وأعرض أصباحي معه وأماسيّ، وما رأيت منه وما سمعت عنه، فإذا أنا أمام آلاف من صور الخير والجمال تمر بي مواكب إثر مواكب، وكل حافل بالنُبل، فياض بالفضل، وإذا أنا أغيب في نشوة هذه الذِكَر الحلوة كأني غائب عن نفسي على أجنحة حُلم شهي فاتن، وإذا أنا أرى فيها (فلماً) يكر مسرعاً تتداخل صوره وتتعانق مشاهده، لولا أنه فلم واقع حققته هذه النفس النبيلة العظيمة، لم يبدعه الخيال المجنّح، ولا اخترعته العبقرية المبدعة، ولم أدر ماذا آخذُ منه وماذا أدع، ولو تركتموني أتحدث ما أشاء لحدثتكم عنه أياماً وليالي حديثاً يهزّ قرارات القلوب ويحرك أعماق النفوس، وما كذبت فيه ولا بالغت، ولكن ربع ساعة هل أستطيع أن أجمع ذكريات ثماني سنين كنت فيها في صحبة الفقيد، أجلس بقربه، جنبي إلى جنبه، ثماني سنين رأيته فيها في رضاه وفي غضبه، وصحبته فيها في حَضَره وفي سفره، كيف أدخل هذه السنين الطوال في هذه الدقائق القصار؟ إن ذلك لا يكون إلا بمعجزة وقد مضى عصر المعجزات.

يا سادة إن القلم يقف إن لم يمده قلب واع وذهن مفكر، وإنه لَيقِفُ إن طغت على القلب العواطف وازدحمت على الذهن الفِكَر، فاعذروني إذا أنا أجملتُ ولم أفصّل، وأشرتُ ولم أوضح، ومررت بهذه الحياة مرَّ الطيارة بالمدينة الحافلة بكل عظيم وجميل.

إني أذكر يا سادة يوم سعيت إلى لقائه من عشر سنين أول ما وليت القضاء

أحييه تحية القاضي الصغير للقاضي الكبير، أمشي على تردد، أخشى أن لا أصل إلى قلبه وبيننا مسافة عشرين سنة في العمر وبيننا مسافات في الدرجة وفي الزي، وكنت أصدق ما يقول المراجعون من أن دون المشايخ حجاباً من الجد والصرامة وما لا أسميه، فلم أكد ألجُ الباب حتى أحسست بنفحة من لطفه وظرفه كما يحس الضال في الصحراء المحرقة حين يدخل الواحة وتهب عليه نسائمها، وتلقاني بالتحية والتجلّة ورفعني حتى صغُرت في عين نفسي بمقدار ما كبُر في عيني، وحدثني عن كتبي ومقالاتي وأبي وجدي، ولم تمض ربع ساعة حتى شعرت أني من حبي له حيال والد أو عم كريم.

وكلما أوغلت في صحبته رأيت الدلائل الجدد على نبله، ورأيت أن ما بدأني به أول يوم يعاد كل يوم حتى أني إذا قمت لحاجة أبى إلا أن يقف لي ويودعني وإن رجعت بعد لحظة أبى إلا أن يقف لي ويستقبلني، ووجدت أن ما صنعه بي يصنعه بالناس جميعاً، مع الموظفين والمراجعين والزائرين، يُنادي كُلاً بأحب الأسماء إليه ويزيل وحشته ويطرح كلفته ويتحمل غلظته ويغتفر غلطته.

تُمدّه ذاكرة قوية يعرف بها الناس، فيسأل كلاً عن أهله وعياله وعن خاصة أمره سؤال المحتفي به، فيشعر بذلك كل واحد أنه صديقه الأوحد وصفيّه الأدنى، وكانت هذه الخلة من أطيب الخلال وبمثلها امتلك مجدد العصر صديقنا الشيخ حسن البنا قلوب الناس، ما رأيت مثلها إلا له ولقليل من الناس منهم الشيخ محمد محمود الصواف.

وكان يُعطي من قلبه مثلما يعطي من لسانه، فكان أوفى الناس لصديق وأبرّهم به وأقضاهم لحاجته، وما أعرف رجلاً سأله أمراً يقدر عليه إلا أجابه إليه، وكان يذيع الحب أينما سار كحامل المسك حيثما مشى فاح منه العطر، وكان يتّسع قلبه للصديق والعدو، والتّقي والشقي والمسلم والكافر، وكان يُحسن حتى لمن يسيء إليه، وينفع من يضره وأشهد أني ما سمعت منه على طول ما صحبته كلمة سوء بإنسان جرى بها لسانه، ولا عرفت أن قلبه انطوى على كره إنسان.

وكان يُعطي من جيبه مثلما يعطي من قلبه، ولطالما رأيته يعطي عطاء من

لا يخشى الفقر يمد يده بالعطية وعلى لسانه كلمة الاعتذار، وعلى شفتيه بسمة التحية خشية أن يجرح بها شعور السائل أو يُدخل بها الهوان على نفسه، وما كان يرضى قط أن يركب سيارة لا يدفع أجرتها أو يدعوه أحد ولا يجدد له دعوة أو يهدي إليه شيئاً ولا يضاعف له الهدية، كل ذلك على ضيق في ذات يده وقناعته براتبه وعلى ما باع من إرث أبيه وجده، وما عرفته مع ذلك كله أخذ قرشاً من كشف وكان ذلك حقه هو، ولكنه كان يترفع عنه، أما نظافة يده وبعده عن الحرام فأمر يعرفه كل من كانت له صلة به.

ولم يكن لطفه من ضعف وكان من أعز خلق الله نفساً، وكان يأبى الدنيّة ويرى أن له الصدر، لا لذاته بل لأنه يحمل لواء الدين بين أبناء الدنيا، وما عرفت ولا عرف الناس أنه رضي مرة بغير الصدر ولو كان في مجلس الرئيس، ولا ركب على غير اليمين، ولا خرج إلا أولاً، وقد آتاه الله من الهيبة والجلال ما مكن الله له ذلك حتى عند مَن لم يعرفه، ولو كان يتسع المجال لسردت عليكم من قصصه في مصر حتى عند ضباط الإنجليز. لما زرت معه القلعة سنة ١٩٤٧ وكانت لا تزال في أيديهم لسمعتم عجباً.

والغريب أنه كان يبلغ ذلك بلطفه ورقته، ولقد بدا منه في أخريات أيامه جانب ما كنت أعرفه هو جانب الشدة والصرامة، وله في مسألة دين الدولة مواقف مثل مواقف الجبال الرواسخ.

ليتني أستطيع أن أمضي في الحديث ولكن أزف الوقت وإن في الحفلة[1] لخطباء أنصع مني بياناً وأفصح لساناً فعفواً يا سادة إن لم أصف كل ما أعرفه عن الفقيد، والعفو يا سيدي يا سماحة القاضي العزيز والسلام عليك سلام القلب، سلام الحب سلام الإخاء سلام الوفاء. سلام عليك لئن أورث الأغنياء مالاً وترك العلماء كتباً فلقد خلّفت لوعة في كل قلب وحسرة في كل فؤاد وحسْبُك سيرتك باباً إلى الخلود إن أنت لم تترك مصنفات وتآليف، وما أكثر مَن خلد من الأعلام بسيرته وحدها من لدُن سفيان والفضيل بن عياض إلى الشيخ بدر الدين.

(١) ألقيت هذه الكلمة، في حفلة التأبين في القاعة الكبرى في جامعة دمشق.

السلام عليك سيمر دهر طويل قبل أن نرى بعدك رجلاً مثلك له قلب مثل قلبك ونُبل مثل نُبلك ومَن له هيبتك وهيئتك وعزتك وعفتك، وما أسفت إلا اليوم على أني لم أكن شاعراً.

ولكن لا، لا والله ما ينفعك اليوم شعر ولا نثر، ولا تفيدك الخطب ولا المقالات ما ينفعك إلا دعوة صالحة من رجل صالح، اللهم وما أنا بالعبد الصالح وإني لمقرّ بذنوبي معترف بعيوبي، ولكن رحمتك وسعت كل شيء، اللهم اغفر له وارحمه، وزد في حسناته، وتجاوز عن سيئاته، وألحقه بالذين أنعمت عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، اللهم وزميله الشهيد الذي قُتل ظلماً وعدواناً، ولم يُذكر في حفل، ولم تُقم عليه خطب: عادل العلواني.

أيها السادة أحضروا قلوبكم واجمعوا خواطركم وتوجهوا إلى الله قائلين: آمين.

الشّيخ كمال الخطيب

رجل كان فذاً بين الرجال، لا ترى مثله العصور الطوال. وإذا كان الرجل العادي المهذب كالنسخة المطبوعة من الكتاب، كان الشيخ كمال نسخة مخطوطة مفردة، وقد يكون في المخطوطة خرمٌ أو نقصٌ، أو يكون على صفحاتها أثر من دهنٍ أو بلل، ولكنها مع ذلك أثمن من المطبوعة وإن كان ورقُها نظيفاً وطبعها مُتقناً، لأن هذه واحدة في الدنيا، ولأن من تلك آلاف الآلاف.

كان الشيخ كمال بقية عصر مضى، ولكنه أبى أن يمضي معه، فعاش في القرن الحاضر كما كان في القرن الماضي، فكان تُحفة في (مُتحف) ولكنها تمشي، وصفحة من (تاريخ) ولكنها تتكلم. وكان بطلاً في جسم عجوز وغنياً في ثياب سائل، وكان فكرةً استحالت رجلاً، ومثلاً أعلى سُوِّيَ إنساناً. ولكلٍ منا مثل أعلى يتمثله إذا انفرد بنفسه. أما مثل الشيخ الأعلى فهو أعماله التي يعملها. ولكل منا أفكار يفكر فيها إذا خلا بعقله، أما أفكار الشيخ فهي كلماته التي يقولها. وكل منا يعرف حقائق الناس ومثالبهم وعيوبهم ولكنه يكتمها عنهم، أما الشيخ فكان يقول لكل إنسان ما يعرفه عنه لا يستثني من ذلك أحداً من الناس أبداً. وليس الذي بالشيخ ما يسمونه الصراحة أو الوقاحة، بل هو شيء لا أعرف له اسماً لأني لم أجده عند شخص آخر: يقول لكلٍ رأيه فيه بأوضح عبارة وأقصرها وأشدها، ثم يمشي لا يريد بها جلب منفعة ولا دَرْءِ مضرة. ثم يحبه مع ذلك الناس كلهم ويحترمونه ويخافونه: رجال الشعب ورجال الحكومة، والعلماء والجهلاء والأغنياء والفقراء لا يَسْلم من لسانه أحد ولكن لا يكرهه أحد. ولم يكن يبالي حُبّهم ولا كرههم، ولا يحفل بإكبارهم ولا احتقارهم؛ لأنه يعيش من

نفسه في عالم، غاية مطلبه من الدنيا قماش يستُر عورته، ولم أقل جُبّة ولا رداء، لأنني لم أكن أدري ما كان يلبس على التحقيق: أجُبّةٌ غيرها طول البِلى حتى صارت من قصرها وثنيها كالرداء أم رداء أبلته الأيام فصار كالجبة؟ وشيءٌ يملأ جوفه، سواء عنده أكان هذا الشيء خبزاً يابساً أم كان أرزّاً ولحماً، ومكان يضع عليه جنبه سريراً أو فراشاً أو قطعة ممهدة من الأرض الفضاء، فإن وجد ذلك لم يطلب شيئاً بعده، لا يرجو جاهاً ولا مالاً، ولا يخاف سجناً ولا رهقاً.

أخوه الأصغر (زكي بك) زعيم كبير من زعماء الشام. وليَ الوزارة مراراً ورياستها (بالوكالة) مرة، وهو محامٍ معروف، وأخوه الآخر كان طبيباً كبيراً، وأهله ذوو ميْسرة وغنىً، ولكنه لا يرزأ أحداً شيئاً، ولا يجرؤ واحد منهم على دعوته إلى طعام أو منام.

ولقد حدثني الأستاذ زكي بك أنه ما افتقر هذا الفقر إلا لأنه كان كبير إخوته. مات أبوه وخلّف له هذين الصغيرين، فباع ما له كله، وانفق عليهما حتى استكملا الدرس في استانبول ـ وكانت باريس تلك الأيام ـ ثم أبى أن يأخذ منهما قرشاً واحداً، وإذا عرضا عليه هدية أو دعواه دعوة، غضب أشد الغضب، فتركا ما يريدان لما يريد، فعاش أغنى الناس، لا لأنه كان أكثرهم مالاً، بل لأنه كان أقلّهم حاجةً، ولا فرق بين أن تكون لك كنوز قارون وأموال فاروق فتنال بها كل ما تطلب، أو أن تكون مطالبك هيّنة يسيرة فلا تحتاج إلى مال كثير لتنالها، ومن هنا قال مَن قال: إن السعادة هي القناعة.

قنعَ من الحياة بأيسر ما تحفظ به على صاحبها الحياة: رغيف يسدّ جوعته، وقماش يستر عورته، وكان إذا طلب الناس المصايف واتخذوا لها الدُور وأعدوا لها العدة حمل عباءته وعيْبته ومشى مشياً إلى (بسيّمة) درّة الوادي وجوهرة العقد في جيد (بردى)، فوضع العباءة والسفرة في المغارة فوق (العين الخضراء)، ثم نزل فدار بالقهوات، وجالس الجماعات، فوعظ ونصح وأمر ونهى، لا يرزأ أحداً طعاماً ولا شراباً ولا مالاً، ولا يُدخل جوفه من عند أحد شيئاً، ثم عاد إلى المغارة فأكل فيها ما استطاع أن يُعدّه لنفسه رغيفاً ولحماً، أو خبزاً وزيتوناً، أو شاياً وكسرات يابسة من خبز الأمس. وحمد الله ونام، لا يخشى السَّرق على مال

ولا الخسارة في تجارة، ولا تحقق الشر من عدو، ولا خيبة الأمل في صديق.

وهذا هو عمله في دمشق: ينزل من قبل أذان الفجر إلى جامع بني أمية، فيصلي ويقرأ أجزاء من القرآن، ثم يبقى في الجامع، يمرّ على الحلقات، فإن وجد ما يُعجبه شجع المدرّس بكلمة، وإن أنكر شيئاً رد عليه، وإن أحس غموضاً وضّح، أو إيجازاً شرح، أو مللاً من السامعين نفّس عنهم بنكتة، ويعرف له المدرسون ذلك، فلا يأبونه منه، وإن أبى بعضهم سلقه بلسان حديد؛ فحطّ من كبريائه وألان من إبائه، حتى كان شيخنا الشيخ صالح التونسي (مدرّس الحرم النبوي الآن سنة ١٣٧٢)[1] يسمّيه (مفتش الجامع).

ويحضر المحاضرات العامة فيسلك في الجامعة والمجمع مسلكه في الجامع. حضرتُه مرة في المجمع العلمي العربي من نحو ثلاثين سنة وقد جاء محاضر لبناني فتكلم في الحضارة الجديدة وأنه ينبغي في رأيه أن نأخذ كل ما فيها، وذمّ لباسنا ومدح لباس القوم، ولما انتهى وأقبل الناس (أعني المتزلفين المنافقين) يهنئونه، صاح الشيخ في آخر القاعة بصوته الذي كان يغلب عشرة مكبرات للصوت ولهجته المُعرقة في العامية: (وْلَك: الحمار حمار ولو لبس بدلة وبنطرون، والإنسان إنسان ولو حطّ جلال. . .)[2].

فانصرف الناس بكلمة الشيخ وتركوا المحاضرة في مكانها.

ويدور في الأسواق، يراقب الناس ويدرس أحوالهم، وهو يعرف أكثر أهل دمشق وآباءهم وأجدادهم، وتمرّ به المرأة المحجبة فيعرفها من أيّ أسرة هي، أمضى سبعين سنة وهو في هذه المراقبة. فإن رأى حقيراً رفعته الأيام بلا سبب فتكبر، رماه بكلمة كالقنبلة فعرّفه قدره وجرّأ الناس عليه، وإن رأى دجّالاً انخدع به الناس فحسبوه عالماً حطّ منه فصرفهم عنه. وإن أبصر جاسوساً أو ممالئاً للفرنسيين صرخ (الله يلعن الجواسيس والمنافقين)، وإن نظر إلى أمّ ولدها وسخ قال لها: (ولْك، هاي الماء روحي غسلي وجهه، النظافة من الإيمان)

---

(١) سنة كتبت هذه المقالة ونشرت في الرسالة.

(٢) الجلال البرذعة في لغة عامة أهل الشام.

وإن رأى بائعاً يغش مشترياً، أو مشترياً يضايق البائع، أو شاباً يتحرش بالنساء أو امرأة تتصدى للشباب، أو رأى معتدياً على آخر في جسده أو ماله أقام القيامة عليه فكأن البلد كلها مدرسة والناس تلاميذها وهو المعلم فيها.

وهو قاموس حيّ، فيه تاريخ دمشق وأنباء أحداثها وأخبار رجالها ونسائها، حوادث رآها ووعاها، وناس عاشرهم وخبرهم، وله آراء في السياسة صائبات وأنظار ثاقبات، وله كلام مُغطّى تعوده أيام الاستبداد الأولى أيام السلطان عبد الحميد، حين كان الجواسيس يخالطون الناس في أسواقهم ومجامعهم ومدارسهم وطرقهم، وحين كان للجدران آذان، وكان يؤخذ الناس في أوساط الليل من بيوتهم، بلا محاكمة ولا تحقيق إلى حيث لا يدري أحد. وكان الناس يستمعون له ولا يجرؤون على معارضته[1].

وكان يتوسط في الخصومات ويعرض لحلّ المشكلات، ويقضي بين الناس بلا محكمة ولا مرسوم جمهوري فيسمع من الخصمين ويوازن بين حجج الفريقين ثم يقضي. والويل من جحيم لسانه لمن لا ينفذ حكمه، فكم ألّف بين زوجين وأصلح بين شريكين وكان يأخذ من الأغنياء سطوة واقتداراً، أو حباً وإكباراً، فيعطي الفقراء المستورين، فيسعف الله به وجوهاً لولاه أذهب ماءها حر السؤال.

وكان قديماً خطيب الجامع الأموي، ولم أُدرك أنا ذلك، فضايق الحكومة بكشف عيوبها، وضايق العلماء الرسميين بذكر سجايا العلماء العاملين؛ فتألب عليه علماء السوء؛ فأغروا حكام السوء حتى عزلوه فاتخذ من كل مكان منبراً يخطب عليه، ولبث على ذلك حتى توفاه الله من نحو سنة.

* * *

هذا هو الشيخ كمال، نسخة مخطوطة نادرة من مخطوطات الرجال، رجل فرغ من مطالب نفسه، وعاش للناس فكان مثله الأعلى هو عمله، وأفكاره هي قوله، وكانت دمشق مدرسة وكان فيها الأستاذ.

---

(١) هذا ما قالوه عن السلطان عبد الحميد، وقد تبيّن أنه حديث مفترى، ولكنه صار بعده واقعاً يُرى.

الشّيخ كامِل القصّاب والشّيخ بهْجت البيطار

سألني من أيام أحد الإخوان، قال: هل كنت تلميذ الشيخ كامل القصاب؟ قلت: لم أدخل مدرسته، ولكني بمنزلة تلميذ صغير من تلامذته، قال: وماذا تعرف عنه؟ قلت: أعرف الكثير. ولكن خبّرني أولاً، ما الذي دفعك إلى السؤال عنه؟ ومن أين سمعت به، وعرفت أني تلميذه؟ قال: لقد كتب ذلك الأستاذ محمد حسين زيدان، أفلم تقرأ ما كتب؟ قلت: لا، وإن كنت أحب أن أقرأ للأستاذ زيدان منذ رأيت مقالته في رثاء شيخنا الرافعي سنة **١٣٥٦**. وأقصى النجاح لكاتب في أيامنا أن يقرأ الناس ما يكتب، لأن المطابع ترميهم كل يوم بما يعجزون أن يقرؤوا عشر معشاره، فلا بد أن ينتقي المرء ما يقرأ. وأنا حين أرى المقالة في الصحيفة أو المجلة، أنظر أول ما أنظر إلى اسم كاتبها، فإن كان من الأسماء التي أعرفها، وأقرأ في العادة آثار صاحبها، قرأتها، وإن لم أرض عنها وإن خالفته الرأي فيما قال فيها، وإذا أبصرت اسماً جديداً، أعرضت عن المقالة. ويتكرر ورود هذا الاسم عليّ ويتكرر إعراضي عنه، حتى يتفق أن يجيء يوماً بموضوع يهمني، أو يفتتح المقالة بكلمة تسترعي انتباهي، فأقرأ له، فإن أعجبني وضعته في ذهني في قائمة أسماء من أقرأ لهم.

وأحسب أن أكثر القرّاء في هذا مثلي.

* * *

أما الشيخ كامل القصاب فإن في سيرته فصلاً كاملاً من تاريخ الشام الحديث: تاريخها العلمي، وتاريخها السياسي. فهو من أركان التعليم فيها.

أنشأ المدرسة الكاملية، وكانت تسمى حيناً المدرسة العثمانية، كما تسمى المدرسة التجارية بمدرسة الاتحاد والترقي، على اسم الجمعية التي كانت تحكم البلاد. وبلغت الكاملية مرتبة عالية بين المدارس، علّم فيها أعلام من أهل الشام، كالدكتور عبد الرحمن شهبندر، والأستاذ خير الدين الزركلي، والدكتور أسعد الحكيم. وتخرّج منها جماعة من الأعلام منهم: شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، ومنهم أستاذ كل من قال في دمشق: أنا طبيب، الدكتور أحمد حمدي الخياط، الذي درّس في كلية الطب في الشام من سنة ١٩٢٠. وكان أحد الذين عربوا المصطلحات الطبية، وقاموا بذلك العمل العظيم، وأخرج مع زميله الدكتور مرشد خاطر «المعجم»، الذي ينتقده ويعلق عليه من سنين في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق الأستاذ العالم الدكتور حسني سبح، وهو زميل الدكتور الخياط. وسأتحدث عنه بالتفصيل إن شاء الله. ولكن أقول الآن: إني كنت مرة مع بعض الإخوان في إدارة «المقتطف» في مصر، وقد صدر العدد الجديد من «المقتطف» وفيه خبر شيء استحدث في عالم الطب، نسيت الآن ما هو. وكانوا يفخرون بالسبق إلى نشره فقلت لهم: إن عندنا أستاذاً في المعهد الطبي (وكان ذلك اسم كلية الطب في دمشق) اطلع عليه ووصفه في الكتاب الذي يدرسه لطلابه من آخر السنة الماضية، فعجبوا.

وكان هذا الأستاذ هو الدكتور حسني سبح شيخ أطباء الشام، بل من كبار أطباء العرب. وهو الآن رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق.

* * *

أقدم ذكرياتي عن الشيخ كامل أنه كان قبل موقعة ميسلون، يخطب في دمشق، في الطرق والساحات ومجتمعات الناس، يثيرهم ويحمّسهم، فلما كانت الهزيمة المتوقعة، التي كنا نستحقها لأننا خالفنا عن أمر ربنا الذي قال لنا: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وقال: ﴿ ولا تهنوا ﴾ فسرّحنا الجيش، بعد أن قبلت الحكومة إنذار غورو، التي قالوا: إن حسن بك الحكيم الذي كان مدير البرق والبريد لم يرسلها. وسيأتي الكلام عن الوطني المجاهد النزيه حسن الحكيم.

لما كان ذلك وقضى الله علينا بأن يحتل الفرنسيون بلادنا، أصدروا قائمة بأسماء جماعة حكموا عليهم بالقتل، كان أول اسم في هذه القائمة اسم الشيخ كامل القصاب، فجاء المملكة، فجعله الملك عبد العزيز، رحمه الله، مديراً للمعارف. ثم استقال وذهب إلى حيفا.

قابلته عند خالي محب الدين سنة ١٩٢٨ على ما أذكر، ولكن حبلي لم يتصل بحبله إلا سنة ١٩٣٧. لما عاد إلى الشام، وعدت في إجازة الصيف من بغداد، ولزمته وصرت من المترددين عليه، العاكفين على حضور مجالسه، والمشاركين في أحاديث هذه المجالس. ولما أعاد افتتاح مدرسته، وجعلها مدرسة شرعية، فكانت نواة الكلية الشرعية، كلفني تدريس التاريخ والأدب، وكان من الطلاب جماعة صاروا اليوم من كبار الأساتذة، وصار منهم من هو أعلم مني، من هؤلاء الدكتور عبد الحميد الهاشمي. ثم كان منهم لما صارت كلية رسمية، الأستاذ محمد القاسمي، والدكتور أديب صالح، والأستاذ أحمد الأحمد، والأستاذان الجنادي والخطيب، وكان منهم حيناً الدكتور وهبي الزحيلي، وعبد الرحمن رأفت الباشا. وكان بين الطلاب طالب بلحية طويلة، علمت بعد أنه ليس من أهل السنة والجماعة، رأيته مرة يغش في الامتحان، فقلت له: إن عاقبتك العقوبة التي تستحقها منعتني لحيتك، وإن سكت عنك وكرمتك حجزتني سرقتك، فماذا أصنع لك؟.

ومما وقع لي يوم الامتحان أني كنت أراقب الطلاب، وما كانوا يحتاجون إلى مراقبة دقيقة، إذ كان عددهم قليلاً، وكان وقت الامتحان طويلاً، ووجدت أمامي «الكامل» للمبرد، فجعلت أقرأ فيه، وطال الوقت، وقرأت منه نحواً من ثلاثين صفحة.

فلما خرجت وانتهى الامتحان دعاني الشيخ كامل لحضور امتحان الأدب، وكان في كتاب «الكامل»، وكان الطلاب قد قرؤوا منه ما لا يزيد عما قرأته آنفاً، وكانت اللجنة مؤلفة من أستاذنا سليم الجندي، والأستاذ الشيخ عبد الحميد القنواتي، وأظن أن الثالث الأستاذ عز الدين التنوخي، رحمهم الله جميعاً. فكان الطالب يقرأ، فيمر بالأبيات فأسأله أو يسأله غيري عن تفسير

كلمة فيها، أو شرح جملة، فإذا وقف، قلت له: أذكر أن هذا التفسير مر قبل صفحة أو صفحتين، أو سيمر الشرح بعد صفحة أو صفحتين، فلما طال ذلك مني، قالوا: عجباً، أتحفظ «الكامل»؟ فلو قلت: نعم، أو سكت، لشهد لي هؤلاء الأساتذة الثلاثة الكبار بأني أحفظ «الكامل».

فهل يمكن أن يكون بعض ما يروى عن حفظ الأولين، بعضه لا كله، من هذا القبيل؟.

* * *

الناس الذين يدخلون حياتنا منهم من يمر كما يمر النهر على الصخر، لا يترك أثراً ولا ينبت زهراً ولا ثمراً، ومنهم من يمر مرور الماء على الأرض البكر، تكون قبله قنوات قاحلات وتصير بعده جنات ممرعات، ومن يمر مرور السيل الدفّاع، يدمر العمران، ويقتل الحيوان، ويؤذي الإنسان.

وكل من تلقاه أو تحدثه يأخذ منك ويعطيك، يترك في نفسك أثراً منه، حسناً كان أم سيئاً، مؤقتاً أم باقياً.

ما قعدت بين يدي معلم في المدرسة، ولا جلست أستمع إلى محدث في ناد، أو واعظ في مسجد، بل ما صحبت صاحباً، ولا اتخذت رفيقاً، إلّا كان له في نفسي أثر، يكون عميقاً تارة فيبقى فيها طويلاً، أو يكـون ضحلاً فيمحى منها سريعاً.

وممن أثّر فيّ ناس تحدثت عنهم، منهم الشيخ عيد السفرجلاني، والشيخ صالح التونسي، والشيخ عبد القادر المبارك، والأستاذ سليم الجندي، وناس أرجو أن يوفق الله إلى الحديث عنهم كالأستاذ محمد كرد علي، والأستاذ عز الدين التنوخي، والشيخ محمد الكافي التونسي، ورجل أتحدث عنه الآن هو الشيخ بهجة البيطار.

كان التلميذ الأكبر (علماً) للجمال القاسمي، كما قرأ على السيد محمد الخضر حسين لما كان في دمشق، ثم عاد إلى مصر وصار شيخ الأزهر، والشيخ

بدر الدين الذي كان يلقب بالمحدث الأكبر، وأستاذه الذي انتفع به، وسار على طريقته واستنار بـ «مناره» هو السيد رشيد رضا.

في سنة ١٩٢١، لما كنت تلميذاً للشيخ حامد التقي، وهو أسن تلاميذ الشيخ جمال الدين القاسمي، رحمه الله ورحمهم، في مدرسة أنموذج المهاجرين في دمشق، كان يحدثنا عن زميل له في القراءة على الشيخ جمال الدين هو الشيخ بهجة البيطار، الذي كان يومئذ معلماً في مدرسة أنموذج الميدان الابتدائية. وذهبت بعد ذلك بسنوات إلى الميدان فصليت الجمعة في جامع الدقاق فسمعت خطبته، فإذا أنا أجد ما لا أجد مثله في المساجد التي كنت أصلي فيها. لم يكن يقرأ الخطبة من ديوان قديم. كما كان يصنع يومئذ أكثر الخطباء، ولا من ورقة مكتوبة يضع عينه فيها، ولا يرفع رأسه عنها. بل كان يخطب ارتجالاً ولم يكن يلقي كلامه ذلك الإلقاء الملحن الممطوط الذي يسبب النعاس ويستدعي الملل، بدلاً من أن يثير النشاط ويبعث الأمل، بل كان يلقي إلقاءً طبيعياً عادياً، كما تلقى المحاضرات.

وصرت كلما استطعت ركبت الترام فذهبت إليه فصليت عنده، ورجعت، ثم افتقدته فسألت عنه، فقالوا: إنه سافر إلى الحجاز، فحضر مؤتمر العالم الإسلامي الذي عقده الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٥هـ في مكة المكرمة، وأن الملك استبقاه عنده، فجعله مديراً للمعهد العلمي السعودي في مكة، أو مشرفاً، فلست أدري الآن على التحقيق، وولاه القضاء، فاشتغل به مدة ثم استعفاه منه، قائلاً مقالة الشيخ محمد عبده: خلقت معلمًا ولم أخلق قاضياً.

فولاه وظائف تعليمية وجعله مدرّساً في الحرم، وعضواً في مجلس المعارف. ثم استأذنه للعودة إلى دمشق، فعاد سنة ١٣٥٠ إليها وإلى الخطبة في جامع الدقاق.

عرفته في تلك الأيام فوجدتني معجباً به، ولكني مخالف له. لقد وجدت أن الذي أسمعه منه يصدم كل ما نشأت عليه، فقد كنت في العقائد على ما قرره الأشاعرة والماتريدية، وهو شيء يعتمد في تثبيت التوحيد من قريب أو

بعيد على الفلسفة اليونانية، وهي فلسفة بدائية. وكنت موقناً بما ألقوه علينا، وهو أن طريقة السلف في توحيد الصفات أسلم، وطريقة الخلف أحكم، فجاء الشيخ بهجة يقول لي: بأن ما عليه السلف هو الأسلم وهو الأحكم. وكنت قد نشأت على النفرة من ابن تيمية، والهرب منه، بل وبغضه، فجاء يعظّمه لي، ويحببه إليّ، وكنت حنفياً متعصباً للمذهب الحنفي، وهو يريد أن أجاوز حدود التعصب المذهبي، وأن أعتمد على الدليل، لا على ما قيل.

وتأثرت به، وذهبت مع الأيام مذهبه مقتنعاً به، ولكن لم يكن هذا التحول هيناً ولا سهلاً، وما كنت قط سهل القياد، ولا سريع الانقياد، بل ناضلت دون ما كنت أعتقده، وأمضيت عشرات من الجلسات والسهرات، في المجادلات والمناظرات، أنا باندفاعي وحماستي وعنفي، والشيخ بهجة بسعة صدره، وطول أناته، وغزير علمه، وقوة حجته، ولقد عرضت في الجزء الأول من كتابي عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، إلى ما مر عليّ من أدوار: كيف نشأت مقلداً مؤولاً كارهاً لابن تيمية، ثم أثّر فيّ الشيخ بهجة فغدوت سلفي العقيدة، متمسكاً بالدليل، ثم صحبت الشيخ زاهداً الكوثري حيناً فرجعت إلى ما كنت عليه، ثم أقمت عند خالي محب الدين في مصر واقتربت من السيد رشيد رضا، فعاد أثر الشيخ بهجة في نفسي قوياً، ثم ثبت عليه.

* * *

بقيت أكثر من ثلث قرن أصلي الجمعة عنده أنا والأستاذ التنوخي، والأفغاني حيناً، والشيخ ياسين الرواف أحياناً، وكان عنده كل جمعة جماعة، منهم بعض الأفاضل الذين يعز لقاؤهم في غير هذا المكان، كالأمير شكيب أرسلان لما قدم الشام (في السنة التي أتكلم الآن عنها) وكنت أعرفه من بعيد عظيًما في جهاده وفي كتابته وفي علمه، فعرفته من قريب عظيًما في تواضعه وفي سيرته.

أكلنا فقال الأمير: إن من عادتي أن أخذ سِنَة من النوم بعد الأكل، فقام الشيخ مسرعاً فقال الأمير: إلى أين؟ قال: أعد لك السرير، قال: مالي وللسرير؟ وأخذ وسادة من الوسائد التي كنا نستند إليها، فوضعها على الأرض

في وسط الغرفة، وألقى برأسه عليها، وقال: السلام عليكم، وأغمض عينيه، فقال الأستاذ عز الدين التنوخي: أي نعم (وكانت تلك كلمته التي يرددها) هذا هو الصحيح، وأخذ وسادة فألقاها إلى جنبها وفعل مثل ما فعل، وقلدهما الحاضرون، وصارت الوسائد دائرة صغيرة، عليها الرؤوس، والأجساد ممتدة خطوطاً من حولها.

وكنت كلما حضرت خطبته وانصرف إلى داره فانصرف معه جماعة من الناس، فوجدوا المائدة معدة، ففي كل جمعة وليمة، فيأكلون ويبقون يتحدثون ويستمعون إلى الشيخ فيستفيدون حتى يؤذن العصر فيصلون ويذهبون.

وكنت آخذ إليه كل من عنده شبهة في الدين، أو كلام في الإسلام سمعه من غير المسلمين، فيزيل الشيخ الشبهة، ويدفع الاعتراض. ويوفق في أكثر الأحوال، وقد يقول في بعضها كلاماً طويلاً لا يشفي الغليل.

وكان يغلب عليه حيناً التفكير في أمر يشتغل به ذهنه، فإذا دعي إلى الكلام خاض فيه، وإن لم يكن هو مجال المقال، وإن لم يناسب الحال.

وهو مطلع على جوانب من علوم شتى، وملم بالفرنسية فهمًا وكتابةً، درسها في المدرسة العزرية[1] في دمشق. أفليس عجيباً أن يكون الشيخ بهجة من تلاميذ المدرسة العزرية النصرانية دخلها حيناً من الدهر؟.

وهو الذي عرفني بالشيخ ياسين الرواف، أول ممثل للمملكة العربية السعودية في دمشق، ثم بأخيه الشيخ عيد، الذي حل محله، ثم رشيد باشا الذي صار سفير المملكة بعدهما، وهو من أذكى الناس، ضعف بصره في آخر أيامه أو كف، فكنت أدخل عليه مع الشيخ فأخفف الوطء، ولا أنطق ولا أسلّم، وأقعد ساكناً، فيوجه الكلام إليّ حيثما كنت من المجلس كأنه يراني، ثم بالسفير عبد العزيز ابن زيد، وكلاهما كان من جماعة ابن الرشيد، ولكن الملك عبد العزيز، رحمه الله، ورحم كل من ذكرت، على عادته في تألف من كانوا

---

(١) ولعلها منسوبة في الأصل إلى العدراء (أُم سيدنا عيسى) فحرّف الناس اللفظ والله أعلم، فما عندي عن ذلك علم.

أعداءه، وامتلاك قلوبهم بالإحسان إليهم، جعلها من أوفى الناس له وأقربهم إليه.

كان الملك عبد العزيز رحمه الله يقرب الشيخ، ويعرف له قدره، وكان له عليه عطف خاص لم يكن لغيره.

* * *

المرء يتجمل للناس، ويعرض نفسه عليهم في أحسن أحواله، وإن تكلم أمامهم احترس في كلامه وانتبه إلى أقواله، ولكن يبرز لذويه ولمن لا يحتشم منه على حقيقته: صورة بلا «رتوش»، ووجهاً بلا «مكياج»، لأن الحجب قد رفعت بينه وبينهم، فصار يحس معهم كأنه وحده. وكذلك يكون الولد مع أبيه، وكذلك كنت مع شيخنا الشيخ بهجة ونفر من أساتذتي، فضلاً عن أصدقائي. عرفوني كما أنا، فما كان يفيدني أن ألقاهم بقناع يستر نقائصي ويخفي عيوبي. منهم الشيخ عبد القادر العاني، والأستاذ الرئيس محمد كرد علي، والأستاذ الزيات صاحب «الرسالة»، والأستاذ عز الدين التنوخي، والدكتور عبد الوهاب عزّام وجماعة لست الآن في مجال إحصائهم، وسيمر إن شاء الله ذكرهم.

كان أول اتصالي بالشيخ بهجة سبب أزمة لي في حياتي. فلقد كان أكثر مشايخي، بل أكثر مشايخ الشام، ممن يميلون إلى الصوفية، وينفرون من الوهابية، وهم لا يعرفونها ولا يدرون أنه ليس في الدنيا مذهب اسمه المذهب الوهابي، ولكن ذلك أمر افتراه عليهم خصومها[1]، ينفرون منها كما ينفر الإنسان من عدو خطر مجهول. وكان عندنا ـ كما قلت من قبل ـ جماعة من المشايخ يوصفون أو يوصمون بأنهم من الوهابيين، على رأسهم الشيخ محمد بهجة البيطار وزميله في القراءة على الشيخ جمال القاسمي الأستاذ حامد التقي. ومن أعجب العجب أن والد الشيخ بهجة صوفي من غلاة الصوفية، القائلين بوحدة

---

(١) لا أقول هذا لأني أعيش في المملكة، بل قلته مفصلاً في مقالة لي في (الرسالة) من نحو خمسين سنة.

الوجود على مذهب ابن عربي وابن سبعين والحلاج. كما أن الشيخ خالد النقشبندي، المفسر السلفي كان جده المدفون في سفح قاسيون هو الذي حمل الطريقة النقشبندية إلى دمشق. ومن تبع أمثال هذه الظاهرة في تاريخ علمائنا وأدبائنا وجد منها الكثير، ولعل من أغربها أن صاحب «الأغاني» أبا الفرج الأصفهاني، أموي النسب شيعي المذهب، ومن أبنائي الأستاذ محمد سعيد المولوي، وهو سلفي العقيدة وعمه شيخ المولوية وأبوه من مقدميها.

من هنا كان اتصالي بالشيخ بهجة سبب سخط هؤلاء المشايخ عليّ، حتى أن أحدهم لقيني مرة، فسألني عن حالي، فقلت في نفسي: لماذا لا ألقي بالحقيقة الثقيلة عارية في وجهه، وما شاء فليفعل؟ فقلت له: أقرأ كتاباً لابن تيمية على الشيخ بهجة، في دار الشيخ ياسين الرواف، أي أنني جمعت له الوهابية من أطرافها، فأخذني إلى مدرسته، وكان مدير مدرسة أهلية فلقينا الشيخ أمين سويد وهو من كبار علماء الشام، وقد جاء به الشيخ محمد علي زينل يدرس في مدارس الفلاح هنا، ثم أخذه يدرس في مدرسة الفلاح في بومباي. وكان الشيخ أمين شيخ أبي فقال له: يا سيدي هذا ابن الشيخ مصطفى، صار وهابياً ينكر التوسل. فقال الشيخ، رحمة الله عليه: يا بني، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. دعه فلا شيء لك عليه.

وكان الشيخ بهجة في بداية أمره معلمًا في المدرسة الابتدائية، في الميدان. كما كان بين المعلمين مجموعة من المشايخ الفضلاء. استولت عصبة في تلك الأيام من الماسونيين، أعداء الدين، على وزارة المعارف، فنكلوا بهم ونقلوهم إلى مدارس صغيرة، منها ما هو بعيد عن الشام. فنقل شيخنا، الشيخ حامد التقي، إلى قرية دمر، فبادلته على الوظيفة، وكنت معلمًا في الشام، وكان التبادل مقبولاً عند الوزارة، فأعدته إلى الشام. وكان من هؤلاء المشايخ الشيخ سعيد البرهاني، وكانوا يؤذونه لمشيخته، والشيخ صالح الخطيب. وكنت يومئذ رئيس لجنة الطلاب، حولي آلاف منهم يطيعون أمري، ويمشون ورائي، ويتحركون بإشارة من يدي. فأخذت نفراً من أقويائهم، وذهبت إلى مدير المدرسة التي كان فيها الشيخ سعيد البرهاني، والمدرسة التي كان فيها الشيخ

صالح الخطيب، فدخلت عليه وقبّلت يد الشيخ أمامه، وأفهمته أن الشيخ لا يستحق إلّا التجلة والإكرام، وأن من يمسه ويعتدي عليه أهل للعقوبة فما عادوا بعد ذلك إلى إيذاء واحد منهم.

ثم دعي الشيخ بهجة إلى إنشاء دار التوحيد في الطائف، وأخذ معه ولديه، وهما نابغان أحدهما: الدكتور يسار، من خبراء المال، والثاني: الأستاذ عاصم من أعلم مدرسي النحو اليوم، وأحسنهم طريقة في التدريس. ولقد اشتغل سنين في المملكة هنا.

أخذوا الشيخ بهجة إلى روسيا وإلى أمريكا. أما أهل أمريكا فيدعون الضيف يرى ما يشاء، ويقول ما يشاء، ويتخذون من الأسباب ما يبطل كل دعوة إلى الخير، وكل إرشاد إلى إصلاح، بالوسائل التي تشتمل عليها حضارتهم، وما تحمل من اللذات المحرمة، واللهو الصارف عن الخير.

وأما الروس فلا يدعون الضيف يرى إلّا ما يريدون هم أن يراه، ولا يمشي إلّا إلى حيث يحبون هم أن يمشي، ولا يلقى من الناس إلّا من يسمحون له هم بلقياه، ثم لا يخلون بينه وبينهم. بل يبثون حوله العيون، وينشرون الجواسيس، يسجلون عليه كل حركة وسكنة، وكل همسة وكلمة.

ولقد خدع أكثر من ذهب إلى روسيا من العلماء والمشايخ، حتى شيخنا الشيخ بهجة. وكانت لي دروس ليلية في مسجد الجامعة في دمشق، وكنت أتكلم ليلة عن الشيوعية، فدخل شيخنا الشيخ بهجة. ففرحت، وقلت له: تفضل يا سيدي أهلاً وسهلاً. حدّثهم عما رأيت في روسيا.

فكان مما قال: إنه لم ير عورة بادية، ولا ذراعاً عارية، ما رأى إلّا الحجاب السابغ، فتألمت: ووجدت أنه ـ غفر الله له ـ سيهدم عليّ ما بنيت، وينقض ما أبرمت. فسألته لأنبه الشباب السامعين، وكم هي درجة الحرارة هناك يا سيدي؟ فقال: عشرون تحت الصفر. فأفهمتهم أن هذا الحجاب للخوف من البرد لا للحرص على الفضيلة.

وفي كثير من مشايخنا الكبار مثل هذا البعد عن المكر، حتى أن الواحد منهم يُمكر به فلا يشعر مع أن عمر كان يقول: «لست بالخِبّ، ولكن الخب لا يخدعني»، من ذلك أنه لما كان الحاج أمين الحسيني يناضل الانكليز في فلسطين سألوا مفتي مصر يومئذ عن وظيفة المفتي فأجابهم. قالوا له: وهل من عمله الاشتغال بالسياسة؟ فأجاب قائلاً: لا. فأخذوا من جواب مفتي مصر حجة على مفتي فلسطين.

* * *

كنا عند الشيخ بهجة كأننا في بيوتنا، إن جعنا طلبنا الطعام، وإن نعسنا ذهبنا إلى الغرفة الأخرى لننام، وإن أنسنا قعدنا، وإن استعجلنا استأذنا فانصرفنا. وهو في الحالات كلها مشرق الوجه، باسم الثغر، لين القول، يتحرك لسانه ما بين ترحيب بنا، أو كلام نافع لنا، فقوله درس، وسلوكه قدوة، ومجالسته متعة. ما بعدها متعة، رحمه الله. ولقد رأيت آلافاً من الرجال، وعاشرت مئات منهم، فما رأيت مثله إلاّ قليلاً، في فهمه للإسلام، وتمكنه من العربية، واستحضاره للشواهد، وقدرته على نظم الشعر.

كان حلاّلاً للمشكلات، يستمتع بالنكتة ويقولها. لازمته أكثر من أربعين سنة، سافرت معه، شاركته في لجان التحكيم، وفي لجان رسمية، فكان في الحالات كلها الرجل الكامل الفاضل.

* * *

وبعد، فقد فتحت على نفسي وعلى القراء باب خير واسعاً، في الكلام على من عرفت من الرجال، ولكن هل أستطيع دخوله؟ إن دون الوصول إليه حفراً وعقبات، وعوائق شديدات فهل أبلغه وأدخله؟.

إنه طريق طويل طويل، كلنا يجتازه، نحط الرحال، وننصب السرادق، يمر بنا السائرون يقيمون ما يقيمون، ثم يرحلون فلا نلقاهم أبداً. لكل منهم موعد، يدعوه فيه داعيه، فلا يملك إلاّ أن يجيب، ثم يأتي موعدنا نحن، فيأتي من يحملنا، شئنا أم أبينا، إلى حيث يريد من أرسله، لا إلى حيث أردنا، فلا

نعرف وقد فارقنا خيمتنا، إلى أين مصيرنا، ثم يجيء بعدنا من يسكن فيها مكاننا، يستأجرها كما استأجرناها، ثم يخلّفها كما خلّفناها:

رُبَّ ركب قد أناخوا عندنا يشربون الراح بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالاً بعد حال

الشّيخُ الكافي

هذا رجل لا تعرفونه، ولكن تعرفون طرفاً من آرائه في إنكار حركة الأرض، ورده على من قال بها، واستدلاله على ما ذهب إليه بما لا دليل فيه، على ما يدعيه. شيخ من تونس هبط دمشق مع هبوط السلام بعد الحرب العامة الأولى، وكان الذين صاحبوه وعاشروه أبي وأعمامي. لقد خلطوه بأنفسهم، حتى غدا كأنه واحد منهم. ولم يكن عجيباً أن يتصادق تونسي وسوري فإن هذه الحدود لم تكن قد ظهرت، ولقد كان عندنا مدرسون من تونس ومن الجزائر ومن طرابلس الغرب التي صارت تسمى الآن ليبيا، واسمها قديماً لوبية، وعندنا مدرسون من الترك، ومدرس من اليمن اسمه الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي.

* * *

ولقد كتبت من قديم أن الرجل المهذب الذي يألف ويؤلف، والذي يتكلم فيضع الكلمة موضعها، فلا تجرح السمع، ولا تحرج السامع، والذي لا يفعل إلاّ ما يليق بمثله أن يفعله، والذي لا ينكر الناس من سلوكه شيئاً، ولا يحسون له على قلوبهم ثقلاً... هذا الرجل كالنسخة المطبوعة الطبعة الأنيقة من الكتاب، ورقها صقيل، وجلدها جميل، ولكن مثلها في السوق مئات أو آلاف.

وإن من الرجال ما هو كالنسخة المخطوطة، ربما كانت ناقصة، أو مخرومة، أو مسّ الزيت أطرافها، فأفسدها، ولكنها أثمن وأغلى لأنها واحدة لا ثانية لها.

وأنا لا علم لي بالمخطوطات، ولكني عرفت من دهاقينها، ومن أهل الخبرة

فيها، قوماً بقي منهم صديقنا الأستاذ أحمد عبيد، مد الله في عمره. وأعرف من الطبقة التي نشأت بعدهم، فسارت على نهجهم الصديقين: الدكتور صلاح الدين المنجد، والأستاذ زهير الشاويش.

الشيخ الكافي الذي أتكلم عنه مفرد في بابته[1]، فهو فقيه مالكي متمكن من المذهب، وهو مقلد شديد التقليد، وما هذا الذي يميزه، فما أكثر الفقهاء المقلدين في ذلك الزمان، ولكن ميزته أنه يعيش كما يريد. لم تكن له وظيفة، أي راتب، فهو يداري رؤساءه لئلا يضار في وظيفته. ولم يكن من أهل السياسة ليرضي العامة، ويتألف الجماهير، استبقاء لزعامته، ولا كان من أهل السوق فهو يساير الناس لئلا ينفضّ عنه زبائنه، ويبتعد عنه عملاؤه، وما عرفته احتاج إلى أحد فهو يرعى خاطره لئلا يتغير عليه. كان يعيش من مورد له في تونس، يأتيه منه مال يكفيه، ويعيش منه، وأحسبه مورداً زراعياً لأنه كان في بعض السنين يبيع زيت الزيتون التونسي، لمن يحب أن يتناوله.

خبّرني قبل موته بعشرة أيام أنه دخل المائة الثانية من عمره، وقلت ذلك حين أبّنته في مقبرة الدحداح عند الدفن، رحمه الله.

أصله من بلدة أو قرية في تونس، اسمها كاف، لا أعرف أين هي، لأني لم أذهب إلى تونس. وقد دعيت إليها مرتين تفضل في أحدهما السفير فدعاني بنفسه، فاعتذرت بعلوّ سني، وثقل حركتي، وشكرت الداعي.

عاش هذا العمر كله ولم يتزوج. تخلّص من قيود الزواج، كما تنصل من روابط الوظيفة والمجاملات الاجتماعية.

سكن الدار التي كانت دارنا، وبقي فيها ثلاثين سنة، وهي دار صغيرة في حارة الديمجية. ولدت أنا فيها، ونشأت فيها، ولما مات أبي سنة ١٣٤٣ هـ عيّنت مكانه إماماً في مسجدها الصغير، ويدعى جامع رستم. وقالوا لا بد للإمام من عمامة، كأن العمامة من شروط الإمامة، فأدرتها على رأسي، فقالوا: لا بد من

---

(١) يقال: فلان من بابة فلان أي من أشباهه وأمثاله.

لحية، قلت: العمامة اشتريت قماشها، وأحكمت لفها، فمن أين آتي باللحية وأنا لم أكمل السابعة عشرة؟.

سكن الشيخ الكافي في هذه الدار لما خرجنا منها، وأسكن معه أسرة من المدينة، أظنها أسرة الخياري. وهذا الخياري رجل طيب صالح، كان يتولى رعاية الشيخ، كما يعد أهله طعامه الذي يحمله هو إليه في غرفته.

* * *

وكان الشيخ يحب الولائم، لا أن يكون دوماً المدعو فيها، كما يحب كثير من المشايخ، بل يدعو ويُدعىٰ، وكان حضور دعواته مما أرغب فيه، لأنني أستفيد منها في بطني وفي ذهني. أستمع إلى من كان فيها من العلماء، ومن الأفاضل، فأتعلم، ونأكل الكسكسي الأصلي[1]، ونشرب بعده الشاي الأخضر، وكان الشيخ الكافي أقرب إلى نفسي من شيخنا الشيخ صالح التونسي، الذي مرّ ذكره، والذي استفدت منه كثيراً، ولا أنكر فضله عليّ، وهو رفيق الكافي وصديقه، وكان الكافي يلين أحياناً حتى نألفه نحن الصغار. وكان يأخذنا إلى «السيران»، و«السيران» في الشام نزهة في البساتين أو في الوادي، ويدعو من أجلنا الكبار، ويبتكر اللعب المسلية، ويجعل الجميع يشتركون فيها، يقيم حجراً يجعله هدفاً، فمن أصابه نال كذا، أو يجعلنا نتسابق، وكل مرة يخترع لعبة جديدة لا يعرفها الناس.

يدع في السيران جده وحدّته، ويكون منبسطاً كأحسن ما يكون الانبساط، ليناً أكثر ما يكون اللين، يسوق النوادر، ويروي الطرائف ويضحك، ويضحك من معه، ويتسلق الشجر، حتى أنه ليصعد شجرة الحور حتى يبلغ رأسها، وهي تميل به فيميل معها.

وكانت له أجوبة عجيبة. نام في بيت عمي فسأله في الصباح عن مبيته فقال: إن الفراش صالح لنوم الشتاء.

---

(١) ولا أكاد أعرف في أصناف الطعام أطيب منه وهو الأكلة المفضلة لإخواننا المغاربة جميعاً على اختلاف مناطقهم.

فلم نفهم حتى بينّ لنا، فإذا هو فراش صغير، فإذا نام المرء في الشتاء ضم جسده من البرد فاتسع له، فإذا نام في الصيف ضاق عنه، وكنا مرة نمشي معه في جنازة، فسأله رجل عن المتوفي، بكسر الفاء، فقال: المتوفي الله، فحسبه يكفر، وهَمّ بجمع الناس عليه. فشرحنا له أن الله هو الذي يتوفى الأنفس حين موتها، وهذا الميت يقال له المتوفى ـ بفتح الفاء ـ.

كان الشيخ صالح رحمه الله ورحم الكافي يحلو له في الولائم أن يسألني على ملأ من المشايخ الحاضرين، وكنت تلميذه في المدرسة الجقمقية، فقال لي مرة: أعرب.

أقاطن قوم سلمى أم نووا ظعنا إن يظعنوا فعجيب عيش من قطنا

وكنت في الصف الخامس الابتدائي، فنسيت أن «قوم» تعرب على أنها فاعل لقاطن، سد مسد الخبر. ونسيت أن هذه الفاء في الجواب واجبة الذكر، لأن الجواب جملة اسمية. وسكتُّ فهَمَّ بأن يتناولني، فانبرى له الشيخ الكافي، وقال: تنغّص على الولد طعامه؟ أهذا وقت السؤال؟ وتناقشا فاغتنمت انصرافهما إلى المناقشة، وانصرفت هارباً، خرجت وعقلي في الكسكسي الذي حرمني منه «قوم سلمى» الذين ما حلا لهم الظعن إلاّ وأنا آكل، وأنا ما لي وما لسلمى وقوم سلمى قطنوا أم ظعنوا؟.

* * *

كان شديد التمسك بما يراه، ما عنده في كل مسألة إلاّ قول واحد، من قال به فهو مقبول، ومن خالفه فهو مردود، وكان يمنع القيام لاستقبال القادم، ولقد كان يوماً مع والدي وجماعة من العلماء والفضلاء، فدخل مراقب الأوقاف العام، وكان إليه أيام الانتداب الفرنسي الإشراف على أوقاف سوريا ولبنان، فكان أكبر من وزير، فقاموا إليه يستقبلونه، وبقي هو قاعداً.

وقدم دمشق مرة قاضي بغداد، الشيخ الشواف وهو صديقي، فأخذته إلى علماء الشام، وكان معي الشيخ عبد الغني الدقر، فجعلنا ننتقل من حي إلى حي، نزور في كل حي علماءه فيحسنون استقباله وإيناسه حتى وصلنا إلى العقيبة، فزرنا

شيخنا الشيخ أبا الخير الميداني، والشيخ محمود ياسين، ثم أخذته إلى الشيخ الكافي.

فقلت له أعرّفه به: فضيلة قاضي بغداد. قال: لا، السلام أولاً ثم التعريف. فلما انقضى السلام، وبدأ الكلام، وكان حديث من أحاديث العلم، أشار الشيخ الكافي خلال كلامه إلى حديث رواه ابن عمر، فقال القاضي الشواف: نعم. فسأله الكافي: تعرفه؟ فسكت فأعاد عليه السؤال، قال: لا. قال: فلماذا قلت نعم، توهم أنك تعرفه؟ وكنا نمضي في كل زيارة ربع ساعة، فبقينا عنده ساعة وربع الساعة في حديث علمي نافع. فلما خرجنا خفت أن يكون القاضي قد استاء فأحببت أن أخفف عنه، فقال: ما سرّني لقاء أحد ممن زرته ما سرّني لقاء هذا الشيخ.

كان يؤلف الكتب ويطبعها على نفقته ويوزعها، ألّف أولاً «الأجوبة الكافية على الأسئلة الشامية». على طريقة العلماء المتأخرين، كلما نزل أحدهم بلداً، ألّف مثل هذا الكتاب، ثم ألّف «المسائل الكافية». وكان ينكر دوران الأرض ويكفّر من يقول به، حتى كفر الشيخ محمد عبده، والسيد رشيد رضا، وما صدر هنا من بضع سنين من كتابات حول هذا الموضوع، كثير منه مأخوذ مما كتب الشيخ الكافي، منقول عنه نقلاً حرفياً تقريباً.

وكان ينكر على أرباب الطرق الصوفية، حتى أنه كان في تونس في يوم يجتمع فيه الصوفية بمناسبة لهم، ينشدون الأناشيد في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام بألحان أهل الغناء الممطوطة، التي تحرّف الكلم عن مواضعه، وتقطعه وتصله، وقد يخرج الكلام بهذا اللحن عن معناه، فلما مروا به خرج عليهم بتلاميذه، ومعهم عصي الخيزران، ففرّق جمعهم، وأفسد نظام سيرهم، فأخذته الشرطة إلى والي البلد، فلما دخل عليه قال له، بمثل النغمة التي كانوا ينشدون بها: السلام علي، علي، عليكم، عليكم، كم، كم، ما اح، ما اح، ما أحلى عيونك، وما أبهى جبينك يا سيد الملاح، لاح.

فغضب الوالي فقال: ما هذا هل أنت مجنون؟ أهكذا يخاطب الولاة؟ قال:

هـل الوالي أعـظم من رسول الله؟ قـال الوالي: معـاذ الله، وأين أنـا من رسول الله ﷺ؟ قال: إذا غضبت لأني سلمت عليك بهذا النغم، وتغزلت فيك هذا الغزل، فكيف تدعهم يوجهون هذا إلى مقام سيد البشر وخاتم الأنبياء ﷺ؟ قال الوالي: الحق معك.

وهذه الأناشيد التي يسمونها «النبوية»، وكنـا نتعلمها ونحن صغـار، وننشدها في المدرسة، وفي الموالد، وفي الحفلات، فيها هذا كله، وفيها ما هو أكبر من هذا كله، وهو أنها تشتمل على بعض الشرك الذي لا شك فيه، وعلى دعاء الرسول بما لا يدعى بمثله إلّا الله.

ولـما صار الأستاذ أحمد عسة أيام الشيشكلي، على ما أذكر، المدير العام للإذاعة في سوريا، وكان يوماً تلميذي، كلمته في هذه الأناشيد وسألته منعها، فمنعت، وقام عليّ المشايخ حتى إخواني وأساتذتي، محتجين بأن الرسول ﷺ سمع وصف النساء من كعب بن زهير.

وهذا خبر مستفيض رواه الأدباء فإن صح عند المحدثين فلا حجة فيه، لأني لا أتكلم في حكم سماع الغزل، بل في مدح الرسول، عليه الصلاة والسلام، بما يشبه الغزل، جلّ قدره عن ذلك وارتفع.

وكنت أعجب من الشيخ الكافي، كيف يكون تارة سلفياً يحارب البدع والمحدثات، ويجابه العلماء والعوام، ومجابهة العوام أصعب من مجابهة الحكام، ثم يعظّم كتاب «الابريز» في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ، وينقل منه كأنه يعتمد عليه، وفي هذا الكتاب ما هو كفر صريح، ما له تأويل، ولا تعليل، ولا يعتمد على دليل، ثم تبيّن لي أنه مقلد حتى في هذا الإنكار، فهو يتبع فيه ابن الحاج في «المدخل» يمشي وراءه ويتبع خطاه، فما أنكره ابن الحاج أنكره.

وكان الشيخ يستمع الغناء من غير آلات، وكان من المشايخ في الشام قوم كلما سمعوا دوراً قديماً للحامولي أو عثمان وأمثالهما، أو أغنية لصالح عبد الحي وأضرابه، أو نغمة لسيد درويش، أخذوا لحنها فوضعوه على كلام غالبه سخيف، ينظمه جماعة اختصوا به، منهم الشيخ عبد الرحمن القصار، وهو شاعر

والشيخ أبو سعود مراد، وهو نظام لا شاعر يمدحون به الرسول عليه الصلاة والسلام مدحاً لا يليق بمقامه، وكان في الشام رجل موسيقي ما له نظير في حفظ الألحان القديمة، اسمه علي الكردي أبو عزت، كان منقطعاً إلى الغناء في المجامع والحفلات، وكان له «تخت»، فلما قامت نهضة المشايخ على يد الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب، اتخذ العمامة وترك الموسيقى. وقد عاش حتى جاوز الثمانين، وحنجرته لا تزال طرية، وصوته لا يزال عذباً. ومثله في ذلك توفيق المنجد الذي تسمعونه من إذاعة الشام في رمضان. وكان الشيخ شريف الخطيب، ابن خالتي، مدير المدرسة الأمينية، يجمع بعض الأصدقاء والمشايخ في داره ويأتي أبو عزت، والشيخ صبحي الإمام، الذي كان رئيس ديوان النيابة العامة في وزارة العدل، فاستقال لما قامت نهضة المشايخ، وانقطع لطلب العلم، واتخذ العمامة. وكانت له لحية مثل لحية أبي عجاج الخطيب الذي مرّ ذكره، وكانتا أكبر لحيتين في الشام، أما صوته فمثل صوت وديع الصافي، بل إن صوته كان أقوى قوة، وأوسع مدى، وأحلى رنة في الأذن.

وكانوا يغنون مرة دوراً قديماً لا أعرف مطلعه فيه:

من بعادك داب فؤادي إمتى أنا أفرح بالوصال

وجعلوا على عادتهم يرددون الكلام، قل لي امتى - امتى امتى - امتى نفرح امتى - يا سيدي امتى - يا روحي امتى - امتى نفرح امتى. ثم يقول: آه ويمدها ويرجعها، ويعاونه الحاضرون، حتى تستمر هذه الآه ثلاث دقائق، وتميل على الأنغام والمقامات، ثم تعود إلى المقام الذي بدأت منه.

فلما أطالوا ملَّ الشيخ، وقال: روح اسأله امتى؟ ما تقعد هنا تقول امتى امتى.

وضحك أهل المجلس وعدّوها نكتة طريفة.

كان الشيخ يتعصب لما يرى أنه الحق ولو كانت المسألة خلافية، لا يجوز لمن أخذ برأي فيها أن ينكر على أهل الرأي الآخر، إن كان المختلفون جميعاً من أهل السنة والجماعة، ولم يكن الخلاف على أمر يتصل بالعقيدة، أو أمر

ورد فيه النص القطعي، كان الكافي صورة للشيخ المتعبد، الذاكر الشاكر، قائم الليل. كان صدّاعاً بالحق، لكنه يعيش بعقل القرون الماضية، وهو بين أهل القرن الحاضر. الحق عنده ما تعلّمه وحفظه. لا يقبل غيره، ولا يرتضي سواه.

فقيه مالكي متعصب لمذهبه، يرفض ما لا يعرف، لذلك أنكر حركة الأرض، وكفر من قال بأنها تدور.

هزّ دمشق هزتين: الأولى حين أنكر القيام في الموالد، وأنكر أشياء ينسبونها إلى الدين. وما لها أصل في الدين، فقام عليه المشايخ في الشام، لا سيما المتصوفة منهم، فلم يبال بهم وثبت على رأيه. والثانية: وكانت هـزة أقوى وأشد، حين حكم بالكفر على كل من يقرأ بهذه المصاحف التي كتبت على طريقة الإملاء العصري، ويرى أنه لا يجوز في المصحف إلاّ الكتابة الأولى، كما قال الإمام مالك، ولكنه جاوز رأي القائلين بالتمسك بالرسم العثماني، إلى ما لم يخطر لهم على بال، وما لم يقل به أحد، وهو أن مصحف عثمان ليس فيه نقط ولا شكل، فعلينا أن نلتزم به في مصاحفنا، بلا نقط ولا شكل، وألّف رسالة في ذلك، كان فيها على عادته صريحاً عنيفاً، أنكر هذه الزيادات التي زيدت على مصحف عثمان، وهي النقط على البـاء والتاء والثاء، والجيم والخاء إلخ... والشكل أي الفتحة والكسرة والضمة إلخ... وشدّد النكير على من يقرأ في هذه المصاحف، أي على المسلمين جميعاً.

فانفض عنه إخوانه وأصدقاؤه. وجاء الشيخ محمد الأهدلي، من زملائي في القضاء الذين كانوا أقدم مني فيه وأفضل، وهو عالم جريء فاضل يماني الأصل، فصوّر صورة دعوى من امرأة تطلب الطلاق من زوجها، لأنه ارتد عن الإسلام بقراءته في هذه المصاحف، ولا تحل له بعد ذلك.

وأصدر أعجب قرار صدر عن المحاكم وأطوله وأحفله بالأدلة العلمية، والبحوث النافعة، والنقول النادرة، وكشف فيه خفايا مقاصد عامّة المستعمرين، نقلاً عن دهاقينهم، وردّ فيه على طه حسين في كتاب «الشعر الجاهلي»، وعلى الرصافي

فيها نقله عنه أمين الريحاني، واشتمل القرار على نص فتاوى المفتين لا سيما فتوى مفتي الحنابلة في دمشق، الشيخ جميل الشطي، المؤرخة في شوال سنة ١٣٦٠ هـ التي يقول فيها: «إن ادّعاء الاجماع على وجوب موافقة رسم القرآن، لرسم مصحف عثمان، ادعاء لا يقوم عليه برهان، كما سيأتي البيان، ومن ادعى ذلك فعليه هو أن يأتي بالدليل»، واشتمل قرار القاضي على ما يؤيد ذلك من ملاّ علي القاري في شرحه للشاطبية، وعن زكريا الأنصاري في فتاواه، وعن العز بن عبد السلام الذي قال كما نقل عنه الزركشي في البرهان: «لا يجوز كتابة المصاحف الآن على الرسم الأول، لئلا يوقع الجهال في الخطأ»، واشتمل القرار على رد شيخ قرّاء الشام الشيخ محمد سليم الحلواني، الذي كان أقرب الناس إلى الشيخ الكافي بعد أبي وأعمامي، وكان يرافقه ولا يفارقه. فلما أصدر هذه الرسالة قاطعه وابتعد عنه، وعندي صورة من هذا القرار، لكنها ناقصة مبتورة. فلعل عند أهله صورة كاملة منها، ولعل بعض الناشرين ينشرها في كتاب بإذن منهم. وللشيخ الأهدلي بنت طبيبة فاضلة في دمشق، وبنت هنا زوجة لطبيب فاضل، فيمكن أن يطلب نص القرار منهما.

* * *

وقع الشيخ وقعة انكسر فيها ظهره، وقرر الأطباء أنه لا شفاء له، وأن عليه أن يبقى مثبتاً بالكرسي، ما بقي له من أيام.

وقامت الحرب العامة الثانية، وهو على هذه الحال، وانقطع ما بيننا وبين تونس فلم يعد يرد عليه من المال ما كان يرد، ففكرت أنا وابن عمي الدكتور سامي، رحمه الله، في شيء نقدمه إليه، فلم نقدر على أكثر من أربع ليرات ذهبية انكليزية، وذهبنا إليه ولكن حرنا كيف نقدمها له. فجعلت أمهد بكلام طويل للوصول إلى ما جئت من أجله، فأحس وقال وهو يضحك: قُل رأساً ماذا تريد؟ قلت: شيء قليل من أولادك، أنا وسامي قال: هات، وأخذها من غير تردد، فعجبنا. وكنت يومئذ قاضياً في دوما وكان فيها بعض المغاربة، وكنا ندعو مسلمي الشمال الأفريقي جميعاً مغاربة، لا نفرق بين طرابلسي (ليبي) وتونسي وجزائري ومراكشي (مغربي).

فجاءني بعد أيام أحد هؤلاء المغاربة، وكان رجلاً صالحاً كبير السن، فجعل يثني على الشيخ الكافي ويدعو له ويقول: لقد عرف حاجتي فأعطاني أربع ليرات انكليزية.

وأختم بحادثة طريفة، حدثني بها السيد مكي الكتاني، وهو ابن الكتاني الكبير السيد محمد بن جعفر، صاحب الرسالة المستطرفة التي لا أعرف في بابها مثلها. قال: قدم الشام الشيخ صالح التونسي فدعاه الشيخ الكافي هو والشيخ زين العابدين (كلاهما شيخي أنا وأستاذي) إلى الغداء وحدد لهما ساعة الطعام.

فجاءا قبل الموعد بأكثر من ساعتين. قال: أنا ما دعوتكما الآن، دعوتكما الساعة كذا: «وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم» فاذهبوا، وارجعوا في الموعد. فغضبا ولم يرجعا.

قال السيد مكي رحمه الله ورحمهما: وجئته فخبرني، فقلت له: إنك تحب سماع الحق، ولو كان ممن هو تلميذك، ومن هو مثل ولدك. قال: نعم. قلت: الحق أنك أخطأت. قال: كيف؟ قلت: ضيفان جاءاك، والشيخ صالح قادم من سفر، أفما كانا يستحقان منك خيراً مما رأيا؟ قال: وما العمل؟ قلت: تُعِدّ لهما دعوة جديدة، وتدعوهما. قال: فإن لم يحضرا؟ قلت: (أي قال السيد مكي) أنا أحضرهما. قال: وذهبت إليهما في بيت الشيخ زين قالا: أرأيت ما صنع الشيخ؟ قلت: وما صنع؟ فخبراني. قلت: أفلا عذرتماه؟ رجل مقعد مربوط بكرسيه، يحتاج أن يبول أو أن يتوضأ وأنتما قاعدان أمامه، تقيدان حريته وتمنعان حركته؟ إن الأولى بكما، وأنا تلميذكما ومثل ولدكما، أن تحمدا الله على الصحة، وأن تعذراه في المرض، قالا: وما العمل، قلت: أنا أجعله يجدد الدعوة لكما، فهل تستجيبان إن دعاكما؟ قالا: نعم.

وكذلك يصنع أهل العلم، وأصحاب الدين، يختلفون ولكن سرعان ما يرجعون فيتفقون، لا يحمل أحدهم غِلًّا للآخر، ولا يدخل قلبه الحقد عليه أو البغض له.

* * *

الشيخ الكافي صورة للعالم الذي يعطي من ذاكرته أكثر مما يقدم من فكره، مستقيم في ذاته لكن لا يخالط المجتمع حتى يقوّم غيره. عنده الكثير ولكن ليس عنده الأداة التي ينقل بها ما عنده إلى الناس، فليس بذي قلم، ولا أعطي لسان محاضر أو خطيب.

إنه لا يصلح داعياً إلى الله، ولا موئلاً للشباب يدلهم على الله. ليس الفارس الذي يحمل العلَم، ولا الجنـدي الذي يخوض غمرة القتال، ولا الخطيب الذي يبعث الهمم ويثير العزائم، ولكنه مثل أمين المستودع الذي تودع فيه الأموال، ويحفظ فيه العتاد. فهو أمين عليه، يؤديه كاملاً عندما يحتاج إليه.

وأمين المستودع يؤجر ويشكر، ولكن لا يكون كالقائد الـذي يرسم الخطط، ويقود الجيش، ويحمي البلاد.

إنه طراز من العلماء نحتاج إليه لكن لا نعوّل عليه.

الشيخ عبد المحسن الأسطواني

لما كتبت عن الشيخ الكافي وقلت إنه دخل المائة الثانية من عمره، ظن ناس أني أبالغ، واستكثروا أن يبلغ عمر امرىء في هذه الأيام مائة عام، مع أني أعرف من المعمَّرين كثيرين عاشرتهم وخالطتهم، أو أدركتهم وسمعت عنهم، أو دنوت منهم وإن لم أداخلهم.

منهم شيخ علماء الشام وكبير قضاتها، الشيخ عبد المحسن الأسطواني الذي عاش مائة وثمانية عشر عاماً.

لا أقولها مجازفة كما يجازف العامة من المسنين، حين يسألون عن أعمارهم، فيزعم أحدهم أنه عاش مائة وعشرين أو مائة وثلاثين، وما له على دعواه دليل، وإن لم يكن إلى تكذيبه من سبيل. بل أقولها عن تحقيق، فمما يثبت ما قلت أن الجامع الأموي في دمشق قد احترق في مطلع القرن الرابع عشر سنة ١٣١١، وأعاد الشاميون عمارته، هذه العمارة التي تبهر الزائر، وتدهش السائح. كان الشيخ عبد المحسن الأسطواني مساعد رئيس اللجنة العليا التي أشرفت على البناء. وكان نائب دمشق في مجلس النواب العثماني قبل الحرب الأولى بزمان طويل.

* * *

لو رجعتم بمناسبة الحديث عن احتراق الجامع، إلى كتابي «الجامع الأموي» الذي طبعته وزارة الأوقاف في دمشق أيام الوحدة، وهي تبيعه للسياح[١]، لوجدتم في الصفحة الثالثة والثمانين منه هذا الكلام:

(١) وتقبض هي الثمن!.

«أجدادنا الأولون كانوا أهل حزم وعزم، وكانوا أصحاب فكر وبيان، فكتبوا . . تاريخهم كله، وسجلوا مفاخرهم ومعايبهم، وأخبار جدهم وهزلهم، فنحن نعرف عن القرون الأولى التي مرّ عليها أكثر من ألف سنة كل شيء، كأننا نعيش فيها، ونجهل من أخبار القرون الأخيرة كل شيء، لا سيما القرن الماضي.

«وهذا شيء عجيب ولكنه الواقع».

«ولقد أردت أن أكتب قصة حريق الأموي، فلم أجدها في تاريخ من التواريخ فاعتمدت في حديثها على أستاذنا الأكبر الشيخ المعمّر الجليل عبد المحسن أفندي الأسطواني، وهو حفظه الله، أعجوبة العجائب، جاوز المائة (كتبت هذه المقالة سنة ١٣٧٩) ولا يزال في حدة ذهنه، وقوة ذاكرته، وكثرة علمه، وسرعة بادرته، وحضور نكتته، كما كان في شبابه.

«وبعد فهذه هي القصة أذكرها هنا لأن كثيراً من كهول أهل الشام فضلاً عن شبانهم نسوها، ولا يعرفون قصة حريق الأموي وبنائه:

«كانت ضحوة يوم السبت رابع ربيع الثاني سنة ١٣١١ هـ، وكانت دمشق آمنة مطمئنة، والناس منصرفون إلى أعمالهم في الأسواق المطيفة بالأموي، والنساء في بيوتهن الحافة بالجامع، فما راعهم إلّا صريخ يصرخ كأنه النذير العريان: أن لقد احترق الأموي، فترك التجار مخازنهم مفتوحة ووثبوا ينظرون، وصعد النساء على السطوح، وتراكض الناس من كل جهة، وإذا الدخان ينبثق من سقف الجامع، ولم يكن في دمشق في تلك الأيام مصلحة إطفاء (وقد أنشئت على إثر هذا الحادث)، وحار الناس ماذا يصنعون فاستبقوا إلى سجّاد المسجد ومصاحفه يخرجون ما يصلون إليه منها، وعمد بعضهم إلى الماء يصبّونه، وإلى المعاول علّهم يحصرون النار، ولكن النار كانت أسرع منهم، إذ كان خشب السقف قديماً جافاً، وعليه من الأصبغة والأدهان طبقات، فما شم رائحة النار حتى التهب كله دفعة واحدة، كأنما قد صب عليه البنزين. وكانت الرياح في ذلك اليوم غربية شديدة، فما مرت نصف ساعة فقط حتى صار السقف كله شعلة واحدة، وجعلت قطع النيران تتساقط من

كل مكان، فالتهب الجامع كله، ولم يعد أحد يستطيع أن يقترب منه، فوقفوا ينظرون، وكأن النار التي تأكل مسجدهم تأكل قلوبهم، ولكن العجز أمسكهم وقيدهم، وكانت عمد (أي أعمدة) المسجد قديمة أكثرها، ومربوطة بأطواق الحديد، فتشققت من النار، ثم هوى البناء كله، وزلزلت الأرض، وكانت ساعة من ساعات الهول، وامتدت النار تسوقها الرياح الغربية إلى الأسواق المحيطة في المسجد، وانجلى الدخان عن الخراب الشامل. لم يبق من الأموي إلاّ المشهدان عند باب البريد ورواق الصحن، عدا الرواق الممتد بين باب النوفرة إلى مشهد الحسين. أما سبب هذه الكارثة فهو أن أحد العمال الذين يشتغلون على سطح المسجد، راقه المنظر من حوله، فاشتهى أن يدخن نارجيلة (شيشة) فأحرقت هذه الشيشة الجامع كله».

ولست أريد الآن أن أذكر حريق الأموي ولكن أريد أن أقول: إن هذا الشيخ (الشيخ عبد المحسن الأسطواني) كان التاريخ الحي الذي يمشي لدمشق. كان يعرف كل بقعة منها، ويروي تاريخها.

سألته مرة، فقلت له: إن سور دمشق لا يزال باقياً، والأبواب السبعة معروفة قائمة: باب الفرج (باب المناخلية)، وباب الفراديس (باب العمارة)، وباب السلامة (باب السلام)، وباب توما، والباب الشرقي، والباب الصغير (باب الشاغور)، وباب الجابية. فأين الباب الثامن الذي كان يسمى باب النصر؟ قال: وأين تقدر مكانه؟ قلت: في رأس سوق الحميدية، فضحك وقال: أصبت كان هناك وأنا أعرفه.

قلت: لماذا نجد للقلعة خندقاً من الجهة الشرقية (في العصرونية)[1]، وليس لها من الغرب خندق؟ قال: وماذا يوجد في موضع الخندق؟ قلت: سوق الخجا. قال: هو ذاك، لقد استأذن والد محمد أفندي الخجا الحكومة، فاشترى منها الخندق، وردمه وبنى هذا السوق[2].

---

(١) نسبة للقاضي ابن أبي عصرون من قضاة الدولة الأيوبية.

(٢) وقد سمعت الآن أن سوق الخجا قد أزيل كما أزيل ما كان يحجب الأموي من غربيّه وجنوبيّه.

وأنا أعرف أخوين من آل الخجا، بنى أحدهما مسبحاً، والآخر مسجداً، ومنهم رجل هاجر إلى المدينة اسمه كامل أفندي الخجا، رأيته في زيارتي الأولى للمدينة المنورة ١٣٥٣هـ.

ومن المصادفات الغريبة أن أول شارع فتح في دمشق: وهو شارع جمال باشا، لما انقضت الحرب وأرادوا أن يمحوا اسم جمال باشا فلا يذكر، سموه شارع النصر، يريدون النصر على الأتراك، فجاءت مصادفة، كأنها عن تعمد، فأصابوا الحقيقة من حيث لا يقصدون.

* * *

أمضى الشيخ هذا العمر الطويل في مناصب الافتاء والقضاء، وكان معدوداً من صدور العلماء، يرجعون إليه، ويعتمدون في الفتوى عليه، لما كان العلماء في دمشق متوافرين وكانوا كثيرين. ولقد خطر على بالي وأنا أكتب هذا سؤال هو: كيف نحكم على الرجل بأنه عالم؟ ما هو مقياس العلم؟.

لما وضعنا نظام قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة في مكة أصرَّ نفر منا على اعتبار الشهادة هي المقياس الذي لا يعتبر غيره، فلا يكون مدرساً فيها إلّا من هو دكتور، وعارضت أنا، وقلت لمعالي الوزير العالم ابن العلماء، الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ: لو بعث الله جدك الشيخ محمد بن عبد الوهاب هل كنت تستطيع أن تجعله مدرساً؟ بل لو جاء أحمد بن حنبل وهو لا يحمل شهادة، هل كنت تملك أن تجعله معلمًا في مدرسة متوسطة؟ إن الله الذي أبلغ ابن عبد الوهاب وابن حنبل ما بلغاه بلا شهادة، قادر على أن يبلغ ذلك غيرهما، وأول من حمل شهادة الدكتوراه في الدنيا من منحه إياها؟ إن قلنا إنه دكتور دخلنا في باب المحال، أي في الدور والتسلسل، فلم يبق إلّا أن نقر بالواقع وهو أن أول من منح الشهادة كان رجلاً لا يملك شهادة. فالشهادة شرط لا ألغيه، ولكن لا أجعل المعول كله عليه.

وإن جاوزنا حد الوظائف الرسمية، فمن هو العالم؟ كيف نميزه؟ إن كانت الشهادة ليست الشرط اللازم الكافي، وكانت الشهادة يمكن أن تكون شهادة زور، تؤخذ بالحيلة، أو تشترى بالمال فهل نميزه بالتأليف؟ هذا الشيخ

عبد المحسن الذي أتكلم عنه، شيخ علماء الشام، بل هذا المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني الذي كان يقرّ له علماء الشام جميعاً بالرياسة، ما تركا تأليفاً، وأمثالهما كثير. كثير من العلماء ما خلفوا أثراً، ولا ألفوا كتاباً بل ما كتبوا مقالة فهل ننفي أنهم كانوا علماء؟.

ما هو المقياس الصحيح للعالم؟ المقياس الذي لا يتخلف ولا يخطىء؟ أنا أعلم من جواب هذا السؤال نصف العلم، فأقول: لا أدري.

ولكن الذي أدريه، أن علماء القرن الماضي والذي قبله كان علمهم غالباً علم رواية، حتى أنك عندما تنظر في ترجمة أحدهم، تجد أنه قرأ كتاب كذا وكتاب كذا في النحو، وفهمها وحفظها، ولكن ما حصلت له الملكة التي تجعله يقول فلا يلحن ويقرأ فلا يخطىء. وأنه قرأ الكتاب الفلاني والكتاب العلاني في الفقه وفي الأصول، ولكن ما استنبط ولا حاول أن يستنبط من الأدلة مثل الأحكام التي حفظها، وأن يبين حكم الله فيما جدّ للناس من معاملات، كما بيّن الأولون ما كان منها أيامهم. أي أنهم يحيطون بما وجدوا علمًا، ويقتلونه فهمًا، ولكن لا يزيدون عليه شيئاً.

وعلماء هذه الأيام يلمّون بالعلم أكثر مما يغوصون في الكتب، يفكرون ويكتبون ويؤلفون لكن اطلاعهم على ما كتب الأولون أقل مما ينبغي لهم.

عالم القرن الماضي علمه أكبر من عقله، وعالم اليوم عقله أكبر من علمه.

ولست أعمم الأحكام ولكن أصف ما عرفت، والذي عرفته قليل من كثير.

الشيخ عبد المحسن الأسطواني سَنين الشيخ بدر الدين الحسني (أي أنه في مثل سنه)، بل لقد رأيتهما مرة والشيخ عبد المحسن يقول للشيخ بدر الدين أنا من سنك. والشيخ بدر الدين، على عادته في قلة الكلام، وفي قطع الجملة وإتمامها بإشارة من يده قال: لا، يابه (وكانت تلك كلمته) أنت وأشار بيده إشارة تدل على أنه أكبر.

الشيخ بدر الدين كان رجل جِدٍّ، قليل الكلام، لا يكاد ينطق إلاّ جواباً لمسألة، أو شرحاً لمعضلة، وإن كان في درسه يتدفق تدفق النبع الفياض.

أما الشيخ عبد المحسن فكان رجلاً مع علو منزلته، وكبر قدره مزّاحاً يحب النكتة، ولا يمسكها، ولو كان مجيئها من تحت خط الاستواء البشري (أي من تحت معقد الزنار) واحفظ عنه في ذلك الكثير، ولكن لا سبيل إلى ذكره في جريدة سيارة تتلقفها أيدي الرجال والنساء والكبار والصغار.

وما ذلك بقادح فيه، فإن من سلف هذه الأمة من علمائها الكبار، من كان يمزح مثل هذا المزاح.

* * *

لما تركت التعليم وانتظمت في سلك القضاء سنة ١٩٤١ وانتقلت بعد سنوات قاضياً في محكمة دمشق الكبرى، كان الشيخ عبد المحسن كبير القضاة، وكان رئيس محكمة التمييز الشرعية، وكنا نرجع إليه إذا اعترضتنا معضلة.

كنا جماعة من القضاة نتناقش في مسألة تتعلق بالنفقة، وكنت أعرف أنها في حاشية ابن عابدين فرجعت إلى الحاشية فلم أجدها، وأصررت على أنها فيها، وأنكر زملائي أن تكون المسألة في الحاشية. فذهبنا إلى الشيخ عبد المحسن، وكانت المحكمة الشرعية ومحكمة التمييز في دار كبيرة من الدور الدمشقية الفخمة القديمة، وذلك قبل بناء القصر العدلي الذي جمع المحاكم كلها، فسمع مني ومنهم، وقال: الحق معك، ولكن لماذا لم تجدها وهذه الحاشية أمامك؟ فسكتُّ. قال: لأنها لم تذكر في باب النفقة، ولكنها جاءت عرضاً في باب أدب القاضي.

كان اطلاع الشيخ عبد المحسن على كتب المذهب الحنفي، أصوله وفروعه، اطلاعاً عجيباً، وكان في الجملة جوّال الفكر، متحرر الذهن، ولكن لما صدر قانون البينات وأنقذنا من القيود الشكلية التي لا داعي إليها، ولا

ضرورة لها في سماع الشهادات، وجعل قبول الشهادة أو ردها للقاضي، على أن يعلل للقبول أو للرد، عارض الشيخ هذا القانون ومنع تطبيقه في المحاكم الشرعية وأعادنا إلى ما في «المجلة» وهو أن القاضي آلة مسجلة، عمله أن يسمع شهادة الشاهد ولا يناقشه، فإن كانت الشهادة مصرحاً فيها بكلمة «أشهد» وكانت جامعة لشروطها الشكلية قبلها، وإن نقص شرط منها ردها، وإن كان الصدق يظهر من كل كلمة فيها، وإن نطق الشاهد بكلمة «أشهد» وأدى الشهادة على هيئتها قبلت، ولو كانت كاذبة رائحة كذبها تملأ جو المحكمة، والكذب يقطر من كل حرف فيها.

ثم تكون «التزكية»، والأصل في التزكية أن تكون من إنسان معروف بالصدق والأمانة، له منزلة في النفوس، لا يختلف اثنان في عدالته. ولقد كان من سنن القضاة الأولين أن القاضي الذي ولي قضاء بلد يبحث ويحقق، ثم يسمي من يرتضي أمانتهم ودينهم، وهؤلاء هم العدول، فمن كان يريد تثبيت عقد أشهدهم عليه، فكان عملهم قريباً من عمل كتّاب العدل في أيامنا.

وأقول بالمناسبة إن الذي وضع كلمة «كاتب العدل» ترجمة لكلمة «نوتير» الفرنسية هو الأستاذ مصباح محرم، من قدماء القضاة أيام العثمانيين: الذي كان رئيس محكمة التمييز في دمشق على عهد الشريف فيصل بن الحسين. وكان أبي رئيس ديوان المحكمة، وذلك بعد خروج الترك من دمشق، وقد أخذها من قوله تعالى: ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾.

هذا أصل التزكية ولكنها انتهت إلى أن صارت لعبة أو فصلاً من مسرحية. يسمع القاضي الشهادة، فيكلف المدّعي أن يأتي بمزكية، فيخرج فيجلب اثنين ممن يجدهما أمامه فيزكيان الشاهدين، وتنتهي الرواية، ويصدر الحكم، ويسدل الستار، ولو اقتصر الأمر على هذا لهان، ولكن كان عندنا شهود يدعوهم الناس شهود المصطبة يقعدون في المحكمة، وهم على درجات: شاهد من الدرجة الثالثة، يحفظ ما تلقيه عليه، ثم يدلي به إلى القاضي، وهذا أرخص الشهود أجراً. وشاهد من الدرجة الثانية يكون على شيء من العلم والفهم، وشاهد من الدرجة الأولى أو من درجة ممتاز، وأجره أيضاً ممتاز.

يكون عارفاً بشروط الشهادة، فقيهاً عالماً، ولكنه كعلم إبليس، يتخذه وسيلة للدنيا، فكلما فتح عليه الخصم باب اعتراض سده بما أصاب من العلم.

ولقد كنت وأنا صغير أذهب مع أبي لزيارة الشيخ عبد المحسن فأقبّل يده وأيدي أمثاله من العلماء، كما كان يصنع أمثالنا من الصغار، مع أمثاله من الشيوخ الكبار. واستمر ذلك حتى صرت قاضياً عنده، فكنت أقبل يده كلما دخلت عليه، فيظن من يراني أني أفعل ذلك لأنه رئيسي، فأفهمتهم أنها عادة تعودناها من الصغر.

ولكني مع هذا التقدير له، وهذا الإجلال لعلمه عارضته لما منع تطبيق قانون البيّنات، وخطبت وكتبت أرد عليه، وأذكر أن البينة لا تنحصر في الشاهدين، بل إن الشاهد الواحد مع يمين المدعي مما ثبت به الأثر، وأن الأخذ بالقرائن القضائية أمر معتبر، وقد وردت في ذلك السنّة، وأن الإسلام لا يحجر على العقول، ولا يجمّد الأفكار، وكان اعتمادي فيها قلت على كتاب «الطرق الحكمية» لابن القيم أولاً، وعلى كتب أخرى كثيرة.

فتغيّر الشيخ عليّ قليلاً ولكني ما باليت، لأن عليّ أن أكون مهذباً مؤدباً وأن أوقر الكبير، ولكن إذا جاء الدين فلا مجاملة لأحد. ومضيت في معارضته، أخطب في النوادي وأكتب في الصحف، وأثير من يقدر على الإفصاح، وكنت في شبابي إلى العنف أقرب مني إلى الرفق، وإلى الشدة أدنى مني إلى اللين، فتبدلت الآن مع الشيب والصلع وصرت أرفق وألين، وإن كان الطبع لا يتبدل بالتطبع:

والشيخ لا يترك أخلاقه   حتى يوارى في ثرى رمسه

وانتهى الأمر بأن انتصرنا، أعني انتصر الحق الذي نؤيده، وطبق قانون البينات في المحاكم الشرعية، وبقي في نفس شيخي عليّ شيء.

بقي على رأس عمله إلى أن بلغ السنة الثالثة بعد المائة، ولا تعجبوا من ذلك فإن قانون التقاعد في سوريا (قانون المعاشات) لا يطبق على علماء الدين من الأئمة والمفتين، بل يبقى الواحد منهم في عمله حتى يخرجه منه ملك الموت.

لما ترك الوظيفة صار يمضي أكثر وقته في بيته، بل في فراشه. والعجيب أن جسمه قد صغر وتضاءل وانضم بعضه إلى بعض، حتى صار كجسم ابن عشر سنين. والإنسان ينمو ثم ينمو حتى يبلغ أشده ثم يأخذ بالنقص، فتقصر قامته، وتضمر عضلاته، ولقد نقص طولي أنا الآن عما عليه كان.

حتى صار في آخر أمره يرقد على سرير، وأمامه سرير عليه زوجته التي عاش معها أكثر من سبعين سنة، فإذا دخل عليه بعض الضيوف تغطت بلحافها.

وجئنا مرة نزوره مع الشيخ العاني رحمه الله، والأستاذ يوسف الحسني، وجماعة. وأظن أنه كان معنا الأستاذ سعيد الأفغاني، فوجدنا السرير الثاني فارغاً، فجئنا نقعد عليه، فصرخ بنا بلهجة تمثيلية مضحكة: «المرة، المرة» (المرة بمعنى المرأة وردت في الشعر القديم)، فنظرنا فإذا هي لما رأتنا دخلت تحت اللحاف فصارت من ضآلة حجمها كأنها كومة ثياب.

واختلفنا مرة في عدة المرأة التي يفرق القاضي بينها وبين زوجها بطلبها، هل تبدأ عدتها من تاريخ حكمه بالتفريق، أم من تاريخ تصديق محكمة التمييز؟ فقلت أنا: من تاريخ الحكم، لأن محكمة التمييز لا تنشيء طلاقاً جديداً، ولكن تثبت الطلاق الأول. وقلت: نحتكم إلى الشيخ عبد المحسن. فقال قائل[1] منا: إنه كبر، يشير إلى أنه ربما أثر الكبر على ذهنه، فأضعف ذاكرته وأفسد محاكمته. وكان عمره يومئذ مائة وإحدى عشرة سنة.

فقلت: سترون. وغدونا إليه، فعرفنا ودعانا بأسمائنا، ورحّب بنا. فعرضنا عليه المسألة، فمال إلى قولي، وجعل يأتي بالدليل بعد الدليل من حفظه، ويدعو بالكتاب بعد الكتاب من مكتبته، فيقلب صفحات قليلات فلا يبطيء حتى يقع على المسألة فيعرضها علينا.

ولما أردنا الانصراف: قال سأبعث إليكم غداً مع الصغير بنصوص أخرى.

---

(١) هو أخي رفيق الكلية، وصديق العمر العالم المحقق البليغ الشيخ مصطفى الزرقا.

تدرون من هذا الصغير الذي سيبعث بها معه؟ هو ولده الأستاذ عبد اللطيف، المستشار معنا في المحكمة (محكمة النقض) وكان قد قارب الستين من العمر.

* * *

والشيخ عبد المحسن لو أوتي مع ذكائه النادر، وعقله الوافر، وعلمه الزاخر، لو أوتي معها لساناً بليغاً، وقدرة على البيان تعدل قدرته في العلم لما قام له إنسان، ومثله في ذلك أستاذنا في كلية الحقوق سعيد المحاسني، أقدر وأعلم وأذكى محام مدني شرعي عرفته على طول ما أمضيت من عمري في المحاكم، وما رأيت من البلدان، ومثله أستاذنا، وإن لم يدرسنا، الذي كان سلفي في القضاء في محكمة النبك ومحكمة دوما، ومحكمة دمشق الفقيه الحنبلي، من أسرة كل رجالها فقهاء حنابلة، هو الشيخ حسن الشطي، ومثلهم أستاذنا سليم الجندي الذي كان في العربية إماماً. وكذلك ترى أحياناً بلغاء أبيناء، إذا كتبوا أورق القلم في أيديهم وهو قطعة من خشب أو حديد، وأثمر ما لا تثمر مثله الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء، وإذا خطبوا جعلوا أعواد المنابر شموعاً تضيء بلا نار، وكهرباء تمشي في الأعصاب بلا أسلاك، فتوقظ النائم وتقيم القاعد، وتجعل الأعصاب الباردة برد الثلج تغلي غليان ماء الشاي، وتحول «مادرا»، من كان مثلاً مضروباً في البخل، إلى حاتم الذي كان رمز الكرم، ولكنه مع هذه الفصاحة كلها، وهذا البيان كله، فارغ الرأس من العلم، وتجد العالم المفكر الذي وسع رأسه ما أنتجت رؤوس العلماء، وما اشتملت عليه كتبهم، تجده عيياً إذا قال أو خطب، ركيكاً أسلوبه إذا ألّف أو كتب، كأن الله الذي لم يجعل هذه الدنيا دار كمال، لم يؤت الكمال فيها أحداً غير الأنبياء.

* * *

لم يكن الشيخ عبد المحسن شجاعاً صدّاعاً بالحق، ولكن لم يكن ناطقاً بالباطل، كل ما يصنع أنه يبتعد ما استطاع عن مواقف الإحراج، إلّا إن ألزمه الشرع أن يبين حكم الله؛ فما عهد عنه أنه كتمه أو قال بغيره.

وهو من كبار العقلاء لذلك قارب أن يعد من كبار الجبناء، ذلك أن الشجاع لو فكّر وقدّر ما يتعرض له من المخاطر لما أقدم، لأن «الإقدام قتال»، كما قال المتنبي، بل لو فكر المرء بعقله وحده وحسب احتمالات الضرر أو السلامة إن أراد أن يجتاز شارعاً تمر به السيارات، ويزدحم فيه الناس لما اجتازه إلّا إذا كان ينوي الشهادة في سبيل الله، فلا يكون الموت حينئذ موتاً، بل هو الحياة الباقية التي لا موت بعدها.

لقد مضى رحمه الله ومضى علمه معه، لأنه ما استودعه القرطاس ولا حفظه في الصحف، ولا روّاه (بتشديد الواو) تلاميذ له اصطفاهم وخرّجهم وعلّمهم. مضى معه علمه كما مضى علم الشيخ بدر الدين الحسني الذي كان فهرساً ناطقاً ومحساباً «كمبيوتر» حياً لأكثر ما تحت أيدي الناس من كتب في علوم الدين وفي علوم الدنيا التي كانت معروفة في عصره. دأب كل واحد منهما على المطالعة، يمضيان فيها أكثر ساعات الليل والنهار، لا سيما الشيخ بدر الدين الذي لم يكن له عمل إلّا القراءة والإقراء، ثم لم يؤلفا كتاباً ولم يتركا رسالة.

حَسَنُ الحَكِيمُ القَوِيُّ الأَمِينُ

أتكلم عن معمَّر آخر، وكلمة المعمر - بفتح الميم -، أما الذي عمَّره، فهو الله، ومن شائع الأخطاء أن يقال فلان من المعمرين - بكسر الميم -.

عن رجل كان يوماً على رأس الحكم في الشام، وكان اسمه على كل لسان، ثم نسيه الناس، حتى أن كثيراً من قرّاء الجريدة من الشباب، من أهل الشام، سيقولون: من حسن الحكيم؟.

حسن الحكيم - يا شباب - واحد من بضعة رجال كانوا أنظف وأشرف وأعف من عرفته سوريا. لا أستثني ولا أتحرج، ولا أغلو ولا أبالغ.

رجل كانت أموال التبرعات للثورة، تمر تحت يده لو شاء أن يأخذ منها، كما أخذ غيره، لما رآه أحد، ولو رآه لما لامه من رآه، لأنه ممن جمعت هذه التبرعات لمثله.

وجاء العيد فكتب إلى أهله في الشام، وكان في وادي السرحان، مع سلطان الأطرش ومن لجأ إليه من بقايا الثوار، لما ضاقت بهم الديار.

جاء العيد فكتب إلى أهله ألا يحرموا الأولاد من فرحة العيد، وأن يشتروا لهم الثياب والأحذية، من أرخص الجيد، لا أجود الرخيص، ولكن من أين الثمن؟.

يسحبون من رصيده في المصرف؟ إنه لم يكن له طول عمره مال محفوظ في مصرف، ولا مدخر في الدار، بل يبيعون ما يستغنى عنه من الفرش التي

ينامون عليها، ما كانوا ينامون على أسِرَّة، ومما يستغنون عنه من القدور و(الطناجر) من المطبخ، لا من الحلي، فما كان أهله من ذوات الحلي، ولا كنّ من المترفات المنعمات، ولا يبيعون من فاضل الأثاث فما كان في بيته من الأثاث أكثر من الضروري، يبيعونه وينفقون منه على أنفسهم، ويرسلون إليه ما يفضل عنهم ليعيش به.

رجل تقلّد أكبر المناصب. صار وزيراً غير مرة، وصار رئيس الوزراء، وما ملك إلّا شقة صغيرة، صغيرة جداً، عادية جداً، فرشها عادي جداً. وعاش أكثر عمره بعد أن ترك العمل على راتب تقاعدي (على معاش)، لا يبلغ راتب معلم ابتدائي مبتدىء. ذلك لأن الأسعار لما غلت، والرواتب لما ارتفعت، لم ينل ارتفاعها معاشات المتقاعدين إلّا قليلاً، فبقيت كما كانت أو قريباً مما كانت، ما زادت إلّا زيادة ضئيلة في الأيام الأخيرة، ولقد كنت أنا لما أحلت على التقاعد، في المرتبة الممتازة، في أعلى درجات السلم الوظيفي، وما يبلغ معاشي الآن في الشام، بعد الخدمة الطويلة جداً، ما يعادل خمسمئة ريال.

إن كان في السياسيين وفي الزعماء وفي الرؤساء من يظن أنه صار من طينة غير الطين الذي خلق الله منه الناس فترفّع عليهم، ونأى بجانبه عنهم، وشمخ بأنفه عليهم.... فإن حسن الحكيم بقي وهو وزير كما كان وهو موظف صغير، بقي ابناً للبلد وأخاً لأبناء البلد. بقي يحمل زنبيله (سلته) ويذهب إلى السوق فيشتري الخَضِر والفاكهة لأهله، ويقف على الجزّار يتخير القطعة التي يريدها، فيقطعها له، فيحملها إلى أهله، كما كان يقف من قبل.

وهذا الذي يحبّب الزعيم إلى الشعوب، لا سيما نحن العرب. يحبون أن يُشعر الزعيمُ الناسَ أنه مثلهم، وهذه سنة سيد الزعماء عليه الصلاة والسلام، لما رأى الرجل يرتعد من هيبته، قال له يطمئنه: إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد. يقولها صادقاً ﷺ، كما علّمه الله أن يقول: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ مثلكم في ولادتي وموتي، في مرضي وصحتي، في تركيب جسمي: جهاز تنفسي، وجهاز هضمي، لكني اختصصت بأنه ﴿ يوحى إليّ ﴾.

كانت أول مرة سمعت فيها باسم حسن بك الحكيم لما جاءت لجنة الاستفتاء الأميركية برئاسة المستر كراين، التي أرسلها الرئيس الأميركي، فكان هو والدكتور عبد الرحمن شهبندر يصحبان اللجنة ليسمعاها رأي شعب الشام، رأي الشعب السوري في الحرية وفي الانتداب، حين كانت الأسواق تضج بهذا النشيد، تصدح به الحناجر في كل مكان:

نحن لا نرضى الحماية...
لا ولا نرضى الوصاية..
نحن أولى بالرعاية..
لبني العرب الكرام.

ثم لم أسمع به إلّا عندما أرسل الجنرال غورو إنذاره المشهور للملك فيصل بن الحسين، بأن: يقبل الانتداب الفرنسي، ويسلم سكة حديد سوريا للجيش الفرنسي ليستعملها، وأن يقبل النقد السوري ليتعامل الناس به، وأن يسرِّح الجيش. سمعت يومئذٍ اسم حسن بك الحكيم الذي كان مديراً عاماً للبرق والبريد، وشاع في الناس أن الملك فيصل بن الحسين قَبِلَ الإنذار، ولكن حسن بك لم يرسل البرقية بالقبول. ثم كذَّب حسن بك هذا الذي شاع وبقي سر البرقية مجهولاً إلى الآن، أو بقي مجهولاً مني على الأقل.

ولما كان الإضراب الخمسيني العظيم، النادر المثال سنة ١٩٣٦، وكنت قد ابتعدت رسمياً عن العمل الطلابي، وصرت موظفاً، وتولى أمر الطلاب جماعة من إخواننا أظهرهم الدكتور منير العجلاني، قررت الكتلة فك الإضراب وفتح البلد، وعارض هذا جماعة شهبندر وزكي الخطيب، وكان حسن بك من أقرب الزعماء إليه. وعارضه تبعاً له جماعة من الشباب كالأستاذ محمد كمال الخطيب.

كان من المقرر أن يخطب الدكتور العجلاني في الناس، ولكن صوته لم يسمع الناس، فقدمني للخطابة، وكنت إلى جنبه في شرفة قهوة الكمال، تحت جامع تنكز. وإنني لأتخيل الآن المشهد كأنه أمامي، مع أنه مرّ عليه الآن

ثمانية وأربعون عاماً[1]. كانت ساحة المرجة (ساحة الشهداء) على سعتها ممتلئة بالناس، حتى أنها لو هطلت الأمطار غزيرة لما بلغت الأرض منها قطرة. وما كان عندنا في تلك الأيام مكبرات للصوت، ولا عرفناها، فخطبت خطبة ليس هذا موضع الكلام عنها، لأنني إنما أتحدث عن حسن بك الحكيم وربما عدت إلى حديث الإضراب والمعاهدة.

لم أقابله مواجهة إلاّ في العراق، وكان لاجئاً إليه، بعد أن لجأ حيناً إلى عمان، وتوالت اجتماعتنا وسهراتنا، فوجدت فيه دمشقياً أصيلاً، ومسلمًا متمسكاً، ورجلاً مستقيًما صادقاً صريحاً يعلن رأيه لا يبالي أوافق رأي من كان حوله أو خالفهم، بعيداً عن الرسميات والمظاهر والتكلف، أما نزاهته ونظافة يده وأمانته، فإن ألدّ أعدائه لم يستطع أن ينال منها، أو أن يطعن فيها، أو أن ينكر عليه شيئاً منها.

كان أحد النفر الذين عرفوا بالنزاهة، حتى صار المثل يضرب بهم فيها، منهم عارف النكدي، وقد مر بعض حديثه، ومنهم زكي الخطيب الزعيم الوزير المحامي، وهو ابن عم أمي: أبوها الشيخ أبو الفتح الخطيب. وهو ابن الشيخ أبي الخير الخطيب، فهو ابن عمها، وابن عم محب الدين الخطيب.

عرفته من فوق المنبر فقد كانت العادة في الشام، كلما كان اجتماع، ولو كان عقد نكاح فضلاً عن حفلات المناسبات الدينية والوطنية، كذكرى الهجرة وبدر، كانت العادة في الشام في هذه الاجتماعات أن يخطب الخطباء، والحفلة التي لا يخطب فيها خطيب كالعرس الذي لا تغني فيها مغنية. وكان الخطباء يومئذ معدودين منهم زكي الخطيب، والشيخ بهجة البيطار، والشيخ جودة المارديني مدير المدرسة الكاملية، وهو أول شيخ في دمشق حلق لحيته ولبس الحلة (البذلة الافرنجية)، واعتمر فوقها بالعمامة، فكان منظره مفرداً عجباً. ثم لما كبر علي الطنطاوي، وجاء على أثره مظهر العظمة، ومحمد كمال الخطيب، انضموا أو ضمهم الناس إليهم فصاروا من خطباء الحفلات، وكنت

---

(١) من تاريخ كتابة هذا الفصل.

أنا من بينهم أكثرهم خطباً، وكان الناس لي أشد طلباً.

ولقد خطبت في عقود لا أحصيها، منها عقد الشيخ مصطفى السباعي، رحمه الله، وعقد الشيخ الدكتور محمد الصباغ، وعقد الشيخ فخري الحسني، كما خطبت في جنازات لا أستطيع عدها، كجنازة الشيخ بدرالدين، والشيخ محمود ياسين، والشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ أبي الفرج خطيب الجامع الأموي، وهو والد الصديق الدكتور عدنان نائب رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، وهو أيضاً ابن عم أمي، أبوه هو الشيخ أبو الفرج الخطيب وشقيقه الأستاذ صلاح الدين الخطيب شيخ القضاة في الشام، هو والد زوجتي.

أعود إلى حسن بك الحكيم فأتساءل: هل هو سياسي يعدُّ في السياسيين؟ الجواب: لا أظن. إن للسياسة أخلاقاً ما كان لحسن بك نصيب منها، فما ميزته إذن؟ ميزته الصدق والأمانة، وأنه إن وُلي عملاً أدّاه على ما يرضي الله، ويريح الضمير، ويكفل المصلحة.

ولما ولّي رياسة الوزارة سنة ١٩٤١ مع الشيخ تاج (والشيخ تاج خال زوجتي، شقيق أمها) كنت قاضياً في النبك، فخاف قوم من بطشه وشدته، وآمل قوم كانوا يتزلفون إليه بالترقي والنفع على يديه. فقلت للفريقين: إنكما على خطأ. إن حسن بك لا يعرف الحقد ولا الانتقام، ولا يؤثر فيه التزلف ولين الكلام، بل إنه لا يراعي في المصلحة العامة أي صلة شخصية، فهو يعزل أو ينزل صديقه الأدنى من الموظفين إن كان سيئاً لا يصلح، ويرفع وينفع عدوه إن كان صالحاً، فانتظروا تروا.

وانتظروا فكان كما قلت.

ما كان حسن بك عالماً، ولكن كان على إلمام جيد بالعلوم الإسلامية والعربية، يكتب كتابة لا يعدّ بها في البلغاء، ولكن يعبر بها بأسلوب صحيح عما يريد من المقاصد. ينظم بعض الشعر، وما كان شاعراً. وعندي مقطوعة بخطه في وصف الشاي الأخضر الذي كنت أصنعه، يثني عليّ فيها ثناء الكبير على الصغير، ليست الآن تحت يدي ولكنها عندي، كتبها لما كنا في بغداد في عشر الثلاثين (أي في الثلاثينيات).

وَلِيَ وزارة المالية غير مرة، وصار رئيس الوزراء وبقي يعيش كما كان يعيش أولا: يركب الترام ويقف على اللحام.

عندي مقالة طويلة وجهتها إليه لما ولي المديرية العامة للأوقاف، ولم تكن لها يومئذ عندنا وزارة، عنوانها «إلى القوي الأمين حسن الحكيم» فيها اقتراحات نافعة للأوقاف حقّق ما استطاع تحقيقه منها، وهي في جريدة ألف باء يوم ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٧.

وقدّم مرة للحكومة، برنامجاً إصلاحياً شاملاً، فكتبتُ في «النصر» أو في «الأيام»، نسيت، كلمة ـ ليست تحت يدي ـ أقول في آخرها: إما أن تأخذوا ببرنامج حسن الحكيم، أو أن تنزلوا بضيافة أسعد الحكيم. وكان الأستاذ الكبير، العالم الأديب عضو المجمع العلمي، الدكتور أسعد الحكيم، أول طبيب اختصاصي في الأمراض العقلية في الشام، وكان مدير مستشفاها.

لما ولي رئاسة الوزارة أقبل الناس أفواجاً على شيخنا، الشيخ محمد بهجة البيطار، وهو ابن خالته، وهو أصغر منه سناً، ولكن حسن بك يعرف له قدره ويكبر فيه علمه، ويصغي إليه، ويستمع منه. وقد عرفتم أن شيخنا الشيخ بهجة لم يكن يرد سائلاً، ولا يرفض طلباً لطالب، فحار ماذا يصنع. وكنا عنده، فقلت له: تسمع اقتراحاً من تلميذك؟ قال الشيخ: نعم. قلت: ليس بينك وبين حسن بك حاجب ولا بوّاب، فتخبره بما أنت فيه، وتسأله هو المشورة فيما تصنع.

فأخذ بذلك، وعرض الأمر على حسن بك فاتفقا على أن يستمع الشيخ بهجة كل طلب وكل شكاة، ويخبر بها الرئيس حسن بك، ويقول للناس: أنا عليّ أن أوصل الطلب أو الشكوى، وهو يقبل ما يراه حقاً، ويرد ما يراه باطلاً. وكان ذلك فاستراح شيخنا، ورضي الناس، وأنصف أقواماً من ظلامات كانت واقعة عليهم، وكشف أقواماً كانت لهم مطامع يسترونها بمظاهر التقوى والصلاح. كان رجلاً من طراز نادر، لو أحصينا أمثاله في الناس لما وجدنا من أمثاله إلّا قليلاً، ولكننا أمة لا تقدر رجالها، أمضى ثلث القرن الأخير من حياته التي امتدت مئة وأربع سنوات في حالة هي أدنى إلى الفقر

وإلى الحاجة، ما وجد منا من يكرم شيخوخته، ومن يسهّل عليه حياته.

في كتابي «مقالات في كلمات» الذي طبع سنة ١٣٧٩هـ فصل عنوانه «تكريم الأحياء»، قلت فيه: ذكرت البارحة معروف الأرناؤوط الذي وليت تحرير جريدته «فتى العرب» سنة ١٩٣٠م وكتابة افتتاحياتها، معروف الذي غنى للجمال وهتف للحق والخير، وخلّف في الأدب والصحافة أثمن تراث، فعجبت من الأدباء، وعتبت على الصحفيين، كيف نسوه جميعاً وأهملوه حتى لم تقم له حفلة تأبين؟ ومثله يوسف العيسى من كان في فن الصحافة إماماً.

وأعجب منهما النابغة العبقري الذي قُصِفَ قصف الغصن الطري، بعدما ملأ زهره الأرض عطراً أحمد شاكر الكرمي، الذي أعطاه الله ثلاثة إخوة أدباء فلم يخطر على بال واحد من الثلاثة أن يفي لأخوة النسب ولا لأخوة الأدب، فينفض «الميزان» مجلة الأستاذ الكرمي حتى يخرج منها آثاره، وينفض الأذهان حتى يجمع منها أخباره، وتركوه ينسى خبره، ويُمحىٰ أثره.

والعلماء، هل كان حظ العلماء أوفر من حظ الأدباء[1]؟.

من ألّف في سيرة السيد محمد بن جعفر الكتاني[2]، والشيخ عطا الكسم[3]، والشيخ نجيب كيوان، والشيخ أبي الخير عابدين، والشيخ أمين سويد، والشيخ مسعود الكواكبي، والشيخ محمود ياسين؟ ومن كتب عن الشيخ عيد السفرجلاني الذي لبث سبعين سنة كوامل، يعلم الناس، حتى كان من تلاميذه الولد، وأبوه من قبله، وجده من قبلهما، وحتى صار نصف الكهول من المتعلمين في الشام في تلك الأيام من تلاميذه؟ والشيخ عبد القادر المبارك، أستاذ البلد، والشيخ محيي الدين الخاني، شيخ المعلمين، والذين مضوا من عباقرة الفن والصناعة، وأعلام الخلق والنبل والإحسان، من كل رجل سيرته قصة بارعة من قصص الخير، ودرس قيّم من دروس الأخلاق؟ وإذا كنا ننسى الأموات لأنهم لا يذكرون ولا يشكرون، فلِمَ لا نكرم الأحياء من العظماء

---

(١) بلغني من قريب أن أحدهم كتب عنه كتاباً فتشت عنه فلم أصل إليه.

(٢) وحفيده صديقنا الأستاذ المنتصر.

(٣) وولده رئيس وزراء سورية اليوم.

ونقوم بحقهم، ونكرم جهادهم؟.

لماذا لا يقيم القضاة والمحامون حفلات التكريم لشيخ القضاء مصطفى برمدا؟ ـ واسمحوا لي أن أدع الألقاب فإنما أكتب مؤرخاً لا مادحاً ـ، ولا يقيم أهل العلم حفلات للشيخ عبد المحسن الأسطواني، ولسليمان الجوخدار، وأبي الخير الميداني، ولشيوخ التعليم: سعيد مراد، وعبد الرحمن السفرجلاني ومصطفى تمر؟ وأهل الأدب: كمحمد كرد علي، والمغربي، والجندي، والبزم؟ ويقيم الجامعيون لشيوخ الجامعة: لشاكر الحنبلي، وعبد القادر العظم، وفارس الخوري، وجميل الخاني. ومصطفى شوقي، وسعيد المحاسني، وأمثالهم من رجال السياسة والعلم والأدب.

إني لأرجو أن لا تذهب هذه الكلمة كما تذهب صيحة على شاطىء البحر الهائج، لأن الأمة التي لا تكرم نابغيها ولا تقدّر رجالها، يقلّ فيها النبوغ وتقفر من الرجال.

هؤلاء الذين كتبت عنهم هنا كلهم ذهبوا إلى رحمة الله، وكثير منهم نسيه الناس، وهذا الرجل الكبير حسن الحكيم الذي تكلمت عنه اليوم نسيه الناس من قبل أن يموت. وكم من رجال عظماء نشؤوا فينا في هذه السنين الأواخر فأهملنا ذكرهم، وطمسنا أثرهم ونسينا أسماءهم.

إن الميت لا ينفعه في الدنيا ثناء، إنما تنفعه مغفرة الله، ودعوة صالحة يناله بها. ولكن أدعو إلى ذكر هؤلاء والثناء عليهم وعلى أمثالهم في كل بلد، لتكون سيرهم عند نشرها قدوة للناشئين من الشباب، ومشاعل تضيء لهم طريق الحق والصواب.

مَعَ بَعضِ مَشَايخي

كنت في المدرسة كلما ذكر أستاذنا الجندي أو أستاذنا المبارك اسم كتاب، أسرعت إلى مكتبة دارنا أفتش عنه، فإن لم أجده بادرت إلى شرائه، على ضيق ذات يدي وقلة مالي، فسمعت يوماً اسم كتاب «المعمَّرين» لأبي حاتم السجستاني فاشتريته، فإذا هو كتاب صغير جداً، فيه مبالغات، ولكن مؤلفه كبير بين الرواد، ولما تحدثت عن الشيخ الكافي والشيخ عبد المحسن الأسطواني، وقد عاش الأول مائة سنة، والثاني مائة وثماني عشرة، ذكرت بعض من عرفت من المعمرين.

منهم رجل يلي الشيخ عبد المحسن في السن، ولكن لماذا لا أذكر القصة من أولها؟

كنت سنة ١٣٦٣ هـ قاضياً في دوما، وكنت أركب الترام من داري في المهاجرين إلى المرجة وهي ساحة الشام الكبرى، مركز البلد يومئذ، ثم أركب الترام منها إلى دوما، فكان الطريق يستنفد مني ساعتين كاملتين. وكنت يوماً في الترام، وكان مزدحماً براكبيه كما تزدحم في العلبة أسماك السردين. وكان إلى جانبي فتى من المتأدبين، فقال لي: من هذا الشيخ المهيب الطلعة، البادي الأناقة، ذو الشيبة المشرقة، والعمامة الأسطنبولية، الذي لا ينفك ينظر إليك؟ فتلفت حيث أشار، فلما أبصرته أسرعت إليه فقبّلت يده، وحييته بتحية فيها المحبة والإكبار، فجعل يسألني عن حالي وعملي، حتى بلغ الترام آخره في ساحة المرجة، التي سميت بعد ساحة الشهداء، فقال لي: إلى أين؟ قلت: إلى دوما فهل تتفضلون بزيارتها؟ فضحك، وقال: ألا تدري أني كنت سلفاً لك فيها؟ قلت:

لا والله يا سيدي فمتى كان ذلك؟ قال: احزر. فذهبت أقول قبل عشرين.. قبل ثلاثين سنة.. وهو يضحك فلما عجزت وسكت قال: لقد كنت قاضياً في دوما سنة ١٣٠١ هـ.

ولما فارقناه جعل صاحبي يلحف عليّ بالسؤال عنه، وأنا ذاهل عن سؤاله لا أسمعه، أفكر في هذا الشيخ: أي تاريخ حي في ذهنه؟ أي دنيا في ذاكرته؟ وأتصور هذا الدهر الطويل، بين أيامه وأيامي في دوما هذا العمر الكامل، اثنتان وستون سنة، كم تبدلت فيها الأيام، وتغيرت الوجوه، وقامت وقعدت الحكومات؟ وكانت حروب وكان سلام؟ وولد ناس ومات ناس؟ وذهب الأتراك وجاء فيصل؟ وذهب فيصل وجاء الفرنسيون؟ وذهب الفرنسيون وجاء الاستقلال؟ وكان حرب البلقان، ثم حرب سنة ١٩١٤، وحرب ١٩٣٩.

لقد تبدل في البلد كل شيء، وهذا الشيخ ثابت لم يتبدل، مقيم على حاله لم يتزح عنها، وأحاول أن أتخيل ما في رأسه، وكيف ينظر إلى هذه الدنيا.. فأذكر به أهل الكهف.. وأي فرق بينه وبينهم؟ وهل في سكان دوما الذين يبلغون خمسة وعشرين ألفاً (في تلك الأيام) من يعرفه لو جاءهم، أو يذكر أنه كان قاضياً فيها؟ وكم تكون سنه اليوم، وقد كان قاضياً في دوما منذ اثنتين وستين سنة؟ وقضاء دوما أكبر أقضية سورية كلها، ولم يكن يولّاه يومئذ من هو دون الثلاثين؟.

وضاق رفيقي ذرعاً بسكوتي، فجذب يدي فانتبهت، فقال: من هذا الشيخ؟ قلت: ألا تعرفه؟ هذا العالم الجليل، هذا الذي كان مفتي الديار الشامية سنة ١٣٢٥، قبل ولادتي أنا بسنتين، بعد المفتي الأشهر محمود الحمزاوي، والمفتي المنيني، والمفتي شيخ قطنا، وقبل أبي الخير عابدين، وعطا الكسم رحمهم الله، والمفتي الأسطواني الذي جاء بعدهم، رحمه الله أيضاً. وَليَ الإفتاء والبلد حافلة بالعلماء الأعلام، فلم تطل ولايته، لأنه أراد أن يسيّر الأمور على ساق الحق وحدها. والأمور في الدنيا لا تمشي غالباً إلا على ساقين من حق وباطل. وهذه الكلمة مروية عن ابن عباس، قالها عن علي بن أبي طالب، ولست أدري هل قالها فعلاً أم تقوّلها الرواة عليه، ونسبوها إليه؟.

نظر هذا الشيخ لما ولي الإفتاء فرأى الأوقاف يأكلها متولّوها، وفيهم الباشوات والوجهاء الكبار، وأهل الحل والعقد في دمشق. ورأى بستان الأعجام الذي أقيم عليه اليوم حي الحلبوني من أفخم أحياء دمشق، قد تقاسمه هؤلاء بحجج واهية، وحقوق مزعومة ادّعوها على الأوقاف. فمنهم من كان له حق «القيمة»، وهي في عرفهم الجدران وجذور البرسيم والدمنة، يريد أن يمتلك البستان بها. وكان في الشام رجل وجيه مسموع الكلمة في الشام، وعند السلطان في اسطنبول، فقام الشيخ يحاربه بسيف الحق، وأقبل المتولّون يحاربونه مع هذا الرجل بسيوف الشغب وإيفاد الوفود إلى حاضرة الخلافة في اسطنبول، وإرسال الكتب والمضابط. والحكومات في كل زمان ومكان، إنما تحب الموظف الذي يألف ويؤلف، ولا يهيج الناس عليه ولا يثير اللغط عليها، فنقلوه إلى منصب أعلى، ورتبة أكبر، ولكنهم أبعدوه عن إفتاء الشام.

ذهب قاضياً إلى المدينة المنورة، إذا سألتم أحد الشيوخ من أهل المدينة، ممن يذكر تلك الأيام يخبركم خبرها.

وكان هذا الشيخ نائب الشام في مجلس النواب العثماني، وكانوا أربعة نواب يقومون مقام المجلس النيابي في الشام الآن بطوله وعرضه وارتفاعه، ولا أدري متى كان نائباً، ولكني أذكر أن شاعراً دمشقياً من شعراء تلك الأيام أرّخ سنة إرسالهم على طريقة حساب الجمّل، التي كانت رائجة، وكان الشعراء يتبارون فيها، فكان التاريخ أسماء النواب الأربعة: «سليمان رشدي والشفيق محمد» وهذا من عجائب التاريخ، وسليمان هو هذا الشيخ الذي أتحدث عنه، الشيخ سليمان الجوخدار، ورشدي هو رشدي بك الشمعة، والشفيق، شفيق بك المؤيد، وآل المؤيد فرع من آل العظم، ومحمد هو محمد فوزي باشا العظم والد خالد بك العظم.

كان هذا الشيخ الرئيس الأول لمحكمة التمييز (النقض) عشر سنين، وكان وزير العدل مرات، فكان على علوّ سنّه أشد الوزراء مضاء، وأحدهم ذكاء، وأجرأهم على الإصلاح. هذا بطل معاهدة الشعباني اقتنع بها ورآها في مصلحة الشعب فدافع عنها، وناضل دونها، واحتمل في دفاعه ما لا يحتمل سياسي في

الدنيا من أذى العامة، وسخرية الناس، وما عرضوه له من المهانة. ولم يَنِ، ولم يتقاعس، ولم يُؤْثِر السلامة.

كان هذا الشيخ أستاذ الشريعة في كلية الحقوق، وكان قاضي منطقة الزيتون أيام العثمانيين، وقد تنبه ببعد نظره، وصدق فراسته، إلى ما كان يبيّته الأرمن، ونبّه الحكومة إلى الخطر قبل وقوعه، ولكنها لم تأخذ بتنبيهه، فقامت ثورة الأرمن التي لا نزال نقرأ في الجرائد عقابيلها وبقاياها وما يصنع الأرمن برجال الترك.

والعجيب أن هذا الرجل على علمه الكبير، وعلى أنه ولي أكبر المناصب القضائية في الشام، وكان له أظهر الأثر في السياسة لم يكتب عنه أحد، حتى أن الأستاذ خير الدين الزركلي لم يذكره في الأعلام.

اتصل بعد ذلك حبلي بحبله، فكنت أزوره في داره في المهاجرين مع الأستاذ سعيد الأفغاني، والأستاذ الشيخ عبد القادر العاني رحمة الله عليه، والأستاذ يوسف الحسني وجماعة، فكنا نجد عنده تاريخاً ناطقاً، ما قرأه في الكتب فوعاه في ذهنه، ولكن عاشه.

كان منهجه اليومي أن يقوم قبل الفجر فيتهجد، ثم يذهب فيصلي الغداة في مسجد الحي، ويبقى فيه إلى ما بعد طلوع الشمس، ثم يعود إلى داره فيأكل شيئاً خفيفاً، ثم يمشي ساعتين كل يوم، فمن ذلك كنت ترى وجهه وهو في هذا العمر مورداً طافحاً بالصحة والقوة، ثم يشتري حاجات داره بيده، ثم يعود إلى الدار، فلا يخرج منها إلا إلى الصلاة.

فإذا صلى العشاء انقلب إلى فراشه، لا يكلم أحداً بعده إلا في ضرورة لا بد منها، أو إيناس ضيف دخل عليه، أو في حديث العلم.

وقد خبّرني أنه لما صار قاضياً في (القضاء) ـ والقضاء أصغر جزء في التقسيمات الإدارية في البلاد العثمانية والبلاد التي انبثقت عنها كالشام، كان يجد الموظفين يسهرون كل ليلة عند قائم المقام، فيمضون الوقت كله في أحاديث تافهة،

أو في اغتياب الناس، أو في الـدس عليهم. أي أنهم يهدرون أوقاتهم فيما لا نفع لهم فيه، بل فيه الضرر عليهم، فجعل يجمعهم على كتاب يقرؤونه أو درس يسمعونه، ثم اخترع طريقة جديدة ما أظن أن أحداً سبقه إليها، وهي أنه كان يعمد إلى الطبقة المتميزة من الموظفين ومن المتعلمين في البلد الذي ولي قضاءه، فإذا كانت جلسة اختار للجلسة التي بعدها موضوعاً من الموضوعات العلمية أو الفكرية أو الاجتماعية، ثم قال لهم: ليعد كل واحد منكم نفسه للكلام في هذا الموضوع في الجلسة المقبلة، ودلهم على المراجع في هذا الموضوع، فمن أراد منهم وقَدر رجع إلى هذه المراجع فدرسها فازداد بها علماً، ومن لم يقدر، أو لم يرد هيأ نفسه للكلام فيه، ولقد جربت هذه الطريقة لما عيِّنت قاضياً في النبك سنة ١٩٤١ (وسيأتي الخبر بالتفصيل) فوجدت فيها خيراً كثيراً.

هذا الرجل واحد من عشرات، بل من مئات من الرجال، كان في حيواتهم[1] وفي أفكارهم درس للناس لو أن تراجم حيواتهم دوِّنت وكتبت وألفت فيها الرسائل، ولكن خبره ضاع في الدنيا كما ضاع الكثير من أخبار أمثاله من كبار الرجال.

* * *

وممن عرفت من الجنود المجهولين والرجال العاملين الذين لم تصل إليهم أضواء الشهرة فيعرفهم الناس، ولكن الله يعرفهم ويثيبهم برحمته ويجزيهم على أعمالهم: معلم الشام الشيخ عيد السفرجلاني، وقد كتبت عنه كثيراً. وكان من أوائل من فتحوا المدارس الأهلية الابتدائية في دمشق، لبث سبعين سنة معلمًا، تعلم عنده الولد، وأبوه من قبله، وجده من قبلهما. وقد رأيت في سجلاته أن أبا الجد قد تعلم عنده. كانت له مدرسة في المناخلية في دمشق، إلى جنب باب الفرج، وهو أحد الأبواب الباقية لدمشق. وسور دمشق وأبوابها لم تذهب به أحداث الزمان، ولا يزال باقياً إلى الآن، ثم انتقل إلى المدرسة الجقمقية، عند باب الأموي الشمالي الذي يفضي إلى باب الفراديس من أبواب دمشق السبعة، وهذه المدرسة من أجمل المدارس الأثرية في دمشق، وقد عنيت بها مصلحة الآثار

---

(١) حيوات جمع حياة.

أخيراً، فجددت بناءها، وأعادت نقوشها، ولكنها أغلقت أبوابها، والعمارة المطلوبة في الإسلام ليست عمارة الأركان والجدران، ولكنها عمارة العلم والإيمان، ولذلك أثبت الله للمشركين أنهم عمروا المسجد الحرام حين قال: ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ ولكنه نفى عنهم عمارة العلم والإيمان، فقال: ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾.

هذه المدرسة هي التي تعلمت فيها في نهاية الحرب الأولى، ثم صرت معلماً فيها، وكان أبي من تلاميذها، وصار معلماً فيها، وكل ذلك والشيخ عيد السفرجلاني هو صاحب المدرسة وهو مديرها، وقد كتبت عنه كثيراً فلا أعود الآن إليه، وأذكر أنه لما توفي سنة ١٩٣١ كنت أشتغل في جريدة «الأيام» عند الأستاذ عارف النكدي، فكتبت مقالة عن الشيخ عيد، فقال لي بعض إخواننا هناك: ومن هو الشيخ عيد؟ أنشغل القرّاء بشيخ كتّاب؟.

فثرت عليه وأسمعته ما لا ينتظر سماعه مني، وبينت له أن شيخ الكتّاب هذا، وأن معلمي مدارس الحضانة والمدارس الابتدائية، هم الذين يضعون الأساس، ولا يقوم البناء إلا على أساس، مهما كثرت طبقاته وعلت شرفاته، فينبغي أن نطالب معلم الابتدائي بالكثير من العلم ومن الخلق، وأن نعطيه الكثير من المال ومن التقدير.

وكان لشيخنا الشيخ عيد السفرجلاني ولد هو أستاذنا عبد الرحمن السفرجلاني. كان من أقدم المعلمين في دمشق يدرس الرياضيات، ثم صار المدير الثاني (وكيل المدرسة) في مكتب عنبر. وقد اخترع لنا، لما كان مديرنا فيه، مكافآت مطبوعة مذهبة مكتوبة بالخط الكوفي والخط الفارسي والثلث، سماها الاستحسان والتقدير والامتياز، وجعلها درجات، ولا تزال عندي طائفة منها، لو أنها وضعت في إطار وعلقت على جدار لكانت لوحة فنية، يريد أن يحفز بها الطلاب إلى الجد وإلى الاجتهاد.

عاش عمراً طويلاً جداً ومات وقد بلغ عمره السابعة والتسعين، لم يبق بينه وبين المئة إلا ثلاث سنوات. رأيته يوماً في مجلس شيخ القضاء في الشام، مصطفى برمدا، الرئيس الأول لمحكمة التمييز (محكمة النقض) وكان يستقبل

الناس صباح الجمعة إلى وقت الصلاة فإذا دنا وقت الصلاة، استعد فذهب وذهبوا إلى المسجد لأدائها، لا كمجلس العقاد يوم الجمعة، وقد حضرته مرة مع أخوي الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا، والأستاذ نهاد القاسم، وزير العدل أيام الوحدة، رحمة الله عليه، فوجدت القوم لا يصلون، ويبقون في هذا المجلس إلى الساعة الثانية، فتركناهم وخرجنا. أقول: إني وجدت الأستاذ عبد الرحمن مرة في مجلس مصطفى بك، وكان في المجلس الأستاذ جميل بك الدهان، الرجل المعمَّر الذي كان المدير العام للأوقاف، وكان قبل ذلك متصرف حمص دهراً طويلاً، فجرى ذكر أيام المدرسة فاشتركوا جميعاً في الحديث عنها، فاستأذنت وسألت مصطفى بك: هل كنتم في مدرسة واحدة؟ فقال الأستاذ عبد الرحمن: نعم، فضحك مصطفى بك، وقال: نعم، ولكن كنا نحن التلاميذ، وكان هو الأستاذ، ودخل فجاء بصورة قديمة يبدو فيها مصطفى برمدا وجميل الدهان ولدين صغيرين واقفين مع التلاميذ، والأستاذ عبد الرحمن قاعد على الكرسي مع المعلمين وله شاربان معقوفان.

وكان من تلاميذه شكري بك القوتلي، أي أنه عاش حتى رأى تلاميذه قد بلغوا أعلى المراتب وجاوزوا من أعمارهم الستين سنة. ولما أصدر حسني الزعيم قراراً بإلغاء الأوقاف الذرية، واحتاجوا إلى من يحسب أنصبة المستحقين فيها، وقد يبلغون أحياناً المئات، في وقت طويل يستمر عشرات من السنين، كان أول الحاسبين الذين يقسمونها ويعرفون الفرائض، ويتقنون الحساب الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني، والشيخ جميل الشطي مفتي الحنابلة.

وكانت له أجوبة عجيبة. كنت مرة راكباً في سيارة النقل الجماعي في الشام، وكنت في الصف الأول، والسيارة كبيرة، فيها ستون راكباً. وهي مزدحمة فسمعت ضجة من ورائي فسألت الجابي (الكمساري) ما القصة؟ فضحك وقرَّب فاه من أذني وقال: والله شيء عجيب، أترى هؤلاء البنات؟ فرأيت ثلاث بنات شابات متبرجات واقفات في ممر السيارة. قلت: نعم. قال: لما صعدن تعرضن لهذا الرجل العجوز، وأسأن إليه بالكلام، فتناولهن بسلسلة من النكات والأجوبة المسكتة، حتى جعلهن هزأة بين الناس، ولا يزال يتكلم ينتقل من مثل

إلى مثل، ومن موعظة إلى موعظة، ومن نكتة إلى نكتة، وكلها تنصب على رؤوس هؤلاء البنات كصب الحميم، ولم يكد يتم كلامه حتى سحبت إحداهن حبل الجرس، لتقف السيارة. ووقفت ونزلن هاربات منه.

* * *

ولما كنا صغاراً كان شيوخ المعلمين في الشام ثلاثة: الشيخ محي الدين الخاني، وأسرة الخاني منسوبة إلى خان شيخون. وهي أسرة كبيرة ظهر منها علماء أجلاء، ورجال كبار منهم الدكتور حسني سَبَح وصلاح والكواكبي وجميل الخاني، أحد الذين وضعوا المصطلحات العربية الطبية مع إخوانه حمدي الخياط ومرشد خاطر وشوكت الشطي، والثاني الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني، وأسنّ منه وأكبر في القدر يومئذ الأستاذ سعيد مراد.

ولما انتهت الحرب الأولى وأغلقت مدرستنا التي كانت منسوبة بالاسم لجمعية الاتحاد والترقي، وإن لم يكن بين الجمعية وبينها صلة بالفعل، وأغلقت هذه المدرسة، ذهبت ـ كما عرفتم ـ إلى المدرسة السلطانية، وكنا إذا قلنا المدرسة السلطانية أردنا بها يومئذ المدرسة الثانوية، كان المدير الأول أي المدير العام الأستاذ سعيد مراد، وكان المدير الثاني أي مدير القسم الابتدائي الأستاذ شريف أقبيق، وأسرة أقبيق أسرة دمشقية صغيرة، وأظن أن معنى أقبيق باللغة التركية الشارب الأبيض، ولست متحققاً.

كان للأستاذ سعيد مراد يومئذ هيبة في نفوسنا، بل رهبة، لعلو منزلته ولأنه المدير الأول، الذي يأمر وينهي هذه المجموعة الكبيرة من الأساتذة، وهذا الجيش المحشود من الطلاب. وكنت أصنع أحذيتي عند حذّاء كبير، ودكانه مواجهة للباب الجنوبي لمسجد بني أمية، الذي يفضي إلى الحرم، أي إلى بيت الصلاة رأساً. وكان صاحب هذه الدكان شيخاً بعمامة من آل الأسطواني.

والمشايخ الذين كانوا يعملون في التجارة والصناعة كثيرون، ربما عدت يوماً إلى الكلام عنهم، يتكسبون بعملهم لئلا تدفعهم الحاجة إلى الخضوع للحكام، أو إلى استجداء احترام العوام، أو إلى مد أيديهم إلى أصحاب الأموال، وهذه سنة

سلفنا من الصحابة والتابعين والأئمة الكبار، يتكسبون أموالهم بعملهم، وما ذلّ العلماء إلا عندما مدوا أيديهم إلى أرباب الحكم، أو أصحاب الأموال.

أعود إلى الموضوع: ذهبت يوماً لأفصّل حذاءً جديداً، وكنت تلميذاً في السلطانية الثانية، فرأيت في الدكان ما جمّد خطواتي، وثبتني في مكاني فلم أستطع أن أتقدم، وظهر ذلك عليّ، وجذب الأنظار إليّ، فما الذي وجدته؟.

وجدت مديرنا الأستاذ سعيد مراد، وكان أقرب إلى الطول، وكانت له لحية صغيرة شقراء، فاستدعاني واستدناني، وثبّت روعي، وكلمني كلام أب محب، لا كلام أستاذ مرهوب.

ومرت الأيام الطويلة وصرت قاضي دمشق، وكنت يوماً على قوس المحكمة أنظر في قضايا الناس، والقاعة الكبيرة ممتلئة بالمحامين والمتقاضين والشهود والموظفين، وكلهم مستعجل يريد أن ترى قضيته وينصرف، فنظرت من الشباك، فرأيت في ساحة المحكمة رجلاً كبير السن، قائماً على قدميه، قد أحنى الدهر ظهره، فعرفت فيه مديرنا الأستاذ سعيد مراد.

فقلت للإخوان: أنا مضطر لرفع الجلسة عشر دقائق، ونزلت من فوق القوس، وخرجت من القاعة، وهم يحسبون أنني إنما خرجت لحاجة طبيعية عارضة، لا بد منها، ولا يستغنى عنها، وأني ذاهب إلى الحمّام، فرأوني قد ذهبت إلى هذا الشيخ، فقبّلت يده وسألته أن يدخل معي لأقضي حاجته، إن كانت له حاجة. فدخل معي فأصعدته القوس إلى جانبي، وقلت للحاضرين: هذا شيخ المعلمين، وهذا أستاذي علّمني كما علّم آلافاً وآلافاً من أبناء هذه الأمة، أفلا ترون من حقه عليّ وعليكم وعلى البلد أن أستمهلكم لأنظر لما جاء من أجله؟.

قالوا: نعم. وظهر الرضا على وجوههم، وبان أن في هذه الأمة لخيراً كثيراً. وأن الكرم والنبل لا يزال في أعماق قلوبها، ولكن ربما غطت عليه المطامع أو هموم الأيام.

ونظرت في حاجته وقضيتها، فسألني: من أنت؟ قلت: أنظر إليّ لعلك تعرفني. فنظر ولكن بصره قد ضعف فلم يتبيني فقلت له: أنا فلان. فذكرني

ودعا لي وترحّم على أبي. وأوصلته إلى باب القاعة حتى خرج، ولا يزال منظر دموعه وهي تقطر من لحيته التي كانت يوماً شقراء فصارت بيضاء مثل الثلج. منظراً لست أنساه وأحمد الله عليه.

ولم تمض إلا أيام حتى جاءني من يخبرني أن أستاذنا سعيد البحرة قد توفي، وأن داره قريبة من المحكمة، وأن الناس على عادة أهل الشام يجتمعون في بيت من بيوت الجيران للاستعداد لتشييع الجنازة، وكذلك كنا. كنا إذا كان فرح، أو كانت مصيبة فالفرح فرح أهل الحارة جميعاً، والمصيبة مصيبتهم جميعاً، يفتحون أبوابهم ويقدمون ما عندهم، مشاركة في الفرح أو مواساة في الألم.

لم أكن أحضر مثل هذه الاجتماعات ولكنه أستاذنا، كان يدرس الفلسفة ولم أقرأ عليه إلا مدة قصيرة جداً، لذلك ذهبت فأجلسوني في صدر القاعة وحفّوا بي إكراماً للمنصب لا لشخصي، لأن لمنصب القضاء عند الناس حرمة ليست لغيره من المناصب، وكان الناس يدخلون ويخرجون، فنظرت فإذا بين الداخلين الأستاذ شريف أقبيق، وهو مديرنا الثاني في المدرسة السلطانية، لما كان الأستاذ سعيد مراد مديرنا الأول، فقمت إليه فقبّلت يده على عادتنا في تلك الأيام. كان فيها الصغار يقبلون أيدي الكبار، يحترمون مدرسيهم وأولي الفضل فيهم، وعزمت عليه إلاّ أن يجلس في مكاني وقلت للحاضرين: هذا أستاذي، ومهما علا المرء، أو اغتنى، أو ارتفع قدره، فإنه يبقى أمام أستاذه صغيراً، كما كان من قبل ولداً صغيراً. وكان لذلك أطيب الأثر في نفسه.

* * *

ولست أحصي الآن من قرأت عليه، أو جلست بين يديه، أو استفدت منه فإنهم كثيرون لا يحصون، ولكنها ذكريات، أذكر ما حضرني منها، وما دعت المناسبة إلى ذكره. ومن ذكرته لا أؤرخ هنا لحياته، ولا أتتبع أخباره، ولا أجمع آثاره، فلست في مقام المؤرخ، ولكني في موضع من يتذكر.

وكان في دمشق مجلس الشيوخ، لست أعني مجلس الشيوخ الذي يكون في البرلمانات. فما هذا بمجلس له سلطان، ولا له صفة رسمية، ولكنه مجلس يضم جماعة من أجلّ شيوخ البلد، ولا يقبل فيه إلا من جاوز الستين من العمر،

فكان فيه جِلّة العلماء، وكان فيه من كبار الموظفين الإداريين، وكان فيه من الوجهاء الذين لهم في تاريخ البلد ذكر، ولهم في إصلاحه أثر.

أذكر منهم ـ ولست أحصيهم ـ: الشيخ عبد القادر المغربي، والأستاذ محمد كرد علي، وفارس الخوري، وبديع المؤيد، ومحمود الصباغ، والرئيس هاشم بك الأتاسي، وجماعة كثيرون لا تحضرني الآن أسماؤهم، ولكن في ذهني الكثير من أخبارهم، ومنهم من سأعود إلى الكلام عنه إن شاء الله كلاماً مفصلاً.

ما كنت عضواً في هذا المجلس، ولكن كنت المراقب الثاني. أما المراقب الأول فهو الأستاذ جودة المارديني، كنت أحضره مستأذناً منهم لأدوّن ما أسمع فيه من أخبارهم، ومن ذكرياتهم، ومن أخبار البلد التي لا أجدها إلا عندهم، ولكني وهذا من نقائصي لم أكتب شيئاً من ذلك، بل استودعته ذاكرتي.

وكانت ذاكرة وفية، وكانت قوية، وكانت لا تضيع أمانة ائتمنتها عليها، ولا تضعف عن حملها فأضعفتها الأيام، فلم يبق مما حوت إلا القليل. وهذا القليل هو الذي أضعه في هذه الصفحات.

الشيخ أمجد الزهاوي

لما كنا صغاراً كان شيوخنا أحسن الله إليهم، يبعدوننا عن كل ما يفسد ملكتنا الأدبية أو يدخل العجمة والضعف على أساليبنا، لذلك لم أقرأ قصص «ألف ليلة» حتى كبرت وصلب عودي، واشتد ساعدي، فلما قرأتها وجدت شهرزاد «كلما أدركها الصباح سكتت عن الكلام المباح».

فإذا انقضى النهار، ودجا الليل، عادت فوصلت ما كانت قد قطعت، ومشت من حيث وقفت.

وأنا اليوم مثل شهرزاد، مثلها في حديثها ومقالهـا، لا في حسنها وجمالها.

قطعت الحديث في الحلقة الماضية لما صعد المنبر الشاب العراقي الموصلي، وفارقتكم قبل أن أسميه لكم.

فاعلموا الآن أن اسمه محمد محمود الصواف.

ولقد عرفتم أني أقمت في العراق سنين مدرساً فيها، من سنة ١٩٣٦ أتنقل ما بين البصرة في أقصى الجنوب، إلى كركوك في الشمال، ولكني لم ألق الصواف ولم أسمع به. وأنى لي لقاؤه أو معرفة اسمه، وقد كان طالباً يمشي مع الآلاف والآلاف من أمثاله، في طريق بعيد عن أضواء الشهرة، ثم تفجرت مناقبه رأساً، فذهب إلى مصر طالباً، ولم يكن في سن الطلاب، بل كان كبيراً، أحسب أنه كان في الثلاثين من عمره، وقد أودع الله صدره من الحماسة نبعاً لا يغيض.

وكل امرىء يأتي عليه حين من زمانه تتفجر فيه حماسته ثم تهدأ، كالبركان يثور ثم يخمد، والريح تهب ثم تركد. والصواف بركان ظل أبداً نشطاً عاملاً. لقد بلغ الآن السبعين ولو حاول أن يصبغ لحيته، وأن يستر شيبته، ولا يزال إن كلمك تورد وجهه، وعلا صوته وهدرت كلماته، وظهرت حماسته. وأنا من هذا القبيل ولكن حماستي كانت لهباً طويل اللسان ظاهراً للعيان، فصارت ناراً بطيئة كمثل الفحم الحجري، وربما كانت نار الفحم الحجري أشد حراً، وأطول عمراً، ولكن لا لهب لها. فإن ألقت فيها الأحداث وما أكثر أحداث الدنيا، رشة من البارود الناعم صارت قنبلة.

أما أثره في العراق فأرجو أن لا يكون حديثي الذي سأتحدث به سبباً في نقص ثوابه من الله الذي عمل له وحده، وما أظن أنه طلب جزاء إلا منه وحده، وأنا إن مدحته فما أمدحه رغبة، وليس عنده شيء أرغب فيه، ولا رهبة وما لديه ما أرهبه أو أخافه منه، لذلك كان مدحي إياه، أو مدحي غيره، لله. كما أن نقدي ـ إن نقدت أحداً ـ لله، لا نفع لي أرجوه من الأول، ولا خطر عليّ أخشاه من الثاني.

ولو نظمت ديواناً في مدح إنسان وهو حي، أو ديواناً في رثائه وهو ميت، لما نفعه ذلك ولا ضره، ولعمل مثقال ذرة من الخير وترك مثقال ذرة من الشر أجدى على الإنسان وأرجح في الميزان من ذلك كله.

بل أنا قد رثيته فعلاً لما شاع أنه قتل.. أيام حكم عبد الكريم قاسم. وألفوا في قصة قتله رواية لو أخرجت فيلماً لكانت من أخلد المآسي الأدبية. وكان لي يومئذ حديث دائم من إذاعة دمشق فذكرته وعرفت قصة قتله، فلما جئت أقول رحمه الله انعقد لساني، وشرقت بدمعي وغلبني البكاء ونذرت زوجتي لما رأت جزعي إن كان الخبر مكذوباً أن تذبح لله خروفاً، ثم تبين كذب الخبر وذبح الخروف، وأظن أن الصواف ـ شفاه الله ـ سيحس فيدفع لي الآن ثمنه! بل لا أريد، قد سامحته، على أن يذكر لي أني وفرت عليه ثمن الخروف.

وكل هذا سيأتي خبره كما ستقرؤون خبر الجرائد اللبنانية التي كانت

تمشي في ركب الناصرية، وترون عناوينها الكبيرة التي روت قصة «ذبح الشيخ الطنطاوي» يوم الانفصال، يوم ألقيت تلك الكلمة التي لم تبق إذاعة عربية لم تعدها، ولم تكررها. وفي هذه المقالات تفاصيل عن ذبحي لا أدري بأي براعة صحافية استطاعوا الوصول إليها ومعرفتها، وأنا المذبوح لم أعلم بها ولم أعرفها.

* * *

كان في العراق كما كان في الشام وفي مصر، وإن كان الذي في مصر أكبر وأكثر، بل كان في كل بلد إسلامي، علماء كبار، تجل أقدارهم، وترتفع في الناس منازلهم، وتقبل أيديهم، ويطلب دعاؤهم، ولكن أكثرهم على طريقة علماء القرن الماضي.

إنهم مشايخ صالحون يحفظون ما يقرؤون، ويفتون الناس ويعلمونهم ما يحفظون، ولكن لم يكن فيهم إلا قليل جداً من الذين يفكرون فيضيفون جديداً إلى القديم الذي تعلموه وحفظوه، كان العلم عندهم أمانة أدوها كاملة، ما نقصوا منها شيئاً، لكن ما زادوا عليها شيئاً، ولا جددوا فيها، ولا بدلوا طرائقها. والكلام على علماء الأمس وعلماء اليوم ليس هذا موضعه، وربما وجدت موضعه فافضت في الكلام فيه.

كان في العلماء قليل جاؤوا بجديد، استعملوا عقولهم ولم يجعلوا عمدتهم ذاكرتهم، كالشيخ محمد عبده الذي سمعت به ولم أدركه، والسيد رشيد رضا، والشيخ مصطفى المراغي، والسيد الخضر الحسين، والشيخ عبد العزيز جاويش، والشيخ محمود شلتوت. ومثلهم كثير في مصر. وليسوا سواء: منهم من غلب ذكاؤه وفكره على علمه واطلاعه كالشيخ محمد عبده، ومنهم من كان علمه أكثر ولكن لم يبلغ بالذكاء، والتفكير هذا المبلغ كالشيخ رشيد رضا. ومنهم من كان عبقرياً كطنطاوي جوهري، والعبقرية ـ إن رسمت لها خطاً بيانياً كما يقول الرياضيون، أو استحدثت آلة لتخطيطها وتوضيحها كآلة تخطيط القلب في ضرباته ـ لرأيت هذا الخط يعلو كثيراً ويهبط كثيراً، حتى أن العبقرية لتدنو أحياناً من الشذوذ فيختلط بها، ولا يكاد يميز عنها.

وكان في العراق الألوسيان: المفسر المعروف والأديب المصنف صاحب «بلوغ الإرب» الذي كان أستاذ الأثري استفاد منه، وروى عنه، ووقف على طبع كتبه.

* * *

كنت يوماً أحدث الشيخ أمجد الزهاوي عن أيامي في كركوك قبل الحرب الثانية فقال لي: أليس عجيباً أننا كنا نرى ناراً تخرج من بين الصخور، أو صخوراً إذا أدنيت منها لهباً اشتعلت فلم يخطر على بال واحد منها أن يحفر حولها ليرى مصدرها وسرها.

بل إنهم أهملوا عقولهم حتى اعتقدوا أنها نار مقدسة، وسموها باب كركر. وأعجب منه أن الأمم تتقدم ونحن أحياناً نتأخر. أجدادنا كانوا يحاولون دراسة كل ما حولهم، يبحثون عن القانون الإلٓهي الذي يسيره، لا يكتفون بالمراقبة والفكر، بل إنهم يعمدون إلى التجربة ليتبينوا صحة ما يرون هل هو صحيح أم هو من خداع العيون، فسبقوا بذلك الناس إلى العلم التجريبي ونحن نكاد نقدس النفط.

فلما جاء من يتخذ الوسائل، ويعد العدة، وينزل في باطن الأرض بأجهزته وآلاته، وصل إلى مصدر هذه النار فاستخرج النفط الذي أغنى البلاد، وأفاد العباد.

هو الذي قاله الشيخ أمجد ينطبق عليه هو. كان كنزاً مخبوءاً فكشفه الصواف. عاش الشيخ أمجد قاضياً في الموصل فما عرفه أحد ولا عرف أحداً، حتى إذا جاء الشيخ الصواف عرف به الناس واستفاد مما عنده من العلم ومن العبقرية ومن النبوغ. لولا حماسة الصواف لما ظهرت هذه العبقرية المخبوءة. ولولا عبقرية الشيخ ما أثمرت حماسة الصواف، ذلك أنها إذا كادت تخبو النار فنفخت فيها اشتعلت، ولكن إن نفخت في رماد بارد لم يظهر لهب النار.

لقد أعدته حماسة الصواف. أفتحسبون أن العدوى إنما تكون في

الأمراض وحدها؟ لقد قرر خبير من خبراء الجمال اسمه البحتري أن الجمال يعدي كما تعدي الأمراض، أفتحبون أن أقرأ عليكم تقريره العلمي ولو خرجت عن الموضوع؟ بل لقد خرجت فعلاً فسامحوني.

أما الشيخ أمجد وإنني أنقل لكم ما كتبته عنه في حياته بإذنه قرأته عليه قبل نشره.

الشيخ أمجد كان بركة العصر، وإني لا أعـرف في العلماء مثله. استفدت من صحبته فوائد كثيرة في خلقي وفي تفكيري.

عرفت الشيخ أول ما عرفته في دار العلوم (الكلية الشرعية في الأعظمية في بغداد) وكان أستاذاً فيها، وكنت أدرس فيها الأدب وأنام فيها، وذلك سنة ١٩٣٧ أو قريباً منها، ثم تركت العراق وعدت إلى الشام فلم أره إلا في المؤتمر.

ولقد عجبت من هذا النشاط الذي عراه في شيخوخته، في السن التي يخمد فيها عادة في نفوس أهله النشاط، وعهدي به أنه كان قاضياً منعزلاً، منفرداً بكتبه وتلاميذه وأولاده، فلما ترك العمل وبلغ السن التي يستريح فيها أمثاله انتفض انتفاضة فإذا هو يرجع شاباً: شاباً في جسده، وفي همته. وإذا هو ينتقل بقفزة واحدة من حياة بلغ فيها الغاية في العزلة إلى حياة بلغ فيها الغاية في الاختلاط، فكان هو الرئيس لجمعية إنقاذ فلسطين وجمعية الآداب الإسلامية وجمعية الأخوة الإسلامية (أي الإخوان المسلمين) وجمعية التربية الإسلامية، وإذا هو يصلح مدارس الأوقاف، ثم يفتح مدرسة ابتدائية وثانوية أهلية، وإذا هو يرحل إلى الهند أولاً وثانياً، ويرحل مرات ومرات إلى الشام والحجاز ومصر.

لما رأيته في المؤتمر وسلمت عليه وذكرته بنفسي، وقد درست معه في مدرسة واحدة سنة كاملة، قال لي: أنا لا أذكرك، فحسبت ذلك منه تكبراً وترفعاً واعتزازاً بالنفس وتجاهلاً للناس ثم علمت بعد، لما صحبته، أنه كثير النسيان، وأنه صادق لا يعرف المداهنة ولا المجاملة، فإذا كان لا يذكرني فيستحيل أن يقول لي إنه يذكرني، أو أن يجامل فيسكت إيهاماً وتضليلاً.

وقد ينسى من أمور الحياة، القريب منها والبعيد. أما مسائل العلم فهو يذكرها مهما طال المدى، ثم أخذت آلفه ثم أحببته، ثم حل من نفسي من التجلة ومن المحبة محلاً لم يحتله إلا القليل ممن لقيت من فضلاء الرجال.

لما لقيته في المؤتمر بهذه العمامة المشوشة دائماً، التي اتسخت جوانبها من كثرة العرق، واحمرت من صبغ الطربوش، ورأيت ثيابه التي كانت أقرب إلى أن توصف بالرثاثة، ورأيت شعره الذي لم يعرف الحلاقة من شهور، ظننته فقيراً، حتى لقد احتلت فجئته بقميص وبشاش للعمامة، وقدمت المقدمات ليقبلها مني، فلما رأى ذلك ضحك وقال:

ـ أفندي، ظننتني فقيراً؟ أنا أملك ١٦ ألف دونم.

والدونم ألف متر مربع، وعلمت بعد أن له ذلك كله، ولكنه لا يباليه ولا يفكر فيه. ورأيته لما كانت الرحلة قد تركه ومشى في سبيل الله، ولما فاض نهر دجلة وغرقت بغداد كنا في كراتشي، فحاولت مراراً أن أسأل عن مصير أرضه، هل غرقت مع ما غرق أم هي قد سلمت مع ما سلم، فكان يغضب ويقول:

ـ إني خرجت في سبيل الله فلا تشغل ذهني بها!.

وهذا هو الزاهد حقاً، الدنيا ملء يده، ولكن قلبه مملوء بمراقبة الله وذكر الآخرة. كان يأكل الطيبات وينزل في أكبر الفنادق، ويلبس ـ إن وجد ـ الغالي من الثياب، فإن لم يجد الغالي لبس الذي وجده، لا يفرح بهذا الذي أتاه الله فرحاً يطغيه وينسيه دينه، ولا يأسى ولا يحزن إن استرد الله ما أعطى أسى يؤيسه ويقنطه من رحمة ربه.

هذا هو الزهد حقاً، زهد بعض الصحابة والتابعين وبعض الأئمة المتبوعين الذين كانوا يملكون الملايين: عثمان والزبير وابن عوف وأبو حنيفة والليث وابن المبارك، لا زهد الصوفي الذي منع نفسه الفالوذج أربعين سنة لأن نفسه تشتهيه، فعاقبها بمنعه عنها، وهو قادر عليه من الحلال، لأنه زعم أنه يخاف أن لا يؤدي شكره، فقال له الحسن البصري: «يا جاهل، وهل

تستطيع أن تؤدي شكر الماء البارد؟».

كان الشيخ أمجد كنزاً مخبوءاً فكشفه الصواف. كان كتاباً عظيماً مخطوطاً، لا يعرفه الناس فطبعه ونشره الصواف وعرف به الناس.

رأيته لا يبالي طعاماً، إن جئته به أكل من طيباته، وإن لم يجد صبر، فكان لا يقول لشيء منه: هذا طيب، ولا لشيء منه هذا رديء. بل يأكل كل ما يقدم إليه، وكنت أنا على الضد منه، قلما أستطيع أن آكل في هذه الرحلة ما أجد، وطعامي في بلدي ألوان قليلة معدودة، فإذا تبدلت، أو تبدلت طريقة طبخها. لم آكلها، لذلك كنت ألقى من السفر عنتاً، وهو والحمد لله صحيح الجسم، قوي المعدة، فلا يبالي اختلاف ألوانه، ولا تبدل مواعيده. وإن تركته بلا طعام لم يذكر الأكل.

ولقد حسبت ذلك تظاهراً منه، فأحببت مرة أن أختبره وهو لا يدري، لأعلم هل يتجاهل أم هو لا يدري حقيقة، فقلت لغلام الفندق (أي للنادل): الشيخ لا يريد اليوم طعاماً.

فلم يأته بطعام، فلم ينتبه، ولم يسأل. فلما كان موعد العشاء رأيته يقبل على الأكل إقبال جائع، فسألته لماذا لم يتغد قال: لم يأتونا بطعام.

ولما شك في طعام فنادق الهند لأن الدار دار قوم لا يؤمنون بالله ولا بالإسلام، وليست دار أهل كتاب، بقي شهرين اثنين لا يذوق إلا الخبز والشاي، وهو يشكو القبض حتى مرض.

لباسه ما قد رأيتم وسمعتم والمال لا يباليه، والجاه لا يلتفت إليه، وطالما دخلنا على ملوك وأمراء، فكانوا يقدمونه ويمدحونه فلا يستهويه المدح، ولا يؤثر فيه التقديم، لأن همه كله الأمر الذي رحل من أجله وهو «قضية فلسطين».

وأمره في الوضوء والصلاة عجب، فهو موسوس في الطهارة لا في النجاسة. فإذا لم ير النجاسة عياناً لم يبال. لذلك كان يصلي على الأرض، وفي ممر الطيارة، ولكن المصيبة فيما إذا تحقق النجاسة، هناك وسوسته وشكه.

ولطالما كنا على موعد مع ملك أو رئيس جمهورية أو رئيس وزراء، أو في مؤتمر صحافي فكان يخرج ونصف جبته مبتل يقطر منه الماء، فإذا لمته، قال: أفندي تنجست.

وإذا سمع داعي الله، ودخل وقت الصلاة، قام من فوره أينما كان وكيفما كان. فهو يترك المائدة الملوكية والحفلات الرسمية، رأيت هذا منه مراراً على مائدة الملك حسين في عمان، ومائدة رئيس وزراء باكستان، وفي حفلات رسمية عديدة، ويراه شيئاً عادياً، ولا يفكر في مخالفته للعرف، وإن كانت السنة أن يكمل طعامه ثم يقوم للصلاة. ولقد كان عبد الله بن عمر اتبع الناس لسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان يأكل مرة فسمع الأذان والإقامة واستمر يأكل، فلما سئل بين أن هذه هي السنة. ولعل للشيخ دليلاً على ما كان يفعله ويذهب إليه.

وأدركنا رمضان في سفر وفي مناطق استوائية. كنا فوق خط الاستواء تماماً. فلم يفطر رغم الحر والسفر، وإن كان الفطر أفضل.

وهو في الحقيقة رجلان مختلفان: إن جئت للعلم وجدت له ذهناً نفاذاً عجيباً، يخترق كل معضلة علمية، لا بالرأي المقول، بل برأيه هو. ولقد بقيت معه أكثر من سبعة أشهر وكنت أجالسه كل يوم أربع ساعات أو خمساً على الأقل، يتكلم فيها على الغالب وحده. وهذا يزيد إن صح حسابي ـ على ألف ساعة، فما سمعت منه من الأحاديث المعادة أو الآراء المكررة إلا القليل، وربما ذكرت بالمناسبة بعضاً من آرائه في هذه الذكريات.

ولكنه إلى جانب ذلك لا رأي له في المشكلات اليومية، ولا يحاول أن يعالجها، وربما ترك الطريق الواضح المستقيم وسلك الطريق المعوج. لما كنا في كلكتا (وسيأتي تفصيل الخبر) ترددنا بين الذهاب إلى دهلي (لا دلهي) أو الذهاب إلى بومباي قال: إنه لا نفع لنا من دهلي وذهبنا إلى بومباي، ثم نصح له من فيها بالعودة إلى دهلي فعدنا إليها، واضطررنا أن نقطع عرض الهند مرتين، وكانت أقرب إلينا لو قصدناها أولاً.

وأغرب من هذا أنه كان بين دهلي ولاهور مثل قاعدة المثلث المتساوي

الساقين ورأسه كراتشي، فسألته ونحن في دهلي: أنزور لاهور؟ قال: لا. فلما وصلنا كراتشي قال: إلى لاهور، فقلت: أنا لا أذهب إليها، لما كنت قريباً منها فعرضت عليك الذهاب أبيت، أفموكل أنا بفضاء الأرض أذرعه لنعود إليها الآن.

وهو ينقاد فيما لا يعرفه كالطفل. كنا نركب الطيارة فأقول له: شد الحزام فيشده، وأنسى أن أنبهه لحله إذا طارت الطيارة، فيبقى الساعتين والثلاث ساعات وهو مربوط، فيقول: أفندي هذا الحزام: فأفكه له.

ورعه الورع الحق، لا ورع التظاهر والرياء، كان ينفق عن سعة من أموال الجمعية في السفر والفنادق التي يراها ضرورية، ولكنه لا ينفق قرشاً لحلاقة رأسه مثلاً، لأن ذلك ليس من نفقات السفر، ولولا أني أقسمت له مرة أن أدفعها مني ما حلق، لأنه لم يكن يحمل معه مالاً.

وكانت رحلتنا لقضية فلسطين، فإن لم يكن للقضية مصلحة من المقام في بلد لم يقم فيه يوماً، ولم يمش بغير هذا المقصد فيه يوماً، ولم يمش بغير هذا المقصد متراً واحداً، حتى أن (تاج محل) أجمل بناء على ظهر هذه الأرض، لم يره ولم يمكني من أن أراه. وقد كنا في دهلي وهو في أجرا وبيننا وبينه ساعتان بالسيارة، والناس يقصدونه من أقاصي الدنيا، لأنه لا مصلحة للقضية في رؤية تاج محل، وما جاء في كتابي هذا من وصفه الذي قال من كتب عن الكتاب أنه كان وصفاً رائعاً، إنما كتبته على السماع.

وإذا وقف للصلاة، نقى قلبه ونفى عنه كل ما يتصل بالدنيا ثم صرخ: «الله أكبر» فتحس أنها قنبلة ألقيت في وجه الشيطان.

وهو يكره المتفرنجين ويألف المشايخ، يجلس حيث يجلسون على الأرض، ويأكل معهم، وأنا لا أستطيع أن آلف هذا الأسلوب فآكل بأصابعي مثلاً، ولا أسلوب الإفرنج في الولائم الرسمية، وكنت أتضايق في الحالين.

يكره تقليد الإفرنج لكنه يقرأ ما يصل إليه من كتبهم، ويروي النافع من أقوالهم، ويضيق صدره إن حدثته عنهم، أو قلت له ما يشتم منه رائحتهم، لا

سيما فيما لا يعرف من أمورهم.

وهو لا ينتظر تمام الجملة، ولا يرقب الشرح، بل هو يثور بي ويسكتني وأنا رجل أعرف له قدره، وأراعي سنه، ولكن حدة طبعي لا تحتمل ذلك من أحد. فكان يقع بيني وبينه ما يكون بين الولد وأبيه، والتلميذ وأستاذه.

لما وصلنا بومباي تلقانا الرجل الكريم الذي من علينا وهو السيد عبد الله البسام فسألنا: «هل تنزلون في بنسيون؟».

فغضب الشيخ غضباً ما رأيته غضب مثله، وقال: «بنسيون؟ بنسيون؟ يحسب البنسيون ماخوراً أو مكاناً للفسوق، وحاولت أن أشرح له ما هو البنسيون فما تركني أتكلم. وأما ذهوله ونسيانه فعجب من العجب.

قال لي مرة ونحن في بومباي إذهب بنا إلى القنصلية السعودية ثم إلى العراقية فذهبنا فكانت القنصلية العراقية على طريقنا، فقلت له: ندخل هذه أولاً؟ قال: باسم الله. فدخلنا وجلسنا جلسة طويلة، وتحدثنا عن العراق وأهله. ولما خرجنا قال هيا بنا إلى العراقية. قلت: كنا فيها. فغضب وقال: ليش ما تقولي، أنا أحسبها السعودية. قلت أما رأيت العلم؟ وصورة فيصل بن غازي؟ أما حدثتهم عن بغداد؟ ولكنه إلى جنب هذا يذكر من مسائل العلم ما قرأه من ستين سنة، وهو فقيه حنفي متمكن، له مشاركة في كل علم، كان محامياً، ثم صار قاضياً، ثم أمضى عشرين سنة رئيساً لمحكمة التمييز (النقض)، وأستاذاً في كلية الحقوق، ومدرساً في مدرسة قديمة من مدارس الأوقاف، هي المدرسة السليمانية، فلما منع القانون الجمع بين الوظائف وخير بينها اختار التدريس في المدرسة الوقفية الصغيرة لأنها مدرسة أبيه، ولأن العمل فيها لله وللدار الآخرة، وترك رياسة التمييز.

وكان الشاعر الكافر الزهاوي عمه، ولكنه قاطعه وهجره وأبغضه في الله، ولم يخرج في جنازته لما مات.

هذا هو الرجل الذي كان لي شرف صحبته فكسبت منه علماً وديناً وخلقاً، رحمة الله عليه وأجزل ثوابه.

أنور العطّار شاعر الحبّ والألم والطّبيعة

هذه حلقة مفردة ليست منظومة في العقد، بل إنها الفصل الذي يأتي بين فصول الرواية (انتراكت) فسامحوني إن أخللت بسردها، وأعدكم أنني سأعود إليها.

أخذت جريدة «الشرق الأوسط» يوم الأربعاء ١٤٠٥/٦/١، فوجدت اثنين من بلدي، هفا إليهما قلبي، وأضرما ـ وما خمدت ـ لواعج الشوق إليه في صدري، وضمخا بالعطر كل ما حولي، فملأ الطيب مجلسي، وكيف لا، وهما عطار يكتب عنه عطري.

فكأنني انتقلت معهما إلى الغوطة في أذار، وقد كللت هام الأشجار فيها الأزهار، وغنت على أفنانها الأطيار، وأين مني تلك الديار؟ أين مني الغوطة ـ يا أسفي على الغوطة ـ. لقد قطعوا شجرها، وبددوا زهرها وثمرها، وأقاموا عليها مقابر كبيرة للأحياء من البشر، لا تختلف عن القبور إلا بأنها طبقات فوق طبقات، وأن لها منافذ يدخل منها الضياء كما تدخل منها شياطين الإثم، إذ تكشف سر الجار للجار، حتى يراه في مخدعه مع أهله!.

فيا أيها الأستاذ عبد الغني العطري لك الشكر.

لقد أحييت في نفسي طرفاً من ماضي الذي حسبته مات، حين أثنيت على أنور، ولا ترجو على الثناء جزاء ولا شكراً، إنما هو الوفاء، وما أقل في الناس الأوفياء.

لقد صحبت في طريق الدراسة الطويل، ألوفاً من الطلاب، رافقتهم ثم فارقتهم، مشينا معاً في طريق واحد ثم انشعبت بنا الطرق، واشتبكت المسالك، فتفرق الشمل الجميع[1]، وانقضت صحبة المدرسة، أجمل صحبة وأنقاها، وأثبتها على نوب الزمان وأبقاها.

أيـا حبـذا صحبـة المكتب وأحبب بـأيـامـه أحبب

إنها الصداقة المبرأة من شوائب المطامع والمنافع، البعيدة عن المجاملة والمخادعة والنفاق. كنا جميعاً على مقاعد مشابهة، فرفعت الحياة ناساً منا فأعلت منازلتهم، وخفضت ناساً، وتبدلت المقاييس، واضطربت الموازين، فتقدم من كان متأخراً في دروسه، وتأخر من كان متقدماً.

وكم منجب في تلقي الدروس تـلقي الحيـاة فلم يـنجـب
وصـار إلى الفاقـة ابن الغني ولاقى الغـنى ولـد المتـرب
وقـد ذهب المتلي صحـة وصـح السقيم فلم يـذهب

لم يبق معي على الطريق من هؤلاء الألوف إلا إثنان، أنور العطار رحمه الله وسعيد الأفغاني سلمه الله.

وغـاب الرفـاق كأن لم يكن بهم لـك عهـد ولم يصحب
إلى أن فـنـوا ثـلة ثـلة فنـاء السراب عـلى السبسب

يقول الأستاذ عبد الغني العطري أن أنور العطار ظلم نفسه بعزلته وابتعاده عمن في أيديهم مفاتيح الشهرة، يفتحون أبوابها لمن يرونه معهم، يغشى مجالسهم ويغلقونها في وجه من ينأى عنهم.

ولكن هل ترى يا أيها الأستاذ العطري أن هذا من صنع أنور؟ هل طبعي أنا مثلاً من صنعي؟ إن الله كما يخلق الرجل قصيراً أو طويلاً، ولا يد له في طوله وقصره، يجعله مقبلاً على المخالطة أو معرضاً عنها.

وإن كانت عزلة أنور ظلماً منه لنفسه، فماذا تقول عني أنا؟ لقد كان هو

---

(١) (أي المجموع).

الاجتماعي بيننا (أنا وهو) وكنت أنا المتوحد المتفرد. كان ينكر عليّ عزلتي، ويدفعني إلى غشيان مجالس الأدب التي يغشاها، ولقاء أهله الذين يلقاهم، فكنت أستجيب له حيناً، وأتأبى سائر الأحيان.

لقد كتبت مقدمة ديوان أنور «ظلال الأيام» من نحو أربعين سنة (سنة ١٣٦٧) ثم قطع الدهر ما بيني وبينه فابتعدنا قليلاً، كان هو في الشام وكنت في الرياض فلما جاء الرياض، كنت في مكة، ثم زرت دمشق إحدى زياراتي القليلة أيام إقامتي هنا في المملكة، فقابلته في بيته وأخذت لنا صورة، ما كنت أدري يومئذ أنها المقابلة الأخيرة، وأن هذه الصورة ستبقى ذكرية عزيزة لأخ فقدته.

لما كان في مستشفى المواساة في مرض موته كنت أنا إلى جواره، ما يفصلني عنه إلا بضع غرف، وكنت مقيداً إلى سريري، أجرى لي الصديق الدكتور مظهر المهايني عملية ما استطعت بعدها أن أذهب إليه فأراه، ولكن زوجتي زارت زوجته، فخبرتني أنه صار جلداً على عظم، وأنه ليس أنور الذي عرفناه بل هو طيف له على صورته وعلى شكله.

ولما توفاه الله كنت قد خرجت من المستشفى، فمشيت في الجنازة وأنا والله في دنيا غير دنيا الناس، أصحبهم بجسدي وفكري ونفسي مع أنور في أيامنا الخوالي، ثم لما انتهى الدفن، ووقف أهله للتعزية تركتهم وجست خلال المقابر، فقعدت بينها حيث لا يراني أحد، وما معي إلا قبور الموتى من حولي والماضي الذي حسبته مات في خيالي، وعلى يميني من بعيد قبر أبي وأمي، وأمامي من بعيد الحفرة التي ثوي فيها جسد أنور، وكر شريط الذكريات فلم أعد أعرف أين أنا. لا أفكر في المكان الذي أقعد فيه، ولا في الزمان الذي أعيش فيه، لأن صداقتنا ولدت ذات يوم في هذه المقبرة.

هل تحبون أن أكشف لكم طرف الستار عن هذه القصة الطويلة، التي عشتها معه وعاشها معي؟.

لا بد إذن أن أعيد عليكم بعض ما كتبت في مقدمة الديوان، إنه فلم طويل، فلم حافل بكل جميل ونبيل، يمر بك في لحظات وقد تصرمت في تأليفه

وإخراجه خمسون سنة. فلم كنا نحن أبطاله، وكنا نحن ممثليه، فصرنا نرى فصوله تعرض علينا من بعيد.

الفصل الأول من هذا الفلم في مكتب عنبر في أعقاب الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩٢٣). عندما أبصرت أنور العطار أول مرة، أبصرت فيه تلميذاً رقيق العود، دقيق الملامح، أنيق المظهر، من غير أن يبدو عليه أثر الغنى. شارد النظرات، يمر في ظلال الجدران، خفيف الوطء حالم الخطى، كأنه طيف يمر على خيال نائم، يعتزل التلاميذ لا يثب وثبهم، ولا يلعب لعبهم، فسألت عنه من يعرفه فقال: هذا تلميذ شاعر اسمه أنور العطار.

وما كنت أؤمن يومئذ بغير شعراء الجاهلية والشعراء الإسلاميين، ولا أرضى لنفسي أن أقرأ شعر المتنبي، ولا يرضى لي ذلك مشايخي، لئلا تفسد - كما قالوا - ملكتي. ولم أسمع باسم شوقي، فما لي ولهذا الشاعر الذي اسمه أنور العطار؟ لذلك ما طلبت صحبته، ولا ظننت أنه سيكون بيني وبينه اتصال، حتى كانت تلك المصادفة المسعدة التي كان لها في حياتي أنا، وفي حياته هو، أبلغ الأثر.

كانت هذه المصادفة على باب المدرسة (البادرائية) في ليلة من ليـالي رمضان، كنت داخلاً إليها، فوجدت أنور خارجاً منها، فوقف يحييني ووقفت أحييه، وكلمني وكلمته، واتصل الحديث نحن قيام تحت مصباح الشارع، حتى جاء ذكر شوقي فأنشدني قصيدة له، قرأها بصوت عذب حالم حنون، فأحسست أنه كان يمس بكل كلمة من القصيدة حبة القلب مني، فأحببت شوقي وأحببته. وأنت تلقى المرء أول مرة فتحس بأنك تحبه أو أنك تكرهه، لا تدري لحبك ولا لكرهك سبباً.

سر ركبه الله في نفس الإنسان. وفهمت منه أنه يسكن في حارة تجاور الحارة التي أسكن فيها، فاصطحبنا، وذكرت موت والدي في تلك الأيام فحدثني عن موت والده وهو صغير. وجعلنا طريقنا على مقبرة الدحداح، والطريق منها إلى حارتنا أقصر، وهنالك على قبر أبيه وعلى قبر أبي، ولدت هذه الصداقة التي أثمرت شعراً ونثراً، وحباً وإخلاصاً، وكانت من أخلص الصداقات، وإن لم

تخل من منغصات، شأن الناس في هذه الحياة.

وهنالك في مدينة الأموات ولدت هذه المودة التي لم يستطع أن يعدو عليها الموت، لأنها محصنة منه، ولأن الأدب أكسبها الخلود.

وكرت فصول الفلم تتوالى، فرأيتني قد غدوت صديقه وغدا صديقي، يبثني شكاته وأبثه شكاتي، ويجد في حياتي مشابه من حياته، وأجد في حياته مشابه من حياتي، ألف بيننا اليتم، وأننا كنا مستورين على حالة هي فوق الفقر ودون الغنى.. حتى كأني هو، وكأنه أنا.

وصار يسمعني شعره فأجد بواكير شاعر متمكن، لا محاولات طالب مبتدىء، وأجد في هذه البواكير قوة في التعبير، وجدة في التفكير، وأبياتاً سائرة وصوراً رائعة، يرسلها تترى (أي متتابعة) يستقيها من معين ثابت لا ينضب، وكنت بطول ما نظرت في كتب الأدب، وألفت من آثار البلغاء، أستطيع ـ على صغري ـ أن أميز الذهب الخالص من الكلام، من النحاس المطلي بماء الذهب.

واستقبلت فيه العربية شاعراً جديداً ملهماً، وفتح له ولإخوانه الثلاثة جميل سلطان، وزكي المحاسني، وأبو سلمى عبد الكريم الكرمي، وكلهم رفاقنا في المدرسة، فتح لهم أستاذنا محمد كرد علي أبواب المجمع، فأقام لهم حفلة تكريمية أنشد فيها أنور العطار قصيدته «الشاعر» التي رويتها من قبل، والتي أشار إليها وأثنى عليها الأستاذ العمري.

وكانت هذه الحفلة سنة ١٣٤٦ هـ ونشرت قصيدته في «الحديقة» التي كان يصدرها خالي محب الدين الخطيب في تلك السنة.

وشعر أنور في تلك الفترة آهات أبدعها الفن صوراً، ودموع صاغها البيان شعراً، ومقطعات حلوة ما أدري ما الذي زهد الشاعر فيها فلم يثبت منها في ديوانه «ظلال الأيام» إلا مقطوعة «الحمامة».

ورأيت فصول الفلم تتوالى، أبصر فيها كل دقيق وجليل من حياتي وحياة أخي في الصغر وفي الكبر، ورفيقي في السفر وفي الحضر، وأنيسي في المسرة وفي الكدر، أنور، رحمة الله على روح أنور.

رأيت أيامنا في المدرسة ونحن تلاميذ نعيش من الأدب في دنيا الخيال، إذ أعجزتنا دنيا الواقع أن نجد فيها ما نصبو إليه ونتمناه، لا نصدق متى ينقضي النهار حتى نفر إلى كتب الأدب، لنقرأ كل بارع من القول، ونتدارس كل رائع من البيان.

ورأيتنا وقد فرقت الأيام بيننا قليلاً، فاشتغلت أنا بالصحافة، وغامرت في السياسة، وآثر أنور التعليم فكان مدير المدرسة الأولية في منين[1]، في هذه القرية النائمة في حجر القلمون الأدنى، ترى مواكب الأحلام بأجمل «عين» وأشدها سحراً وأكثرها فتوناً: عين منين. من لم ير عين منين، ما عرف سحر العيون، ولا رأى جمال الينابيع، ولا رشف راح الجمال على مائدة الكون.. فكنت أزوره فأقضي ليلة أو ليلتين في جنة قد جمعت فيها النعم، أسكر سكرين: سكر الجمال، وسكر البيان، وأخضع فيها لسحرين: سحر الطبيعة وسحر الشعر. وأجمع فيها الماضي البهي ذكرى حلوة، والآتي الشهي أملا مرجى في حاضر ضاع في نشوة اللذة، حتى لم يبق لنا منه حاضر نحسه وندركه. نقضي الأصباح نستمع إلى أشعار السواقي المتحدرة من الينبوع وأشعار أنور، ونقطع الأماسي عند الصخور التي أفضنا عليها من الحياة من قلوبنا، فصارت تحنو علينا، وتولينا الحب. وأرقنا عليها البيان، فأمست تحدثنا: تتلو علينا أحاديث الغابرين، وتقص قصص الأفلام، من غسان[2] أصحاب المجد المؤثل، فنحس كأن قد عاد الماضي، ورجعت «القصور البلق» عامرة، ويعث المجد وعاش الحب، حتى لكأننا نسمع همس العشاق، وآهات نشواتهم، ووسوسة قبلاتهم، ونرى خيالات العناق من وراء الستار.

أيام سعدنا بها، وما سعدنا بالصخر ولا بالماء، ولكن بأحلام الشباب، رحمة الله على تلك الأيام.

---

(١) منين: إحدى القرى القريبة من دمشق.

(٢) غسان: الذي ينسب إليه الغسانيون والغساسنة ليس رجلاً ولكنه نبع ماء نزلوا عليه وموضعه في جبل الدروز عند قرية سلطان باشا الأطرش.

ورأيتنا وقد صرت أنا معلماً في الجبل من دمشق، في المهاجرين، وصار هو معلماً في السفح في الصالحية. فكنا نرتقب المساء ارتقاباً، فإذا حل انحدرت أنا من هنا وانحدر هو من هناك، حتى نلتقي عند العفيف[٣] نفرح بهذا اللقاء، فرح حبيبين التقيا بعد طول فراق.

ورأيت أيام العراق زهرة أيامنا، أنا وأنور، وزينتها أيام بغداد. (وقد حدثتكم عني وعنه وعن بغداد) كانت أيام بغداد أجدى الأيام على أنور، ففيها اختزن في نفسه أجمل الصور، وفيها نظم أروع القصائد، وفيها ابتدأ في حياة الشاعر عهد جديد، هو عهد القومية وشعر الحماسة الوطنية، فازدادت بذلك هذه القيثارة وتراً جديداً، خرجت منه أطيب النغمات.

ماذا أصف؟ وعم أتكلم؟ وكيف أستطيع أن أجمع في كلمات دنيا من العواطف، وعالماً من الذكريات، وآلافاً مؤلفة من المشاعر كانت أثبت من الزمان، لأنها بقيت وقد ذهب الزمان، وكانت أجمل من العمر لأنها هي جمال العمر.

رأيت هذا كله، وما هذا إلا تلخيص لحياة أنور، الشاعر الذي عاش حياته كلها كما يعيش الشعراء الخلد الملهمون، شعراء القلب والروح واللسان، لا شعراء الألفاظ والبيان، الشاعر في قلبه المتفتح أبداً للجمال، المترع بالخير الممتلىء بالحب. وفي لسانه الذي يفيض أبداً بالجمال، وينفث السحر الحلال.

وفي هذا التلخيص تحليل لشاعرية أنور، فإذا أخذتم عليه أنه كان حليف الحزن، صديق الأسى، قد وقف شعره على تقديس الألم العبقري، ولا شيء يبعث الأدب العبقري كالألم العبقري كما قال الفريد دي موسى في أبياته المشهورات.

لقد بكى الأحلام الضائعة كما بكى الأوراق المتناثرة في «الخريف» وخلد مظاهر الأسى في النفس وفي الطبيعة. إذا أخذتم عليه ذلك فاعلموا أنه لم يكن يستطيع غيره، وأن الشاعر لا يطبع نفسه كما يشتهي، ولكن يطبعه الله بطابع

---

(٣) العفيف: حي من أحياء دمشق يقع في أدنى سفح جبل قاسيون.

البيئة والزمان، ويكون مشاعره في طفولته، قبل أن يشعر هو ليكون مشاعره كما يريد، ولو استطاع امرؤ أن يصغر فمه أو يجمل أنفه لاستطاع أن يبدل قلبه ويحول عواطفه.

لقد نشأ أنور مثلما نشأت أنا، وفتح عينيه على الدنيا والحرب العالمية الأولى قائمة، ودمشق في أشد أيامها، ومظاهر البؤس والألم في كل مكان: ولد في السنة التي ولدت أنا فيها سنة ١٣٢٧ هـ وقد كبره الأستاذ مؤلف الأعلام، وصغره الأستاذ العطري، وميلاده الحق هو ما قلته.

فلا تلوموا أنور إن كان الحزن طابع شعره، وكان الفرح فيه مثل الفجر الأول، لا يكاد يبدو بياضه في الأفق حتى تبتلعه بقايا الليل، فهذا هو السبب.

ولا تلوموه إن تغزل، فتكلم عن الرؤى والأحلام، وترك الحقائق وعلا إلى سماء الخيال ولم ينزل إلى أرض الواقع، وأنه عمم وجمجم، فلم يكشف ولم يصرح، فإن البيئة التقية التي نشأ فيها أنور لم تكن ترى في الحب إلا ذنباً، على صاحبه أن يستغفر الله منه. فإذا كان في شعراء اليوم من قصر شعره على مخدع الزوجية بغير زواج شرعي، وعلى ما يكون بين المرأة والرجل بغير إذن من الله، وكان شاعر الفسوق والعصيان[1]، فإن شعر أنور كشعر نصيب الشاعر الذي سمي قومه «ليلى» ليتغزل بها.

إن أنور لم يتصل في حياته بفتاة على نحو ما يفعل الشباب، وإنه كان أعف وأشرف من أن يفكر في هذا أو أن يحاوله. وأنا أقول ما أقول عن معرفة به: أعرف عنه أكثر مما يعرف عنه ولده الذي انبثق من صلبه.

ولا تأخذوا على أنور أنه حبس نفسه في هذه الدائرة الضيقة، وقصر عليها شعره، ولم يخرج إلى الفضاء الأرحب، ولم يعرف في الدنيا الواسعة التي يعيش فيها أكثر الشعراء والناس. فإن أنور أمضى صباه كما أمضيت صباي في عالم ضيق، كانت حدوده تلك المسالك الملتوية الموصلة إلى مكتب عنبر، وتلك الساقية الصغيرة التي كتبت عنها في مجلة «الرسالة» من اثنتين وخمسين سنة،

---

(١) يأخذهما جزافاً، بلا وزن ولا (قبان).

فارجعوا إليها لتقرأوها، وذلك الطريق الموحل الذي كان ينتهي عنده العمران، ويبدأ منه عالم الظلام والفزع واللصوص، والذي كان اسمه قفا الدور وكان نهاية البلد، فصار الآن شارع بغداد، وصار في وسط البلد.

إن أنور يخشى أن يفارق عالمه الشعري الذي أحبه، أو يتجاوز حدوده، كما كان يخشى من قبل، وأخشى أنا، أن نتجاوز قفا الدور أو نتخطى مكتب عنبر.

ولكن عالم أنور الشعري واسع على ضيقه، لأنه عالم القلب: إن لم يمتد على وجه الأرض فإنه يمتد في العلاء صعداً، حتى ليتصل شعره أحياناً بالدين، والإيمان ذروة السمو في هذه الدنيا وقد تضيق على المرء الأرض كلها إن اقتصر عليها، ولا يضيق عليه متر واحد إن سما حتى اتصل بالسماء.

عاش أنور في عهد جد ويقظة، وإقبال على العلم والعمل، وحفظ عشرات القصائد من جياد أشعار العرب، فجاء أسلوبه كالماء الصافي: فيه عذوبة ولين، وفيه إن تدفق قوة ومضاء، وكان في شعره أثر الجد ومؤهلات الخلود، لا كأشعار أصحاب المناسبات، وطالبي إعجاب العوام. وكان نسجه كالحرير المتين المصوف المنقوش النقش البارع، لا كالنسج الرخيص الذي يتمزق من الشد، وتذهب ألوانه من رؤية الشمس.

ما مشى أنور على الطريق الذي فتحه له من قبله من الشعراء، بل على طريق شقه هو لمن بعده من الشعراء. كان أنور إمام جماعة الشباب، ولم يكن مؤتماً تابعاً، ولولا نفس من شعر شوقي في مثل قصيدته «ليل الحزين» من بواكيره، وروح من الأدب الفرنسي في بعضها، لقلت بأن أنور لم يقلد في أسلوبه أحداً أبداً. وهل لشاعر مثل الذي لأنور في وصف الطبيعة، وفي وصف البلدان، وفي وصف الرؤى والأحلام، حتى يقلده أنور؟.

* * *

لقد قلت يومئذ في مقدمة الديوان، إنه ديوان الوفاء للعربية: نخل مفرداتها فاختار أطيبها، وعرض أساليبها فاصطفى أحلاها. وديوان الوفاء

لأقطارها: جرى بردى منذ الأزل، وقام لبنان، فهل قال شاعر في بردى مثل الذي قال أنور؟ هل نظم في لبنان مثل ما نظم؟ هل يعرف القارىء في الشعر الحديث قصيدة في وصف الطبيعة أعظم من «لبنان» التي اشتمل عليها هذا الديوان؟.

أنا لا أبالغ ولا أغالي، وهذا الشعر الحديث بين أيدي الناس، فمن عرف أعظم منها فليقل.

ولكن «المعاصرة» حرمان، وأزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه، وستمحص السنون هذا الشعر وهذا النثر، الذي يلقى بين أيدي الناس، فتميز الجوهر من الزجاج، والذهب من النحاس، وهنالك بعد أن يذهب الرجال، وتنقطع الصداقات والعداوات ولا ينفع إلا الأدب الذي يستحق الخلود، يومئذ تعرف قيمة قصيدة «لبنان» وقصيدة «بردى»، وهنالك بعد أن يعدو النسيان على أسماء كثيرة تملأ اليوم الأسماع، وتشغل الناس، يحتل اسم أنور العطار مكانه مع أسماء الشعراء الخالدين..

هذا كلام قلته أكثر من أربعين سنة فإن لم يأت ذلك اليوم فلا بد أنه آت.

كنا نعد الشعراء الكبار في دمشق أربعة هم: خير الدين الزركلي ومحمد البزم، وخليل مردم بك وشفيق جبري، وكان أصحاب الصحف يبدلون المقاييس فيقدمون من يرونه هم أحق بالتقدير، فيعرف الناس اسمه، ويقرؤون شعره، ويهملون غيره، فلما هدأت هذه الضجة وانطفأت هذه القناديل، وسطعت شمس الحقيقة، احتل كل مكانه الذي يستحقه. وكان شعراء الشباب من رفاقنا أربعة هم الذين كرمهم الأستاذ كرد علي رحمة الله عليه وعليهم، خليفة الشيخ طاهر الجزائري في تشجيع الناشئين، والأخذ بأيدي المبتدئين. وكان أنور العطار أشعرهم، إن لم يكن أوسعهم أفقاً، وأكثرهم تنويعاً، فهو أجودهم ديباجة، وأحلاهم أسلوباً، وأحسب أنه سيكون أبقاهم ذكراً.

وبعد، فالشكر للأستاذ نجدة فتحي صفوة الذي أعاد لنا ذكرى أنور

العطار وما نسيناه، والشكر للأستاذ عبد الغني العطري الذي دفعني إلى نشر هذا الكلام.

إن الساعة إنما تسير عقاربها، وتحركها حركتها هـذه الملوبات[1] أي اللوالب، وكان عندنا جماعة هم ملوبات (أي لوالب) الحركة الأدبية في دمشق يدركون خامدها، ويسيلون جامدها، ويبعثون اليقظة فيها، وكان منهم الأستاذ عبد الغني العطري.

أعتذر للقراء إن قطعت سلسلة الكلام عن رحلة الشرق وتكلمت عن أنور العطار، رحمه الله، وأعدهم أنني سأعود في الحلقة المقبلة من السلسلة.

---

(١) الملوب: على وزن مكرم وهو ما يسميه الناس باللولب.

الفهـــرس

